
رواية
دار العين للنشر
مدونة أبو عبدو
أحمد صبرة
المغامر

المغامر

المغامر

رواية

أحمد صبرة

الطبعة الأولى / ١٤٣٥هـ، ٢٠١٤م



دار العين للنشر
٤ ممر بهلر - قصر النيل - القاهرة
تليفون: ٢٣٩٦٢٤٧٥، فاكس: ٢٣٩٦٢٤٧٦
E-mail: elainpublishing@gmail.com

الغلاف: صابرين مهران

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ١٤٨٦٩ /٢٠١٤
I.S.B.N 978 - 977 - 490 - 290 - 1

المغامر

روايــة

أحمد صبرة

دار العين للنشر



بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشيءون الفنية

صبرة، أحمد.

المغامر: رواية/ أحمد صبرة.

الإسكندرية: دار العين للنشر، ٢٠١٤

ص؛ سم.

تدمك: ٩٧٨ ٩٧٧ ٤٩٠ ٢٩٠ ١

١- القصص العربية

أ- العنوان

٨١٣

رقم الإيداع/ ١٤٨٦٩ / ٢٠١٤

الإهـداء

إلى أخي محمود
الذي رحل فجأة
وترك في قلوبنا حزناً لا ينقضي

في البدء كان الإنسان........

وفي المنتـهى

القسم الأول

التكوين

الفصل الأول

"أين راح البرص؟"

تطلع خليل إلى الشق الممتد في جدار الحجرة من أعلى الجانب الأيمن متجها إلى أسفل الجانب الأيسر، لكنه لسبب ما توقف في منتصف الطريق، بدا الشق في جزئه الأعلى واسعا قليلا، ثم أخذ يضيق حتى يلتحم تماما في منتصف الجدار تقريبا. ربما استطاع البرص أن يدخل في هذا الشق، لكن كيف قدر أن يعبر كل المسافة من جانب الجدار الأيسر حتى جانبه الأيمن في ثوان؟ لله في خلقه شؤون. انشغال خليل بحركات البرص أنساه قليلا تعب اليوم الذي قارب على نهايته، كما أنساه زوجته رتيبة التي تعاني من آلام

المخاض في الحجرة المجاورة. كان صراخها يرتفع أحيانا فيحجب ضوضاء الشارع المزدحم والقابلة تستحثها على أن تضغط أكثر، ثم ينخفض الصوت أحيانا أخرى فيتحول إلى بكاء مكتوم تصله منه نهنهات ورجاء إلى الله أن ينتهي كل هذا العذاب.

بحث خليل في جيب سرواله الممزق عن كسرة الخبز التي وجدها في نهاية شارع المغربلين، فامتدت إليها يده بسرعة وأخفاها في جيبه قبل أن تصل إليها أيد أخرى تبحث مثله عن طعام في أكوام الزبالة المنتشرة في القاهرة، احتفظ بكسرة الخبز لابنته شَحته. فكر في لحظات أن يأكلها هو حين وصل به الجوع إلى الإعياء الكامل، لكن الله سلم. وجد بقايا طبيخ بجوار أحد قصور المماليك المجاورة لسور القلعة، التهمها بسرعة متطلعا حوله خشية أن يظهر كلب ضال أو شخص مثله يبحث عن طعام، ومتجاهلا عفن الطبيخ ورائحته الكريهة. عاد إلى البيت فوجد رتيبة على وشك الولادة، ولم يجد ابنته. سأل عنها فأخبرته إحدى الجارات أنها عند "بربرة" جارتهم في الحجرة التالية، وحين ذهب إليها وجدها نائمة في حجرة بربرة مع بناتها. كان زوجها قد عاد قبل فترة ومعه طعام أعطاه له أحد المحسنين بجوار الجامع الأزهر، عاد به إلى أولاده. أكلوا وأكلت معهم شَحته ونامت.

البيت الذي يسكن فيه خليل مكون من عشر حجرات، بعض

الأسر يسكن حجرة واحدة مثل خليل وخميس زوج بربرة، وبعض آخر يسكن حجرتين مثل الأسطى عكاشة مبيض النحاس مع أولاده التسعة، وسلامة الصياد الذي أصرت زوجته على أن يكون لها حجرة تقضي فيها النهار بعيدا عن حجرة النوم، وهذه الحجرة كانت تجمع النسوة الدائم حين يغيب الأزواج كل في شانه.

خليل ليس شحاذا، وإن كانت ملابسه أكثر رثاثة من الشحاذين الذين يظهرون في الأيام العادية، لكنه الفيضان الذي لم يأت، إنما أتى بدلا منه الجفاف الذي ضرب مصر وأهلها، وعصر حتى أمعاءهم فلم يبق فيها ما يمكن إخراجه. يعمل خليل في دكان عطارة بالغورية، لكن صاحب العمل أغلق دكانه وسرح العاملين اللذين كانا يتوليان أموره. كان خليل أحدهما.

أُذِن لصلاة المغرب، وصل إليه صوت المؤذن واهنا ضعيفا، "لعله يعاني مثلما أعاني أنا الآن". لم يتحرك خليل من مكانه، ولا كان في مقدوره أن يذهب إلى المسجد لأداء الصلاة. ولا كان راغبا في أن يصلي أصلا. "أنا لا اريد الجنة التي سادخلها بعد أن أموت، اريد أن أعيش جنتي في هذه الدنيا. لماذا يعطي الله أناسا حتى التخمة، ويمنع عن آخرين حتى الموت؟ إذا كان هذا ابتلاء من الله، فانا أريد أن أبتلى بالنعمة." استعاذ بالله من الشيطان، لكن الشيطان كان جاثما بأنفاسه، يرى بعيني خليل، ويسمع بأذنيه، ويغلق عليه العالم فلا يقدر على الإفلات منه.

تعالت صرخات زوجته، كان جالسا في الحجرة المجاورة لحجرته، خرج صاحبها من بضعة أيام، لكنه لم يعد، قيل إنه مات في شجار على طعام، وقيل بل داست عليه خيول عساكر القليونجية في أثناء عربدتهم في الأسواق. صاحب البيت آثر أن ينتظر قليلا حتى يأتي خبر يقين عن هذا الرجل، بعد ذلك سيؤجرها لمستأجر جديد.

الظلام بدأ يتكاثف، والصراخ أخذ يتوالى دون انقطاع كبير، وهو جالس في هذه الحجرة المظلمة ينتظر، لا يدري ماذا؟ لا كان يريد هذا المولود القادم، ولا كان هذا هو الوقت المناسب لقدومه. لكنها مشيئة الله أو إرادة الشيطان لا يدري. فكر أكثر من مرة أن يخرج إلى الفضاء الرحب حيث يشم نسمة هواء نقية بعيدا عن رائحة الغرفة العطنة، بل بعيدا عن رائحة البيت كله. وجوده أو عدمه لن يحدث فارقا كبيرا مع حالة زوجته. جاراتها معها في الحجرة، وبعض قريباتها اللاتي كن في استطاعتهن الحضور للقيام بالواجب. مع ذلك لم يخرج، ظل قابعا في مكانه ينتظر. أضيئت بعض قناديل الزيت الهزيلة في حوش البيت، وفي بعض الحجرات، وأما حجرته هو حيث زوجته، فقد أولتها النسوة الموجودات عناية أشد.

***

داخل غرفته حيث ترقد رتيبة بدا الأمر مختلفا، خمس من النساء

اجتمعن لمساعدة القابلة في أثناء الولادة. زوجة أخيها عيد، وعمتها التي تقاربها في السن، وثلاث جارات لها. لا تكاد الغرفة تختلف كثيرا عن بقية حجرات البيت، شقوق الجدران التي تختلف من حجرة إلى أخرى في شكلها أو حجمها أو ما فيها من حشرات، لكنها في النهاية هي هي. والفراش المتهالك الذي تجتهد كل واحدة منهن في تنظيف ما لديها منه، لكن عوادي الزمن أقوى من أن تدارى. أوقدت بربرة جارتها "الكانون" خارج الحجرة بينما ذهبت آمنة زوجة عكاشة لإحضار إناء إضافي من حجرتها. وضع إناء مملوء بالماء على الكانون، انتظرته زوجة أخيها حتى يسخن، ثم أخذته إلى الداخل واضعة قبل ذلك الإناء الآخر على النار.

القابلة تستحث رتيبة على أن تضغط أكثر. تستجيب رتيبة أحيانا، وتتلوى من الألم أحيانا أخرى فلا تكاد تشعر بما حولها. تضع القابلة يديها في الماء الساخن، تفركهما بشدة، ثم تفتح رجلي رتيبة وتقترب مما بين ركبيها تحاول أن ترى ما إذا كانت الفتحة الموجودة تسمح بنزول المولود أم لا. تتراجع وتخبر النسوة أن الوقت لا يزال مبكرا على الولادة. قطعة قماش حاولت آمنة أن تجعلها نظيفة تمسح بها جبهة رتيبة ووجنتيها، العرق غزير وجو الغرفة خانق بالأنفاس الكثيرة التي تتلاحق فيه. تلقي بربرة بالماء الساخن في فناء البيت وتستبدل آخر به، ثم تحضر الماء الموجود

على الكانون. تكرر القابلة ما قامت به قبل ذلك.

يمر الوقت ببطء، اثنتان من الموجودات بالحجرة انشغلن بحديث جانبي عن الأسعار التي زادت، والسلع التي اختفت، وعما يقال عن أمراء المماليك الذين فروا إلى الصعيد ومنعوا الغلال من الوصول إلى مصر. صراخ رتيبة يعود مرة أخرى، هذه المرة أشد، القابلة تستحثها على أن تضغط أكثر، والماء الساخن يدخل نظيفا إلى الحجرة ويخرج متسخا أكثر من مرة. تستبشر القابلة خيرا، "الفتحة وسعت قليلا" تقول للنسوة معها. ها هي رأس المولود تطل، تدخل يدها اليمنى برفق، وتمسك بالطفل من ظهره، وتسحبه ببطء، وصراخ رتيبة يرتفع إلى عنان السماء. نجحت أخيرا في إخراج الطفل ومعه بقاياه. "بسم الله، ما شاء الله. ولد" هللت النسوة الموجودات في الغرفة، ونظرت رتيبة إلى مولودها الذكر. نظرة جمعت فيها أحزان العالم كله."الحمد لله أولا وآخرا، الله لن ينساه ولن ينسانا" هكذا تمتمت لنفسها، بينما كانت القابلة تنظف جسد المولود من آثار الدماء، وتربط "سرته" وتطلب المقص كي تقطع الجزء المتبقي من الحبل السري. ناولتها زوجة سلامة الصياد المقص، لكنها شمت رائحة "زفارة" فيه، فطلبت من المرأة أن تضعه قليلا في الماء الساخن حتى ينظف، ثم قطعت به الحبل السري. خبطته القابلة برفق على ظهره، فصرخ الطفل مخرجا

أول صوت له في هذه الدنيا، ناولتها بربرة قطعة قماش قديمة لفت بها جسم الطفل، ثم مالت به على رتيبة حيث وضعته بجانبها على السرير المتهالك الذي صنعه لها أخوها عيد النجار من بقايا الخشب في الدكان الذي يعمل به. نظرت إليه رتيبة مرة أخرى، لم تنطق بكلمة، ولم ترد حتى على النسوة اللاتي كن يباركن المولود الجديد. وضعت يدها اليمنى برفق على المولود. ولا أحد يدري في اللحظة ما إذا كانت تحميه أم تحتمي به.

***

الغلالة الترابية الرقيقة التي تغطي القاهرة إذا نظرت إليها من فوق جبل المقطم تعطيك إحساسا بأن المدينة في حالة حرب، وأن هذا الغبار متخلف عن سنابك الخيل التي تصول وتجول في أرض المعركة، غبار يشتد أحيانا ويتكاثف في الأسفل فيصيب الروح بالوهن، ويقتل فيها حب الحياة ويحولها إلى أشلاء روح وبقايا يعربد فيها العفن، ويهيمن عليها الخواء. وحين تنقشع الغلالة الترابية قليلا، ينكشف المشهد عن مدينة تسرح فيها القبور وتسيطر على أنحائها، مدينة لا ترى منها إلا بيوتا كابية مرهقة، وإلا شوارع ضيقة ثعبانية تخنق الشجر والحجر والبشر. لكنك حين تهبط إليها تجد عالما آخر. حين تسير في شوارعها وتخترق ميادينها تكتشف أن هناك حياة وروحا متشبثة بالبقاء. تنزل من المقطم لتتجه إلى

القلعة حيث مقر الحكم والسكن لوالي مصر محمد باشا راقم الذي لا يتولى من مصر إلا القلعة وما فيها ومن فيها. وأما من يحكم مصر فعلا فهم أمراء المماليك الذين يمثلهم الآن علي بك الكبير. تتجول في المنطقة المحيطة بالقلعة، تخترق الدروب والأعطاف والحارات بعيدا عن القلعة قليلا حيث الخلاء الفاصل بينها، ترى وجوها هدها التعب، وأخرى تحملق في الفراغ، وثالثة تتشاغل بحديث تافه، لكنك في سوق السلاح بعد أن تتجه يمينا وتتجاوز جامع السلطان حسن، ثم شمالا مرة أخرى تجد صخبا وجلبة وحركة غير عادية، الأحوال في مصر غير مطمئنة دائما، لكنها في هذا الوقت أشد توترا وعنفا. في الطريق إلى سوق السلاح تلمح حارة النصارى يسارا، وبعد ذلك، بعد أن تمضي قليلا في الاتجاه نفسه، وقبل أن تصل إلى بوابة المتولي الذي تعبره يمينا لتصل إلى الجامع الأزهر الشريف تتناثر بضعة بيوت متهالكة تسكنها الأسر الأشد فقرا في مصر، كان من بينها بيت خليل.

***

يعتقد هؤلاء الثلاثة الجالسون على باب البيت أنه لا يوجد في بر مصر كلها من هو أشد معاناة منهم، أرهقتهم الحرب الدائرة بين أمراء المماليك، على الرغم من أنهم ليسوا جزءا من الصراع الدائر في مصر. خليل ذو الاثنتين والأربعين سنة، تراه فتخاله قد

جاوز الستين، التجاعيد التي غزت وجهه، والبشرة التي لوحتها الشمس فأحالت لونه إلى شيء أقرب إلى خليط من البني والأسود. العروق البارزة حول رقبته وذراعه وظاهر قدمه. لا يكاد رفيقاه يختلفان عنه كثيرا: خميس الذي يعمل في البناء، والأسطى عكاشة مبيض النحاس الذي بارت حرفته هذه الأيام، لم يبق له منها إلا لقب الأسطى. القمر قارب على الاكتمال، والليل قارب على الانتصاف، نحن الآن في ذي القعدة من العام ألف ومئة واثنين وثمانين الذي يوافق التاريخ الجريجوري مارس من العام ألف وسبعمئة وتسع وستين. وهؤلاء الرجال الثلاثة لا يدرون ماذا سيفعلون في الغد. التهنئة التي خرجت من فمي خميس وعكاشة لخليل على المولود الجديد كانت تحمل قدرا من القلق أكثر مما تحمل من البشر والابتهاج:

- ماذا ستسميه يا خليل؟
- سأسميه حسن. حسن كما أرادت رتيبة.
- ماذا ستفعل ياخليل؟ سأله عكاشة مشفقا عليه.
- لا أدري.

اقترح عليه خميس أن يذهب إلى الشيخ العروسي في الجامع الأزهر، الرجل على صلات طيبة ببعض الأمراء وكبار التجار،

ويمكنه أن يساعدك في الظرف الطارئ الذي أنت فيه.

- ما حك جلدك مثل ظفرك، الرجل لن يلتفت إلي وسط هذه المصائب التي تحدث كل يوم، ما أنا إلا واحد بين مئات مثلي.

- لا تيأس من رحمة الله، حاول، يمكن أن يأتي الفرج عن طريق الشيخ. قال له خميس.

- مات ستة من أولادي قبل شَحتة، وأنا ورتيبة نأكل يوما ونجوع أياما، ويأتي هذا المولود ولا أعرف ما إذا كان سيرى نور الشمس غدا أم لا. ثم تقول لي لا تيأس من رحمة الله.

- استغفر الله العظيم، لا تكفر يا رجل.

- لم أكفر يا صاحبي، لكني لا أفهم. هل قتلت برصا قبل ذلك؟ لا تجب. أنا أعرف أنك مغرم بقتلها. حين تضربه، ينقطع جزء من ذيله ويتحرك بعيدا، تنشغل أنت بالبرص نفسه، بينما يتوارى الذيل لينمو ويعود برصا من جديد.

- من قال لك ذلك؟

- سمعته من بعض الزبائن في دكان العطارة.

- جُن خليل يا ناس، أكلمك عن حالتك، فتكلمني عن البرص، ما العلاقة يا بني آدم؟

- لا أدري، لكني أظن أن هناك علاقة لا أعرفها ولا أفهمها.

تدخل عكاشة محولا دفة الحديث المتوتر بين الاثنين، سألهم:

- هل تعرفون حكاية إسماعيل أغا؟

أجابه خميس: من إسماعيل أغا هذا؟

- الظاهر أنه كان جنديا من جنود علي بك، لكنه نفاه إلى وجه بحري لسبب لا أعرفه. الرجل اشتاق إلى زوجته التركية، فعاد سرا إلى مصر، وسكن بناحية الصليبة. ولما علم علي بك بعودته أرسل له واحدا من أتباعه اسمه عبد الرحمن مستحفظان، وأمره بقتله. أنا كنت موجودا هناك، وشاهدت ما فعله عبد الرحمن وأتباعه في هذا الرجل المظلوم. قال لي بعض الناس هناك إن عبد الرحمن لما وصل إلى بيت إسماعيل أغا، وجده أمام بيته، فطلبه، لكن إسماعيل أحس بالغدر، فدخل بسرعة إلى بيته، وأغلقه وطلب من زوجته أن تعمر له البندقية، وظل يضرب عليهم يومين متتالين، وقتل منهم أناسا حتى نفدت ذخيرته.

- عادي جدا، كل يوم تحدث حادثة مثل هذه بين جنود الأمراء في مصر.

- ما راءٍ كمن سمع، كما يقولون. أنا رأيت المشهد الأخير حين

نفدت ذخيرة الرجل، فطالبوه أن يخرج، ويعطوه الأمان. يبدو أن الرجل صدقهم، لكنه حين أطل عليهم من بيته عاجله أحد الأجناد برصاصة في صدره أوقعته على الأرض، والظاهر أنه لم يمت لساعته لأن عبد الرحمن أغا مال عليه وأمسك سيفه، ثم قطع رقبته، ثم أمسك باللحية ووضع الرأس في طبق طافوا به الجهة كلها. والناس تشاهد دون أن يتحرك أحد أو حتى ينطق بكلمة.

قال له خميس منفعلا: ألست أنت واحدا من الناس؟ لماذا لم تتكلم أو تفعل شيئا؟

أجابه عكاشة: عندي أولاد ليس لهم غيري.

الفصل الثاني

جزيرة ثاسوس في بحر إيجة التي تطل عليها مدينة قولة يبدو مشهدها في الصباح ترياقا للسيدة خضرة زوجة إبراهيم أغا قائد الحامية التركية. تحرص خضرة أن تستيقظ مع الفجر لتمارس طقوسها المعتادة في الصلاة وقراءة القرآن والدعاء بأن يحفظ لها مولودها القادم بعد سبعة عشر طفلا لزوجها منها ومن زوجاته الأخريات وجواريه. كلهم ماتوا ولما يبلغ أكبرهم الأعوام الأربعة. تقف خضرة وراء الزجاج في شباك غرفة نومها التي تقع في الطابق الثاني، وتتطلع إلى الجزيرة، وتتأمل شروق الشمس التي لا تراها، ترى فقط أشعتها تسقط على الجبال فتحيل خضرتها الداكنة إلى لون أكثر تفتحا وألقا يمتزج باللون الأصفر الآتي من الشمس.

لا تبتهج خضرة فقط بهذا المرئى، بل يبهجها أيضا الجزء الغربي من الجزيرة الذي لا تطوله أشعة الشمس فتبقى دكنة الاخضرار فيه على حالها كأنه لم يستيقظ بعد. مشهد الألوان في الجزيرة يمتزج بزرقة البحر وزقزقة العصافير التي تحوم في الفضاء، وأصوات السناجب أسفل البيت التي تبحث عن طعامها حول أشجار الصنوبر الملتفة حول البيت. الصبح يتنفس، والعالم يصحو.

في هذا الصباح من شهر مارس من العام الجريجوري ألف وسبع مئة وتسع وستين الموافق لذي القعدة من العام الهجري ألف ومئة وثنتين وثمانين، كان الطقس شديد البرودة، الشتاء يلملم أشياءه بقوة، ويعلن عن رحيله بصخب، المطر غزير والريح عاصف، ومركب صيد صغير تتقاذفها الأمواج على البعد. خضرة حريصة على طقسها اليومي، لكنها في هذا الصباح مثل صباحات أخرى كثيرة قبله كانت تضع شالا صوفيا حول كتفها ورقبتها برغم أن الحجرة دافئة قليلا، لكن الهواء الذي يتسرب من فتحات الشباك الزجاجي الصغيرة يشعرها بالبرد.

بحساب الأيام والشهور، فإن ميعاد الولادة قد أوشك، ربما اليوم أو غدا، وفي كل الأحوال لن يمر هذا الأسبوع إلا وقد وضعت مولودها، هكذا تمتمت لنفسها وهي تستعيد رائحة البحر التي تتسرب من خلال الزجاج. حين سيطر عليها هذا الهاجس بدأ القلق يتسرب إليها والتوتر تزداد شحنته. توتر وقلق انعكس كثيرا على

طريقة تعاملها مع الجاريتين اللتين ابتاعهما زوجها منذ بضعة شهور حين كان في مهمة في الآستانة مع بعض مساعديه.

لا تحب خضرة لجاريتيها أن تستيقظا قبلها، تحب أن تتحرك في فضاء البيت الواسع وحدها في هذا الوقت المبكر من اليوم، وتمتلكه دون منازع. بيت من طابقين وعشرة غرف موزعة بينهما، أربع في الأسفل وست في الأعلى. وأما فرش البيت فإنه موزع بأناقة شديدة على حجرات البيت، أناقة تشي بأن صاحبه أو صاحبته يتمتعان بذوق رفيع. شبابيك الغرف أكثر عددا في الأعلى، بعضها يطل على البحر، والآخر على الحديقة الخلفية. لكن خضرة هذه المرة أصابها الوهن، كثرة الحمل والولادة، ثم موت الأطفال هدها. جعل حركتها بطيئة وردود أفعالها أقل حدة، برغم ذلك لا تغفر خضرة لجاريتها أية هفوة. تعاقبهما أحيانا على نسيان شباك مفتوح، أو مقعد تحرك من مكانه، والسوأة الكبرى أن تدخل المطبخ فتجد شيئا ناقصا. لا تنتظر تفسيرا لشيء رأته فلم يرق لها، ولا تنتظر أن تعرف بالضبط من قامت بهذا الفعل، ومن البريئة. تحب خضرة في هذه الحالة العقاب الجماعي فتوجه لهما سيلا من السباب الذي تفهم منه الجاريتان البائستان عبارات، وتجهلان أخرى، وقد يتطور الأمر معها إلى الضرب بيديها أو بعصا أحضرتها خصيصا للحظات الغضب. زوجها إبراهيم أغا يتدخل كثيرا حين يصادف هذه اللحظات، يدافع عن الجاريتين، ويهدئ من روع زوجته،

وتعرف خضرة جيدا أن لغضبها حدودا إذا كان زوجها حاضرا.

حين خرج إبراهيم أغا هذا الصباح من بيته قاصدا قلعة قولة التي لا تبعد كثيرا لم يكن مشغولا كثيرا بما سوف يلاقيه من مشكلات بين جنوده بقدر ما كان مشغولا بزوجته التي أوشكت على الولادة، وقلقا عليها. من العيب على الرجل أن يبدي هذا القلق على أمر هو من شأن النساء، لكن كيف سيفسر لمساعديه هذا الشرود الذي احتل ملامحه. فكر أن يعرج قليلا على أخيه طوسون الذي لا يبعد بيته كثيرا. لكن الوقت مبكر جدا، أخوه الأقرب إلى قلبه قادر بحكاياته الغريبة أن يخرجه من حالته. يعمل طوسون في تجارة التبغ، ويتطلب منه هذا العمل السفر كثيرا، لكنه لا يعود من سفره محملا بالمال فقط، بل بالحكايات التي يبرع في سردها.

المطر بدأ يهطل بشدة، بعد أن وصل إلى الحامية بقليل. تفقد الجنود، ومخزن الأسلحة، وأنجز بعض الأعمال الأخرى، جاءت مكاتبات من الباب العالي بضرورة زيادة أفراد الحامية في الجزء الشمالي الغربي من المدينة، وعلى السواحل الغربية منها. قولة من المدن التي كانت دائما مطمعا لكثيرين من داخل أوربا وحتى من خارجها، أهميتها الاستراتيجية في شمال المتوسط تعادل الإسكندرية في جنوبه. من المصادفات أن الذي بنى الإسكندرية في موقعها المتميز واحد من أبناء مقدونيا التي تقع في إطارها قولة. هكذا

كان يؤكد إبراهيم للمحيطين به كلما جاءت سيرة مصر والقلاقل التي تأتي أخبارها عنها من حين إلى آخر. إبراهيم نفسه ليس من أبناء مقدونيا الأصليين، يقال إن أجداده الأوائل أتوا مع العثمانيين من ديار بكر في الجزء الشرقي مما يسمى أسيا الصغرى. لكن توالي الأجيال في هذه العائلة واستيطانها الدائم في المكان جعلهم لا يتميزون عن سكانه الأصليين.

تزوج إبراهيم ثلاث مرات، وتسرى بجوار كثر، وأنجب سبعة عشر طفلا. كل هذا انتهى إلى زوجته خضرة وجاريتيه، هم الذين بقوا معه في النهاية. صحيح أن الشرع يبيح له التسري بالجاريتين، لكنه وهو على مشارف الخامسة والخمسين من عمره، أصبحت رغبته في الجنس أقل حدة، كما أن زوجته خضرة تكفيه بالليل بما لا يحتاج معها إلى امرأة أخرى في هذه السن المتقدمة.

إبراهيم ليس ذلك الشخص الذي تجهل نواياه حين يكون صامتا، ما يسيطر عليه من انفعالات يظهر واضحا على وجهه دون كلام، على النقيض من زوجته البارعة في التلاعب بالآخرين، حتى هو لا يسلم من ألاعيبها. قوة إبراهيم الأساسية تكمن في شجاعته التي ظهرت في معاركه مع الجيش العثماني في البلقان، والتي بسببها أصبح قائدا للحامية في مدينة قولة.

يبدو إبراهيم في البيت شخصا آخر، وبخاصة في هذه السن

المتقدمة، أكثر هدوئا، وأشد سيطرة على انفعالاته مع زوجته وجاريتيه. ربما الصخب والحركة الزائدة في الخارج يحتاج معها إلى مكان يرتاح فيه. تعرف خضرة منه ذلك، فتحاول ألا تثير صخبا مع جاريتيها، لكن الأمور تفلت منه أحيانا، فيخرج منها ما يستدعي تدخلا منه.

على الأريكة المريحة في الغرفة الواسعة في الجزء الجنوبي من القلعة يجلس إبراهيم وحده شاردا. ما الذي يخبئه له القدر؟ هل سيأتي ولدا أم بنتا؟ هل سيلحق هذا المولود بسابقيه؟ إنه بالطبع يرجو أن يأتي ولدا يخلد اسمه ويرث شجاعته وأملاكه، ويكوّن هذه الذرية التي تملأ قولة، وتشكل مع أبناء أخيه قوة كبيرة في المدينة. لكن ما الأمر إذا جاء بنتا؟ الحمد لله على كل شيء. المهم أن تعيش لأراها، يقول لي من حولي إن ما يصيبني في أولادي محنة وابتلاء من الله. وأنا لا أعترض على قضاءه، لكن لماذا لا يبتليني بالفقر بدلا من مصيبة فقد الأولاد؟ أنا أرضى أن أكون فقيرا لا أجد قوت يومي، بل أرضى أن أشحذ في الطرقات، المهم أن تكون لي ذرية تجعل لحياتي قيمة.

ما بين آلام المخاض التي فاجأتها ظهيرة هذا اليوم وولادتها بضع ساعات. حين أحست ببوادر الولادة طلبت من إحدى جاريتيها إحضار القابلة التي لم تكن بعيدة عن البيت. وحين جاءت القابلة

لم يستغرق الأمر وقتا حتى وضعت طفلها. في تلك الأثناء ذهبت جارية لاستدعاء زوجتي طوسون اللتين جاءتا على عجل، وجاء معهما بعض أولاده من الزوجتين.

كل شيء انتهى، خضرة مع طفلها في حجرتها الأثيرة المطلة على بحر إيجة، جارية تلملم البقايا من الحجرة، وتعيد تنضيدها خوفا من سيدتها أن تنتبه فتسمعها مالا تفهمه، لكنها يقينا لا تحب أن تسمعه. الزوجتان تجلسان معها في صمت لا يدري أحد بواعثه. صمت أضفى على المشهد كله وقارا يليق بالمناسبة، والأطفال بالأسفل يحدثون ضجيجا يصل خافتا إليهم في الحجرة.

- ترى، هل سيعيش هذا الطفل أم سيلحق بسابقيه؟ قالت إحدى الزوجتين بعد أن نزلتا إلى الطابق الأرضي ليمنعا الأولاد من الضجيج.

- مسكينة خضرة، هذا هو المولود الرابع لها والثامن عشر لزوجها. هل تظنين أن شخصا عمل له عملا يصيبه في أولاده؟ أليس هذا عجيبا؟ كل أولاده يموت في سن صغيرة.

- ادع الله أن يحفظ له هذا الولد.

الطرق على الباب نبه جارية كانت في المطبخ، فخرجت مسرعة لتفتح الباب. دخل إبراهيم على استحياء وهو يعلم أن زوجتي أخيه بالبيت. حين رأته المرأتان توارتا في حجرة جانبية، لم يلمح منهما

إلا يدا تغلق باب الحجرة بينما هو يصعد إلى غرفة زوجته ليرى مولوده الثامن عشر.

"محمد علي، سأسميه محمد علي." قال ذلك حين سألته زوجته عن الاسم الذي اختاره للمولود. حمل الطفل بين يديه، قبله، ثم أعاده بهدوء إلى زوجته. لا تدري خضرة لماذا اختار هذا الاسم المزدوج. أول مرة يفعل ذلك، لا بأس. لعل الله يحفظه لنا.

عصفور الدوري يزقزق على شباك الحجرة. صوت المطر يعود خفيفا. وضجيج الأولاد يعود مجددا. تتمنى خضرة أن يكون لها هذا الضجيج في بيتها. لما خرج إبراهيم من حجرة خضرة حيث الجزء الخاص من البيت الذي يستقبل فيه الرجال، عادت المرأتان مرة أخرى إلى حجرة خضرة، دار بينهن ما يدور في مثل هذه المناسبات. ربما كانت عودتهما مرة أخرى إدراكا منهما للحالة التي يمكن أن تكون فيها خضرة ومحاولة لإشغالها عما يمكن أن يجعلها متوترة. دخلت جارية ببعض المشروبات الدافئة والأطعمة الخفيفة، تناولت خضرة بعض الشراب، ومثلها فعلت المرأتان.

في الجزء الآخر من البيت كان إبراهيم أغا يجلس مع أخيه طوسون، يتمتع طوسون بروح مرحة برغم مسحة التجهم التي تظهر أحيانا على وجهه، لكن احترامه الشديد لأخيه وحبه له يمنعه أن يكون على سجيته في حضرته. بعض الأصدقاء أيضا كانوا

حاضرين يدعون للمولود بطول العمر، ويباركون أسرته. مشاعر الود التي تلقاها إبراهيم من أصدقائه أشاعت في نفسه جوا من السكينة، ونزلت عليه بردا وسلاما.

لا يدري إبراهيم سر هذا الشغف بالغلام، ولا سر هذه الحالة التي تربطه به. يقوم من نومه منتصف الليل، يتحسس طريقه حيث يرقد محمد علي، يقترب منه على مهل، يميل عليه ليطمئن أن أنفاسه لا تزال تتردد، وأن قلبه ما يزال ينبض. فعل ذلك مع بعض أولاده، لكن الأمر مع هذا الغلام يبدو كثيفا.

لا يحتاج أهل البيت إلى إدراك أن العناية بمحمد على لها الأولوية القصوى على كل ما عداها. عند إبراهيم، الموت أهون عقاب لأي واحدة تهمل مع الغلام. أحيانا يصرخ في خضرة لأن الولد يبكي، وهي غير قادرة على إرضائه، تفشل خضرة في إقناع زوجها بأنها فعلت معه كل شيء: غيرت له ملابسه، وأرضعته بنفسها، ويكون الرد حينها: إذن لا بد أن الولد مريض، ولا بد من استشارة طبيب. يسأل أخاه عن الأمر، فيتعجب أخوه، ويحاول إقناعه بان ما يحدث لابنه طبيعي جدا، لكنه لا يشير إليه أبدا بأنه مر بمثل هذا الأمر كثيرا مع أولاده، ألم يتعلم بعد؟ سيرة لا يقترب منها طوسون أبدا مع أخيه.

يأتي الصيف. تتسلل روائح عطرة نفاذة إلى داخل البيت من

الأشجار المحيطة. الطبيعة تستيقظ بكل حواسها ومعها الغلام. يبتسم حين يرى أمه، ويمد يده محاولا الإمساك بلحية أبيه حين يقترب منه. أمر يسر إبراهيم، لكنه يزيده لهفة عليه.

لا ينام إبراهيم كثيرا منذ هلّ محمد علي إلى الدنيا، نومه متقطع واستيقاظه كثير في أثناء الليل، وأما الأحلام والكوابيس فلا يستطيع أن يحكيها لأحد، يقولون إن الحلم السيئ إذا حكيته لأحد يتحقق لصاحبه. مرة حلم بأنه جالس على صخرة على شاطئ البحر، نسر حام فوق رأسه لا يدري من أين أتى، ولا ماذا يريد منه، طار النسر عاليا، اختفى وراء جزيرة ثاسوس محلقا جهة الشرق، النسر يتحول إلى ذئب، يتربص بخراف أخيه طوسون في حديقته الخلفية، يختطف واحدا، يمزقه، يحاول إبراهيم إبعاد الذئب عن حديقة أخيه، يعود الذئب نسرا، يحاول الطيران بعيدا، تعجز أجنحته عن الطيران، تخرج أشلاء الخروف من بطن النسر قطعة قطعة، تتكون مرة أخرى، وتعود خروفا من جديد. يستيقظ إبراهيم مفزوعا. فأل سيئ يحيط بهذا الغلام، لم تمر عليه هذه الحالة من قبل. لكن هل يمكن لكل هذه التدابير التي يقوم بها مع ابنه أن تمنع القدر. لا أحد يمنع القدر. توضأ وصلى ركعتين ودعا الله كثيرا.

حواس الغلام بدأت تتفتح، وإدراكه للعالم بدأ يزداد. إبراهيم حين ينسى هواجسه يعيش حالة من البهجة معه، وحين تتكاثر

عليه الهواجس، ينظر إليه بقلق ولهفة. الخطوات الأولى للغلام، والإشارات الأولى لأبيه وأمه، والأصوات التي تخرج منه، والعامان اللذان يسعى إليهما حثيثا.

لا أحد في الدنيا يعاند القدر. خضرة التي استيقظت من نومها مبكرا كعادتها، قامت بنفسها لتعد طعاما لمحمد على، حركتها خفيفة داخل البيت، لا أحد يشعر بها وهي تستيقظ، حين اقتربت من حجرة زوجها في طريقها إلى المطبخ في الطابق الأسفل لم تشأ أن تدخل عليه لتوقظه. الوقت لا يزال مبكرا جدا. وحين عادت وضعت الطعام على منضدة صغيرة بالغرفة حتى يستيقظ محمد على ويأكل. لم يمر وقت طويل حتى استيقظ الغلام، وبدأ يحدث جلبة، ولم يمر وقت أطول حتى استيقظت الجاريتان. الشمس ملأت الدنيا بنورها، وأصوات العصافير على الأشجار المحيطة بالبيت تلفت نظر محمد على، وخضرة لا تدري لماذا لم يستيقظ زوجها حتى هذه اللحظة، لا يمكن أن يستيقظ ويخرج من البيت دون أن يمر على الغلام. توجست خيفة، فخرجت من حجرتها قاصدة حجرة زوجها. دخلت بهدوء، حاولت إيقاظه ببطء، ثم حاولت إيقاظه بعنف، لكن إبراهيم مات.

الفصل الثالث

عانت مصر من الجفاف في العام الذي سبق ولادة حسن، جفاف اضطر كثيرا من سكانها إلى تسول الطعام، ثم تمزقت أشلاء جراء صراع المماليك في حواريها وضواحيها. لكن مصر التي رُوع أهلها، وفرض عليهم على بك الكبير رسوما للسير في بعض الطرقات، وحتى على ركوبهم الخيل. تتدهور أحوالها، ويعاني أهلها من القحط والشدة، لكنها تقوم أبدا، تستيقظ من تحت الركام لتعيش من جديد، مصر لا تفنى عناقيدها أبدا.

سنوات عشر مرت. عجيب أمر هذا البيت وسكانه، عجيب أمر هذه الأسرة وأفرادها، لم يمت من أهل البيت إلا طفلة بعد

أيام من ولادتها. أسرة حسن استطاعت بوسائل غامضة لذوي العقول الضعيفة، وأكثر غموضا لأولى النهى والعقول الراجحة أن تجتاز المصاعب، وأن تقفز على الكوارث، أن تحيا. كيف؟ لا أحد يدري.

حسن أصبح صبيا، لا يبدو في هيئته مميزا، يرتدي مثل أقرانه ثيابا قد تكون نظيفة أحيانا، وقد تبدو متسخة أحيانا أخرى، لكنها في كل الأحوال تعاني رتقا هنا، أو شقا هناك. حافيا في أغلب الأحيان، لكنه حين يصاحب أباه إلى دكان العطارة الذي عاد إليه الأب عاملا منذ فترة ليست قليلة يرتدي في قدمه ما يسترها دون أن تستطيع وصف هذا الشيء بدقة، فلا هو حذاء، ولا قبقاب.

يبدو حسن مهيمنا حين يكون وسط أصحابه من الجيران. بكر ابن خميس الذي يكبر حسن بسنة، وعبد العال ابن عكاشة الذي يصغره بسنتين، الأقرب إليه من كل الأولاد، أولاد من البيوت المجاورة الملاصقة لبيتهم، والبعيدة عنه، حين يجلسون في أمسيات الصيف، يتحلقون حوله، ينصتون إليه باهتمام حين يحكي عن أبيه الحكايات العجيبة التي تحدث في سوق العطارين المجاور لمسجد الحسين في خان الخليلي، يبدو قادرا بخياله وطلاقته على أسر الصبية، ينازعونه أحيانا، يكذبونه أحيانا أخرى، لكنهم يتعلقون به دوما.

صبيحة أحد الأيام، خطر له أمر.

– تعالوا نذهب إلى الخلاء. قالها بحماس للجالسين معه بجوار جدار البيت المتهالك.

رد بكر: لكنه مكان بعيد، أنا أخاف أن أذهب وحدي هناك.

– لا تخف، نحن سنلعب قليلا هناك، ونمشي في السوق، لن نتأخر.

– أنا أخاف أن تضربني أمي لو عرفت. قال عبد العال.

– وما الذي يجعل أمك تعرف؟ قلت لك لن نتأخر.

صاحبهم يوسف الذي يأتي إليهم أحيانا من مكان ليس بعيدا عنهم اسمه حارة النصارى استحسن الفكرة، وبدا متحمسا. بيته في الطريق إلى الخلاء، وهو يعرف المكان جيدا، ليس بعيدا عن أسوار القلعة. لم يستغرق هذا النقاش وقتا. كل الأولاد كانت لديهم رغبة في رؤية أماكن أخرى بعيدة، ولتفعل معهم أهاليهم ما يفعلون.

حين اقترب الأولاد من حارة النصارى التي كانت على يمينهم وهم سائرون في سوق السلاح، لمح يوسف أباه فجرى نحوه. رآه الأولاد وهو يشير بيده إليهم تارة، ثم يشير إلى المكان الذي جاؤوا منه تارة أخرى، لكنهم لم يسمعوا شيئا من حوارهما. لكن منظر الأب لفت نظر حسن، بدا مندهشا وهو يتطلع إليه، يتأمله، وينظر

حوله متفحصا الرجال الآخرين السائرين في الطريق. ولما عاد يوسف سأله حسن:

– ما هذه الملابس الغريبة التي يرتديها أبوك؟ لماذا لا يلبس جلابية وعمامة مثل بقية الناس؟

كان أبو يوسف يرتدي جلبابا أسود في هذا الحر القائظ حوله زنار، ويضع طوقين من الحديد حول رقبته.

قال أحد الأولاد: الظاهر أن أبا يوسف رجل مهم يعمل مع المماليك.

رد يوسف: أبي يعمل نجارا، أنا سألته عن هذه الملابس فقال لي إننا نحن النصارى لا يمكن لنا أن نلبس مثل المسلمين. لازم الناس تعرفنا في الطريق.

– ولماذا يجب أن يعرفوكم؟

رد بكر بتعالم واضح: ألا تعرف أنهم لا يصلون مثلنا في المساجد، ولا يصومون رمضان. الناس تقول عنهم إنهم كفرة.

اقترب يوسف من بكر وسأله: ما معنى كفرة؟ أنا سمعت هذه الكلمة كثيرا في البيت.

– معناها يا جاهل أنك لا تصلي في المسجد ولا تعبد الله.

– لكني أذهب مع أبي أحيانا وأصلي في الكنيسة، ويقول لي

أبي هناك ادع الله أن تكون ولدا صالحا.

– المهم أن تصلي في المسجد.

لم يشترك حسن في النقاش الساخن بين أصحابه حول المسجد والكنيسة. استغرقه قليلا مشهد الأب، لكنه التفت إلى يوسف قائلا: المهم ألا تغيب عنا كثيرا. يتذكر حسن مشهدا رآه منذ شهور لأولاد سائرين في السوق وهم يصيحون "الكنيسة وقعت والقسيس مات. اخص عليك يا مرقص يا بتاع البنات" أعجبه وقع الجملة، لكنه لم يفهم أسباب صياح الأولاد بها. ظلت العبارة عالقة في ذهنه أياما إلى أن نسيها، ثم ها هي تعود تلح عليه مرة أخرى، وهو يستمع إلى نقاش الأولاد الدائر الآن.

في الخلاء حدث للأولاد حادث بدا رد فعلهم عليه مدهشا. اقترح أحدهم أن يلعبوا لعبة "السبع طوبات"، وفيها يوضع عدد من الأحجار المستوية فوق بعض، ثم يرسم خطاً يبعد من ستة إلى ثمانية أذرع يقف عليها كل ولد، ثم يقوم "بالتنشين" بواسطة قطعة حجر أخرى مستديرة في يده، والفائز في اللعبة من يستطيع بعثرة الأحجار المستوية التي يضربها بقطعة الحجر في يده إلى أبعد مسافة ممكنة. كان المطلوب البحث عن قطع سبع من الأحجار المستوية، وقطعة مستديرة متوسطة الحجم في يد كل ولد. انتشر الأولاد في الأنحاء كل منهم يبحث عن قطعة حجر. عبد العال بن

عكاشة أصغر الأولاد وجد قطعة ملتصقة بالأرض، حفر من حولها قليلا حتى يمسكها من الحافة وينزعها، لكنه كلما أزاح رمالا من حولها، كلما وجدها أكبر حجما وأكثر استدارة. راقته هذه اللعبة، وصمم على انتزاع الحجر، لكن الوقت معه طال، فطلب مساعدة من حسن الذي ساعده حتى النهاية، لكن ما وجدوه جعلهم ينسون ما جاؤوا إلى الخلاء من أجله.

– ما هذا ياحسن؟ سأل عبد العال في براءة.

– هذه رأس بني أدم.

– ما الذي أتى بها هنا؟

– لا أعرف.

في هذه الأثناء تحلق الأولاد حول حسن وعبد العال يتطلعون بدهشة إلى الجمجمة التي يمسكها حسن بيديه، لكن بكراً في لحظة سهو من حسن خطف الجمجمة من يديه وجرى بها بعيدا، ثم التقط فرع شجرة على الأرض ووضع عليها الجمجمة وظل يقفز بها سعيدا مبتهجا ويجري والأولاد تجري وراءه تحاول أن يكون لها نصيب مما يفعل.

عندما حكى لأمه ما حدث، انزعجت ولطمته على وجهه. عنفته

لذهابه إلى الخلاء وتأخره هناك، قالت له أخته شَحتة إن الجمجمة لرجل قتيل، "لأنه لو مات موتا عاديا، كان اندفن في القرافة" ولو رآهم جنود الوالي فلا يمكن أن يتركهم. شَحتة تكبره بأربعة أعوام، لكنها تعامله مثل ابنها. ما أكثر المواقف التي وقفت فيها حاجزا بينه وبين أبيه أو أمه حتى لا تصله يد قوية على وجهه أو قدم تطول أي جزء في جسمه. يشتكي خليل من انفلات حسن، وعدم قدرته على كبحه. لكن رتيبة تعرف ابنها جيدا. تدعو له بالهداية، وتوقن أن الله سيستجيب لدعوتها.

في الغرفة المقابلة كان هناك نقاش من نوع آخر، خميس زوج بربرة لم يكن يعنف ابنه بكر على الجمجمة التي حملها وجرى بها كما عرف من زوجته، بل عنفه على أمر آخر:

– من يوسف هذا الذي كان معكم في الخلاء؟

– هذا واحد صاحبنا يأتي إلينا من حارة النصارى ويلعب معنا أحيانا.

– ماذا قلت؟ من أين يأتي؟

– من حارة النصارى.

– أنت قلت بنفسك. إذن هو ليس مسلما.

– ماذا في ذلك؟

- ألا تفهم؟ هل تحب أن تدخل النار؟ لو صاحبته ستدخل النار معه. كل النصارى سيدخلون النار. فهمت.
- لكن كل الأولاد يلعبون معه؟
- لا شأن بي بالأولاد. قلت لك لا تلعب معه.
- لكن حسن أيضا يلعب معه، ويحبه.
- حسن ولد منفلت، وأبوه ما عرف يربيه جيدا. حسن تربية أمه.

قام خميس من مجلسه ذاهبا إلى المسجد ليصلي العشاء، لم ينتظر سماع ابنه الذي بدا حائرا.

اقترحت رتيبة على خليل أن يأخذ حسن ليتعلم في الأزهر أو في جامع السلطان الغوري. "الولد شاطر، وحرام أن نتركه هكذا." وافق خليل بعد إلحاح من زوجته على الرغم من أنه كان يفضل أن يأخذه معه ليعاونه في سوق العطارين. حين أخبرته شَحتة بما دار بين أمه وأبيه، فرح وجرى ليزف البشرى لصاحبيه بكر وعبد العال.

الصراع الدائر بين إبراهيم بك وأتباعه ومراد بك وأتباعه داخل القاهرة ألقى بظلاله على حياة الناس. كل منهما يحاول أن يهيمن،

وأن يستحوذ على النصيب الأوفى من عناقيد مصر. وأن يقضي على غريمه. ورث هؤلاء التركة الثقيلة التي تركها محمد بك أبو الذهب بموته الغامض في عكا في أثناء إحدى غزواته لبلاد الشام التي ورثها بخيانته لعلي بك الكبير ومحاربته له، ثم انتصاره عليه وأسره. القاهرة في قبضة المماليك، أما الوالي فلا يملك من أمره شيئا. هؤلاء لا يعنيهم أهل مصر ولا ينشغلون قيد أنملة بشؤونها. يحدث حريق بالأزبكية فيتركون أمره لسكان المنطقة يدبرون شؤونهم بأنفسهم، ويسقط ربع بسوق الغورية يموت جراءه خلق كثير فلا يكترثون. الغدر والخديعة والخيانة العملات الرائجة في هذا الزمان. قطع الطرق على الناس، أمراء المماليك الذين فروا إلى الصعيد يقطعون النيل ويمنعون الغلال من الوصول إلى القاهرة. وأما المعارك التي دارت بين أنصار مراد بك وحسن بك الجداوي داخل شوارع القاهرة، فيتحدث بهولها الركبان.

يشعر حسن بفرح غامض وهو سائر مع أبيه إلى الدكان. هناك سيقضي جزءا من النهار، ثم يذهبان بعد ذلك إلى الجامع الأزهر حيث سيلتحق بإحدى حلقات العلم الشرعي. أماكن جديدة سيرتادها، وبشر آخرون سيلتقي بهم. نسمات الخريف الندية في الصباح تنعشه. يفكر حسن في صاحبيه عبد العال وبكر اللذين سيلحقان به بعد يوم أو يومين ريثما يجد أبواهما وقتا للذهاب معهما

إلى الجامع الأزهر. سنلهو ونلعب ونأكل "الجراية" التي يعطونها للأولاد. سأوفر جزءا منها لأختي شَحتة".

الصخب في سوق العطارين ينعش الروح. لا يفكر حسن في سر هذا الابتهاج الذي يبدو في ملامح وجهه حين يكون داخل السوق. لكن زميل أبيه في الدكان وعمال الدكاكين المجاورة يهللون حين يرونه مقبلا مع أبيه أحيانا في الصباح، لا يجلس حسن في دكان أبيه إلا قليلا، أغلب الوقت مع أصحاب الدكاكين المجاورة، يساعد هذا في حمل شيء، أو ذاك في ترتيب بعض الأغراض. ولا يجد هؤلاء إلا أقماع السكر البني شيئا مناسبا يعطونها له. روائح التوابل نفاذة، وهي تأتي إلى هذا المكان مثلما تأتي من أماكن أخرى من بلاد بعيدة، لا يعرفها حسن، ربما لا يسمع بها إلا حين تذكر التوابل. الجو رائق والصباح ندي، لكن الحياة لا تدوم على حال واحد.

جلبة وصراخ وهرولة لكثير من المتسوقين. ضجيج من آخر السوق من المدخل الشرقي حيث الطريق إلى مسجد الحسين، يقف حسن مشدوها وهو يسمع الضجيج يزداد حدة والصراخ يعلو، وأصوات متداخلة ميز من بينها عبارة "عساكر إبراهيم بك في السوق" تتكرر كثيرا، يغلق على إثرها بعض أصحاب الدكاكين محالهم، أو يترك آخرون بضاعتهم في السوق ويجرون. وقع

حوافر الخيول أصبح واضحا، بل الخيول نفسها ومن عليها من عساكر أصبحت الآن في مرأى حسن. يتعجب حسن وهو يتطلع إلى العساكر بسحنتها البيضاء المشوبة بالحمرة وبلكنتها التي لا تشبه لكنة أهل مصر. وحين ترجل أحدهم بالقرب من حسن ليصيح في عامل كان يساعده منذ قليل: هير هانجي بير ماغازندا جليشان؟" بدا المشهد باعثا على الأسى، الرجل ترتعد فرائصه وهو في قبضة المملوك، لكن المصيبة الكبرى أنه لا يفهم ما نطق به المملوك، وكذلك لم يفهم حسن وهو يتابع المشهد عن قرب. لكن حسن كان في مأمن. كرر المملوك الجملة نفسها مرة ومرتين وثلاث، وهو يقبض على رقبة العامل البائس حتى تدخل أحد المتابعين من بعيد وترجم الجملة لصاحبنا البائس، يقول لك "في أي دكان تعمل؟" رد الرجل بسرعة: اعمل في هذا الدكان.

وأشار بيده إلى الناحية المقابلة لحسن. صرخ فيه المملوك: نيريدي بارا بوجون كازندي؟ ترجمه له هذا المتابع: أين الأموال التي كسبتها اليوم. رد الرجل وهو يتهاوى في قبضة المملوك: لم أكسب شيئا والله على ما أقول شهيد. زأر المملوك: سين بارا جيسليم، بير يالنسين، دايي بير سي أولماديجيني إدا سي، بيز بارا أولما سايدي نازل كورماك إيسين، إيجر حيات هاج إيتميوروم داها. ترجمها له المتابع: أنت كاذب، تخبئ المال وتدعي أنه ليس معك شيئ، كيف نحميكم إذا لم يكن عندنا أموال؟ أنتم ناس لا

تستحقون الحياة، بينما المملوك يدفع العامل المسكين أرضا ويضع حذائه الغليظ على رقبته، ثم يركله في بطنه وفي قدميه. يتركه ويدخل الدكان ليعبث في محتوياته، ويبعثر كل شيء فيه. حسن يتابع مصدوما مما يرى، يجري ناحية أبيه الذي أدخله الدكان خوفا عليه وبقي هو في الخارج. لحظات وكان المملوك الهائج أمام دكان خليل الذي تراجع إلى داخل الدكان والمملوك وراءه. لم ينتظر أبو حسن جملة المملوك: أين الأموال التي كسبتها اليوم، أدخل يده في جيب الجلباب، وأخرج منها كل ما معه وأعطاها للمملوك التي نظر إليها بازدراء وهو يعدها. صفع أبو حسن صفعة تردد صداها في جنبات الدكان وفي أعماق حسن، ثم مضى.

الصمت أحيانا له صخب من نوع فريد. صخب يتغلغل في حنايا النفس، يتوغل في الخلايا، يعبث بها، ويهيمن على مجاري الشعور فيها، يُظلمها، ويزيدها كآبة، ثم يتمدد ويستقر. حسن السائر بجوار أبيه، المتعلق بأهدابه متجها معه صوب الجامع الأزهر، والأب الذي بدا لحسن متعثرا في خطوته، زائغا في بصره، محنيا في ظهره، وصامتا صمتا مهيبا لا يبدو متنبها لابنه الممسك بطرف كمه.

تخطى الاثنان جماعة من الفقراء الواقفين على باب الأزهر ينتظرون طعاما يأتي إليهم في هذا المكان كل يوم. ودخلا ليلتقيا

بأحد الشيوخ من معلمي الصبيان. سأل الشيخ حسن عن محفوظه من القرآن، وعما يعرفه من معلومات حول حياة النبي وصحبه، وبعض الشعائر والفروض، ولما اطمئن الرجل لنباهة حسن طلب منه أن يأتي في الغد ليلتحق بإحدى الحلقات.

بعد العصر تجلس رتيبة مع جاراتها في "الحوش" يستعدن حوادث النهار. يخلو البيت في هذا الوقت من النهار من الرجال، فيمتلك النساء البيت. وحسن جالس مع شَحتة داخل الحجرة يبكي وهو يحكي لها عن صفعة المملوك لأبيه، لا تجد شَحتة ما تقوله لأخيها فتحول دفة الحديث، وتسأله عما حدث في الأزهر. لكن حسن يسألها عن كلمة المماليك التي سمعها كثيرا اليوم. شَحتة ليس لديها معلومات مرضية عن المماليك سوى أنهم ناس جاؤوا من أماكن بعيدة جدا ليحكموا مصر، ويعود حسن ليسألها: ولكن لماذا لا يتكلمون مثلنا إذا كانوا يحكموننا، فلا يجد أية إجابة من شحتة.

وعندما جلس مع أصحابه حكى لهم ما حدث له طوال اليوم وما شاهده، لكنه تجنب الحديث عن صفعة المملوك. عبد العال يستزيده من مشاهداته في الأزهر، وبكر ركز على حوادث السوق. لكن حسن متحير من هؤلاء المماليك الذين لا يتكلمون مثلنا. جاء يوسف فتوتر بكر قليلا ونظر تجاه البيت، ثم طلب أن يذهبوا بعيدا ليلعبوا بأعواد القصب التي أحضرها أبوه اليوم.

في اليوم التالي ذهب حسن إلى الجامع الأزهر، وبعد يومين أو ثلاثة التحق به بكر وعبد العال. الأزهر مكان للعبادة والعلم، لكنه لهؤلاء الأولاد – إضافة إلى ذلك – مكان للعب، وبخاصة حين يخلو قليلا بعد صلاة الظهر، وتخف فيه حركة طلاب العلم الذين يأتون إليه من مشارق الأرض ومغاربها، وتخلو أروقة المسجد من الشيوخ، ويستريح قليلا القائمون على العناية به في حجراتهم. انضم للأولاد الثلاثة صبي يماثلهم في العمر اسمه سليم يرافقهم في رحلة العودة حتى الدكان الذي يعمل فيه خليل حيث يعودون معه إلى البيت، وأما سليم فيستكمل طريقه إلى بيته الواقع خلف سوق العطارين. سليم أقلهم حجما، وأكثرهم حركة وجرأة مع الناس. لا ينتبه كثيرا لدروس العربية أو الفقه، لكنه يحب درس التاريخ، يشغف بالمعلم وهو يحكي سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام: غزواته وفتوحاته، وسير الصحابة وما فعلوه من أجل تثبيت دعائم هذا الدين الجديد، ويبكي حين يسمع الطريقة التي قتل بها أبو لؤلؤة المجوسي عمر بن الخطاب، أو حصار المصريين لعثمان بن عفان في بيته حتى تسلق أحدهم جدار البيت وقتله وهو يصلي.

يبدو في انفعاله بالأحداث التي وقعت للصحابة شخصا آخر غير الذي يعرفونه. ينتهي الدرس فيعود سليم إلى طبيعته المشاكسة التي تسبب لهم الأذى أحيانا، والتي كادت تتسبب في طردهم من الأزهر كله. فقد تراءى له أن يشاكس المصلين وقت صلاة العصر بعد أن

انتهوا من دروسهم أحد الأيام، ولا يعرفون كيف أقنعهم بذلك. وقفوا في الخارج حتى بدأت الصلاة، وكان هناك صف من المصلين بجوار الباب. حين انتهى المصلون من الركوع في الركعة الأولى وهموا بالسجود دخل الصبية معا بترتيب مسبق من سليم، وكل صبي أمسك بقدمي أحد المصلين وسحبها، ثم جرى بسرعة خارج المسجد، انكفأ المصلون الأربعة على وجوههم، لكنهم قاموا بسرعة يجرون وراء الصبية الذين اختفوا. لو أمسكهم أحد، أو تعرف عليهم شخص من المسجد لكان الطرد أهون عقاب لهم جراء فعلتهم النكراء.

في الصباح التالي مبكرا، دخل الأولاد الأربعة الجامع الأزهر متوجسين ومتوقعين أسوأ العواقب. تعرف إليهم أحد الأشخاص، فأبلغ شيخهم. الشيخ الآن ينتظرهم ليعاقبهم عقابا شديدا: يضربهم أو يقطع الأرغفة والطعام عنهم أو حتى يطردهم من الأزهر. ولما اقتربوا من مكان جلوس الشيخ لم يلحظوا تغيرا سيئا، بل كان بشوشا معهم. سألهم عن أحوالهم وعن أسرهم وعما إذا كانوا يحبون الدروس التي تلقى عليهم. حتى اكتملت الحلقة بحضور بقية الطلاب. حمد الأربعة الله على نجاتهم، قرر بكر ألا يشترك في هذا الهزل مرة أخرى، بينما تطلع سليم إلى وجوه الناس ليختار من بينهم ضحيته القادمة. ألقى المعلم درسه الأول وكان في النحو الذي لا يحبه الأولاد كثيرا، ثم الدرس الثاني الذي خصصه لفقه

الوضوء، بعد استراحة قليلة بدأ درسه الثالث الذي كان في التلاوة حيث يتلو الشيخ بعض آيات القرآن، ويردد الأولاد وراءه.

في تلك الأثناء سمع كل من في الحلقة أصواتا عالية تأتي من رواق الشام، مجموعة من طلاب العلم الشوام يتصايحون، ثم يذهبون جماعة إلى رواق الأتراك. لم يستطع الشيخ إكمال درسه فتوقف ريثما تهدأ الضجة بينما انسحب الأولاد جميعا إلى حيث الجهة الأخرى من الجامع ليشاهدوا هذا الشجار غير نادر الحدوث. وقف حسن وسط الأولاد يتطلع إليهم بدهشة، لم يستطع تمييز الأصوات ولا فهم الكلمات، كل ما كان يراه تدافع بالأيدي، ولكمات في الأكتاف والبطون، وعمائم تسقط، ودماء تسيل، ثم تكالب من بعض المتشاجرين على واحد من الطرف الآخر، يضربونه في بطنه ووجهه وظهره، وكل ما تطوله أيديهم وأرجلهم من جسمه، خر على إثرها صريعا. وهي اللحظة التي توقف فيها الشجار. ليهرب بعدها فريق ويتحلق فريق آخر حول زميلهم الممدد على الأرض. "مات، مات" هذا ما استطاع حسن تمييزه من كلمات، انطلق بعدها هؤلاء الطلاب إلى خارج الأزهر. نظر إلى صاحبيه وإلى سليم ودون كلام خرج الأربعة من الجامع الأزهر عائدين إلى بيوتهم.

الرعب الذي أصاب حسن وبكر من رؤيتهم لهذا الطالب الميت

لا يعادل الصدمة التي أصابت عبد العال وسليم، بعد أن غادرهم سليم عائدا وحده إلى بيته، قال عبد العال إنه لن يأتي إلى الأزهر مرة أخرى، لم يعرف صاحباه كيف يردون عليه، ربما انتابتهم الفكرة نفسه. أول مرة يشاهدون شخصا يموت، على الرغم من أن الموت حادث مألوف في مصر، بل إن ألفة الموت لمصر وحبه لأهلها جعلته يحصد من أرواح الناس ربما أكثر مما تمنح الحياة أنفاسها لقادمين جدد. لا يدرك الأولاد هذا، ما أدركوه أن الأزهر أصبح مكانا للموت أيضا.

تغيب الأولاد دون اتفاق عن حلقة العلم بضعة أيام، وتفهم أهلوهم هذا دون ضغوط لكنهم عادوا، متوجسين أول الأمر، ثم مقبلين ومشغوفين بالأزهر وعالمه، وبدا أنهم نسوا أو تناسوا حادثة الشوام والأتراك التي امتدت توابعها إلى الأمراء المماليك الذين عزلوا مفتي الحنفية الشيخ عبد الرحمن العريشي المتكلم على طائفة الشوام، وتعيين مفتي آخر بدلا منه هو الشيخ محمد الحريري، وإلى هروب الطلاب الشوام جميعا وغلق رواقهم، وإلى شيخ الأزهر نفسه الشيخ أحمد العروسي. لولا تدخله لحدث في الأزهر ما لا يحمد عقباه.

عاد الأولاد وعادت الحياة مرة أخرى. عادوا يتلقون الدروس، ويشاكسون الناس، ويلعبون في ساحة الأزهر، في المكان نفسه الذي شهدوا فيه موت الطالب التركي، كأن شيئا لم يكن.

الفصل الرابع

لما نزلت السيدة خضرة درج السلم الداخلي للبيت بحثا عن محمد على في الطابق الأسفل، كان هو قد صعد إلى سطح البيت مختبئا من أمه، لمحته إحدى الجاريتين لكنها لم تشأ أن تخبر أمه. تخاف منه برغم صغر سنه مثلما تخاف من أمه. محمد على في العاشرة من عمره الآن. سنوات مرت منذ وفاة أبيه المفاجئة كفله فيها عمه طوسون أدار فيها ميراث أخيه المحدود: قطعة أرض في شمال قولة وبعض معاملات تجارية في تجارة التبغ وقدر من المال يكفي هذه الأسرة الصغيرة بما لا يحتاجون معه إلى أحد. سألت أمه الجاريتين عنه، فادعيتا أنهما لم ترياه، كانتا مشغولتين في المطبخ. أين ذهب الولد؟ لا بد أنه في الخارج. فتحت الباب

وأطلت على الحديقة الصغيرة، مسحتها بعينيها، لكن لم يكن له أثر. ربما كان موجودا على سطح البيت. صعدت إلى السطح، فلم تجده. كان هو قد رآها وهي تبحث عنه في الحديقة، فنزل خفية واختبأ في حجرتها. لن يخطر على بالها أنه سيكون فيها. شعرت خضرة بقلق، فطلبت من جارية أن تذهب لبيت عمه، من المؤكد أنه هناك. البيت ليس بعيدا. جلست على مقعد وثير في الأسفل تنتظر عودة الجارية. ما المشكلة في أني لا أريد أن أعطيه خنجر أبيه. لقد دخل الحجرة التي لا تفتح كثيرا، وعبث بمحتوياتها حتى وجد الخنجر، فأراد أن يلعب به مع أولاد عمه، رفضت خضرة متعللة بصغر سنه، لكنه أصر على أخذه، وأبدى تحديا لا يليق لأمه. فما كان منها إلا أنها خطفت منه الخنجر، وصفعته على وجهه. دُهش الصبي من ردة فعل أمه، لكنه لم يبك، ولم يتهاوى، بل تماسك وخرج غاضبا من الحجرة.

وحين كان في غرفة أمه، لم يكن أمر الخنجر قد انتهى معه بعد، لا بد أن يحصل عليه مهما كانت العواقب، وإذا كانت أمه قد رأته هذه المرة، فلا بد أن يحتاط في مرة قادمة. لكن أين يخبئه بعد أن يحصل عليه، وماذا لو أخبر بعض أولاد عمه الكبار أمه بالخنجر. دارت هذه الخواطر في ذهنه، لكنه لم يعرها بالا. يحصل على الخنجر أولا ثم يكون ما يكون. نزل من الغرفة إلى الطابق الأسفل حيث أمه، ولما رأته استراح قلبها، لكنها نظرت إليه نظرة غضبى،

وعنفته تعنيفا شديدا، وأسمعته كلاما قالته كثيرا قبل ذلك.

في الليل حلم بأمه وهي تغرق في البحر، تستغيث به بينما هو واقف على الشاطئ مشغول عنها بالتطلع إلى الأفق اللانهائي، تختفي أمه تحت الماء، ثم تظهر، وتنادي عليه، لكن صوتها لا يصل إليه. قام من نومه مفزوعا، وخرج من حجرته ليطمئن على أمه في حجرتها، وعندما وجدها نائمة استراح قلبه، وعاد إلى سريره.

يأتي عمه كثيرا إلى البيت، يتفقد أحواله، ويأخذه أحيانا معه إلى بيته حيث يبقى مع أبنائه. أراد عمه أن يدخله حلقة علمية ملحقة بالمسجد الذي بناه العثمانيون بقولة. لكنه لم يكن يستمر يوما أو بعض يوم، ثم يحرن رافضا استكمال ما أراد له عمه من علم. لم ييأس عمه وكذلك أمه، لكن الصبي لم يكن يريد.

شهور الصيف التي أهلت تعني عند محمد علي الكثير. فهو لا يحب أن يمكث في البيت، إما أنه على شاطئ البحر مع بعض الجيران، أو في بيت عمه يلهو مع أبنائه الذين كبروا الآن، يكبر سليمان وهو أصغر هؤلاء محمد على بأربعة أعوام. برغم ذلك لا يبدو بينهم أنه الصغير مع أن حجمه قليل قياسا إليهم. عمه طوسون يحبه لذلك أوصى به أبناءه خيرا.

ذات مرة ذهبوا جميعا إلى الجزء الصخري من شاطئ البحر.

المكان لا يصلح للسباحة، الصخور تملأ أجزاء كثيرة من قاعه ذي العمق القليل، والسباحة في الأجزاء العميقة مخاطرة لا يمكن التنبؤ بعواقبها، فيمكن للتيارات المائية أن تسحب الشخص إلى "عرض البحر"، وتكون عودته إلى الشاطئ مرة أخرى مجاهدة لا يتحملها إلا ذوو العزم. لكن مزية الشاطئ الكبيرة هي "الكابوريا" التي تختبئ بين صخوره بأحجامها المختلفة وألوانها الجميلة. انتشر الأولاد الأربعة بين صخور الشاطئ يبحثون عن "الكابوريا"، يعثر أحدهم على كابوريا صغيرة فيقفز بين الصخور حتى يمسكها، ويتتبع ثان واحدة أخرى وهي تختفي تحت الماء لتطل عليه من بعيد، وأما الثالث سليمان أصغر أبناء طوسون، فقد كان قريبا من محمد علي. لمح كابوريا وهي تختفي في شق بين الصخور، فأدخل يده ليمسكها، وفجأة علت منه صرخة أعلى من صوت الأمواج التي تضرب الصخور.

التفت بقية الأولاد إليه، لكن محمد كان بجواره وهو يراه يخرج يده والكابوريا ممسكة بإبهامه، وهو يحاول أن يفلتها، لكنها فيما يبدو قد أطبقت على إصبعه. تقدم منه محمد ببطء، وطلب منه أن يهدأ قليلا، لو جذب الكابوريا بشدة من يد سليمان فربما أدمت إصبعه أكثر، فكان الحل أن يمسك فكيها ويباعد بينهما حتى يتحرر الأصبع، لكن الكابوريا لها فكان آخران تناوران بهما من يقترب

منها، لم يأبه محمد بالفكين الآخرين، وأمسك الفكين القابضين على الإصبع، ثم باعد بينهما حتى تكسرا في يده. تحرر إصبع سليمان، لكن دماءه كانت تسيل.

ابتهج محمد على بانتصاره على الكابوريا، فخلع ملابسه، لم يبق عليه إلا سروال، تسلق صخرة ترتفع قرابة الأمتار الثلاثة على البحر، وفجأة رآه الأولاد يقفز منها غاطسا في البحر، انتظروه بضع ثوان حتى يخرج، لكنه تأخر في الخروج ثوان إضافية ليظهر في بقعة أخرى غير التي توقعوا أن يخرج منها. يسبح أولاد طوسون كثيرا في البحر، لكنهم لا يجازفون، فليست لديهم جرأة محمد علي وجسارته على البحر. لا يهاب البحر، بل يشعر بألفة شديدة معه سواء وهو جالس على صخور شواطئه، أو وهو يتطلع إليه من نافذة شباك غرفته. وحين كان في البحر تذكر أمه والحلم، تذكر أيضا الخنجر.

أيام الشتاء في قولة شديدة البرودة، لكنها هذا العام أكثر من احتمال البشر. الثلوج تغطي أنحاء المدينة، وقد أدت كثافتها إلى إغلاق الطرقات، وإلى جعل التنقل بين أنحائها مغامرة لا يقدر عليها كثيرون. في هذا اليوم من شهر يناير من العام الجريجوري ألف وسبع مئة وثمانين كان مسيحيو المدينة يحتفلون بميلاد المسيح في اليوم السابع من هذا الشهر، كان بعض آخر من مسيحيي المدينة

قد احتفل بميلاد المسيح أيضا في الخامس والعشرين من ديسمبر، بينما يقول التقويم الجريجوري إن المسيح ولد في الأول من يناير. كان هذا الاختلاف مثار حديث بين طوسون وبعض أصدقائه، وهم جالسون في بيته في الجزء الخاص بالرجال "السلاملك" يتناولون الكاستانيا التي تم شواؤها في الحرملك. يعرف هؤلاء – وكلهم من التجار – أن مسيحيي قولة هم السكان الأصليون للمدينة، وأن العثمانيين طارئون عليها، لكن وجودهم الممتد لأكثر من مئتي عام أعطاهم شرعية في المكان تشبه شرعية السكان الأصليين، لكن القمع الذي يمارسه العثمانيون للمسيحيين في قولة أخف وطأة مما يفعلونه مع مسيحيي الشرق، وبخاصة في الشام ومصر. على الأقل لا يضطر هؤلاء إلى ارتداء ملابس خاصة تميزهم عن المسلمين.

ربما قرب قولة من أوربا، وإحساس العثمانيين بالولاية الروحية لروما وللكنيسة في روسيا على كثير من مسيحيي المدينة جعلتها تتخفف معهم. يشعر طوسون وصحبه بالرضا، ويحمدون الله على أنهم مسلمون، مع ذلك لا يرون بأسا في التعامل مع التجار المسيحيين الذين يلتقون بهم أحيانا في كوسوفو المدينة الجميلة التي امتدت إليها السلطة العثمانية منذ أمد. الآن فإن الحديث يدور حول حروب الدولة في الجزء الشرقي من أوربا وبخاصة مع الروس. أو في كيفية التعايش مع التهديد الفرنسي أو الإنجليزي الطامع في أجزاء من الإمبراطورية العثمانية سواء داخل أوربا أو في الأماكن

البعيدة في مصر والشام بالذات. تصلهم أنباء القلاقل التي تحدث في فرنسا، وحالة الغليان بين العامة هناك، والإعدامات التي تبدو مشهدا يوميا في باريس، ثم يحمدون الله مرة ثانية على نعمة الأمن في قولة. جيشنا قوي وقادر على حمايتنا.

الأولاد الذكور يحق لهم التنقل بين جزأي البيت. بينما هذا الأمر محرم تماما على بنات طوسون. محمد علي في هذه السن الصغيرة كان الفتى المدلل في أسرة طوسون بين الذكور والإناث على السواء.

حين جلس في هذا المساء يستمع إلى عمه وأصحابه، لا يدري أحد من أبناء عمه ماذا كان يدور في نفسه. لم يكن جالسا بين الرجال في الحجرة نفسها، هذا ممنوع على من هو في مثل سنه، لكنه كان في حجرة مجاورة تصله أصوات الرجال بوضوح كما تصل إلى أبناء عمه الذين ضجوا بهذا الحديث الثقيل، وتعجبوا من إنصات محمد علي له باهتمام لا يناسب سنه. "عندما أكبر سأدخل في جيش السلطان، وأحارب الأعداء." هكذا صاح لأبناء عمه وهم يخرجون من الحجرة. "أنا سأعمل مع أبي في التجارة" رد عليه سليمان، ثم أردف: "ولكن هل تترك أمك وحدها وترحل مع الجيش؟" لم يفكر محمد علي في هذا المأزق. صحيح ماذا سيفعل مع أمه. ذكره هذا بالخنجر الذي منعته أمه عنه منذ شهور. طوال هذا الوقت وهو يفكر في طريقة يأخذه بها دون أن تلتفت أمه.

ذات يوم طلب من أمه أن تذهب معه إلى بيت عمه، بدلا من مكوثها الطويل داخل البيت. تعجبت الأم من طلبه، لكنها وافقته. حين وصلا إلى البيت اتجه هو إلى حيث المكان المخصص لأبناء عمه، لم يجد هناك إلا سليمان، أما البقية فقد كانوا مع طوسون في وكالة التبغ التي يملكها في السوق التجاري للمدينة. لم يلبث إلا قليلا حتى تظاهر أنه نسي شيئا في البيت سيذهب لإحضاره. ثم شدد على سليمان ألا يخبر أمه أنه عاد إلى البيت. كان البيت خاليا، فالجاريتان كانتا أيضا مع أمه في بيت عمه. صعد إلى الطابق الأعلى، ودخل غرفة أبيه، هناك مكث وقتا طويلا يبحث عن الخنجر، وعندما وجده، تهلل ولمعت عيناه. لم يأخذ الخنجر فقط، بل أخذ معه أيضا "شالا" صوفيا يخص أباه وساعة رملية كان قد أهداها لأبيه صديقه إسماعيل سليم. عاد بسرعة إلى بيت عمه حاملا معه حمله الثمين. اندهش سليمان حين رأى معه الخنجر والساعة الرملية، وسأله ماذا تريد أن تفعل بهما؟ ولماذا تأخذهما على غير علم من أمك؟ وماذا ستفعل لو فتشت وعرفت أنك الذي أخذتهما؟ لم يأبه محمد على بكل هذه الأسئلة. المهم أنه حصل على مبتغاه. لكنه ألح على سليمان ألا يخبر أحدا بهذا الأمر. نحن سنخرج معا إلى الشاطئ أو في الشارع. وسنلعب بالخنجر معا، كما أني سأتركهما عندك في البيت حتى لا تنتبه أمي.

سر كبير بين الاثنين أصبح عبئا على سليمان، ولا يعرف كيف

يحافظ عليه. ما الذي جعله يتورط مع ابن عمه؟ وماذا لو عرف أبوه بالأمر؟ صحيح أن أباه يحب محمد على حبا جما. لكن ما فعله محمد لا يغتفر.

الأيام تمر والأسابيع والشهور، لا شيء مهم يحدث. والولدان استطاعا بمكر من محمد علي وحرص من سليمان أن يحافظا على السر حتى عن أخوة سليمان. يخرجان خلسة في الأيام التي تشرق فيها الشمس ويصحو فيها الجو ليتجولا في بعض الأنحاء القريبة من البيت حيث تتكاثف أشجار الزيتون والصنوبر، ثم يختاران شجرة يقفان منها على مسافة بعيدة قليلا، ويقوم كل واحد منهما بالتصويب على الشجرة، والفائز من ينجح في رشق الخنجر في نقطة معينة في الشجرة يحددانها من قبل. كثيرا ما يبرع محمد على في إصابة هدفه، وكذلك كان سليمان، وهو الأمر الذي كان يستفز محمد علي كثيرا، يريد أن يكون هو الأكثر إصابة لهدفه، والأعلى يدا. ما كان يقبل أن يعودا إلى البيت وسليمان متفوق عليه في عدد الإصابات، وحين يحدث هذا فإنه ينظر إلى ابن عمه شذرا متوعدا إياه أن يتفوق عليه في المرة القادمة، ابن عمه أحيانا ما يتعمد الخسارة أمامه حتى لا يتطور الأمر بينهما إلى ما لا يريده.

لكن حادثة القارب هي التي كشفت كل شيء، وعجلت من نهاية أمه. محمد علي يحب البحر، لا يجلس إليه يناجيه كما يفعل بعض

الناس، ولا يسرح في اللانهائية التي يتيحها له الأفق المترامي أمامه بلا حدود، ولا حتى يراقب السفن التي تحمل البضائع داخلة أو خارجة من ميناء قولة، وليس له أرب بالطيور التي تحلق عالية آتية من جزيرة ثاسوس أو ذاهبة إليها. البحر عند محمد علي هو الغوص والبقاء تحت الماء إلى أطول مدة ممكنة. وهو صيد أسماكه وكائناته البحرية الأخرى، وهو تحدي أترابه في السباحة إلى أبعد مسافة ثم العودة.

في أوائل أكتوبر من العام ألف وسبع مئة وواحد وثمانين كان يجلس على الشاطئ مع ابن عمه وبعض الصبية من جيرانه. كان هو الأصغر سنا لكنه هو الذي بادر بفكرة لم ترق لكل الجالسين معه: ما رأيكم أن نأخذ قارب عمي الصغير ونذهب به إلى جزيرة قريبة في شمال غرب الساحل. رفضهم للفكرة جاء من أحوال الجو المتقلبة. يمكن للقارب أن ينقلب، ويمكن أن يصلوا الجزيرة لكنهم لا يستطيعون العودة. وماذا لو أمطرت ونحن في القارب ماذا نفعل؟ وبدا أنهم استطاعوا تفنيد الفكرة وقتلها في مهدها. لكنهم دهشوا لما رأوه يتجه إلى القارب، ويسحبه إلى الماء، وهو يقول لهم: إذن سأذهب أنا وحدي. صاحوا ليمنعوه، لكن غريزة التحدي كانت أقوى.

رأوه وهو يجدف متوغلا في البحر، ورأوا منه رأسا وقاربا

يتضاءل كلما بعد عن الشاطئ، ثم رأوا قاربا يتحول إلى كتلة ليس لها ملامح وهي تتباعد من الشاطئ وتقترب من الجزيرة. الجو صحو، والشمس مشرقة، لكن السحب بدأت تتكاثر، واحتمالات المطر قوية. ماذا سيفعل محمد علي؟ حدث ما توقعوه. هطل المطر بشدة. وبدأت الرياح تشتد، والأمواج تعلو. ولا شيء في الأفق ينبئ عن عودة الغلام. لم يجد الأولاد مكانا يحتمون به من المطر وهم ينتظرون عودة محمد. فتفرقوا قسمين: سليمان عاد إلى البيت يخبر أباه بما فعل محمد. وبقية الأولاد اتجه إلى بيت محمد علي يخبرون أمه، ويخبرون أهاليهم بالأمر.

أما الغلام نفسه فقد بدأ يشعر بالتعب بعد مرور حوالي الساعة من مغامرته. لم يكن الجو قد انقلب بعد، لذلك لم يكن قلقا. لكن حين شعر برذاذ المطر خفيفا أولا ثم ثقيلا بعد ذلك استحث نفسه على الوصول إلى شاطئ الجزيرة التي كاد يقترب منها، ثم وصل إليها بعد وقت ليس قليلا. ماذا سيفعل على الجزيرة وحده؟ لا يدري. كان يتمنى أن يأتي معه أصحابه يلعبون قليلا على شاطئها، ثم يعودون آخر النهار، لكن هاهو وحده لا يدري ماذا يفعل في هذا الجو المطير. ربط القارب بشدة إلى صخرة، ثم جلس تحت شجرة كثيفة ينتظر توقف المطر وسكون الريح. وليستريح من عناء المسافة.

الوقت يمر، ولا تبدو في الأفق نذر تحسن في الجو. مالت الشمس

قليلا تجاه الغرب. "لو ظلت السماء تمطر هكذا فلن يتمكن محمد علي من العودة اليوم، هذا إذا كان قد وصل إلى شاطئ الجزيرة سالما. "الرحمة يا رب. رفقا بأمه المسكينة". كان طوسون يحدث نفسه وهو واقف على الشاطئ مع عدد من أصدقائه وأصدقاء أخيه إبراهيم يتطلع إلى الجزيرة، ويرجو أن تكف السماء عن العبث به وبأم الغلام. كانت خضرة تقف غير بعيدة من جمع الرجال متجمدة في مكانها غير عابئة بالمطر الذي يهطل عليها.

ماذا لو.....؟ لم تكمل الجملة، ولم تسمح لها أن تتسرب في حناياها. كيف يمكن لها أن تعيش بعد اليوم. هل يختبرني الله في محمد؟ طال عمره أكثر من أخوته. فهل هذه هي النهاية؟ لكن لماذا؟ لماذا أنا؟ ماذا فعلت؟ إنني أؤدي كل الفروض، وأحسن إلى الناس. فلا أستحق هذا العقاب. آه، أحيانا أضرب الجاريتين ضربا مؤلما. وألوم نفسي أحيانا. لن أفعل ذلك مرة أخرى. لن أفعل. فقط أعده لي يا الله وسأعتق الجاريتين، وسأصلي الف ركعة، وسأعطي كل ما عندي للفقراء. فقط أعده لي. لكن قلبي يحدثني أنه وصل إلى الجزيرة، وأنه حي، وسيعود مرة أخرى. لا لم يحدث له شيء. لكن إذا كان حيا، فلماذا لم يعد حتى الآن. لا بد أن قاربه قد انقلب وغرق محمد. وبينما هي غارقة في هواجسها، اقترب منها طوسون وأخبرها أنه ذاهب مع إسماعيل صديق أخيه بقاربه الكبير إلى الجزيرة لمعرفة ماذا حدث للصبي.

لما اقترب الرجلان من الجزيرة وجدا القارب الصغير مربوطا في صخرة على الشاطئ، اطمئن طوسون على نجاة محمد. لكنهما لم يجدا الصبي على الشاطئ، وجداه داخل الجزيرة يطارد ثعلبا بخنجر أبيه الذي استولى عليه خلسة من البيت. عادا به وبالقارب قبل آخر ضوء في الغروب. كان المطر قد توقف، لكن أمه التي غرقت ملابسها تحت زخات المطر كانت واقفة هناك تنتظر. ولما رأت القارب، ولما رأت الرجلين، ولما رأت ابنها حيا. سقطت على الأرض في إغماءة لم تفق منها إلا وهي على السرير في بيتها.

الفصل الخامس

الذين رأوا حسن الآن، ولم يكونوا قد رأوه منذ زمن يتعجبون من مرآه. أصبح في الثامنة عشر من عمره، شاب يافع ذو بشرة قمحية ولحية متوسطة الكثافة شديدة السواد، وجهه طويل لكنه ليس شاحبا، عيناه عسليتان ونظرته للآخرين غير مقتحمة، يغضي حياء حين يتحدث إلى أمه أو إلى واحدة من جاراته اللائي يعدهن كلهن أمهاته أيضا. ليس هذا هو التغير الوحيد في حسن. طريقة عنايته بملابسه لافتة للنظر. يرتدي حسن الملابس التي تميز الأزهريين: الجبة والقفطان والعمامة البيضاء التي يحرص على العناية بنظافتها وبخاصة في الأيام الحارة حيث العرق المتصبب والأتربة العالقة في الجو تحيل لونها فيصبح لا هو أبيض ولا أصفر، وهو ما يراه

في عمائم الآخرين مثل بكر صديق الطفولة وسليم المشاكس الذي لم يتغير منذ أن رافقه للمرة الأولى في الأزهر وحتى الآن. يحب حسن أن يكون نظيفا دائما، متناسقا في هندامه على عكس صديقيه اللذين انشغلا بأمور أخرى.

لا تتناسب هيئة حسن مع فقر أسرته الشديد، أبوه خليل لا يستطيع أن ينفق عليه حتى يظهر بهذه الصورة. لكنه هو الذي اكتشف في نفسه موهبة استثمرها في كسب رزق أتاح لأسرته أن تعيش عيشة بلا مفاجآت قاسية. حسن خطه جميل ومتناسق، وعى ذلك مبكرا حين كان يتعلم الأبجدية. شغف بالخط العربي: تشكيلاته الجميلة وإمكاناته اللانهائية، وكان يستغرق وقتا في تأمل الخطوط المرسومة في جامع السلطان حسن أو في جامع الغوري، وشغفه الأكبر كان مكوثه الطويل في دكان علي بن موسى الجناجي أخي الشيخ محمد بن موسى الجناجي العلامة المحقق والفهامة المدقق الشافعي ذي الحظوة والمكانة عند الشيوخ والعامة والمماليك. علي هذا كان خطاطا بارعا، حافظا للقرآن الكريم. كان ينسخ القرآن بخط جميل دقيق، ويتحدث مع الناس وهو يكتب من حفظه ولا يغلط. استوقف هذا حسن، كان يراقبه من خارج الدكان وهو يكتب ويتعجب من قدراته الخارقة، ولما لاحظه الرجل دعاه، وسأله، واختبره، فلمح فيه نجابة، وموهبة في النسخ، فجعله يعمل عنده في أوقات الفراغ. وأعطاه طعاما وشرابا أولا، ثم نفحه بنصف

أو نصفين، وربما أكثر، وتجمع لدى حسن من هذه الأنصاف قدر لا بأس به من المال كان يعطي أخته شَحتة نصيبا كبيرا منه، كما يعطي أمه. ويستبقي لنفسه ما يكفيه. كان هذا من سنتين تقريبا. بدأ علي يعلمه أسرار خط النسخ أكثر أنواع الخطوط استخداما في كتابة القرآن الكريم، وأول ما يتعلمه الناشئ من أنواع الخطوط. كما تعلم حسن منه بعض الأسرار في الكتابة. تعلم أن التناسق بين الخط والنقطة والدائرة من الأمور الحيوية التي تخرج العمل المكتوب مكتملا. كما استطاع أن يميز بفضل هذا الرجل بين أنواع الخطوط: الكوفي والفارسي والريحاني والديواني وغيرها. وكل هذا كان لحسن مورد رزق لا ينضب، وبخاصة في المحيط الذي يتحرك فيه بين الأزهر والحسين وسوق العطارة الذي يعمل فيه والده. اشتهر في هذه الأماكن بخطه الجميل، فكان كثيرون يطلبون منه نسخ بعض سور القرآن الكريم، أو حتى بعض الأحاديث الشريفة، وكان يأتيه أحيانا من يطلب منه نسخ كتاب أو ديوان شعر.

حين يجلس حسن مع أخته شَحتة في الحجرة التي حل فيها سرير متين صنعه خاله عيد وخزانة ملابس احتلت حيزا غير ضئيل من الحجرة الوحيدة التي يسكنون فيها، فإن حديثهما ذو شجون. شَحتة ستتزوج قريبا من ابن خالها. تأخر زواجها قليلا ربما بسبب ظروفه المضطربة التي لم تجعله مستقرا في عمل واحد أكثر من شهر، والآن هو يعمل حمالا في وكالة الغورية يعرض خدماته لكل

المتسوقين، وحصيلته اليومية لا بأس بها، أتاحت له أن يستأجر غرفة في البيت نفسه الذي تسكنه عائلتها، وكان هذا شرطا لم توافق رتيبة على الزواج إلا به. ألا تسكن ابنتها الوحيدة بعيدة عنها. يحكي حسن لشحتة كل ما مر به طوال اليوم. يحكي لها عن الأزهر وما يحدث فيه، وعن الفقراء الكثر الذين يعيشون حوله ويعيشون على إعاناته، وعن مشاغبات سليم التي لا تتوقف وتردد عبد العال جارهم وعدم انتظامه في دروس الأزهر.

يحكي لها أيضا عن يوسف صاحبه النصراني الذي توترت علاقته ببكر فآثر الانسحاب من جمع الشباب الذين كانوا يلتقون أحيانا أيام الجمع. بكر يرى أن المسلم يجب ألا يصادق المسيحي، يقول له بكر إن الرسول عليه الصلاة والسلام قال "المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل" وتؤمن شَحتة على رأي بكر "معه حق ألا ترى أن لهم رائحة غريبة ليست مثل رائحتنا، كيف تطيق الجلوس معه؟" ويحاول حسن إفهام أخته الأكبر منه سنا أن حديث الرسول حديث ضعيف، وأن دينه لا يتأثر بعلاقته بيوسف. وأنهما يتجنبان الحديث في العقيدة. وأنه –برغم مصاحبته ليوسف – يصلي ويصوم. ولا تقتنع شحتة كما لم يقتنع بكر. يتركها وينام. قبل أن يستغرق في النوم، بدا له هذا النقاش مع شحتة أو مع بكر عبثا ومضيعة للوقت، الأحوال في مصر مقبلة على شدة لا يعلم إلا الله مداها، حين كان يطلب من أمه أو أخته أن تعد له طعاما،

لايقدم له إلا القليل، والسبب أن مخزون الطعام لديهم بدأ ينفد، وحين يذهب إلى الأسواق القريبة لابتياع بعض الحبوب والطحين، وبعض مما يؤكل من خضروات، فإنه يجد مشقة في الحصول على ما يريد، وربما ينفق كثيرا من الوقت حتى يعود محملا بما تطلبه أمه. لاحظ أن روائح الطبيخ المتنوعة التي كانت تميز بيتهم بدأت تقل، قد يمر اليومان والثلاثة ولا تشم رائحة طبيخ في كل البيت، ولا عمل لدى النسوة غير انتظار ما يأتي به الرجال من طعام، وتدبير الحياة بما قد يتاح أحيانا. تقلب حسن في فراشه، لم ينم نوما متواصلا، شخير أبيه النائم بجواره يعمق من حالة الأرق عنده، فكر أن يخرج قليلا من الحجرة والبيت، لكن برد الخريف في هذا الوقت من الليل حجزه. ماذا لو اشتدت الأمور أكثر مما يرى، سمع من أمه كثيرا عن معاناتهم في سبيل الحصول على طعام في بعض السنوات، لكنه منذ وعى الدنيا لم يختبر هذه الأيام التي تتحدث عنها أمه بأسى وحزن عميق. أبوه لا يتحدث أبدا، لا يقول له أبدا أنه اضطر أحيانا إلى تسول الطعام حتى لا يموت هو من الجوع، لكنه يستنتج هذا بداهة. يؤلمه هذا الشعور، لقد أصبح الآن شابا قادرا على الكسب، وأبوه اقترب من الستين، وهي معجزة أن يظل على قيد الحياة حتى هذا العمر، يحمد الله على نعمة الأسرة، يحمده أن له أما حنونا، وأختا طيبة، وأبا صبورا. لكنه يرى نفسه الآن العائل لهذه الأسرة، أو هكذا ينبغي أن يكون. وصمم على أمر.

في الصباح حين استيقظ أبوه، كان هو قد سبقه، جلس إلى جواره على السرير، بينما كانت أمه تضع قطعا من الخبز الناشف في الماء تبلله ليطرى، ويقدر خليل على بلعه بعد أن تهدمت أسنانه. قال لأبيه:

- سأذهب معك اليوم وكل يوم لأساعدك في الدكان.

لم يرد خليل، بل ردت أمه: لكنك تكسب يا حسن. والحمد لله أحوالنا بخير.

- نعم يا أمي، لكن ما المانع أن يكون لدينا أكثر. أنا غير مطمئن للأحوال هذه الأيام. ربت خليل على كتف حسن بيد، وباليد الأخرى منع دمعة أن تنزل من عينيه.

لما وصل إلى الدكان مع أبيه، وجد صاحبه قد سبقهما وفتحه. طلب حسن من أبيه أن يجلس، وسيقوم هو بكل العمل. يشعر حسن بقلق على أبيه أن يتهاوى فجأة، لذلك صمم على أن يريحه، ويقوم بالعبء الأكبر في البيت. برغم أنه ليس قريبا من أبيه قربه من أمه، فإنه يحاول قدر جهده ألا يبدو منحازا إليها. يشعر أبوه بهذا، وكثيرا ما قال له إنه ابن أمه. ربما كانت هناك أسباب قارة في أعماق حسن جعلت ميله واضحا تجاه أمه، لكنه الآن، وبالضرورة الآن، يجب أن يتلمس طريق مشاعره بين الاثنين، أن يضبط هذا الطريق فلا يميل به إلى أمه وبخاصة أمام أبيه. أبوه في هذه السن

لا يتحمل ما كان يلاحظه عليه قبلا. كأنه ارتد طفلا مرة أخرى. وأمه برغم شكواها المرة من أبيه ترتبط بهذا الرجل ارتباطا لا يمكن فهمه من بعيد.

صاحب الدكان طلب من حسن ألا يخرج أجولة البهارات أمام الدكان. حوادث السرقة والخطف والسطو على الدكاكين كثيرة هذه الأيام. أخبره أنه سيذهب إلى دكانه الآخر في الغورية، لكنه يجب أن ينتبه. الرجل كان سعيدا بحضور حسن، خليل أصبح غير قادر على العمل. لكن طول العشرة يمنعه من صرفه، تحمل خليل معه أياما صعبة.

انتظم حسن مع أبيه تقريبا لولا بعض الغيبات عن الدكان التي يذهب فيها إلى الأزهر أو إلى دكان على النساخ الذي يكلفه أحيانا ببعض الآيات لينسخها: مرة يجلس عنده لينجزها ومرات يأخذها معه إلى دكان أبيه كي لا يترك أباه مدة طويلة.

جلبة السوق معتادة كل ضحى، يتزايد الناس في هذا الوقت من اليوم، فتتميز حركتهم بإيقاع تعود عليه أصحاب الدكاكين والعمال والحمالون، كما أن مساومات الزبائن معتادة أيضا سواء في علو الأصوات أو انخفاضها، أو الضحكات المصاحبة لها. تعطي للمكان ألفة وحيوية يحبها كل من في السوق. لكن السوق في هذا اليوم يبدو غريبا موحشا، على الرغم من الناس، وعلى الرغم من

شمس النهار الدافئة. الناس كثر، لكن البيع قليل، العيون تتطلع يمنة ويسارا، وجوه غير مألوفة بملابس ريفية، رجال وأطفال ونساء يتحركون في السوق حركة مقلقة لأصحاب الدكاكين. حسن يراقب كل هذا ويسأل أباه، فيخبره أن الأحوال هكذا منذ أيام عديدة.

يظهر أتباع مراد بك في السوق بأسلحتهم المعتادة. يجوبون السوق، ويحذرون التجار والعمال من هؤلاء اللصوص القادمين من خارج مصر. وقف أحدهم أمام دكان خليل، كان الرجل يجلس القرفصاء أمام الدكان يراقب ما يحدث، بينما كان ابنه يرتب أشياء بالداخل، خلع المملوك الحزام والجراب الذي يضع فيه سيفه، وعلقه دون السيف على باب الدكان، نظر إلى خليل نظرة ذات معنى، ثم مضى.

من الداخل سأل حسن أباه. لماذا يترك هذا الرجل حزامه هنا معلقا على باب الدكان؟

– أمر الله يا حسن. الرجل يحمينا بحزامه هذا. هو يقول إنه إذا وضع حزامه على الدكان، فلن يجرؤ لص أن يقترب منكم.

– مشكور على أية حال، لكني لا أظن أنه يفعل هذا لله.

– من يفعل شيئا لله هذه الأيام. الرجل سيأتي آخر اليوم وسيقاسمنا في مكسبنا طوال اليوم.

انزعج حسن مما سمع، وأمسك بالحزام يريد أن يلقيه بعيدا، لكن أباه المنزعج أكثر قفز فوقه وأمسك بالحزام تاركا إياه مكانه: تريد لأبيك أن يموت يا حسن، خليه في مكانه.

آخر النهار جاء المملوك، وبعربية لا تكاد تبين سأل خليل عن حصيلة اليوم. كان القليل الذي تم بيعه اليوم مع حسن، لما سأل خليل ابنه أن يعطيه نصف ما معه. رفض حسن ذلك متعللا أن صاحب الدكان ليس موجودا ولا يستطيع أن يعطيه شيئا.

صرخ المملوك في وجه خليل: نحن نحميكم يا كلاب، وهذا حقنا. أمسك بخناق خليل، لكن حسن دفع المملوك بعيدا عن أبيه طالبا منه أن يدخل إلى الدكان، وواقفا بتحد أمام المملوك الذي فوجئ برد فعل الابن. أيقن المملوك بسرعة أنه إن لم يأخذ رد فعل قوي، فإنه لن يستطيع دخول السوق بعد اليوم. هيبته على المحك وبخاصة أن عددا من عمال السوق بدأ يتابع من بعيد. عاجل حسن بلكمة في فكه الأيسر، كان حسن منتبها فمال برأسه إلى الوراء ليكون وقع اللكمة خفيفا عليه، لكن رد فعله كان أسرع مما توقع المملوك، إذ عاجله بضربة في بطنه اهتز لها الناس وهللوا، كان المشهد مثيرا. السوق كله تجمع أمام الدكان يشهد هذا الشجار الجسدي النادر بين مصري ومملوك. أمسك المملوك بخناق حسن يريد قتله، لكن حسن استطاع أن يفك قيد رقبته ويضرب المملوك برجله بين خصيتيه،

ليرتفع بعدها صراخه، ويزداد هياجا وهو ممسك بحسن الذي دفعه إلى الجدار، لكن المملوك استطاع أن يوقع بحسن على الأرض وأن يقع فوقه، حسن استطاع بمهارة أن يقلب المملوك وأن يكون هو فوقه، ثم بدأ يكيل له اللكمات. والناس تشاهد وتستمتع دون تدخل. لكن الأمر اتخذ بعد ذلك مسارا خطيرا حين وصل زملاء المملوك وشاهدوا اللقطة الأخيرة وحسن يضرب زميلهم. اثنان أمسكا حسن من كتفه ورفعاه عن زميلهما ـوالباقي وقف في مواجهة الناس، ظل الاثنان يضربان حسن في جميع أجزاء جسمه حتى دمي وجهه وتمزقت ملابسه، لكن المماليك جميعا أدركوا أنهم لن يتمكنوا من فعل أكثر مما فعلوا، الناس أكثر عددا منهم، ولو قتلوا حسن أو أباه فربما لن يستطيعوا الخروج سالمين من السوق. انسلوا من السوق متوعدين الناس بالويل والثبور وعظائم الأمور. لكن فرحة العمال والحمالين بحسن كانت قوية، تجمعوا كلهم عليه، أحضروا ماء ومسحوا به وجهه وأثنوا على ما فعل، أصحاب الدكاكين وضعوا أيديهم على قلوبهم.

في الطريق إلى البيت، كان المزاج متعكرا جدا بين خليل وحسن. الأب لم ير فيما فعله حسن إلا تصرفا أهوج وحماقة كادت تودي بحياته، ماذا لو أعطيناه ما طلبه؟ صاحب الدكان يعرف ذلك ويوافق عليه. ما شأنك أنت؟ كان من الممكن للرجل أن يقتلك. ماذا ستكسب وقتها؟ كل الناس تفعل ذلك ولا تعترض. هل أنت الذي

ستصلح الكون؟ ربنا يريد ذلك، لماذا تعترض أنت؟ يرغي الرجل ويزبد ويرتفع صوته على ابنه غير عابئ بآلامه. يدرك الأب توابع ما فعله حسن. يعرف تماما أنه لن يستطيع العودة إلى الدكان قبل فترة طويلة، أتباع مراد بك لن يجعلوا هذه الحادثة تمر بيسر. لم يشأ حسن أن يرد، لم يشأ أن يقول له إنه كان يحاول منعه من أن يضربه. صورة المملوك الذي ضرب أباه قبل ثماني سنوات لم تبرح مخيلته، ظل بعدها لا ينام، ظل يشعر بالخزي والهوان دون أن يعرف ما يفعل، برغم صغر سنه وقتئذ، فإن صدمته أن يرى أباه يُضرب أمامه أكثر من احتماله. ظلت صورة الصفعة تخايله زمنا، لم يبرأ منها حتى اللحظة، فهل في مكنته أن يرى أباه يُضرب مرة أخرى ويسكت.

صرخت رتيبة حين رأت ابنها، وبكت شَحتة. لكن حسن طمأنهم على نفسه: أنا بخير لا تقلقوا. تجمع الجيران على خليل وأسرته، النساء في الحجرة، والرجال أمامها، أخذهم خليل وخرجوا من البيت. تباينت الآراء فيما فعله حسن، بعضهم أثنى على فعلته، وبعض آخر وافق خليل. لكن أجمع الكل على صعوبة عودة خليل إلى الدكان مرة أخرى.

لكن راحت السكرة وجاءت الفكرة. ماذا ستفعل يا حسن الآن؟ بعد أن كنت تساعد أباك على تحمل الأعباء، أصبحت الآن وحدك المسؤول عن الأسرة. أرنا مهارتك يا "أبو علي". في هذا الوقت

حسن ليس متيقنا تماما من صواب ما فعله مع المملوك. هل يجب أن ندفع الناس إلى خيارات لا يرضون بها؟ هل يجب علينا أن نخلخل عالمهم ونعيد ترتيب علاقات الأطراف فيه على هوانا لمجرد أن ما نراه فيهم لا يروقنا؟ رضي أبي أن يُضرب ورضي الآخرون أيضا. رضوا كلهم أن يُسرقوا، وأن يستحوذ أغراب على مكاسبهم، فما شأنك أنت؟

خنقه جو الحجرة، فخرج يلتمس هواء نقيا، لمحه عبد العال، فنادى عليه ونادى بكر ليجلس الأصدقاء الثلاثة خارج البيت. يحاول الاثنان أن يسريا عنه. امتدحا شجاعته ودفاعه عن أبيه. لكنهما شعرا أيضا بأزمته القادمة. لم يكن الوقت مناسبا للحديث. لكن بكر طلب منه بإلحاح أن يستغفر ربه، وأن يدعوه ليفرج كربته. أن يستخير الله ليجعل له مخرجا يطمئن له. الدعاء يقوم بعمل السحر يا حسن. ادع الله ليستجيب لك. بدأ عبد العال يحكي حكايات غريبة عن نسوة رآهن على النيل في أوضاع غير محتشمة على النيل مع بعض المماليك، وعن نفور الناس وتأذيهن مما يرون، لكنهم لا يفعلون شيئا لمنع ذلك. كل هذا وحسن يستمع دون أن يشارك. ذهبوا لصلاة العشاء في مسجد قريب. أطال حسن في صلاة السنة بعد العشاء. أطال أكثر في صلاة الشفع والوتر. ما هو مقبل عليه لم يكن مرتباً له. لم تؤلمه المسؤولية. سيتدبر أمره بطريقة ما، بل آلمته الإهانة. صحيح أنه اقتص لنفسه ولأبيه. لكن الإهانة وقعت.

ما الذي يفعله هؤلاء المماليك معنا؟ كل يوم حوادث نهب وقطع للطرقات وفرض إتاوات تحت دعوى الحماية. بل أخذ الفردة عن مكاسب العام المقبل. ماذا يفعل الوالي إذن؟ ألا يعرف ما يحدث؟ فلماذا لا يتدخل؟ نحن لا ملجأ لنا بعد الله إلا الوالي، هو الذي سيمنع عنا جور المماليك واستحواذهم على زرق الناس بالباطل. وصمم على أمر.

لم يشأ أن يخبر صاحبيه بما نوى. في الصباح، اتجه إلى الأزهر. في الطريق وجد جماعات من الرجال والنساء والأطفال يبدو أنها قادمة من الريف تتحرك حركة عشوائية في الطرقات الرئيسية وفي الدروب الفرعية. زحمة أكثر مما يتعود أهل مصر. لكن سلوك هذه الجماعات بدا عدوانيا لحسن، لا يتورعون عن الاستيلاء على "فرش" لرجل يضع عليه بعض الباذنجان المقلي والطماطم. أو يخطفون طعاما من يد آخر غير منتبه. وكثرتهم تبحث في الزبالة عما يؤكل.

لكن ما لفت انتباهه وجعل الدم يتجمد في عروقه مشهد مجموعة من هؤلاء الرجال الذين تجمعوا حول رجل يركب حمارا، أنزلوه من على الحمار، ثم مزقوا الحمار أشلاء، وجرى كل واحد منهم بشلو مما استطاع الحصول عليه. أثار المشهد أصحاب الدكاكين الذين كانوا قد أخفوا بضائعهم خوفا من زحف هؤلاء القادمين من

الريف، مع ذلك فإن بعضهم بكى من شدة ما رأى. حسن أيضا بدأ يقارن بين غضبته بالأمس وأسبابها، وما يراه بعينيه الآن. إذا كنت تدافع أنت عن كرامة أبيك وكرامتك، فإن هؤلاء وصل بهم الجوع حد الاقتتال على حمار يأكلون لحمه نيئا. إذن أيهما الذي يستحق أن تدافع عنه: الكرامة المهدرة أو الجوع الذي أوصل الناس إلى ما رأى؟ فهل يعي الوالي والأمراء وكبار التجار الحال الذي وصل إليه الناس؟ لا شك أنهم يعلمون. ماذا فعلوا إذن؟ وهذا الرجل المملوك الذي وضع حزامه على الدكان، يريد أن يقاسمنا في رزقنا، هل الخوف من الجوع هو الذي دفعه لفعل ما فعل؟ وهل يعرف أسياده هذا؟ وهل يقرونه على ما فعل؟

قابل الشيخ الدردير في الأزهر، حكى له ما حدث له، كما حكى له ما شاهده في الطريق. لم يبد الشيخ منزعجا مما سمع، قال له:

- نحن نحاول يا بني مع الأمراء، تعرف أن النيل شح العام، والمحاصيل قليلة، ولا يصل من هذا القليل إلى أيدي الناس إلا أقله.

- يا مولانا، إن لكم في الأزهر حظوة وكلمة مسموعة عند الوالي والأمراء، فلماذا لا تكلمونهم حتى يكفوا أذاهم عنا. نحن لا نريد منهم حماية، نريد فقط أن يكفوا أذاهم عن الناس.

- ومن قال لك يا بني أننا لم نكلمهم. لكن الوضع صعب جدا، نذهب إلى مراد بك، فيقول لنا إن أتباعه يحمون الناس من إبراهيم بك، ونذهب إلى إبراهيم بك، فيقول لنا الكلام نفسه.
- لكن لماذا لا ترفعون الأمر إلى الوالي.

ضحك الرجل ضحكة أراد أن يداريها: الوالي نفسه لا يملك من أمره شيئا، ألم تعرف أن الوالي السابق طلبوا منه أن ينزل من القلعة ويرحل عن مصر، فامتثل للأمر، ثم تراءى لهم أن يستبقوه لأسباب يطول شرحها، فعاد مرة أخرى. ستقول لي إن الباب العالي هو الذي يعين الولاة، وأقول لك إن المماليك إذا لم يرضوا عن سلوك الوالي الجديد، فلن يستطيع أن يبقى في القلعة يوما واحدا. هؤلاء ولاة أمورنا ويجب أن نكون على حذر ونحن نتعامل معهم حتى نحصل للناس على حقوقهم، وإلا فإن الأمور ستزداد سوءا.

- لكن لماذا لا تكتبون للباب العالي إذن؟
- ومن قال لك إننا لم نكتب؟ لكننا لم نتلق ردا حتى الآن. الناس هناك لديهم أمور أكثر أهمية مما يحدث في مصر. اصبر يا حسن، اصبر. فرج الله آت لا ريب في ذلك.

خرج حسن من عند الشيخ الدردير محبطا، كأنه عاد إلى نقطة البداية. كان يأمل من الشيخ أن يناصره، فلم يستمع منه إلا إلى تبريرات لا تغير كثيرا في الأوضاع القائمة، الرجل يؤمن بالمنطق

الذي يتحدث به، لا تشغله كثيرا الإهانات التي يتعرض لها الناس. حوادث كل يوم التي أصبحت جزءا من حقائق الحياة على أرض مصر يجد طريقة عجيبة في تجاوزها والتعايش معها. الشيوخ لا يتدخلون إلا إذا عمت الإهانة، وفشا القحط ولم يجد الناس ما يأكلونه. يتدخلون عند ولاة الأمر لاسترضاءهم والطلب لديهم أن يفيضوا من الخيرات التي حازوها على الناس حتى تهدأ، أما أن يحاولوا وقف كل هذا، فلا يدري حسن أنهم حاولوا، لعلهم فعلوا ذلك لكنه لا يدري.

عاد إلى البيت وجلس مع صديقيه بكر وعبد العال، وتحدثوا في كل شيء، وخاضوا في غمار ما يخوض فيه الناس، عبر حسن عن قلقه مما يحدث، وكذلك عبد العال، لكن بكراً كان متسلحا بإيمان لا يتزعزع بأن بعد العسر يسرا، وأن الله سيأتي بالفرج من عنده، المهم أن نعود إلى الله وأن نتمسك بالدين، هذا هو ملاذنا الدائم من مفاجآت الحياة. لكن حسن – برغم أنه حاول أن يتجاوز أزمته الطارئة بالحديث اللاهي مع صاحبيه – كانت الأفكار تعبث في ذهنه، وحلول الخروج من هذه الأزمة لا يبدو أي منها مريحا له. لكنه – مع ذلك – اختار الحل الأكثر أمنا.

ذهب إلى دكان علي الخطاط، وعرض عليه أن يعمل عنده طوال النهار، على أن يسمح له في بعض الأوقات أن يذهب إلى

الأزهر لحضور بعض الدروس. حكى للرجل قصته كاملة مع المملوك. تفهم الرجل الموقف، ووافق على طلبه، بل سعد به. حسن موهوب، وهو خير عون له. قال له إن العمل كثير، وبإذن الله ستكون مستريحا معي. من يدري لعلك ترث هذا الدكان. أولادي ليست لديهم موهبتك في الخط، ويقينا أنت الأولى الآن.

الفصل السادس

الميناء في قولة يزدحم في الصباح دائما، السفن الخارجة من الميناء أو الداخلة إليه تفضل أن تبدأ حركتها مع تباشير الصباح الأولى، في هذا الوقت من اليوم تكون الرؤية أنقى ومزاج الملاحين أهدأ مما يتيح لهم التعاون في إخراج السفينة من الميناء أو إدخالها دون شجار عنيف يحدث كثيرا عندما تطول غيبتهم في البحر، كما يساعدهم على تجنب الأماكن الصخرية التي تسبب أضرارا للصغير من السفن والكبير منها. تفضل السفن الآتية إلى قولة – إذا تصادف وصولها مساء – أن تنتظر في "عرض البحر" حتى الصباح فلا تدخل الميناء إلا مع الساعات الأولى من اليوم التالي. وأكثر أيام الميناء ازدحاما يوم الخميس. ليس هناك سبب واضح

لزحمة هذا اليوم. ربما كان الناس يفضلون إنهاء كل أعمالهم في هذا اليوم تحسبا ليوم الجمعة الذي تخف فيه الحركة إلى حدها الأدنى.

وسط صخب الحمالين وروائح التبغ والبهارات والغلال والزيوت وغيرها من البضائع القادمة من أماكن قريبة مثل إيطاليا وفرنسا وأسبانيا، أو أماكن بعيدة مثل الشام ومصر وأماكن أخرى لا يدريها محمد على – وسط كل هذا وقف الشاب بجوار طوسون عمه. طوسون تاجر موسر كفل محمد على بعد وفاة أمه. وقف الاثنان ينتظران "حمولة" من التبغ يفرغها عمال الميناء على عربات أحضرها طوسون خصيصا. روث الأحصنة التي تجر عربات عمه يزكم الأنوف، ويملأ المكان قذارة، لكن الزبالين حاضرون دائما لتنظيف الميناء. ينتهي الحمالون من عملهم، ويذهبون إلى محاسبة الرجل الكبير، فيشير إليهم بأن يتفاهموا مع محمد. يشعر الرجال بالإحباط. هم يفضلون التعامل مع طوسون. الرجل كريم، ولا يبخل عليهم، بل يزيدهم أحيانا فوق ما يطلبون. أما هذا الشاب قصير القامة الذي أتى إليهم من حيث لا يدرون، فلا يحسنون التعامل معه. ترك عمه له أمر التعامل المادي في الميناء، يريد له أن يكتسب مهارة التعامل مع البشر. لكن بدا محمد علي أكثر استعدادا لذلك بما يفوق خيالات عمه. ظل الفتى يساومهم على أجر التحميل. يقولون له إننا اتفقنا على أجر محدد مع الشوربجي، لكنه

يتعلل بأن الحمولة خفيفة ولم يستغرق وضعها على العربات إلا وقتا قليلا. ومن الواجب عليهم أن يقللوا من الأجر حتى يطلبهم مرة أخرى. يدعي محمد انه يستطيع أن يأتي بعمال من خارج الميناء أكثر سرعة وأقل أجرا، لكنه لا يريد، لأن طوسون يتعامل معهم من زمن. ويخضع العمال في النهاية مدركين أن الوقت الذي يستغرقونه مع الفتى هم أولى به، وبخاصة في هذا اليوم المزدحم بالعمل. عمه كان مشغولا بالحديث مع بعض التجار الذين ينتظرون بضائعهم، لكنه كان يتابع محمد في مساومته العنيدة مع العمل. حين يأتي له محمد منتشيا بقدرته على توفير جزء من أجر العمال، يطلب من عمه أن يتركه للتعامل مع مسؤولي الميناء الذين يحصلون رسوما على البضائع الداخلة إلى المدينة، لكن الرجل يرفض، لا يريد أن يخسر هؤلاء الرجال، معهم يجب أن تكون أكثر كرما. إذا طلبوا درهما أعطهم اثنين. لا تدري كيف يمكن أن يخدموك في أوقات الأزمات.

حين وصلت البضاعة إلى مخازن الشوربجي في الجزء الشمالي من المدينة، اكتشف محمد على أن جوالين من التبغ من إحدى العربات ممزقين وفارغين. أرغى وأزبد في وجه السائق الذي حاول أن يفهمه أن بعض الأولاد الصغار يقفون خارج الميناء ينتظرون العربات الخارجة. يترصدون العربة الأخيرة إذا كانت هناك أكثر من عربة. فيسرقون منها ما يستطيعون مستخدمين في

ذلك آلات حادة تمزق الأجولة فيتناثر ما بداخلها ببطء دون أن ينتبه السائق. يتعلم الأولاد ألا يشدوا الجوال بكامله لأن ارتطامه بالأرض ينبه السائق فيقف. يصر محمد أن يدفع السائق ثمن الجوالين. أجرة النقل أقل بكثير من ثمن جوال واحد. والرجل يصر على أنه لا ذنب له فيما حدث. لأن هذا يتكرر كثيرا معي ومع غيري. وطوسون يعرف ذلك ويقدره. الفتى لا يبدو أنه انتبه لحجج السائق لأن تصميمه على أخذ ثمن الجوالين اتخذ عنده منحى عنيفا لم يرق لعمه الذي جاء على عجل، وفض الاشتباك الوشيك بين الفتى والرجل.

يحب طوسون ابن أخيه كثيرا. يرى فيه ابنا آخر له إضافة لأبنائه الذين استقل كل واحد منهم بعمله، حتي سليمان أصغر أبناء طوسون ارتضى أن يرافق أحد إخوته في تجارته تاركا محمد علي وحده مع أبيه. يطمئن طوسون لمحمد على الرغم مما يرى منه أحيانا مكرا ودهاء في التعامل مع العمال والزبائن لا يرضى إلا إذا حقق ما أراد. يتساوى فيما يريد بضاعة حدد لها سعرا فوق ما قال له عمه أو شيئا أراد أن يشتريه لنفسه بأبخس الأثمان. ومحمد في المقابل لا يجد مأوى له في هذه الدنيا إلا العالم الذي يعيش فيه عمه. يؤكد له عمه في كل حين أن نصيبه مما يملك قائم على الرغم من أن الشريعة لا تعطيه ذلك. أبناؤه الذكور والإناث سيرثون كل

شيء، لكنه استبقى لمحمد جزءا يحميه من غوائل الزمن إن حدث له حادث. يرى طوسون في محمد أنه سيصبح تاجرا كبيرا، بل أكبر تجار قولة بما يمتلكه من ذكاء وقدرة على التعامل مع الناس.

يحلو لمحمد في الأوقات التي لا يكون فيها مع عمه أن يتجول في المدينة، وبخاصة في الجزء الشمالي منها. الحركة هناك أكثر صخبا، والطرق ممتدة شرقا وغربا إلى أنحاء الدنيا الواسعة. لم يبرح محمد على قولة حتى الآن. جل وقته قضاه مع أمه حين كانت على قيد الحياة، وفي بيته الذي تركه. أغلقه، وانتقل إلى بيت عمه. يشعر محمد بحيويته وسط الناس، لا يحب العزلة، ولا يحب أن يقر في مكان وحيدا. لا يخاف الوحدة لكنه يشعر بنفسه أسيرا إذا اضطر إلى ذلك.

أما الناس فهم الوقود الذي يبقيه متوهجا. لا تنتاب الفتى مثل هذه الهواجس في علاقته بالأمكنة والبشر، يعيشها دون أن يتوقف أمامها. يدخل السوق ويتجه صوب دكان المسيو ليون تاجر الجلود الفرنسي الذي استوطن قولة منذ ما يزيد عن ربع قرن. أحب المكان: البشر والأجواء الشرقية التي تحف به وتتغلغل فيه. فلم يعد إلى باريس مدينته الأولى إلا في زيارات لا تستمر طويلا. يجلس محمد إليه ويستمع منه بلكنته التركية المخلوطة بمخارج حروف تشبه النطق الفرنسي للكلمات. يحكي له عما في باريس من فن

وثقافة ومتعة. يستمع محمد بشغف ويستزيده، فيحكي له عن ملوك فرنسا، وعن ملوك أوربا، وعن صراعاتهم، وغزواتهم، يحكي له عن أسبانيا وعن رحلات كثيرين في أوربا إلى الأرض الجديدة التي يسمونها أمريكا. يحكي له عن روسيا وحروبها المستمرة مع العثمانيين. يشعر محمد أنه ينتقل إلى عالم آخر حين يكون مع ليون. يكسب من ليون معارف لم يستطع الحصول عليها من الكتب التي لا يجيد قراءتها، بل لا يحبها. يتركه ليعود إلى بيت عمه على وعد أن يعود إليه كلما تسنح الفرصة لذلك.

ينمو محمد، ينضج، يثمر، يكتمل. لكنه لا يتاح للآخرين. يتقوقع على نفسه، يتشرنق، فلا يطرح خيره لغيره. يحب عمه، لكن نفسه أكثر. يشعر بنفسه وسط الناس، لكنه يحس أنه المركز. بفطرة استطاع أن يداريها وأن يناور بها استطاع في سنه التي لم تتجاوز السابعة عشر أن تكون له ثروته الصغيرة، وأن تكون له حياته الخاصة. على الرغم من اعترافه بفضل عمه، فإن حقه في عمله معه لا يتنازل عنه، يأخذه من عمه بهدوء، يعطيه العم كأنه يمنحه، ويأخذه الفتى ممتنا شاكرا، لكنه في أعماقه يدرك أنه يأخذ حقه، بل أقل.

يوما كان راكبا جواده بجوار الميناء في الجزء الشمالي الغربي من المدينة في هذه المنطقة التي تستدير فيها قولة لتمتد داخل البحر

فيما يكون شبه جزيرة. هذا المكان يفضله الصيادون. يعرفون بالخبرة أن الأسماك تتكاثر في مياهه بسبب الفضلات التي تلقيها السفن، والتي تسحبها التيارات المائية إلى هناك. الأجواء غير مستقرة، والمطر ينزل خفيفا متقطعا، ثم ما يلبث أن يتوقف. ثم يشتد وتعنف الرياح. لمح رجلا جالسا على صخرة على الشاطئ واضعا رأسه بين يديه. أثار الرجل فضوله فاقترب منه وترجل من حصانه.

– مالك يا عم تجلس هكذا في هذا الجو البارد؟

تطلع إليه الرجل منتبها من سرحانه: شباكي هناك. وأشار بيده إلى مكان داخل البحر. كل ما أملك وضعته في هذه الشباك. لا أعرف ماذا أفعل؟

الرياح بدأت تزمجر، وامواج البحر تعلو، ومسألة أن تنجو الشباك في هذا الجو محل نظر. سترتطم بالصخور، وستتمزق تماما، ولن يستطيع الرجل استردادها ليعيد رتقها.

– لماذا لا تنزل إلى البحر وتحاول إنقاذ ما تستطيع إنقاذه؟

– لا أستطيع في هذا الجو أن افعل شيئا. ولا أضمن أن أعود سالما إن نزلت إلى البحر.

– ما رأيك أن أنزل أنا وأنقذ لك شباكك، بل أنقذ لك صيدك كله؟

تهلل وجه الرجل، وفرح: سأكون ممتنا لك، سأكون لك من الشاكرين: سأدعو لك بالليل والنهار.

- لا تشكرني ولا تدعو لي، بل أعطني نصف ثمن الشباك والصيد.

ذهل الرجل من العرض: النصف، النصف. هذا كثير.

- أيهما أجدى لك، أن أنقذ لك نصف ما تملك، وفوقه حصيلة الصيد، أو يضيع كله في البحر.

لا يملك الرجل وقتا يجادل فيه الفتى في عرضه، وافقه وطلب منه أن يسرع في إنقاذ شباكه. لكن محمد علي انتبه إلى أنه لا يوجد شاهد على وعد الرجل. من الممكن أن يرجع في وعده بعد أن أنقذ له شباكه وصيده. قال للرجل إنه سيذهب ليأتي بشاهد يعيد أمامه الوعد الذي قطعه على نفسه. سيعود بسرعة. ذهل الرجل من الفتى القصير. لكنه لم يملك من أمره شيئا. بعد وقت ليس طويلا عاد محمد ومعه السيد ليون. كرر الرجل أمام ليون وعده.

بهمة عالية أخذ الفتى قارب الرجل الصغير. وجدف به تجاه الشباك التي ربط الرجل أحد طرفيها في صخرة ناتئة في البحر، وربط الطرف الآخر في أخرى بعيدة عنها مستغلا تعرجات الشاطئ في هذا الجزء. صغر القارب جعله عرضة للموج يحركه كيف يشاء، لكن رباطة جأش محمد جعلته قادرا على إحداث توازن في

القارب بحيث لا ينقلب، فيغوص في الأعماق، ولا تضيع الشباك فقط، بل يضيع معها كل شيء يملكه الرجل. بمهارة عالية استطاع الفتى أن يحل أحد طرفي الشبكة، ثم بدأ يسحبها ببطء إلى القارب، معها السمك العالق فيها، وسار معها حتى وصل إلى الطرف الثاني وحله. الرجلان الواقفان على الشاطئ كانا يتابعان محمد بإعجاب، كل له أسبابه في ذلك. لما عاد الفتى تنفس صاحب الشباك الصعداء. شكره كثيرا على ما قام به.

لكن محمد طالبه بتنفيذ وعده. في تلك الأثناء بدأت أشعة الشمس تخترق السحب مؤذنة بانقشاع الغيوم وصحو الجو. تطلع الرجل إلى السماء، ثم بدا على وجهه ما يشبه الأسف على الوعد الذي قطعه على نفسه. حاول أن يتملص، حاول أن يساوم على تخفيض نصيب محمد. لكن الفتى كان حادا في رد فعله، وأخبره أنه سيذهب إلى الوالي يشكوه لو رفض أن يعطيه النصف. ذهبا معا إلى السوق، هناك قدر التجار ثمن الشباك والسمك، ثم تطوع أحد أصدقاء الرجل وأعطى محمد نصف ما قدر. ليون يراقبه بإعجاب، لكنه يفضل لو تنازل محمد قليلا. رد محمد أن هذا حقه، وأنه في الحقيقة أنقذ للرجل نصف ما يملك. لم يعلق ليون. تركه عائدا إلى دكانه. بينما اتجه الفتى إلى بيت عمه يحكي له ما حدث.

الوقت الذي يقضيه محمد في بيت عمه لا يتجاوز كثيرا وقت

النوم. طوال النهار خارج البيت على الرغم من أن البيت يكاد أن يكون خاليا بعد أن تزوج الأبناء فخفت الحركة، وقلت الجواري والخدم به. جزء من هذا الوقت يقضيه الفتى مع عمه في وكالته التي يبيع من خلالها التبغ الذي يستورده. وجزء آخر يذهب فيه إلى لقاء بعض من هم في سنه يتبادل معهم أحاديث ليس الهدف منها إلا إزجاء وقت الفراغ. أحيانا يذهب إلى ليون، وأحيانا أخرى يذهب إلى بيت الشوربجي إسماعيل.

هذا الرجل الذي أصبح حاكما على قولة، لكنه كان صديقا لوالده عندما كان أبوه قائدا لحامية المدينة. أنجب الرجل ولداً واحداً من زيجاته الثلاث يماثله عمراً. لا يزال الرجل يحمل مشاعر ود لأبيه على الرغم من مرور الوقت الطويل على وفاته. يبدو أنه كان بين الرجلين صداقة عميقة تركت أثرا في نفس الرجل. يشعر محمد بامتنان كبير لمشاعره. ويحرص على أن يكون قريبا منه. والرجل يأنس إليه، ويرى فيه مخايل ذكاء تؤهله لأمور كبيرة: أن يكون مثلا حاكما على هذه المدينة. يرى الفتى الأمر أكبر مما يتصور. يقول للشوربجي إن طموحه ينحصر في أن يصبح تاجرا ميسور الحال في قولة، لا أكثر.

بينما يعرف الرجل عن محمد شجاعة ظهرت في مواقف حكاها له بعض من رآها، وجلد وذكاء في التعامل مع البشر يعرفه من

طوسون الذي يراه بين حين وآخر. يقول لمحمد إن مكانه الطبيعي أن يكون جنديا في خدمة الدولة العثمانية. هذا هو المكان الذي يستطيع من خلاله أن يحقق كل ما يحلم. "يا محمد عندما ستكون جنديا تستطيع أن تمتلك بيتا مثل هذا. انظر حولك، هذه الزرابي أتيت بها من فارس، ومشربيات البيت صنعها رجال من مصر، والأرائك أتيت بها من الشام". بيت الرجل واسع. حجراته كثيرة أكبر من البيت الذي عاش فيه مع أمه. "يا محمد، أنت لن تكون جنديا عاديا، مؤهلاتك سترتقي بك إلى مكانة أعلى مما احتلها أبوك". تبدو على ملامحه بوادر اقتناع بما يقول الشوربجي. يرغب في أن يغير من مسار حياته. لكن لعمه يدا عليه لا يستطيع أن يتناساها. عمه في حاجة إليه الآن أكثر من أي وقت مضى. يسر إلى الشوربجي بهواجسه، فيطمئنه الرجل أنه سيكلم عمه في ذلك. لا تقلق، اترك أمر عمك لي. لكن أيامه القادمة كانت حبلى بمفاجأة غيرت مجرى حياته للأبد.

ذات صباح استيقظ من نومه مبكرا كعادته. عمه في البيت كان مستيقظا أيضا. اتفقا في اليوم السابق أن يذهبا معا إلى الوكالة. هناك أمور كثيرة يجب أن ينجزاها معا. محمد يتفقد المخزن، ويحاسب العمال، بينما يذهب عمه إلى بعض التجار الذين يشترون منه بضاعته كي يحصل بعض الأموال المتأخرة لديهم. في الطريق

عمه رائقا، يعيد لمحمد ما ينبغي عليهما أن يفعلاه في هذا اليوم، ويشدد عليه في حسن معاملة العمال. يثرثر في حكايات عن أولاده الذين استقلوا عنه في أعمالهم على غير هواه. يستمع إليه محمد وهو يتأمل السهول الخضراء التي تنبسط أمامه وهما يتجهان شمالا منزلقين في الطريق الترابي الهابط من شبه الجزيرة التي يقع فيها البيت حيث السوق الذي تقع فيه الوكالة.

الشمس من خلفهما، وأشعتها الذهبية تضفي على السهول الخضراء سحرا لا يقاوم. يشير طوسون إلى هذه السهول، ويقول: انظر، محمد هذه المنطقة التي تراها هناك خلف أشجار الصنوبر البعيدة سوف أشتريها، وأزرعها. نحتاج إلى نتوسع في أعمالنا، تحدثت مع الأولاد ووافقوا، بل تحمسوا لذلك. بالتأكيد ستكون طرفا أساسيا في أي توسع في أعمالنا. أنا الآن كبرت ولا أقدر أن أقوم بما كنت أقوم به قبل ذلك. لكنك تعرف أن المال هو الذي يعطينا قوة في هذه المدينة، سطوتنا اكتسبناها من الثروة التي كوناها في قولة. قربنا من الوالي والمتنفذين في المدينة يعود إلى ما لدينا من مال. لن تكون قويا في هذا العالم إلا إذا كان لديك ما تستغني به عنه.

نزل محمد أمام المخزن من العربة التي يجرها حصانان، بينما أكمل عمه طريقه شرقا في الطريق الطويل الممتد حتى الآستانة. هناك في مكان ما بعد أن تنتهي قولة ويبدأ الطريق يخلو من البشر،

فقط المساحات الخضراء الممتدة، والتلال، والجبال المترامية على الأفق، هناك في مكان ما، هؤلاء الرجال الذين واعدهم طوسون أن يذهب إليهم ليحصل منهم بعض المتعلقات المالية منهم.

لا أحد يدري تفاصيل ما حدث. لا أحد يعرف بالضبط هوية هؤلاء الناس، ولا حتى المكان الذي كان فيه طوسون معهم. لم يعد الرجل في هذا اليوم، ولا عاد في الأيام التالية. وجدوه بعد بحث مضن مقتولا تحت شجرة نائية في أحد الجبال المحيطة بقولة وقد كادت جثته تتحلل.

قيلت أقاويل كثيرة في ذلك، بعضهم قال إن الرجال الذين ذهب إليهم اختلفوا معه فقتلوه. وقيل بل أعطوه ماله، لكن لصوصا خرجوا عليه في الطريق، وسلبوه المال والعربة وقتلوه. وقيل بل تربص به بعض المناوئين، ووجدوها فرصة ليتخلصوا من أكبر تهديد لهم في المدينة. الأقاويل كثيرة، لكن الحقيقة الوحيدة أن طوسون لم يعد إلى بيته في هذا اليوم. ولا بقي فيه محمد علي كثيرا بعد موت عمه.

الفصل السابع

"التُرَبي" هذه الكلمة العجيبة التي تلخص عملا من أقدم أعمال التاريخ، لا يدري أحد أول من صاغها ليعبر بها عن مهنة دفن الموتى. هناك أيضا كلمة "الحانوتي" التي تصلح لدفن الموتى كما تصلح لكل من يمتلك حانوتا، أيا كانت البضاعة التي يبيعها، لكن المصريين اختاروا الكلمة وربطوها بالموت. وإذا أردت أن تختار كلمة أخرى، فيمكن أن تقول حفار القبور، لكنها لا تستخدم إلا مكتوبة. لا يهم الكلمة التي يمكن استخدامها هنا، المهم هو أن هذه المهنة تلاقي الآن رواجا كبيرا في مصر. في العادة هناك "تربي" واحد في المدافن إذا كانت المدافن صغيرة الحجم، يساعده أبناؤه، وبعض الآخرين الذي يعملون معه عملا مؤقتا. وإذا كانت

المقابر كبيرة الحجم، فإنها تتوزع بين أكثر من "تربي". لكل واحد منهم منطقة نفوذ. لكننا الآن لسنا في أجواء عادية. الطاعون يفتك بمصر. فشا وكثر في كل مكان. بل خرج عن حد الكثرة. تساوى الناس أمامه، فمات به ما لا يحصى من الأطفال والشبان والجواري والعبيد والمماليك والأجناد والكشاف والأمراء والصناجق وعسكر القليونجية والأرناؤود الكائنين في بولاق ومصر القديمة والجيزة. كثر عمل "التُرَبية" حتى أنهم لم يستطيعوا ملاحقة دفن الموتى الذين يتوافدون بالعشرات، فاستعانوا بالمتطوعين، برغم ذلك فإن مكاسبهم قليلة. الناس لا تملك ما تدفعه، يمكن لها أن تترك موتاها ليتكفل بهم من يتكفل.

ويقوم هؤلاء بالعمل تطوعا: إكراما للميت ودرءا لمزيد من الأوبئة التي يمكن أن تنشأ عن الجثث المتعفنة. الموتى كثر حتى أن الناس مثلا كانوا يحفرون حفرا لمن مات في الجيزة بالقرب من مسجد أبي هريرة، ويلقونهم فيها. ويخرج من بيت الأمير في المشهد الواحد الخمسة والستة والعشرة. وازدحموا على الحوانيت في طلب العدد والمغسلين والحمالين. ويقف في انتظار المغسلين الخمسة والعشرة. يتضاربون على ذلك. ولم يبق للناس شغل إلا الموت وأسبابه. فلا تجد إلا مريضا أو ميتا أو عائدا أو معزيا أو مشيعا أو راجعا من صلاة جنازة أو دفن أو مشغولا في تجهيز ميت أو باكيا على نفسه موهوما. ولا تبطل صلاة الجنازة من المساجد

والمصليات. ولا يصلى إلا على ثلاثة أو اربعة أو خمسة. وندر جدا من يشتكي ولا يموت. وندر جدا من يظهر عليه الطاعون ولا يكون به حمى. بل يكون الإنسان جالسا، فيرتعش من البرد، فيدثر، فلا يفيق إلا مخلطا ويموت من نهاره أو ثاني يوم ربما زاد أو نقص. واستمر الطاعون إلى أوائل رمضان. ومات الأغا والوالي في أثناء ذلك، فولوا غيرهما، فماتا أيضا بعد ثلاثة أيام، فولوا غيرهما فماتا أيضا. واتفق أن الميراث انتقل في عائلة واحدة ثلاث مرات في جمعة واحدة.

لم يكن حسن وأسرته وأهل البيت الذي يسكن فيه بعيدين عن كل هذا. أصابهم ما أصاب غيرهم، واقترب منهم الموت بأكثر مما توقعوا، وكان قاسيا بأكثر مما احتملوا. مات زوج شحتة لأنه "ركب راسه" ولم يغادر مصر كما نصح حسن حين بدأ أوائل الطاعون يسري في الناس. قرر أن الرب واحد والعمر واحد، وأنه "أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة"، ونسي "ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة". حاول حسن إقناعه بالخروج، لكن رده: ماذا أفعل وأين أسكن؟ سنموت أيضا من الجوع لو خرجنا، فما الداعي "للبهدلة"؟ بصعوبة استطاع حسن إقناعه بأن تغادر شَحتة ووليدها الرضيع مع أم حسن. وبقي الرجل ليموت ويدفن فلا يعرف له قبر. ذهب حسن إلى الفيوم عند أحد المعارف الموسرين الذين كان ينسخ لهم بين فينة وأخرى بعض كتب الفقه والتاريخ.

وساعده بعض المدخرات التي جمعها من عمله في النسخ. عدد من سكان البيت أيضا ماتوا، أبو عبد العال وأمه. أسرة كاملة أيقنت بعد فوات الأوان ضرورة الخروج لكنها تساقطت جميعا في الطريق إلى الشرقية، فدفن كل فرد فيها في مكان. خليل أبو حسن نجا من الطاعون بأن أكرمه الله بالموت قبل ذلك بعامين بعد حادثة المملوك مع حسن بعام واحد.

هل رمضان على الناس، وبدأ الطاعون تتراجع فورته حتى همد بعد أن حصد من الأرواح ما حصد. بعض الناس يزعم أن نصف سكان مصر ماتوا في هذه "الشوطة"، بعض آخر يرى العدد أقل، وبعض يراه أكثر. لكن الحادث أن شوارع مصر فارغة، ووجوه من بقي من الناس منكسرة بائسة. الزينة التي ارتبطت بالشهر الكريم اختفت، ومظاهر الاحتفال التي تراها حاضرة في شوارع مصر لا وجود لها.

عاد حسن إلى بيته وأسرته بعد غياب شهرين. تخلص من كل الأثاث الموجود في حجرته وحجرة أخته، وابتاع أثاثا جديدا. أمه التي هدها الحزن على وفاة خليل، ثم سيطر عليها الاكتئاب بعد نزوحها الاضطراري عن مصر، وموت بعض جاراتها عادت وهي لا تقوى على الحركة. زاد وزنها، وتيبست مفاصلها. ومن ستر الله أن أبقى لها ابنتها، فلم تلحق بزوجها.

يعيد حسن ترتيب حياته من جديد. يذهب إلى الدكان الذي أغلقه أبناء علي الخطاط بعد موت أبيهم ونزوح حسن. يؤجرونه له بثمن بخس إكراما لأبيهم الذي أحب حسن، وعده واحدا من أبنائه. تركوا له أقلام أبيهم وأحباره. لم يكن لهم فيها أرب.كما تركوا له قدرا وافيا من الأوراق عزيزة المنال هذه الأيام. الجو لطيف لكن الروح كئيبة. يعرف حسن أن العمل في هذه الأيام التي أعقبت الطاعون سيكون قليلا، لكنه يستبشر برمضان الذي يزداد فيه الناس قربا من الله. يحتاج بعض الموسرين في هذا الشهر الكريم إلى أن يقرؤوا بأنفسهم آيات القرآن. يعول عليهم في تجاوز أزمته المادية التي استهلك فيها جل ما لديه في أثناء إقامته بالفيوم. يذهب إلى الأزهر ليجلس مع بعض شيوخه ويقرأ في مكتبته العامرة. يتجول في أسواق مصر التي خوت حوانيتها إلا قليلا. يبتاع لأمه وأخته وصغيرها بعض ما يحبون من حلوى. ثم يعود.

يعود إلى أمه، إلى سكنه. ويجلس طويلا معها. الحجرتان اللتان من نصيب حسن وأسرته أعيد ترتيبهما. استقل حسن بحجرة، بينما تنام شَحتة وابنها مع أمها. لا يذهب حسن إلى حجرته إلا ساعة النوم خاصة هذه الأيام التي لا يعمل فيها كثيرا.

يضع حسن راسه على حجر أمه، ويبدأ في مداعبتها: ما رايك أن تتزوجي يا أم حسن؟ وتصدق رتيبة أنه يتحدث جدا: عيب عليك

يا حسن. بعد هذا العمر أتزوج؟ ثم من سيرضى بامرأة عجوز مثلي؟

وتتدخل شَحتة التي كانت تتابع الحوار وهي "تخرط" الملوخية التي ستطبخها ببعض قطع اللحم التي أحضرها حسن معه قبيل ساعات قليلة من آذان مغرب اليوم السادس والعشرين من شهر رمضان: يعني لو وجدت أحدا يوافق عليك ستتزوجين؟

لكن حسن يرد: وافقي أنت وأنا أحضر لك أميرا من أمراء القاهرة. تعرفين أن معارفي كثيرة.

– عيب يا حسن، عيب. بعد هذا العمر. بعد خليل الذي عشت معه عمري كله.

– يا أم حسن. الحي أبقى من الميت. أريد أن أفرح بك. سأدعو لك في ليلة القدر أن يرزقك الله بعريس شاب.

– اسكت يا حسن. أنت الذي يجب أن تتزوج؟ أنا أريد أن أفرح بك قبل أن أموت. أريد أن أحمل ابنك مثلما حملت ابن شَحتة. هل العرائس قلوا في الدنيا؟

ولا يرد حسن، بل يستغرق في تهويمات وخيالات تعود به إلى زمن يبدو له سحيقا. وقت أن خلق الله الأرض ومن عليها. هل كان الإنسان هو آخر مخلوقات الله استواء أم كان أولها؟ من المرجح أنه

الآخر لأنه الأكثر كمالا. فهل من كمال الإنسان أن يتزوج كي يحافظ على نسله؟ هل الحيوانات تتزوج؟ ربما، لكن هل تتزوج بالطريقة نفسها التي نتزوج بها؟ لا أحد يدري. من المرجح، لا. هل تدرك الحيوانات أنها تتزوج كي تحافظ على سلالتها من الانقراض؟ من المؤكد، لا. إذن الذي يحركها في الزواج هو غريزة الجنس لديها لا غير. وأنت ما الذي يحركك يا حسن وأنت تفكر في الزواج؟ الجنس. نعم. منذ أن بلغت الحلم وغريزتك شديدة الوطأة عليك. لكنك كنت تقمعها أحيانا بمزيد من العمل والصلاة. وحين تعيا بك السبل تجد طريقا لتصريفها. لكنك أبدا لم تقرب امرأة. فهل آن الأوان أن تعيش هذا العالم السري السحري الجميل؟ سؤال طرحه على نفسه عشرات المرات. لكن شدته على نفسه منعته دائما أن يتمادى فيرتكب الجناية التي حذر منها أبو العلاء. هزته قصة المعري التي أوصى فيها أن يكتب على قبره هذا البيت:

هذا جناه أبي علي وما جنيت على أحد

ماذا تفعل امرأة معي في زمن يعد فيه البقاء على قيد الحياة معجزة ينتشي لها أرجاء الكون؟ ماذا يفعل أبناء ربما يكون مآلهم أن يكونوا طعاما لغيرهم؟ ألم يحك المقريزي في الشدة المستنصرية عن مجاعة أكل فيها الآباء أبناءهم حقيقة لا مجازا؟ هل نحن بعيدون عن هذا؟ لا، لسنا بعيدين. ومع ذلك لا بد أن أتزوج. شيوخ الأزهر

ينظرون بريبة إلى كل يبلغ سنه ولا يتزوج. طبيعة عمله تجعل عمله معهم ممتدا بلا نهاية.

يوم واحد بعد ليلة القدر وقبل رؤية هلال العيد. بعد أن انتهى الناس من صلاة الظهر. لم يكن حسن في الجامع الأزهر، بل كان في بولاق يعطي لأحد الموسرين نسخة من بعض سور القرآن التي نسخها. كان معه بكر الذي ذهب معه ليلتقيا بعد ذلك بعبد العال الذي يعمل صيادا بدلا من أبيه على مركب صغيرة في النيل. يحلو لحسن أن يجلس مع صديقي عمره بكر وعبد العال في مكان قريب من النيل أحيانا أو بالقرب من الأزبكية: المكان الذي يمارس فيه المصريون كل أنواع لهوهم حين يروق لهم الزمان في أيام نادرة. بكر وعبد العال تزوجا، لكن لم يبرحا المكان. استأجر كل منهما غرفة قريبة من البيت الذي نشآ فيه. أحوالهما لم تتغير كثيرا سوى بعض الأعباء العائلية التي زادتهم رهقا.

نسمة هواء رقيقة تتخللهم، وتجعلهم أكثر احتمالا للصيام. طقس الربيع الرائق الخالي من رياح الخماسين التي تهب أحيانا في هذا الوقت من السنة. يتذاكر الأصدقاء الثلاثة أيام طفولتهم. هل كانت الدنيا زمان أفضل؟ يسأل بكر. ويرد عليه حسن: لا، لم تكن أفضل. نحن الذين كنا أبرياء، ليس عندنا مسؤوليات. وعندما تحملنا المسؤولية اكتشفنا حقيقة الدنيا التي نعيشها. يلفت عبد العال نظر صديقيه إلى

تجمعات الناس التي تتكاثر على النيل، أسر كاملة مع حاجياتها من طعام وشراب يبدو أنها تنوي الإفطار على شاطئ النيل. هؤلاء لهم وسائلهم الخاصة في التكيف مع الحياة. ما الذي يمنع أن نفعل نحن أيضا ذلك؟ ما رأيكم أن نأتي إلى هنا في العيد مع أسرنا؟ قال بكر. رحب حسن بالفكرة، وكذلك عبد العال.

لحظات وسمع الثلاثة أصوات ضجيج وضحك ماجن على البعد. مجموعة من عساكر القليونجية وبعض النسوة يجلسون على النيل في أوضاع لا تليق بوقار الشهر الكريم. النساء متهتكات كاشفات رؤوسهن وشعورهن، وملابسهن مبتذلة تكشف أذرعهن وبعضا من صدورهن، والرجال بملابسهم التقليدية بأحزمتها العريضة والقلنسوات على الرؤوس و"الطبنجات" الظاهرة في أجنابهم والتي تردع كل من تسول له نفسه الاقتراب من الجمع. كانت معهم قنينات يبدو من التعامل معها والطريقة التي يشربون منها أنها خمور. غلى الدم في عروق الثلاثة. استنكروا أن تنتهك حرمة نهار رمضان بمثل هذا المجون.

حاول عبد العال أن يلقي عليهم حجرا وجده بجواره. لكن بكراً نهاه، هؤلاء مسلحون، يمكن أن يقتلونا. تعالوا نبتعد عنهم. حسن الذي يشاهد مذهولا لم يكن له رد فعل ظاهر. رد الفعل القوي جاء من جماعة حجاج مغاربة قريبين من جمع الرجال والنساء.

اقتربوا منهم، وطالبوهم بالكف عن هذا العبث: نحن في رمضان، ألا تستحون، ألا تسترون أنفسكم بما تفعلون. اذهبوا بعيدا، إلى بيوتكم أو مواخيركم. قالها ما يبدو أنه كبيرهم. لكن رد فعل إحدى النساء كان مستفزا حتى أن الأمور تطورت بعدها تطورا خطيرا. اقتربت المرأة من الرجل، وقالت له: ما أجمل لحيتك يا حاج، لماذا لا تترك هؤلاء وتنضم معنا، تأخذ لك كأس شراب يروق به دمك؟ الرجل احمر وجهه فصفعها على وجهها صائحا: يا عاهرة، إذا لم يكن لك أهل يحمونك مما أنت فيه، فإن لنا ربا يحمينا من مناظركم المؤذية. رد فعل العسكر كان سريعا، أخرجوا "الطبنجات" وأرادوا إطلاق النار على الحجاج المغاربة، خرجت بعض الطلقات طائشة بعد أن اشتبك الحجاج مع العسكر بالأيدي الذين رأوا حرج موقفهم فأسرعوا إلى مراكبهم الراسية قريبا منهم. لم يتركهم الحجاج فنزلوا وراءهم، وأمسكوا بمن استطاعوا الإمساك بهم، فذبحوهم، وألقوا غيرهم في النيل، ثم استداروا إلى المراكب، فخلعوا صواريها وحطموها من كل جانب حتى استقرت في قاع النيل.

المصريون الذين تجمعوا في المكان تراجعوا كثيرا بعد أن بدأ إطلاق النار. آثروا أن يشاهدوا ما يفعله المغاربة عن بعد. أراد حسن أن يشتبك مع العسكر بعد أن رأى الحجاج، لكن بكراً منعه. لك أسرة يا حسن، ماذا سيفعلون بعدك لو مت؟ الحجاج يقومون بالواجب وزيادة.

لم يكن حسن في حاجة إلا لحجة مثل هذه كي لا يتقدم خطوة أكثر. لم يكن في قرارة نفسه مستعدا للاشتباك مع العسكر، ولا مشاركة الحجاج ثورتهم على هذا المنكر، منذ أن مات أبوه، وهو يستشعر في نفسه انسحابا من أحداث كثيرة رآها ومراجعات كثيرة لما يريد أن يفعله قبل أن يفعله. لم يكن هكذا وأبوه حي. هل المسؤولية التي يحملها هي السبب. ربما. يحاول إقناع نفسه بذلك، لكن هل هذه هي الحقيقة؟

يعود الثلاثة وجلين مما رأوا بعد أن أحصى الناس عشرين قتيلا من العسكر، وأقل قليلا من الحجاج. يعرفون بالخبرة أن لهذه الحادثة توابع لا يعلم إلا الله مداها. لكنهم يحمدون الله أنها بعيدة عن بيوتهم. العسكر لن ينتهوا، وربما جاؤوا بكثرتهم إلى حيث يقطن الحجاج. لا بد أن يتدخل شيوخ الأزهر قبل أن يستفحل الأمر.

بعد صلاة العشاء، وقبل أن تقام آخر صلاة للتراويح في رمضان اقترب حسن من الشيخ محمد الجوهري، وقال له إنه يريده في أمر هام. بعد الصلاة حكى حسن للشيخ كل ما رآه. الشيخ لديه معلومات مشوشة عن الأمر. لكن الآن أصبحت الصورة أكثر وضوحا.

الذي حدث أن إسماعيل بك والأغا والوالي نزلوا جميعا بالأسواق ونادوا بخروج كل الحجاج المغاربة من مصر إلى مكان خارجها يسمى العادلية. كما حذروا كل من يأوي مغربيا بالقتل إن ظل

يأويه بعد ثلاثة أيام. لا المغاربة خرجوا ولا المصريون امتنعوا عن إيوائهم. شيوخ الأزهر حفظوا ماء وجه الوالي حين تدخلوا بالشفاعة في المغاربة. هذا على الأقل ما حاول الوالي أن يقنع به نفسه.

الدكان الذي يستأجره حسن يقع قريبا من مسجد السلطان حسن في شارع ضيق تكثر فيه الدكاكين التي تبيع كل شيء بدءا من الأواني الفخارية، حتى الأقمشة رديئة الصنع، والجلود، والعطور وغير ذلك مما يحتاجه أهل مصر. المكان أقرب إلى نهاية الشارع الذي يطل بزاوية على المسجد نفسه. هناك الحركة زائدة، وطلاب العلم الملتحقون بالمدرسة الملحقة بالمسجد يضفون على المكان حيوية أخرى. بعض هؤلاء من الزبائن الدائمين لحسن. بعض منهم يأتي فقط ليقرأ ما يجده من كتب تحتاج إلى نسخ عنده. يستقبلهم حسن ببشاشة، وبخاصة أن كثيرا منهم ممن أتوا من الصعيد أو حتى من الشام والحجاز. يحاول حسن أن يجعل دكانه نظيفا مرتبا. يستعين أحيانا ببعض الغلمان الشاردين في المكان في إخراج بقايا الأخشاب والأوراق التي تتخلف عن عملية النسخ. مساحة الدكان ليست كبيرة، لكن حسن – وحده – في المكان يستطيع التحرك فيه بيسر. وحين يأتي بعض الطلاب أو الزبائن، فإنه يضع "دكة" على المدخل تتسع لثلاثة أشخاص، يجلسون عليها ريثما ينتهون مما جاؤوا من أجله.

ممن يأتي إليه أحيانا يوسف صديقه القديم الذي تباعدت بينهما السبل. يوسف يسكن في حارة النصارى المتفرعة من سوق السلاح الكائن خلف مسجد السلطان حسن من الموقع الذي فيه دكان حسن. مسافة قريبة كثيرا ما قطعها حسن مع أصدقائه لما كانوا صغارا. يتذكر حسن أنه كان الأكثر قربا من يوسف مقارنة بباقي الأولاد. زاره في بيته أكثر من مرة، وخرجا وحدهما حتى شاطئ النيل أحيانا، وحتى الأزبكية أحيانا أخرى. كان هذا في زمن البراءة التي لا يحسب فيها الإنسان حسابا لأي شيء. الآن الأوضاع تتغير. استقبل حسن صديقه في المرات الأولى بترحاب ظاهر وبشاشة عميقة. جلساتهما وضحكهما العالي يلفت نظر المارين الذين يرون قبطيا –وهذا ظاهر من ملابسه– على هذا الود الكبير مع شخص يعدونه شيخا أزهريا. لكن تعليقات الجيران، وربما تأنيب بعض الشيوخ جعلت موقف حسن حرجا كلما أتى يوسف. هو صديقه لكن هذا عمله ورزقه.

لا يفهم حسن سر هذه الجفوة بين المسلمين والأقباط. طوال عمره وهو يرى الأقباط معزولين في حارات وأعطاف خاصة بهم، لا تجدهم يسكنون بين بيوت المسلمين، على الرغم من أن بينهم تجارا شطارا وأطباء ومتولي الأمور المالية كلهم استطاعوا أن يحققوا لأنفسهم مكانة عالية بين المسلمين. مع ذلك ظلت للأقباط حياتهم الخاصة، عزلتهم التي تزيدهم اغترابا. زاد الأمر مجئ حسن باشا

القبطان إلى مصر منذ فترة مكلفا من الباب العالي بوأد الفتنة التي تستعر بين الأمراء المماليك في مصر. استبشر الناس به خيرا، بل عدوه مهدي هذا الزمان بسبب الظلم الذي عانوا منه من أتباع إبراهيم بك ومراد بك. لكن الرجل التفت – دون سبب واضح – إلى الأقباط منذ أيامه الأولى بمصر، فضيق عليهم، ونودي باسمه على طائفة النصارى بألا يركبوا الدواب ولا يستخدموا المسلمين ولا يشتروا الجواري والعبيد، ومن كان عنده شيء من ذلك باعه أو أعتقه. وأن يلزموا زيهم الأصلي من شد الزنار والزنوط. بمجرد أن انتهى المنادي من ندائه، رأى حسن الأطفال الصغار وبعض الناس في الشوارع القريبة وهم يلقون الأحجار على كل قبطي يرونه راكبا أو حتى سائرا في منتصف الطريق. مشهد اختزنته ذاكرة حسن.

آلمه أن يرى الناس تمارس هذا العنف مع أناس هم أهلوهم في الحقيقة على الرغم من اختلاف ديانتهم. حاول قدر ما يستطيع أن يمنع غلاما من أن يلقي حجرا على قبطي، وتحدث مع رجل يوبخ قبطيا آخر على أمر لا يدريه. آلمه أكثر أن ظلم المماليك لهم لا يفرق بين مسلم ونصراني، وأن هذا الرجل الذي هللوا له أولا، دعوا عليه آخرا بسبب المظالم التي ارتكبها أتباعه مع الناس. جاء ليعد الناس بالعدل، فلم يحصل للناس من مجيئه مصر وذهابه منه إلا الضرر. فلم يبطل بدعة، ولم يرفع مظلمة. بل تقررت به المظالم

والحوادث. لقد كان الأمراء وأتباعهم يسرقون قبل ذلك، لكنهم كانوا يخافون من إشاعتها ووصولها إلى الباب العالي، أما بعد مجيء هذا الرجل، فأصبحت السرقة ديدنا لا يخاف أحد من ارتكابه، لأنه لا عقاب. لقد خابت فيه الآمال والظنون، وقد هلكت بسببه البهائم التي عليها مدار نظام العالم. وزاد في المظالم والأموال التي كان يأخذها من الناس، وأصبحت أمرا واقعا بعده.

يلمح حسن صديقه يوسف وهو قادم من بعيد. صدفة كان واقفا أمام الدكان يتحدث مع أحد الطلاب. دخل الدكان ولملم أشياءه وقت دخول يوسف الدكان. رآه، فسأله هل سيغلق الدكان مبكرا؟ رد حسن بالإيجاب لأنه متعب اليوم. يمكن لنا أن نسير معا حتى القلعة. بدا تصرف حسن طبيعيا حتى أن يوسف لم يلاحظ شيئا. في الطريق سأله عن أحواله وعن أمه وأخته شحتة وابنها. رد حسن بأن جميعهم بخير سوى أن أمه أصبحت لا تبرح الغرفة إلا حين تخرج قليلا تجلس أمام البيت تحت شمس الضحى. عدا ذلك من يرد أن يراها يدخل إليها في الحجرة. ولما سأله حسن عن أحواله بدا يوسف مبتئسا. يعرف حسن أنه يعمل مع أحد التجار الأقباط في تجارة الذهب، وأن أحواله المادية جيدة، فماذا حدث؟

- ليست مشكلتي ماذا آكل أو أشرب أو حتى أتزوج؟ مشكلتي هي الشارع يا حسن. يأتي إلي الناس في الحانوت الذي

أعمل به، وأغلبهم من المسلمين. أعاملهم بترحاب ظاهر، ويبادلونني ترحابا بترحاب. في البيت والحارة أجد نفسي وسط أهلي. كلنا واحد. في الكنيسة أجد ملاذا روحيا يعينني على ما أنا فيه. المشكلة في الشارع.

يحكي لحسن عن الوالي الذي أراد أن يهدم حارة النصارى لولا أنهم دفعوا خمسة وثلاثين ألف ريال، ويذكره بما فعله حسن باشا من أخذ الجواري والهجوم على بيوتهم، وأخذ ما فيها من أشياء ثمينة، ومضاعفة الأجرة عليهم في البيوت المستأجرة، ومصادرة بيوت النصارى الذين خرجوا مع الأمراء المماليك إلى الصعيد بعد قدوم حسن باشا. ثم يزيد الطين بلة، ما يفعله الناس معنا. الناس يا صاحبي لا تعدنا بشرا مثلهم. نحن أقل درجة وأهمية من اي واحد من المسلمين.

ويحاول حسن أن يفهمه أنهم جميعا يعانون. هنا لا فرق بين مسلم ونصراني. ما يفعله الوالي أو الأغا أو الجنود الإنكشارية أو أمراء المماليك، أو حتى المحتسب، أو أي بلطجي أعطاه الله بسطة في الجسم – ما يفعله كل هؤلاء معنا يفوق ما تتحدث عنه. نحن نعاني أيضا.

– هل تعتقد أني غبي أو مغيب عن العالم حتى لا أرى ما يحدث؟ أفهم هذا وأعاني منه مثلك تماما، لكن يزيد علينا

أن أخوتنا المسلمين المضطهدين المظلومين لا يجدون إلا النصارى يفرغون فيهم غضبهم. أريد أن أسألك يا حسن، هل نحن أعداء لكم؟

- من المؤكد، لا. هل تراني يا يوسف أعاملك بعداء؟
- أنا لا أتحدث عنك، صداقتي معك تسمح لي أن أقول لك هذا الكلام. لكني أتحدث مثلا عن بكر وعن عبد العال. وعن كثيرين ينظرون لنا على أننا كفرة لا نستحق الحياة.

لا يعرف حسن كيف يرد على يوسف. ولا يعرف يوسف عمق الأزمة التي فيها حسن. لم يلاحظ عليه التوتر الذي جاهد في إخفائه، ولا النظرات الزائغة وهو يسير بجانبه. يعاني حسن صراعا حادا وهو يسبح ضد التيار السائد في مجتمعه في علاقته بيوسف. لو أظهر مكنونه، لو أعلن عن الحرج الذي يستشعره حين يأتي يوسف إليه في الدكان، فستكون خسارته ليوسف أهون خسارة. جاهد طوال السنين الفائتة أن يبني لنفسه رأيا خاصا به في كل الأحداث. حاول من خلال قراءاته الكثيرة، وفرط تأمله في الحوادث والناس أن يبتعد عن اعتناق الآراء الجماعية وألا يساير من حوله في أفكارهم. قالوا عنه في بعض الأحيان إنه ولد منفلت، ودعا له آخرون بالهداية. لكنه الآن في لحظة اختبار قاسية قد يخسر فيها نفسه.

– لا تغب كثيرا يا يوسف عني. على الأقل أراك كل أسبوع في الدكان. أفكر في الزواج قريبا، ستكون أنت أول المدعوين.

لم يفهم يوسف هذه العبارات التي بدت خارج السياق. لم ينتبه إلى شرود صاحبه. لكن حسن حسم بها حوارا عنيفا داخله، حسم بها ترددا كاد يقتله.

في تلك الأثناء اقتربا من سوق يقع قريبا من القلعة من الجهة الجنوبية. سوق للخضار والفواكه الآتية من المزارع المحيطة بمصر. قليلة هي البضاعة الموجودة في السوق، وأما المشترون فكثر. نساء ورجال وعسكر ومتلصصون وشحاذون، روائح مختلطة. حاول الصديقان أن يلتفا حول السوق بعيدا عن الزحام ليستكملا طريقهما إلى سور القلعة. في طرف السوق كان يجلس بعض الفلاحين الذين يبيعون بطيخا. شاهد الاثنان عسكريا يخرج سكينا يحاول بها ضرب أحد الفلاحين البائعين للبطيخ. هاج الفلاح وزعق في الناس: يريد أن يقتلني لأني لا أريد أن أبيع له البطيخة بأقل من ثمنها، الحقوني. تداعى عليه الباعة الآخرون من زملائه في السوق. ما لبث العسكري أن نادى زملائه، وحدثت معركة كبيرة، تفاقمت أحداثها لتتحول إلى مجزرة مات فيها ثلاثون فلاحا، وأربعة من العسكر. لم يستطع الاثنان أن يفعلا شيئا. راقبا الموقف من بعيد.

- ما الذي يحدث في مصر؟ قال يوسف منزعجا مما يرى

بدا حسن أكثر انزعاجا، استدار بوجهه عن المشهد، أغمض عينيه لا يريد أن يرى شيئاً، ثم أعطى ظهره ليوسف وصاح: الرحمة يا ربي؟ اعذرني يا يوسف أريد أن أعود وحدي إلى البيت الآن.

الفصل الثامن

البيت الذي يقطنه الشوربجي إسماعيل في قولة أشبه بقصور الأمراء في الآستانة. حجراته كثيرة وشبابيكه الجنوبية تطل على البحر في مشهد رائع لا يضاهيه روعة إلا مشهد البحر من حجرة السيدة خضرة في بيت محمد علي. عدا ذلك لا مقارنة بين البيتين سواء في اتساع الحجرات أو في عددها ونظام المعمار القوطي الذي بني به. لكن ما يميز هذا البيت هو حديقته الكبيرة. يقطع الداخل إليه مسافة طويلة حتى يصل إلى مدخل البيت نفسه. بني البيت في موقع أقرب إلى البحر يفصله من ناحية البحر مسافة لا تزيد على خمسة عشر مترا حتى سور البيت، هي الفناء الخلفي

للبيت. يجلس الشوربجي مع بعض رفاقه الأقربين وأقاربه في أوقات الصيف في هذا الجزء من البيت. أما الفناء الأمامي فهو الحديقة الكبيرة البديعة.

في فصل الربيع تبدو هذه الحديقة آية من آيات الله. بتنوع ألوانها وتعدد أزهارها وشذى الربيع الذي يفوح فيسكر السائر فيها من غير خمر. زهور التيوليب ذوات اللون الأصفر والبنفسجي وهي تشبه العمائم التي يلتفع بها الناس في أزمير وما حولها، زهرة القرنفل ألوانها الحمراء والبيضاء والوردية ورائحتها النفاذة. وزهرة الياسمين البيضاء الرقيقة ملكة العطر والسحر والجمال، وغير ذلك من الزهور التي يعتني بها الشوربجي أيما اعتناء ويشرف على زراعتها وتنسيقها برغم مشاغله الكثيرة. في فصل الربيع حين تتفتح الأزهار وتطلق عطرها في الجو يبدو الشوربجي رائقا وهو يرى حديقته وبساط الألوان ممتد أمامه في إبداع رباني لا يقدر عليه إنسي. يحلو للرجل أن يجلس في حديقته ليستمتع بها، ويغري من معه بالاستمتاع. كثيرون يجاملونه، وهم يعرفون عشقه للزهور، وبعضهم يشاركه المتعة حقا.

محمد علي من بين الذين يترددون عليه كثيرا في بيته كان يتعجب من هذا العشق. يجده متنافرا مع شخصية الجندي الصارم التي يبدو عليها الشوربجي حين يكون وسط جنود قولة. يحاول

الرجل أن يقنعه بأن هذا الجانب في حياته هو الذي يجعله قادرا على احتمال الحياة بما فيها من مشكلات ومصائب. لكن محمد علي يرى أن الطريقة الوحيدة التي يمكن أن نحتمل بها مصائب الحياة هي أن نقنع أنفسنا بأننا قادرون على التغلب عليها ومواجهتها. وعبثا يحاول الشوربجي إقناعه بألا تعارض بين الاثنين. لكن الفتى يرى في الدنيا رأيا آخر.

لا يهاب محمد علي الشوربجي إسماعيل، على الرغم من أنه يحبه حبا جما. يشعر بفضله عليه. تولاه بعد أن مات عمه في ظروف غامضة. أدخله الجيش التركي، وظهر من الفتى أنه يبلى بلاء حسنا، ثم زوجه من أمينة هانم بصرتلي إحدى بنات أعيان قولة. المرأة الجميلة الغنية. ومعها أصبح محمد علي أبا لطفل أطلق عليه اسم أبيه إبراهيم. يرى الفتى المتحلقين حول الشوربجي، الذين ينتظرون إيماءته وآراءه لتدور رؤيتهم حولها بعد ذلك، ويتعجب من هؤلاء البشر الذين يفنون أعمارهم في ظلال الآخرين. ليس لهم موقف خاص، ولا يملكون شجاعة المواجهة بما يعتقدون حتى إن تصادمت مع ذوي النفوذ والسلطان.

لا يغيب محمد علي كثيرا عن بيت الشوربجي. له زيارة أسبوعية يجلس فيها مع الرجل زيارة بعيدة عن كل متاعب العمل. يعامله الشوربجي بوصفه ابنه. ويتقبل الفتى منه هذا الشعور. لكن المزاج

بين الاثنين كان مختلفا. الشوربجي كانت له نظرة شاعر إلى هذه الدنيا. فعلى الرغم من انغماسه في عالم السياسة الممتلئ بالدسائس والمؤامرات، وعلى الرغم من الفترة القلقة التي تعيش فيها الدولة العثمانية جراء الحروب الكثيرة التي خاضتها، أو نذر الحرب التي تلوح في الأفق سواء في أطرافها الشرقية، أو على تخوم حدودها الشمالية الملاصقة لبلاد الروس، والتي تتطلب مددا كثيرا من كل المناطق الواقعة تحت سيطرتها.

على الرغم من كل هذا، يحتفظ الشوربجي بمساحة رائقة داخل نفسه لا يتيحها لأي أحد. حزمه مع مرؤوسيه وصرامته تخفى وراءها مشاعر رقيقة لا تظهر إلا مع خلصائه أو ربما في مواقف نادرة مع الآخرين. يعرف الرجل أن مهابته مع مرؤوسيه هي التي تمكنه من السيطرة عليهم. يراقبه محمد علي في سلوكه مع هؤلاء، ويراقبه في سلوكه حين ينفرد به أو يكون مع آخرين أقربين. ويتعلم منه دون أن يفصح. هذه التحولات التي يقدر عليها الشوربجي ليست جزءا من عالم الفتى، ولو كان في مكنته أن يتحول، فإن تحولاته ستأخذ منحى آخر. محمد علي لا يحمل هذا المزاج الشاعري وليس في استطاعته أن يفهمه. لكنه يحمل مزاجا من نوع آخر. مزاج الإنسان القادر على أن يدير علاقاته بالبشر من واقع ما يفعلون، أو ما ينوون أن يفعلوا، وليس من واقع ما يحلمون أو يتأملون أو يشعرون.

لا يدري محمد علي السر في استدعاء الشوربجي إسماعيل له. كان معه منذ ثلاثة أيام، وموعد اللقاء التالي لم يحن بعد. الوقت عصر، وهو يخطو خطواته الأولى داخل الحديقة الأمامية للبيت. الشمس تلقي بأشعتها الصفراء على بساط الألوان الرباني أمامه فتصنع ظلالا لكل الأشياء بأكبر من أحجامها الحقيقية. يسرع الفتى وهو مشغول البال بلقاء الشوربجي. "لا بد أن يكون الأمر شديد الأهمية، وإلا ما جعلني أترك ما في يدي حتى زوجتي التي وضعت ابننا الثاني طوسون، وأن أذهب إليه مباشرة من الحامية العسكرية إلى منزله". لم يلتفت وهو يقلب الأمر في ذهنه إلى رجل ينحني على الزهور ليقطف منها ما شاء. الرجل هو الذي التفت إليه وناداه:

- يا فتى، تعال هنا.

صوته عال بحيث أخرج محمد علي من انشغاله. التفت إليه متسائلا:

- هل تناديني أنا؟

- نعم، نعم. تعال هنا واحمل هذه الأشياء إلى البيت.

يشير الرجل إلى كومة من الزهور بجانبه قطفها الرجل دون اعتناء.

رد الفتى بهدوء شديد:

– من أنت؟ وكيف تأمرني هذا الأمر؟ ثم إن لك يدين تستطيعان حمل ما تريد.

بوغت الرجل بالرد، فصاح فيه:

– أيها الأحمق، كيف ترد علي هكذا؟ سآمر سيدك بأن يجلدك.

لم يرد عليه محمد علي، مضى في طريقه إلى داخل البيت حيث ينتظره الشوربجي بفارغ صبر. تلقاه الرجل أول دخوله للبيت. بدت على ملامحه علامات قلق لم يخطئها الفتى وهو يحتضنه. سحبه الرجل من يده حيث الحجرة الجنوبية المطلة على الحديقة الخلفية.

الليل رائق بقمره الذي يكاد أن يلامس تخوم الجبال في أكبر تجل له. تحجبه أحيانا قطع من سحابات بيضاء تسرعها ريح آتية من مناطق لا يعرفها هذان الرجلان الجالسان في الحديقة الخلفية. شذا الحديقة الأمامية يصلهما مكتملا في هذا الوقت الذي يلملم فيه الربيع أوراقه ليرحل. والحوار بين الرجلين بدا أنه خارج المشهد الذي يجلسان في بؤرته.

– تعلم يا كوسروف باشا أنك مرحب بك في كل وقت. هذا بيتك

في قولة. بل إنه لا بيت آخر لك في هذا المكان سواه.

- يا صديقي العزيز، لا أشك أبدا في مشاعرك نحوي، ولا في ترحيبك بي. لكن زيارتي هذه المرة ستطول. والأنسب أن يكون لي بيت خاص بي.

- ومن قال إنك لن تكون في بيتك الخاص، لقد أمرت الخدم أن يجهزوا لك الجناح الشرقي من البيت. لن يدخله أحد غيرك.

- لكني – هكذا – سأسبب لك حرِجا مع الباب العالي. ماذا سيقولون في الآستانة حين يعرفون باستضافتك لي في بيتك.

- ليس هناك حرج، فالصدر الأعظم والسلطان نفسه يعرفان مدى علاقتي بك. كما أني أعلم أن الصدر الأعظم نفسه هو الذي اختار لك قولة لتكون هي المنفى لك.

لم يشأ الشوربجي أن يخبره بأن هناك مكاتبات كثيرة دارت بينه وبين الصدر الأعظم قبل أن يصل كوسروف باشا إلى قولة انتهت باستحسان الرجل لفكرة إقامة كوسروف في بيت الشوربجي. سيكون تحت عينه، وسيضمن ألا يثير قلاقل أخرى للدولة وهو في هذا المكان البعيد.

هذا الرجل الممتلئ خيلاء وغرورا أصبح معرضا لأن يفقد رأسه في كل صباح. لا يمنعهم عن ذلك إلا تعاطف بعض الأصدقاء القدامى معه ليمنعوا إعدامه مثلما تدخل الشوربجي عند السلطان سليم الثالث ليخفف حكم الإعدام إلى النفي.

كان كوسروف باشا قبل عام من جلسته الآن مع الشوربجي واثقا من قدرته على إزاحة كوشك حسين باشا عن مكانه بوصفه (قبودان عام). هذا الشاب القادم من فرنسا حيث درس هناك استطاع في بضع سنوات أن يستولي على عقل السلطان وقلبه. مكنه السلطان من الجيش، فبنى مراكب بحرية على الطراز الإنجليزي والفرنسي، وجلب مهندسين من السويد وفرنسا لصب قوالب المدافع، واستعان بالفرنسيين في تدريب العسكر العثمانلية، كما أنه استطاع أن يخلص الثغور من القراصنة. نجمه سطع، ومجلسه أصبح قريبا جدا من مجلس السلطان في اللقاءات التي يعقدها مع خاصته. كل هذا أثار حفيظة كوسروف باشا وحنقه وغيرته.

رفض كوسروف أن يذهب واليا على مصر. شعر أن العرض بغرض إبعاده عن دوائر الحكم في الآستانة. رفض بلطف متعللا بعدم معرفته الكافية بالأحوال المصرية. اراد أن يكون قريبا حتى يستطيع التخلص من منافسه القوي. فكر في طريقة يتخلص بها من كوشك حسين. أثار عليه العساكر الإنكشارية الذين رأوا فيما

يفعل هذا الشاب الممتلئ حماسا خصما من أرصدتهم عند السلطان. تلاقى الطرفان عند الرغبة نفسها: التخلص من كوشك حسين. فكروا في قتله، لكن الخبر وصل بسرعة إلى الصدر الأعظم الذي قبض على كوسروف وبعض قادة الإنكشارية. حكم عليه بالإعدام، لكنه خفف إلى النفي بعد تدخل وسطاء وشفعاء ذكروا السلطان والصدر الأعظم بسابق بلاء الرجل في خدمة الدولة.

لم يكد محمد علي يجلس على المقعد المواجه للشوربجي منتظرا معرفة سبب استدعائه على وجه السرعة حتى سمع الاثنان جلبة في الخارج بدأت تتصاعد إلى أن وصلت إلى باب الحجرة التي يجلسان فيها. بمجرد ما إن هم الشوربجي بالقيام ليستطلع سبب الجلبة حتى وجد الباب ينفتح بعنف بقبضة قوية هي قبضة كوسروف باشا، ومن ورائه أحد الخدم يقول لسيده معتذرا: "لقد حاولت أن أخبره أن سيدي مشغول الآن، لكنه صمم أن يراك في الحال".

كوسروف باشا الذي ظن أنه سيجد الفتى واقفا بأدب أمام الشوربجي يتلقى منه الأوامر دون أن يناقشه بهت حين رأى الاثنين جالسين بأريحية أصدقاء قدامى. لم يلتفت إليه محمد علي حين دخل، فقد كان مجلسه في مواجهة شبابيك الغرفة التي تطل على البحر وباب الغرفة يقع في الجهة المقابلة. أما كوسروف باشا فقد أدرك في لمحة أن أمر الفتى مع الشوربجي أكبر مما ظن في

البداية. كان داخلا ليؤنب محمد علي، وليطالب الشوربجي بجلده. لكنه الآن لا يستطيع ذلك. عليه أن يبدل خطته. بسرعة بديهة تسعفه في كثير من المواقف سأل الشوربجي:

– من هذا الفتى يا صديقي العزيز؟

– هذا محمد علي، ابني الذي لم أنجبه.

أدرك كوسروف أن مأزقه أصبح أكبر، لكن لم يكن في مكنته أن يتراجع.

– جئت أعاتبه وأشكوه إليك. معي أحمال من الورود قطفتها من الحديقة، وطلبت مساعدته لكنه رفض.

ثم التفت إلى الفتى وخاطبه في صوت اجتهد أن يكون حانيا:

– ألست مثل أبيك؟ هل ترفض أن تساعد أباك؟

محمد مذهول مما يرى. أصابته الدهشة من هذا الكائن البشري الواقف في الغرفة بطوله الفارع ولحيته الكثة وصوته الجهوري وملابسه التي تشي بفخامة زائدة عن الحد وعقله الفارغ. لم تكن في نية الفتى أن يخبر الشوربجي بما حدث معه في الحديقة. عد الأمر الذي أتى من أجله إلى الشوربجي أكثر أهمية على الرغم من أنه يجهله تماما. لكنه الآن مجبر على أن ينهي هذا العبث. التفت إليه وقال له في صوت أراد أن يكون حاسما:

– أنت لست أبي، ولا في مقامه. وأنت لم تطلب مني بل كنت تأمرني. وهو شيء لا أقبله منك ولا من غيرك.

كوسروف أدرك أنه داخل على معركة مع الفتى بدت أوائلها له خاسرة. كبره وخيلاؤه التي كان يمارسها مع مرؤوسيه وخدامه في الآستانة لن تنفعه هنا. التفت إلى الشوربجي وأراد أن يخرج أصواتا تعبر عن ضيقه من رد محمد علي وعتابه للشوربجي، لكن الرجل عاجله بأن طلب منه أن يجلس وينسى هذا الأمر البسيط مؤكدا على المكانة الكبيرة التي يحظى بها الفتى عنده. ولم يكن كوسروف ينتظر أكثر من هذا ليخرج من هذا المأزق، ولينسى أو يتناسى ما عده إهانة من محمد علي.

لم يغير الشوربجي جلسته في مواجهة محمد علي، الذي حدث أن كوسروف جلس على كرسي بين الاثنين يتسع لشخصين. نظر محمد علي إلى الشوربجي وفي عينيه تساؤل عن هذا الرجل الذي اقتحم مجلسهم عنوة: من يكون. أخبره الرجل يما يليق بمكانة كوسروف دون تفاصيل كثيرة. ثم بدأ كلامه قاصدا في الظاهر أن يوجهه إلى الاثنين، لكنه في حقيقة الأمر يقصد محمد علي.

– لقد جاءتني اليوم أخبار أن قرية ساناتوريو رفضت أن تدفع الضرائب المتأخرة عليها من العام الماضي، بل رفضت أن تدفع ضرائب هذا العام.

رَد كوسروف بسرعة: ارسل لهم قوة عسكرية كبيرة ترهبهم وتجعلهم يدفعون بسرعة.

- ومن قال لك إني لم أفكر في هذا. لكن المشكلة أن الأهالي حملوا أسلحة، وهم يرفضون حتى دخول غريب من قولة إلى قريتهم.

رد محمد علي: لماذا سكت عليهم في ضرائب العام الماضي؟

- لقد أرسلوا لي وفدا قبل ميعاد استحقاق الضرائب، وأخبروني أن محصول الزيتون والعنب قليل، وأنهم يتوسلون في إرجاء الضرائب إلى العام التالي.

- طيبة قلبك يا شوربجي أطمعتهم فيك. وهذه هي النتيجة. لن يسكت الصدر الأعظم على هذا أبدا. تعلم أنه في موضوع المال لا يبقي على أحد. رد كوسروف.

- يا كوسروف العزيز، أنا أطلب رايكما، ولا أطلب منك أن تلومني على تقصير. المواجهة العنيفة مع أهل القرية لن تؤدي إلى شيء، واستمرار الرفض في دفع الضرائب يجب أن يكون له تفسير لدى رجال الآستانة. ولو قلت الحقيقة فربما يكلفني هذا منصبي بوصفي حاكما للإقليم. ومن المؤكد أنهم سيرسلون قوة لإجبار الأهالي على الدفع. هذه حالة عصيان وخروج على الدولة لن ترضى بها أبدا.

- هل فكرت يا عمي أن تذهب بنفسك إليهم؟ رد محمد علي.
- فكرت، لكني لو عدت من هناك خالي الوفاض فلن أتمكن من السيطرة عليهم بعد ذلك.
- إذن اتركني أذهب إليهم مع سبعة أو ثمانية من جنودك، فربما استطيع أن أحل هذه المشكلة.

شعر كوسروف بسخافة هذا الاقتراح. ماذا يمكن أن يفعل فتى قصير القامة مع بضع رجال من رجال الشوربجي. هم بأن يبدي اعتراضه على الاقتراح، لكنه سكت، ففشل الفتى في مهمته مؤكد، وهذا من شأنه أن يهز ثقة الشوربجي فيه، وهذا ما يريده كوسروف بالضبط.

- هل تعتقد أنك قادر على حل هذه المعضلة؟
- نعم، إن شاء الله، لكن شرطي أن تعطيني كل السلطات في أن أفعل ما أشاء دون الرجوع إليك وأن تخبر رجالك بذلك.

دهش الرجلان من شرط محمد علي. أراد كوسروف أن يعترض، وأن يخبر الفتى بتجاوز مقامه مع حاكم قولة، لكنه -حسب خطته- آثر الصمت منتظرا رد الشوربجي الذي فاجأه بموافقته على شرط محمد علي.

استدعى الشوربجي ثمانية من رجاله، وأخبرهم بأن محمد علي

سيصطحبهم إلى القرية لحل مشكلة الضرائب فيها مشددا عليهم بضرورة طاعته في كل ما يفعل لأنه – من هذه اللحظة – له سلطات حاكم قولة في القرية.

***

لم تكن خطة التعامل مع أهل القرية قد اتضحت في ذهن محمد علي بعد أن خرج مع الجنود الثمانية وجابيي الضرائب من بيت الشوربجي. في أثناء الطريق الطويل، وقبيل وصوله إلى القرية بعد العشاء بلور في ذهنه خطة رآها ناجعة. يعرف القرية جيدا، ويعرف بعض أهلها، زارها مرات عديدة مع عمه طوسون، كما أن أباه كانت له صداقات قديمة مع بعض وجهائها كما أخبره عمه، لكن ذلك لم يثنه أن يمضي في خطته.

دروب القرية المتعرجة والضيقة، والسكون النسبي في هذه اللحظة من الليل، ووقع حوافر الخيل الأحد عشرة كانت ستلفت انتباه أهل القرية وستفسد ما أراده محمد علي، لذلك طلب من جنوده أن يدخلوا فرادى من طرق مختلفة ليتجمعوا في النهاية عند المسجد الكبير في منتصف القرية. هنالك طلب من أربعة من الجنود بمساعدة من الجابيين أن يحضروا أربعة من وجهاء القرية قال عنهم الجابيان إنهم من يقودون التمرد على دفع الضرائب. بينما طلب من الجنود الآخرين أن يغلقوا كل أبواب المسجد عدا

باب واحد، ثم يصعدوا إلى سطح المسجد. كل واحد منهم يأخذ طرفا من أطراف القرية دون أن يراهم أحد.

ثلاثة من الوجهاء قدموا دون جلبة، الأخير الذي استشعرت زوجته أن وراء هذه الدعوة الليلية ما وراءها. صرخت لينتبه الناس، ويخرجوا. أفسدت هذه الصرخة خطة محمد علي، يريد أن يختلي بهؤلاء الوجهاء بعيدا عن ناس القرية، يساومهم، ويضغط عليهم، ويحصل على ما يريد في هدوء، لكنه الآن مضطر إلى أن يتعامل مع الأمر بطريقة مختلفة.

على باب المسجد وقف محمد علي في مواجهة الجمع الغاضب من سكان القرية، أضواء القناديل الزيتية خافتة في الساحة الأمامية للمسجد، وأضواء القناديل الثلاثة بالداخل لا تكفي كي يتعرف الناس على هذا الفتى القصير الواقف بصلابة وعيون متقدة لا يتبينها الناس. الشيوخ الأربعة بالداخل، والناس في الخارج لا تفهم ماذا يحدث، يصرخ أحدهم:

– من أنت؟ وماذا تريد منا؟

– أنا مبعوث من حاكم قولة، واريد ان اتحدث مع شيوخكم. لم آت هنا في شر، ولا أريد ان آذي أحدا، أنا لست إلا واحدا منكم كلفني الحاكم بمهمة صغيرة معكم. إن لي فيكم صلات معرفة يجب أن أراعيها، فلا تقلقوا.

رد آخر:

- كلامه مطمئن، فلننتظر قليلا.
- إذا كان كلامك صحيحا، فلماذا يحمل جنودك السلاح، نحن لا نطمئن إليك..... رد ثالث.

حاول بعض الواقفين الاقتراب أكثر من باب المسجد، فوقف ثلاثة من الجنود شاهرين سلاحهم، بينما دخل محمد علي مغلقا الباب من وراءه.

يقترب محمد علي من الرجال الأربعة الذين اجتمعوا في ركن مجاور للمحراب، تبدو على وجوههم وهو يقترب منهم علامات تساؤل، ويظهر من ارتعاشات خفيفة للجسد عند اثنين منهم اضطراب لا يخطئه الفتى.

- تعلمون لا شك ما الذي أريده منكم. قال الفتى.
- وأنت لا شك تعلم جوابنا على ما تريد، فما الجديد إذن؟ رد أحدهم الذي يبدو أعلاهم مكانة بينهم.
- الأمر ليس بهذه البساطة التي تتصورونها، لن ينال الحاكم من ضرائبكم شيئا، إنها أموال ستذهب مباشرة إلى الآستانة حيث يحتاجها السلطان.
- لكن الشوربجي باشا يعلم بأحوالنا، محاصيلنا من الزيتون

والعنب والتبغ قليلة هذا العام، لم يبق منه ما يقيم أودنا، عيشنا على الكفاف، ولا نملك إلا القليل.

رد محمد علي في حدة

- بل تملكون ما يساوي كل هذا، الأمن..... الأمن الذي يحققه لكم السلطان بمساعدة من الشوربجي باشا، هل تظنون أن الحياة الآمنة التي أنتم فيها تحققت من فراغ، ألا تعلمون أن الحروب التي يخوضها السلطان هي من أجل أن يحقق لكم هذا الأمن الذي تتجاهلون قيمته. هل سيتحقق الأمن دون أموال تصرف على الجيوش، ودون متابعة لقطاع الطرق، وتطبيق القوانين الصارمة على كل مخالف، ألا تدركون قيمة كل هذا.

- ندرك، لكن أحوالنا لا تسمح بما يريد

رد آخر

- يا بني أنا أعرفك، وأعرف عمك طوسون رحمة الله عليه، كما رايت أباك في أيامه الأخيرة. أنت من عائلة طيبة الجذور، تقدر ظروف الناس جيدا، وما نحن فيه لا يخفى على أحد.

تجاهل محمد علي هذه الانعطافة في الحوار، استوعب لوهلة أنه لو جارى محدثه في الأمور الشخصية، فربما يطول الأمر معهم

بأكثر مما ينبغي، لم تكن هناك قوة على الأرض بقادرة على أن تثنيه عما أراد لنفسه من هذه المهمة الكبرى.

- إنكم الآن تخلقون حالة تمرد يمكن أن تمتد إلى كل قولة، هل تظنون أن الشوربجي باشا سيستطيع أن يسيطر على بقية القرى والمناطق إن هي احتذتكم فيما فعلتم؟ هل تظنون أن الباب العالي سيمرر هذا الرفض، وكأن شيئا لم يكن؟

الجدل مع الشيوخ استمر بأكثر مما قدر، وطأة الحشود الواقفة خارج المسجد وأصواتها التي تتعالى بدأت تؤثر على أعصابه، وعلى الخطوة التالية التي سيقدم عليها إذا فشلت مفاوضاته مع الشيوخ، مع ذلك أبدى قدراً من ثبات الأعصاب الظاهر، خطوة خاطئة في توقيتها أو في حجمها ربما تفسد كل ما خطط له، وربما تحول المكان إلى حمام من الدماء. عيناه تجوسان في المكان، هل يمكن لرجاله الثلاثة الواقفين على الباب أن يمنعوا الناس حتى النهاية، ماذا إذا اضطر لاستخدام السلاح، هل تجدي بنادقه مع هذه الحشود الغاضبة؟ هل يمكن للقرية أن تتحمل إراقة دماء أبنائها دون أن تنتقم؟ يطلب محمد علي من الشيوخ أن يستريحوا قليلا، ويفكروا في كل ما قاله لهم. انتحى هو في ركن قصي يفكر في خطوته التالية. الجابيان جالسان بجوار منبر المسجد يتحادثان في أمور لا يدريها، وجندي واحد واقف غير بعيد من الشيوخ يعبث

بلحيته. أصوات الشيوخ تعلو في المسجد قليلا، يتابعهم محمد علي في إشارات أيديهم، وفي تعبيرات وجوههم، وفي نبرات الصوت التي يبدو أنها تحاول أن تكون خفيضة توقيرا للمكان، بغريزة يبدو أنه ورثها عن أمه يدرك أن الشيوخ مختلفون، وأن هذا الاختلاف رحمة له ولجنوده، يعني أنه سيصل معهم إلى ما يريد، تركهم قليلا، ثم اقترب منهم وطلب من أحدهم أن يحادثه منفردا. بدا له أن هذا الشيخ ربما يكون النقطة الضعيفة في هذا الحائط الصلد، أثار فزعه من الجيش الذي سيأتي في الصباح إن لم يحصل محمد علي على ما يريد، الحياة الأكثر بؤسا لسكان القرية بعد أن يقمع جنود السلطان تمردها، ربما يصل الأمر إلى مصادرة الأراضي، والبيوت، وأشياء أخرى لا يتمناها لهم.

بدأت ارتعاشات الشيخ تزيد، على الرغم مما يبدو من تماسك في كلامه، لا تخطئ عينا الفتى هذا الصراع الداخلي، يعرف أن الرجل سيتهاوى في النهاية، تماسكه الظاهر لن يبقى طويلا. تركه ليعود إلى رفقته، أصواتهم أكثر علوا، اختلطت مع الأصوات في خارج المسجد، لم يبد من بقية الشيوخ أي بادرة تراجع عن موقفهم، الوقت معهم يمر، وسويعات قليلة على صلاة الفجر، ولا يبدو انفراج في الموقف. اقتربوا من الفتى، وأعلن كبيرهم أنهم لن يدفعوا الضرائب هذا العام مهما كانت العواقب. طلبوا منه أن يتركهم ليعودوا إلى

بيوتهم. يستريحوا قليلا قبل العودة لصلاة الفجر. فاجأهم محمد علي بصاعقة من الرفض.

- لن يعود أحد منكم إلى بيته، ستخرجون من هنا إلى قولة مباشرة مصفدين في الأغلال، رهائن حتى تدفع القرية مقدار ما عليها من ضرائب، وإذا أصرت القرية على موقفها، ستقتلون.

بهت الشيوخ من هول ما يسمعون، حسبوه يهددهم بما لن يفعل، لكن الفتى فاجأهم مرة أخرى، بأن فتح باب المسجد، وأطل على الحشود التي ازدادت، وأخبرهم بالأمر، كما أخبرهم بأنه إن لم يعد بالشيوخ حتى الصباح، فإن جنود الشوربجي باشا ستدهم القرية، وتصادر ممتلكات الناس بما فيها أراضيهم. صاح محمد علي على جنوده فوق سطح المسجد فظهروا للناس في وضع استعداد للضرب، أمسك الفتى بندقية، فأطلق منها طلقة في الهواء، في هذه الأثناء طلب من جنوده أن يحكموا الأغلال على الشيوخ، يأخذونهم ليعودوا بهم إلى قولة.

مشهد الأغلال في أيدي وأعناق وأرجل الشيوخ مشهد مذل لناس القرية، الفؤوس في أيديهم والخناجر حيرى أمام هذا الفتى الجسور، حركته السريعة مع جنوده، واختطافه الشيوخ من بينهم جعلتهم مذهولين. وسط بكاء بعضهم وهم يرون شيوخهم في الطريق إلى

قولة، خرجت امرأة هي على ما يبدو زوجة الشيخ التي صرخت، ألقت بحليها على الأرض، وقالت "هذا نصيبي من ضرائبكم، خذها، لا بارك الله لكم فيها، فقط اتركوا زوجي، لحظات، وبدأت بعض النسوة يحتذين حذو المرأة، وبدأ بعض الرجال يخرجون ما في جيوبهم.

لم يشعر الفتى لحظتها بلذة الانتصار، استغرقته المهمة بأكثر مما ينبغي، طلب من الجابيين أن يقدرا حجم ما اجتمع من أهل القرية، وهل هذه هي الضرائب المقررة عليهم فعلا، استغرق منهما هذا الأمر وقتا حتى اطمأنا إلى الحصيلة، وعندما أخبراه ببلوغ الضرائب الحد المطلوب، طلب من الجنود أن يفكوا أسر الشيوخ.

عودته المظفرة بالضرائب إلى الشوربجي آذنت ببدء عهد جديد في حياة الفتى، قادته إلى آفاق لم يكن ليحلم بها أبدا.

الفصل التاسع

هوى زوجة حسن التي تجاوزت العشرين بشهور قليلة والتي قر عينه بها بعد طول تردد، تبدو له وهي تتحرك في البيت، وهي تدير شؤونه واعية بأكثر مما يبدو عليه سنها، وبأكثر مما منحتها إياها أسرتها من تربية، يلاحظها حسن بعد أن تقوم من نومها، تهرع مباشرة إلى حجرة جانبية في البيت الجديد الذي اشتراه لتغير من ملابسها، لا يمكن أبدا أن تظل في البيت نهارا بالملابس التي تنام بها، بدا هذا له سلوكا غريبا لم يتعوده من أمه ولا من أخته. شَحتة تظل ملابسها عليها أسبوعا وربما أكثر حتى تغيرها حين تستحم، وربما تغيرها دون أن تستحم. والنساء الأخريات من جيرانه لم يكن يختلفن كثيرا عن شَحته، مزيج من الروائح الكريهة كانت تملأ

البيت الذي ولد فيه حسن وعاش فيه قبل زواجه، يستطيع أن يعرف جارته من رائحتها قبل أن يراها. لكن هوى امرأة أخرى، لا يدري أي عطر خفي عنه، حفي به، مغر له، يدعوه أن يقترب منها، أن يتشممها دون أن تلاحظ، يشغف كثيرا بأن يقترب منها في الليل، يتشمم شعرها، وهي مستغرقة في النوم، يشعر بلذة رجل يمتلك في مصر ما لا يمتلكه أقرانه، الدنيا وما عليها.

لا تهتم هوى بنظافتها الشخصية فقط، بل تهتم أيضا ببيتها، وبطفلها الذي تجاوز عمره الآن السنوات الثلاثة. في الفناء الداخلي للبيت تحرص هوى على يكون المكان مرتبا ومنسقا وجميلا، تساعدها في ذلك فتاة من مثل عمرها تقريبا جلبها حسن من بولاق بعد أن مات أبوها وأمها في ظروف لا يدريها، وبقيت وحيدة مع أخيها الذي يمارس السطو على الحوانيت ليسرق منها ما يمكن ليده أن تصل إليه. تركها لحسن بعد أن توسم فيه خيرا، والفتاة لم تمانع. الشمس التي لوحت بشرتها فأحالتها إلى سمرة داكنة، والشعر المجعد الذي تركته دون عناية، والجفاف البادي على جلدها يظهر منها تجاعيد تزيد على عمرها عشر سنوات على الأقل. فزعت هوى لمرآها أول مرة، لم يكن فزعها لفقرها الظاهر، بل لقذارتها الواضحة، همت بأن ترفضها، لكن حسن أفهمها بأن رفضها يعني أن تخرج الفتاة إلى الشارع حيث لا عائل ولا سند.

ظلت "مقبولة" الخادمة أياما لا تمس شيئا في البيت بأمر من

سيدة البيت، ولا تطلب منها هوى شيئا. أول ما طلبت منها أن تخلع كل ملابسها، حيث وضعتها في صرة وألقت بها في الشارع. أعطتها "جلابية" من عندها، وبعض الملابس الأخرى، ثم خرجت معها إلى الحمام العمومي خلف مسجد الحسين، أبقتها هناك يوما كاملا، أدخلتها غرفة الحرارة مع "اللاونجية"، فبقيت فيها حتى تصبب عرقها، وتفتحت مسام جلدها، وتساقط منها الوسخ والطين المعشش في ظاهر الجلد وفي ثناياه، أمسكت بقطعة حجر سوداء حكت به ما تشقق من جلدها وبخاصة كعبيها ومفاصل ذراعيها، ساعدتها في كل ذلك "بلانة" مقيمة بالحمام، مشطت لها شعرها بنفسها، وحمدت الله على أنها فعلت ذلك في الحمام، قمل كثير تساقط منها، وحشرات أخرى لا تدريها. ثم عادت مع هوى إلى البيت فتاة أخرى غير التي ذهبت.

لم يصبح حسن من الموسرين حين اقتنى هذا البيت، كان قد ادخر قدرا من المال من تجارة محدودة له في الأوراق والأحبار بجانب عمله خطاطا، اشترى بهذا القدر البيت. يقع البيت غرب باب زويلة على هذا الدرب الممتد شرقا حتى يتصل بسوق السلاح الذي ينعطف منه حسن جنوبا ليصل إلى جامع السلطان حسن حيث دكانه الذي يعمل فيه، ومخزنه الذي اشتراه بعد أن توسعت أعماله قليلا، البيت على واجهتين: إحداها على الدرب نفسه، والأخرى تطل على حارة ضيقة لا يتجاوز عرضها بضعة أقدام، للحارة

باب يغلقه أهلها بعد صلاة العشاء. فناء البيت مربع الشكل تقريبا. باب البيت لا يفتح مباشرة على الفناء، بل هناك دهليزان متعامدان على الفناء يصلان ما بين صحن البيت والشارع، السبب في ذلك ألا يتاح للمتطفلين أن يشاهدوا شيئا من داخل البيت إذا انفتح الباب. حجرة واسعة علي اليمين عند الدخول هي "المنضرة" بابها على الدهليز الثاني حين تكون آتيا من الخارج، وبجوارها في الجهة الشرقية حجرة يتناولون فيها الطعام، ثم "باب الحريم" الذي يقود إلى سلم داخلي للطابق الأعلى حيث ثلاث حجرات لحسن وزوجته وابنه. في الجهة الجنوبية من البيت حجرة للحمام وأخرى للمطبخ، وثالثة تنام فيها "مقبولة".

مشربيات الحجرات العلوية متقابلة شمالا وجنوبا: إحدى الحجرات تقع فيها المشربيات الشمالية على الدرب مباشرة، والجنوبية تطل على الفناء الداخلي للبيت، والحجرة المقابلة لها العكس، بينما تطل مشربيات الحجرة التي تقع على الجهة الغربية على صحن الدار. في الصيف يترك حسن هذه المشربيات مفتوحة مع وضع ناموسيات محكمة حتى لا تتسرب الحشرات الطائرة والزاحفة على الجدران: الذباب نهارا والناموس ليلا وكذلك الأبراص والبق الذي يتسلل إلى الفراش بهدوء قاتل، عانى حسن كثيرا من هذه الحشرات في بيته الأول، أما هنا، فإن هوى لا تسمح بهذا أبدا وبخاصة داخل الحجرات. طلب من أمه وأخته أن ينتقلا معه إلى البيت وبخاصة أنه ليس بعيدا

عن بيتهم، لكن أمه التي كف بصرها تقريبا أبت بإصرار عجيب، "لا أترك هذا البيت إلا إلى القبر، حياتي كلها قضيتها هنا، لا أعرف مكانا في الدنيا غيره، ولا أحب مكانا أفضل منه"، وبالطبع بقيت شَحتة معها لتخدمها.

يحلو لحسن أن يتابع هوى بهدوء وهي تبدأ يومها بإعداد الفطور، تصحو بعده بقليل بعد أن يكون قد أتم صلاة الفجر، وجلس في "المنضرة" يسبح الله قبل أن تبدو تباشير الخيط الأبيض للفجر في الانبلاج، يسمع صوتها وهي تنزل الدرج الخشبي، لا تقتحم خلوته في هذه الأثناء، تتركه حتى يخرج هو، حينئذ تأتي إليه وتقبله، ثم تمضي لشأنها. يجلس في صحن الدار على بساط مربع الشكل، داكن الحمرة قبل أن يذهب إلى حانوته في الضحى، على فخذيه أحد الكتب التي يقرؤها مما تستهويه في مكان عمله، تأتيه أحيانا من بعض الموسرين الذين يودون نسخها، فلا يتردد في بعض الأحيان أن ينسخ نسختين له ولصاحب الكتاب، يتابع حسن هوى بطرف عينه وهي تبدو منهمكة مع الخادمة في تفاصيل صغيرة لا يدريها، وحين تواجهانه يبدو جمال هوى متجاوزا كل حد، لون بشرتها الخمري يبدو رائقا صافيا مقارنة بسمرة الخادمة الأقرب إلى السواد، بضاضة يديها، والتفاف ساقيها تتدفق فيهما الحياة وتندفع اندفاع الماء وتدفقه في الجداول، راقه منها صمتها

في الصباح، مزاجها في هذه اللحظات يقترب من مزاجه. يتحركان في البيت دون جلبة، وفي انسجام، حتى وهي تلقي بأوامرها إلى الخادمة، تفعل ذلك بلا ضجيج. لا يدري حسن من أين أتت بكل هذا الألق.

يحلو له أيضا أن يجالسها كل ليلة بعد صلاة العشاء، وبعد أن ينام "محمود" والخادمة. يحكي لها بقدراته الفائقة على الحكي كل ما حدث معه في اليوم، لا يفعل كثير من أصحابه ما يفعل، ولا يفعل كذلك أزواج صويحباتها وجاراتها. تحكي له عن سعادتها بهذه اللحظات، وعن فرادتها في ذلك، ولا يعبأ حسن بأن غيره لا يفعل مثله، لقد شغف بهوى حبا، فلماذا يهتم كثيرا بمن يفعل أو لا يفعل. حسبه أن يكون سعيدا، وأن يرى أثر هذا على وجهها.

يحكي لها عن مساومات الناس حين يشترون منه الأوراق والأحبار، هذه الأيمانات المغلظة التي يسمعها كثيرا، وهذه التوسلات التي خسر بسببها ما خسر حين بدأ في ممارسة التجارة، يحكي أيضا عن كثير من المشاهدات الغريبة التي يراها حول مسجد السلطان حسن، من ذلك هذا اللص الذي كان يجري وراءه أحد المحتسبين ورجل من رجال الوالي، تعثر اللص في حجر فوقع على الأرض، وهنا انقض عليه المحتسب، وبدأ يسأله "ما اسمك أيها الخسيس؟" فيرد اللص "خبر إيه يا أفندي" فيغتاظ المحتسب،

ويضربه مكررا عليه السؤال "ما اسمك؟ وإلا قتلتك" فيرد اللص البائس "خبر إيه يا أفندي"، والناس من حولهم تضحك فيما يبدو أنه لا مدعاة للضحك، ولما طال الأمر قليلا، وبدأت ضربات المحتسب تزداد على جسد اللص، اقترب من المحتسب أحد الأشخاص ليخبره بأنه منذ البداية وهو يقول له اسمه دون أن ينتبه المحتسب، اسمه هو "خبر إيه"، المفاجأة جعلت المحتسب يترك اللص، يضحك وهو يقول باستغراب "اسمه خبر إيه!"....."سأتركك هذه المرة، لكني لو رايتك مرة أخرى في السوق، فلن أتركك حتى تقضي بقية عمرك في السجن".

تضحك هوى ضحكة صافية، يبدو منها حينئذ غمازتان يزيدانها جمالا. تبادله حكاية بأخرى عن هذا الساكن الجديد في الدرب الذي جرسه الأطفال اليوم، سمعتهم وهي جالسة في المشربية بعد صلاة الظهر، وهم يلقون عليه تحية جماعية في أثناء سيره بالدرب: كيف حالك يا خال؟ فيرد: أهلا يلعن أبو خالك، لحظات ويكررون التحية: كيف حالك يا خال، ليرد: أهلا يلعن أبو خالك. ظلوا هكذا ما بين تحية ورد، لا الأطفال ملوا، ولا الرجل كف عن أن يلعن أخوالهم جميعا، امسك بحجر والقاه عليهم، اختبؤوا، ثم عاودوا الكرة إلى أن تعب الرجل، فجلس قريبا من البيت ودعا الأولاد جميعا، أعطاهم بعضا من الحلوى، وجلس يحادثهم قليلا، والأطفال منصتون فرحون. تركهم ليمضي، لكنهم ودعوه بالتحية

مرّة أخرى: كيف حالك يا خال؟ رد عليهم أخيرا: أهلا يلعن أبو خالك، ثم ضحك ومضى.

***

سليم صديق الطفولة الذي زامله في الأزهر فترة من الزمن، اختفى طويلا، ثم عاد يدخل حياة حسن من زاوية أخرى. حين فكر حسن أن يعمل في تجارة الأوراق والأحبار بجانب عمله خطاطا. نصحه بعض معارفه أن يذهب إلى سوق يقع خلف خان الخليلي، هناك يمكن أن يجد واحدا من هؤلاء التجار الذي يسافرون كثيرا، ثم يجلبون من بلاد الله البعيدة ما لا يجده الناس في مصر. التقى مصادفة هناك بسليم الذي كان يعمل مع والده في تجارة التبغ التي يجلبها من مناطق متاخمة من الآستانة، وبخاصة مناطقها الشمالية الغربية قولة وما حولها، تبغ أفضل بكثير من التبغ الذي يزرع في مصر. أخبره حسن بما يعتزم، فوجد من صديقه القديم استعدادا لمساعدته.

سليم هو هو بمرآه الدقيق وضحكته العالية، ونظراته الزائغة وحركته الكثيرة، لما رآه حسن عرفه للوهلة الأولى، لم يتغير فيه سوى شارب متوسط الكثافة، ووجه يخلو من أي أثر للحية، هذا سهل على حسن أن يعرفه، أما هو فاستغرق بضع ثوان قبل أن يرتمي في حضن حسن مهللا "أهلا أبو علي، والله ما عرفتك،

ما هذه اللحية، وهذه الأناقة؟ هل ورثت يا صديقي؟". أخبره حسن بعمله وزواجه وإنجابه طفلا. وعرف منه أنه تزوج أيضا منذ حوالي السنة، لكن لم يرزق بعد الأولاد. "أسفاري الكثيرة مع تاجر تركي أعمل معه، لم تتح لي أن أتزوج مبكرا، لكنك يا أبا علي لو رأيت ما رأيته، لكرهت حياتك في مصر، لقد زرت إيطاليا يا حسن، هل تعرف إيطاليا؟". يبدو عليه التيه وهو يتحدث عن هذه الأماكن، في ملامح وجهه آثار من الشعور بالزهو أنه رأى ما لم يره كثيرون من مثل سنه في مصر.

يستمر سليم في ثرثراته الكثيرة، وفي لقاءاتهما التالية لم يكن ليكف عن حكي ما شاهده في هذه البلاد البعيدة. يحكي لحسن أيضا عن سفره إلى مكان قريب من فرنسا نسي اسمه، مع هذا التاجر المأفون الذي يعمل معه، يأخذه التاجر كثيرا معه، ويعتمد عليه في المعاملات المالية التي تتم بينه وبين التجار المصريين، يعرف سليم كيف يتفاهم معهم، يناورهم ويداورهم، ويخلص منهم بما يريده التاجر. "مع ذلك لا آخذ حقي كاملا من هذا الرجل البخيل. يقتر علي كثيرا، ولا يعطيني حقي إلا بعد إلحاح شديد، مع ذلك سفري معه، ورؤيتي لبلاد أخرى غير مصر يهون علي بخل هذا الرجل القميء".

في بداية تعاملاتهما المادية، كان حسن قلقا، اتفق معه أن يعطيه

جزءا من ثمن أول شحنة من الورق سيجلبها له سليم، قال له سليم إنه سيشتري له الورق من البندقية في إيطاليا التي سيزورها مع التاجر الماكر، سيغيب بضعة أشهر، ويأتي بالمطلوب. ما أعطاه له حسن حصيلة مدخرات أكثر من سنتين بعد أن شاع اسمه بين طلاب الأزهر وجامع السلطان حسن، خاف ألا يعود سليم بالورق أو بالمال متعللا بحجج لن تنتهي، ولن يستطيع أن يطالبه بما أخذ لاعتبارات كثيرة. لكن سليم خيب ظن حسن حين عاد ومعه ورق من أجود أنواع الورق، وبثمن بدا لحسن أنه زهيد جدا مقارنة بما يمكن أن يبيعه، فارق الربح لحسن عال، استطاع في وقت وجيز أن يرد باقي الثمن. أفهمه سليم أنه لم يكن ليفعل هذا إلا بموافقة من التاجر الذي طالبه بجزء من أرباحه، ولم يرفض سليم.

أحوال مصر لا تغيب عن أحاديث الصديقين القديمين الجديدين، يتذكران حين كانا في الأزهر، يستشعران حلاوة أيام الطفولة. يرى سليم أن الحياة وقتئذ كانت أجمل "مقارنة بهذه الأيام السوداء التي نعيشها"، بينما حسن يرى أن الأمر لم يكد يتغير كثيرا، المعاناة نفسها، والمشاهد البشعة لأناس من الممكن أن يبيعوا أولادهم لآخرين حتى يستطيعوا أن يستكملوا حياتهم، والولاة الذين لا دور لهم ولا قيمة، والمماليك الذين يعيثون في الأرض فسادا، وبخاصة أتباع مراد بك وإبراهيم بك.

- هي هي الحياة نفسها، ما الفرق؟
- الفرق هو نحن. نحن الذين نضجنا واستوت خبرتنا، ورأينا – على الأقل أنا – عوالم أخرى لا تجعلني أطيق الحياة في مصر.
- لا أتفق معك في هذا. كثيرون غيرك لم يروا ما رأيته أنت، مع ذلك يظنون أن حياتهم في الماضي كانت أفضل.

يبدو سليم إنسانا آخر حين يدخل في نقاش مع حسن. آراؤه متماسكة، ومواقفه واضحة، تتناقض كثيرا مع ملابسه التي لا يعتني بها على الرغم من أنها تشي بإنسان على قدر معقول من الوفرة. يحب حسن كثيرا أن يتناقش معه، يستفيد من خبراته التي كونها خلال أسفاره، ويستمع إلى مغامراته مع النساء واللصوص. ويشعر أن أفكارا من نوع آخر تسري في مجادلاتهما الكثيرة.

يحدث أحيانا أن يتناول سليم مع حسن بعض الأطعمة الخفيفة التي يجلبها الأخير معه من البيت، ذلك اليوم رائحة الباذنجان المقلي والثوم اخترقت خياشيم سليم، كانت آتية من مكان قريب من حانوت حسن. امرأة مكشوفة الوجه تجلس على الأرض وخلفها طفل لم يتجاوز دور الفطام إلا قليلا، يلهو بقطع من الأحجار الصغيرة، تستره قطعة بالية من القماش، تبيع الباذنجان والبطاطس المقلية والطعمية والخيار المخلل، يحوم حولها الذباب والهاموش،

ولا تبالي. آلم سليم منظر هذه المرأة، فنفحها أكثر من حقها بعد أن طلب منها أن تختار له الباذنجان من الطبقة السفلى غير المكشوفة للذباب. عاد مكفهر الوجه، ليحدث سليم عن المرأة التي يعرفها سليم جيدا، "هل هذا يرضي الله يا أخي "لماذا يعيش هؤلاء البكوات في قصورهم الفخمة، ثم يطاردون أمثال هذه المرأة ليسلبوهم ما لديهم؟ ما الذي يفعله هؤلاء معنا؟ بلاد من هذه؟ أليست بلادنا؟" يسأل سليم بحدة "قل لي بربك لماذا يختار السلطان في الآستانة واليا على مصر من غير المصريين؟ "لا يجيبه حسن بوضوح، ربما بدا له هذا الأمر جزءا من حقائق الحياة التي لا سبيل إلى تغييرها: الشمس تشرق كل يوم، ورمضان يأتي في الصيف أحيانا، وفي الشتاء أحيانا أخرى، وشخير مقبولة الخادمة لا يتوقف طوال الليل، ووالي مصر يأتي دائما من هناك. لم يفكر حسن في الأمر بهذه الطريقة، بدا له مدهشا وغريبا. "يا حسن، يمكن لي أن أقبل هذا الوالي لو كانت أحوال مصر مثلما رأيت في الأماكن البعيدة التي زرتها، لكن أن تكون هذه أحوالها.....؟!" يصمت، ثم يلعن، ويسب، ويغير الموضوع، ثم يعلق على مشهد امرأة انكشف وجهها بعد أن سقط الحجاب عنه، "ما هذه المرأة؟ لقد تعمدت أن تسقط الحجاب حتى نراها، لم يسقط عنها عفوا، ألا ترى؟" ويرد حسن "نعم أرى، لكن أفضل أن تغير من وضع جلوسك، هذا مكان عملي".

- نعم، أعرف، لكن ما باليد حيلة.... هل ترى هذه المشاهد كل يوم.
- نعم أراها، وأتجاهلها. هذا مكان عملي يا بني آدم، الناس هنا لا ترحم.

يبدو سليم ساخطا، لكنه لا يتجاوز السخط إلى الفعل، ماذا يمكن له أن يفعل، ومع من؟

***

علاقة العمر الممتدة بين حسن وصديقيه بكر وعبد العال لا يكاد يفهمها كثيرون من معارف حسن حين يرون الثلاثة جالسين على الدكة التي وضعها حسن أمام حانوته. الثلاثة من أعمار متقاربة، لكن الفقر والزمن فعلا فعلهما في صديقيه، فبدا أن بكر الذي يكبره بسنة واحدة هو في الظاهر أكبر منه بحوالي عشر سنوات: تجاعيد واضحة على جبهته، وربما على وجهه، لكن لحيته الكثة تخفيها، وسنة أمامية علوية ساقطة تظهر بوضوح حين يضحك. وعبد العال الذي يصغره بسنتين يبدو ظهره منحنيا قليلا، وعيناه غائرتان.

لا يشعر بكر وعبد العال بأي غيرة من حسن الذي أصبحت أحواله المادية أفضل كثيرا من أحوالهما، ما زالا يعيشان في البيت نفسه الذي سكناه بعد زواجهما، حجرات مشتركة في بيت كبير يسكنه غيرهما في مكان ليس بعيدا عن حانوت حسن في هذه المنطقة

الخلفية القريبة من سوق المغربلين، كما أن حرص الاثنين على صداقتهما به لا يخفي أي دوافع للاستغلال. لم يحدث أبدا أن طلب واحد منهما شيئا من حسن، أي شيء، ولا قبلا منه عطايا أو هدايا دون مناسبة. بكر وعبد العال أكثر قربا من بعضهما مقارنة بحسن، ربما بحكم الجيرة وأشياء أخرى، لكنهما مع ذلك يكنان لحسن حبا عميقا يزداد بمرور الزمن. يتمتعان معا بصفاء نفس لا يدري حسن أسبابه على الرغم من اختلاف بين في طباعهما. عبد العال يسخر من كل شيء حتى من نفسه وأحواله البائسة، بينما بكر يبدو أكثر التزاما بفروضه وخشيته الدائمة أن يقع فيما يغضب الله، وأكثر صمتا مقارنة بعبد العال.

هناك ميعاد ثابت يلتقي فيه الأصدقاء الثلاثة لا يكاد يتغير إلا لظروف قاهرة. بعد صلاة الجمعة التي يصليها حسن في جامع السلطان حسن، بينما يصلي بكر وعبد العال في الجامع الأزهر، أقرب لمسكنهما. يأتيان إليه، ويجلسان حتى حوالي التاسعة حيث يؤذن لصلاة العصر، فيصليانها جماعة في مسجد السلطان حسن، ثم ينصرفان عائدين.

في هذا النهار الشتائي من منتصف ربيع الآخر من العام الهجري ألف ومئتين وتسع الموافق للتاسع من نوفمبر من التقويم الجريجوري للعام ألف وسبع مئة وأربعة وتسعين الموافق للرابع

من هاتور للتقويم القبطي من العام ألف وخمسمئة وأحد عشرة، كانت السماء قد أمطرت بشدة قبل صلاة الفجر. حبست هذه الأمطار أغلب الناس عن الخروج للصلاة، قبيل صلاة الجمعة ذلك اليوم كانت برك المياه تملأ ساحة مسجد السلطان الداخلية. الشوارع المحيطة بالمسجد اختلط فيها ماء المطر بالتراب فتحول إلى طين زلق، لم يستطع كثير من الناس أن يحتفظوا بتوازنهم في أثناء السير. خف المشاة، لكن كثرت الحمير التي يركبها الناس، كاد ماء المطر أن يتسرب إلى حانوت حسن برغم وضعه عتبة سميكة تحجز الأمطار، الماء يتسرب برغم ذلك من خلال بعض الفتحات التي ظهرت بفعل عوامل التعرية. أذن للصلاة، أغلق حسن حانوته، وصلى مع جماعة من جيرانه، ثم عاد ينتظر صاحبيه في موعدهما الأسبوعي حين رآهما آتيين من بعيد، هلل، ثم قال "جاء بكر وتابعه قفة، جئتما في وقتكما كي تساعداني على سد هذه الفتحات في العتبة" لا يترك عبد العال حقه في الرد، يرد بسرعة بديهة "أنا قفة يا مقطف؟"

يرد حسن

– ما الفرق يا غبي بين الاثنين؟ القفة هي المقطف.

يتدخل بكر مدافعا: لا، لا هذا غير صحيح. هناك فرق، المقطف له أذنان تحملهما منه، أما القفة فلا.

يصيح عبد العال: هل رأيت؟ من منا الغبي إذن؟ والله، الذي أجلسك في هذا المكان ظلمك، هل يعرف طلبة السلطان حسن أنك لا تعرف الفرق بين القفة والمقطف؟

يضحك حسن

- إذن اتفقتما عليَّ، لننتهي من هذه المهمة أولا ثم نجلس ندخن الشبك ونشرب القهوة ونتحاسب.

لا يستغرق سد الفتحات منهما وقتا، يبدو بكر بارعا في هذه الأشياء، ورث عمله في البناء عن أبيه، وحقق فيه مكانة لا بأس بها. يجلسون ليشربوا القهوة، ويدخنوا الشبك محشوا بتبغ فاخر يجلبه سليم لصديقه حسن، ويستبقيه حسن لصديقيه حتى يوم الجمعة على الرغم من أن زوجته هوى تحب رائحة هذا التبغ جدا، وتشاركه أحيانا التدخين في جلسات "السلطنة" بينه وبينها. دارت بينهم أحاديث كثيرة عن المماليك الذين يزدادون ظلما، وحين انتقل الحديث بينهم إلى أحوال المعيشة، بدا عبد العال راضيا قانعا قناعة لا يستوعبها حسن ولا يفهمها. "الحمد لله، أنا وأم العيال نجد قوت يومنا، لم نمد أيدينا إلى أحد، ولم نذهب لنبحث عن الطعام في أكوام الزبالة، هل تذكر يا حسن عيشتنا في البيت الأول، كيف كنا ننام في أيام كثيرة دون عشاء، أو يأتي لنا أباؤنا بطعام لا ندري من أين أتوا به، الحمد لله على كل شيء، أحوالنا بخير". لا يوافقه بكر فيما

يقول، يرى بكر الأمر من زاوية أخرى. "الحمد لله أولا وآخرا، لكن أحوالنا ليست على ما يرام يا عبد العال، والمسألة ليست أننا نجد قوت يومنا، الحيوانات أيضا تجد قوت يومها، المسألة أننا ابتعدنا كثيرا عن شرع الله، فساءت أحوالنا، وشاع بيننا الظلم، وانتشر المجون، ألا ترى هذه النساء اللاتي يكشفن عن عيونهن في الشارع، أهذا يرضي الله، ولا يكتفين بذلك بل يضعن الكحل ليجذبن كل من في نفسه مرض" يعلو صوته قليلا على الرغم من أنه قليل الكلام، ويشعر حسن بأزمته، فيتدخل ليهدئه، لكن عبد العال يرد ممسكا بيد حسن:

- قال لي هذا الكلام مئة مرة، حتى مللت منه، ارحمني يا أخي، هل تريد أن أكرر عليك ما قلته حرفيا.

يغتاظ حسن جدا من عبد العال حين يمسك بيده وهو يتكلم، يصيح فيه "وأنا أيضا قلت لك مئة مرة: اترك يدي وأنت تتكلم، ألا تكف عن هذه العادة السيئة"

- وماذا فيها؟

يرد حسن باستغراب: وماذا فيها؟! لا تمسك بيدي والسلام

- حاضر يا سيدي، الذي أعطاك يعطينا

لا يحب حسن هذا التلميح أبدا من صديقه، لا ينتظره منهما

بالذات، ينظر بغضب تجاه عبد العال، ويرد بسرعة:

- هل تعرف ماذا أعطاني الله يا غبي؟ هل تعرف ما النعمة التي أنا فيها؟ ربنا أعطاني أنتم

يفاجأ عبد العال برده، لكن حسن يستمر "أهل بيتي وأنتم أغلى ما منحني الله من نعمة، هل تعرف يا غبي معنى أن يكون لك صديق مثلك تحبه ويحبك، تأمن له ويأمن لك، تشعر معه براحة لا تجدها مع سائر البشر، هل تظن يا حمار أنني من الممكن أن أفرط فيكما بسهولة، نعرف بعضنا منذ زمن طويل، كنا عيالا نلعب في الشوارع بملابسنا الممزقة، الزمن يا صاحبي دوره مهم معنا، هل تعرف قيمة الزمن في صداقتنا؟ رد وإلا كسرت لك شبكك". ولا يرد عبد العال، بل يقوم ليحتضن حسن، ودمعة تقفز من عينيه. "لم أكن أقصد"، يعاجله حسن "أعرف ذلك، لكن حتى لو قصدت، طظ فيك".

***

صباح الجمعة التالي، انهمك حسن وهوى في مراجعة تفاصيل الوليمة التي دعا لها أصدقاءه المقربين وزوجاتهم وأولادهم، يفعل ذلك في مناسبات متباعدة، دعا أمه أن تبيت معه قبلها بيوم ومعها أخته شَحتة التي مات ابنها منذ بضع سنين بسبب مرض غامض. لا تنام رتيبة أم حسن في الدور العلوي حيث مكان الحريم، فهي

لا تقوى على الصعود لتيبس مفاصلها من قلة الحركة، إنما يعاد ترتيب البيت، فتصعد مقبولة الخادمة لتنام مع شَحتة في إحدى الحجرات العلوية، بينما تنام أم حسن في حجرة الخادمة.

في هذا الوقت المبكر كان الكل نائما سوى الزوجين. صعدت هوى إلى الدور العلوي لأمر لا يدريه، بينما هبطت مقبولة إلى الحمام أولا، ثم إلى المطبخ. يبدو أنها نسيت أن تأخذ معها "جلابيتها" التي تعمل بها في أثناء النهار، تركتها في المطبخ، وحين دخلت، لم تغلق الباب وراءها، "خلعت" ملابسها فكانت عارية تماما في اللحظة التي خرج فيها حسن من المنضرة صاعدا إلى الدور العلوي، رآها، ورأته وهو يراها، التقت عيناهما لحظة، لم تتوار، ولم تخجل، بل تناولت الجلابية الأخرى ولبستها بهدوء، هل نسيت أن تغلق الباب عليها أو تناست، لا يعلم حسن.

لكنه استعاذ بالله، اشتهاها للحظة، ثم تعوذ وبسمل وحوقل. صحيح أنها قبيحة، لكن جسدها امتلأ واستدار بعد السنوات الثلاثة التي قضتهم في البيت، وأصبحت دواعي الشهوة فيها كثيرة؟ "لكنها خادمة، خادمة يا حسن؟" ويفكر في أمر نفسه العجيبة، هو يستطيع لو أراد أن يشتري جارية يستمتع بها كيفما يشاء، وتكون جارية شقراء من اللاتي يجلبهن النخاسون من بلاد اليونان، وليست جارية حبشية، صحيح أن ثمنها مرتفع، لكنه يقدر عليه. لكن الأمر ليس

على هذه الصورة، هوى تملأ عليه حياته، ولا يريد أن يؤذيها في مشاعرها، ولو كان ذلك عن طريق الحلال.

شغله أمر الخادمة قليلا، هل فعلت ذلك عفوا؟ أم كانت تقصد؟ ولماذا لم تغلق الباب؟ ولماذا لم تختبئ بمجرد أن رأته؟ ولماذا لم تأخذ ملابسها معها في الحجرة العلوية؟ وأكثر من لماذا طرحها على نفسه، لكنه لم يجد إجابة مرضية. البنت لديها غرائز لا شك، وتحتاج إلى أن تصرفها حلالا أو حراما. يبدو الزواج في مثل حالتها متعذرا، وربما يكون مستحيلا. لكنه أبدا لن يكون الرجل الذي يفعل ذلك. شعر بتعاطف مشوب بالحيرة معها. مقبولة تحب هوى حبا جما، تسمع إليها، وتستجيب لها بسرعة لا تفعلها مع حسن، وهوى في المقابل تجلس معها، وتستمع إلى حكاياتها الساذجة عن أخيها الذي نسيها وأمها التي ماتت، وأهلها الذين لم تر أحدا منهم. تسخو عليها هوى، وتتباسط معها إلى حد أنهما يأكلان معا في غيابات حسن النهارية.

***

يوم جمعة رائع بشمسه، منعش بهوائه، صاخب بناسه، شجي بضحكات ضيوف بيت حسن. أصبح البيت مملكة للنساء حينا من الدهر، أتت أسماء زوج سليم أولا عند الضحى بعد أن خرج حسن بقليل، أوصلها سليم على حمار حتى البيت، ثم عاد به يقضي بعض

شؤونه. دخلت بتزييرتها التي تتكون من دثار فضفاض عريض الكم من الحرير القرنفلي، وبرقعا من الموصلي الأبيض يحجب الوجه كله عدا العينين ويسقط حتى القدمين مربوطا بشريط ضيق يمر على الجبهة ومخاطا مع طرفي النقاب أو الدثار، بعدما فتحت لها مقبولة واطمئنت أن لا أحد بالداخل غير النساء، القت بدثارها على يدي مقبولة، وأسرعت حيث هوى التي استقبلتها بالأحضان، وحيث أم حسن التي جلست في الفناء على حصيرة صغيرة تنعم بشمس الخريف. أعقبتها توحيدة وفاطمة زوجا بكر وعبد العال، ومعهما بنتان: الكبرى بنت بكر لا يتعدى عمرها خمس سنوات، والثانية في عمر محمود بن حسن ثلاث سنوات، وطفل هو ابن بكر عمره حوالي أربع سنوات. بدا من ثياب النساء فرق واضح في مدى الثراء بين بكر وعبد العال من جانب، وحسن وسليم من جانب آخر. تعرف توحيدة وفاطمة الرابط القوي الذي يجمع زوجيهما بحسن، لذا تحاولان ألا تظهرا غيرة مما يريا. ولا تحاول هوى في المقابل أن تتفاخر عليهما بشيء. تسير اللقاءات بينهن سيرا طبيعيا مبهجا.

جاء الرجال، حسن وبكر وعبد العال أولا جاءوا معا، بعدهما بقليل جاء سليم. قيلت جمل مثل "دستور" "ويا ساتر" قبل أن يدخل الرجال إلى "المنضرة" مغلقين خلفهم بابها مباشرة، أما النسوة، فأصبحن أهدأ صوتا، وأقل حركة.

لا يدخل الطعام مباشرة، الوقت ما زال مبكرا، لكن الشبك يحضر بقوة، يتبارى الرجال في التدخين، فتختنق الحجرة الكبيرة بدخانها. تغلق النافذة المطلة على صحن الدار، بينما تظل النافذة المطلة على الدرب مفتوحة، فتزداد كثافة الدخان لأن النافذتين المتقابلتين تصنعان تيارا هوائيا يجدد الهواء داخل المنضرة، الوسائد علي الأرض وبعض الزخارف على الجدران طبعت المنضرة بطابع جميل متناسق هادئ بينما تهيأت الحجرة لنقاش صاخب جاد بين الرجال الأربعة. بدأ الأمر من ملاحظة عابرة أبداها سليم عن جمال ما رأى في إيطاليا آخر ما زاره من بلدان وهو يحضر الورق الذي اشتراه منه حسن، تمنى لو استطاع أن يعيش فيها بقية عمره، استفزت هذه الأمنية بكراً الذي بادره بالقول:

- كيف ترضى لنفسك ولدينك أن تعيش هناك؟ وهل ستعيش وحدك أم ستأخذ أهل بيتك معك؟

- والله يا بكر، هذا هو ما منعني من أخذ القرار.

يتساءل عبد العال متعجبا: لا أعرف أحدا في مصر كلها يسافر إلى بلاد الكفرة غيرك، الظاهر أنهم لحسوا دماغك، ما الذي وجدته هناك، ولم تجده هنا؟ بالعكس، نحن لدينا ما ليس عندهم.

يسأله حسن: ما الذي لدينا يا فالح؟

- لدينا الإسلام يا بني آدم، هل هذا قليل؟

يرد سليم: ليس قليلا، لكنه لا يكفي.

يبهت بكر ويلاحظ حسن على وجهه امتعاضاً فيتدخل بسرعة حتى يحتوي أزمة وشيكة: لو أحسنا نحن فهم إسلامنا لما احتجنا إلى أحد، أليس هذا ما تقصده؟

- ليس بالضبط، أنا رأيت هناك عدلا برغم أنهم كفرة، ورأيت هنا ظلما برغم أن أغلبنا مسلمون.

يحاول بكر أن يكون هادئا، فيسحب نفسا من شبكه متوسط الطول تقريبا، ويقول: وما الإسلام وما تقول، نعم حكامنا ظلمة، ولا يطبقون شرع الله، لكن الإسلام بخير. الله قال في كتابه الكريم "وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون" ونحن والحمد لله نشهد ألا إله إلا الله ونقيم شعائر الله ونصوم. ولو استطعنا الحج ما تأخرنا.

- والظلم والفقر والقتل بلا حساب والقذارة والجهل والأمراض التي تحصد البشر أكواما، أليست كلها مما يحاربها الإسلام.

- هذا دور الحكام، وهم لا يقومون بواجبهم، إذن حسابهم على الله. رد بكر

- هل تعي ما تقول؟ هل يجب علينا أن نقبل منهم كل ما يفعلونه بنا؟

- نصبر، وجزاؤنا الجنة، وجزاؤهم النار.

يحاول سليم أن ينقل النقاش إلى مستوى آخر، فيسأل بكر: هل رأيت الصدر الأعظم يوسف باشا حين قدم إلى هنا ذاهبا للحج؟

- وكيف لي أن أراه؟ مالي أنا والصدر الأعظم والظهر الأكبر، نحن ناس على باب الله.

- طب، هل سمعت ما فعله الأمراء وما قدموه له من هدايا، وبخاصة مراد بك وإبراهيم، شيء لا يصدقه عقل، حتى هنا لا مشكلة، أناس يتهادون فيما بينهم، ما دخلنا نحن؟ لكن ما لا تعرفه هو الذي فعله الاثنان بعد سفر يوسف باشا من بحر القلزم إلى الحجاز. لقد استولى مراد بك على غالب بلاد الجيزة: بعضها غصبا، وبعضها بالثمن القليل، وبعضها معاوضة، وكذلك فعل صالح أغا ليكون بجواره. أما إبراهيم بك فحدث عما فعله ولا حرج، لقد فرض تفريدة على الناس، واستحدث شيئا اسمه الحلوان، وأمر الملتزمين تابعيه أن يجمعوا عوائد السنة القادمة من الناس.

يرد حسن بأسى:

نامت نواطير مصر عن ثعالبها فقد بشمن وما تفنى العناقيد

يعجب عبد العال بإيقاع البيت، فيطلب من حسن أن يعيده مرة

أخرى، فيعيده، يسأله: لمن هذا البيت، فيجيب حسن: للمتنبي

– من المتنبي هذا؟

يتدخل سليم باستغراب: ألا تعرف المتنبي يا رجل؟

– لا، لا أعرفه.

– بائع اللحم بجوار بوابة المتولي، يمكن أن تذهب له ويعطيك بعضا من شعره السمين.

يتواصل النقاش بين الأصدقاء، يحتد أحيانا فيبدو أنه لا مجال للالتقاء بين آرائهم، ويهدأ كأنهم حينئذ يأخذون استراحة محارب، يُفتح الباب كثيرا ويغلق من الأطفال، ثم يخرج حسن ويعود بطست وإبريق فيه ماء، يغسلون جميعا أيديهم قبل تناول الطعام، ثم يُجلب كرسي مطعم من الصدف ارتفاعه حوالي عشر بوصات، ويُحضر حسن بمساعدة من مقبولة صينية عليها خروف محمر وعدد من الأرغفة المقطعة. تحضر مقبولة بعد ذلك أطباقا من محشي الخيار والطماطم والسبانخ والبامية. بسملوا قبل أن يأكلوا، ولم يحتاجوا دعوة من حسن ليهجموا جميعا على الطعام. انتهوا لتبدأ بعدها النساء في الأكل ومعهن الأطفال في حجرة مقبولة التي أصبحت مكانا لأم حسن مؤقتا.

عادت الأسر الثلاث إلى بيوتها قبيل المغرب بقليل، وبمجرد

خروجهن أحضرت هوى قطعة من الشبة وضعتها على جمر، وفي أثناء احتراقها بدأت تتلو الفاتحة والصمدية والمعوذتين، وتستعيد خاصة آية "ومن شر حاسد إذا حسد". أما شحتة، فأخذت قطعة من أطراف ملابس محمود ووضعت عليها قليلا من الملح والكزبرة والشبة وحرقتها، وبخرت الطفل بالدخان وهي تستعيد من الناس. بينما حسن ينظر إلى المشهد ولا يعلق.

الفصل العاشر

المسيو ليون ذو تأثير لا يضاهيه تأثير على محمد علي، يعرفه منذ أن كان في مقتبل الشباب حين يجلس إليه في متجره الذي يبيع فيه الجلود، ويستمع منه إلى أحوال العالم، وآخر ما رآه في باريس. ليون فارع الطول أشقر، وعيناه زرقاوان، الصورة النمطية لأوربي لم يهجن عرقه بما ليس منه، مع ذلك، فإن طول إقامته في قولة أضافت عليه مسحة تبدو شرقية بتأثير الأجواء الإسلامية التي تحيط به، ترى فيه لحية يتركها مهوشة على طريقة الصوفيين، وإن كان لا يسمح لها أن تطول بإفراط. وطريقة ارتدائه لملابسه تشبه طريقة الشرقيين. اكتشف في محمد علي نباهة وحدة ذكاء فقربه إليه، وصارت له مكانة عند الفتى تشبه مكانة الشوربجي، وفي

المقابل، وجد محمد علي في ليون كنزا من المعلومات والرؤى لا يكاد يجد له نظيرا عند غيره.

محمد علي الآن من كبار تجار التبغ في قولة، استطاع بفضل ما تركه له عمه، وما استثمرت معه زوجه أمينة أن يحقق ثروة لا بأس بها، لم ينسه أمر تجارته صديقه ليون الذي يعده – برغم فارق السن – أقرب الناس إليه.

يحكي له ليون عن التطور الهائل الذي يحدث في أوربا بالتحديد في لندن وباريس، اكتشافات جديدة، طاقة البخار التي تحولت إلى مولدات قبل أقل من ثلاثين سنة في انجلترا، والمصانع التي أنشئت آنئذ، وانتقالها إلى فرنسا التي تشهد تطورات درامية وفوضى عارمة بعد الثورة والإعدامات التي وصلت للآلاف في باريس، ثم إعدام الملك لويس السادس عشر وزوجه ماري إنطوانيت، الجمهورية التي تأسست في ذلك الوقت، وبشائر عالم جديد في أوربا بعد أن بدأت الآلات البخارية تفرض نفسها في كثير من المجالات.

يحكي عن حروب فرنسا الخارجية وتحالفاتها الغربية ضد عدوها التقليدي انجلترا. وهزيمتها من انجلترا التي تدفعها إلى الانتقام عن طريق قطع خطوط الإمداد بين انجلترا والهند، ومن أجل ذلك يجوب الأسطول الفرنسي البحر من أجل ملاحقة الأسطول الإنجليزي.

وتأخذ روسيا حيزا مهما في النقاش الذي يدور كثيرا بين الاثنين، فروسيا دخلت في حربين مهمين ضد الدولة العثمانية الأولى قبل أن يولد محمد علي بقليل، والثانية لم تنته إلا من بضع سنوات، وفي الحربين انتصرت روسيا انتصارا ساحقا على الجيوش العثمانية. يعرف محمد علي حقائق كثيرة عن صراع الباب العالي مع روسيا، والهجوم الشرس الذي تقوده الامبراطورة كاترين الثانية امبراطورة روسيا، والمحاولات الكثيرة لتأليب المجتمعات الأرثوزكسية في بلاد البلقان على العثمانيين التي تعدهم روسيا امتدادا طبيعيا لهم، ومن ثم فهي تدعم الجماعات المسلحة في اليونان، وتشترط على السلطان بعد هزيمته الثانية أن يكون للأسطول الروسي حق العبور عبر المضايق التي تقع في نطاق الدولة العثمانية، يعرف محمد على أطماع روسيا في القسطنطينية مقر الكنيسة الأرثوزكسية، فقد ضغطوا على السلطان حتى سمح لهم بإنشاء كنيسة داخل القسطنطينية نفسها.

يحدثه ليون أيضا عن النمسا التي روعها اقتراب العثمانيين من أبواب فيينا، ومن ثم عملوا على إنهاكهم من خلال دعم الصرب والبوسنيين والهرسك، وإحداث قلاقل داخل الدولة نفسها.

كما يحدثه عن تحالف الروس والنمساويين ضد الدولة العثمانية، وتمكن روسيا من احتلال بعض المناطق داخل الدولة نفسها، وكذلك

تمكن النمسا من احتلال مناطق الصرب والعاصمة بلجراد.

كل هذه الأحاديث بينه وبين ليون، وما يعرفه هو شخصيا من مشاهداته وحواراته مع كثيرين ومنهم الشوربجي باشا أن الباب العالي والدولة نفسه في حالة ضعيفة لا تقوى على مواجهة التهديدات الخارجية، وأن السبب الذي أدى بها إلى هذا الضعف أنها لم تأخذ بالأسباب الحديثة، ولم تنفتح على الغرب الذي يدهشهم كل يوم بجديد. وأن محاولات السلطان سليم الثالث لتحديث الجيش العثماني عن طريق الاستعانة بكوشك حسين باشا الذي بذل مجهودا جبارا من أجل اقتباس النظم العسكرية الغربية وتطبيقها على الجيش العثماني، كل هذا يواجه بمقاومة عنيفة من الانكشارية الذين دأبوا على محاربة كل جديد.

بهره الغرب بحسن تنظيمه وفاعلية إدارته، وقوة تسليحه وتفوقه الدائم على الجيوش العثمانية، وتمنى لو نجح كوشك حسين في مسعاه لتحديث الدولة.

القسم الثاني

التــيــه

الفصل الأول

لم يكن حسن يدري سبب استدعاء الشيخ خليل البكري له في هذا الوقت المبكر من اليوم، فشله في الليلة الفائتة مع هوى ملك عليه لبه، كل المقدمات آذنت بلحظة يعرج عندها إلى سدرة المنتهى، لكنه هوى من عل، فانكمش وتضاءل واختفى وعاد إلى طينته الأولى ذليلا مكسورا. تحرن هوى – وهي دائما ما تفعل ذلك في لحظات الانكسار – وتنفر، وتستدير مولية إياه ظهرها. فيزداد ذلا على ذل، ولا يعاود الكرة. تعلّم من معارج سابقة فاشلة أن العروج الثاني أشد إيلاما على النفس من طعنة خنجر. وقبل أن يخرج لملاقاة الشيخ البكري لم تحدثه هوى، ولم تنظر إليه، وتركت للخادمة كل ما تفعله معه في الصباح.

اخترق الطريق الممتد من بيته خلف باب زويلة على حماره متجها مع خادم للشيخ حيث يسكن قريبا من الأزبكية، تجاوز الأزهر ومسجد الحسين واخترق خان الخليلي بدروبه الضيقة ومر من أمام بيمارستان السلطان قلاوون على يساره، وفي مقابله بيت القاضي وبين القصرين، ثم تجاوز بيت السحيمي على يمينه، وهناك خلف جامع الحاكم بأمر الله كان بيت الشيخ البكري، طريق طويل اخترق القاهرة من جنوبها إلى شمالها تقريبا.

حركة الناس التي رآها في أثناء سيره زائدة، لغط كثير في الأيام السابقة عن وصول مراكب للإنجليز إلى الإسكندرية بحثا عن مراكب فرنسية يبدو أنها تتجه إلى مصر، طلبوا من السيد محمد كريم أن يبقوا في الميناء ريثما يتأكدون من نوايا الفرنسيين، فرفض. وطلبوا أن يبقوا بعيدا شريطة أن يقوم المصريون بتموينهم بالطعام والماء، فأبى بترفع لم يكن يدري عواقبه. الناس التي تحمل متاعها، والحوانيت القليلة المفتوحة في هذا الوقت من اليوم على غير العادة لم تكن تشغله كثيرا، كل ما كان يشغله هو الليلة السابقة الفاشلة، لم تكن الليلة الأولى لكنها كانت الأشد إيلاما على نفسه.

دخل مباشرة إلى "منضرة" الرجال التي يطل بابها على الشارع مباشرة، يتصبب عرقا، لم تفلح الدروب الضيقة التي تحجب الشمس من تخفيف شدة حر الصيف كثيرا. تحتل المنضرة جزءا يسيرا من

مساحة البيت الذي يبدو بطوابقه الثلاثة واتساع المساحة المبنية فيه وحديقته الفسيحة قصرا منيفا، لم تكن هذه هي المرة الأولى التي يزور فيها الشيخ في بيته، تربطهما علاقة قوية منذ أن استعان به الشيخ في نسخ بعض الكتب التي احتاج إليها.

بادره الشيخ بسحنة متجهمة واضطراب في حركاته لم تخطئها عين حسن: لقد وصلوا إلى الإسكندرية منذ بضعة أيام.

لم يكن حسن في حاجة إلى أن يعرف عمن يشير الشيخ البكري، لا حديث بين الناس في الأيام الفائتة إلا عن الإنجليز والفرنسيس: ماذا يريدون؟ رد حسن

- لا نعرف نواياهم الحقيقية حتى الآن، لكن رسالة وصلت إلى الشيوخ من كبيرهم ويدعى بونابرته يقول فيها إنه ما جاء إلى مصر إلا لكي يطرد منها المماليك الذين استولوا على خيرات البلاد، وأذاقوا العباد الويل والثبور. وكلام كثير عن الإسلام والسلطان. صمت الشيخ برهة، ثم مد يده بالرسالة، حسن الذي استغرقته هوى، فلم يكن يستمع إلى الشيخ إلا بنصف وعيه، انتبه بكل ما لديه من وعي حين تناول الرسالة من الشيخ، لمعت عيناه وهو يتحسس ورقها، وهو يتأمل حروفها "إذن هذه هي كتابة الآلة التي أخبرني بها سليم من قبل" تمتم في نفسه وهو يمر بعينيه على سطور الرسالة

الطويلة. "وتكتب الحروف العربية أيضا، هذا والله عجيب"

– أريد منك يا حسن أن تنسخ لي ثلاث أو أربع منها، ما أرسله الفرنسيس لم يكف الشيوخ جميعهم.

– غدا إن شاء الله سأوافيك بما تطلب، هل تسمح لي بالاحتفاظ بنسخة منها؟

– لك ذلك.

حين انتهى حسن من نسخ الرسالة شعر أن خطرا داهما يتهدد وجودهم في مصر، لم يقنعه فيها ما أعلنه نابليون أنه مسلم موحد بالله، وأنه ما جاء إلا ليعلي كلمة الله وليطرد المماليك. ستكون مصر إذن ساحة للحرب بين المماليك والفرنسيس، وسيموت تحت سنابك الخيل المصريون الذين لا ناقة لهم ولا جمل فيما سيأتي. ما الحل إذن؟ الرحيل حتى تنقشع الغمة. إلى أين؟ إلى الفيوم مرة أخرى؟ ماذا سأفعل هناك؟ كل حياتي ارتبطت بهذا المكان، وكل رزقي من الشيوخ وطلاب العلم في الأزهر وجامع السلطان حسن والكتاتيب المنتشرة بمصر. لن أرحل. لكن ما ذنب ابنك وزوجتك وأختك؟ هل يحق لك أن تفرض عليهم قرارات قد تودي بحياتهم، إذن فلأرسلهم هم إلى الفيوم، ولأبقى أنا.

صرخت شَختة حين أنبأهم بما نوى، كانت تستعد للصعود فوق سطح البيت بالعجين الذي تركته يتخمر منذ الصباح حيث الفرن

الذي أقامته لنفسها ولأهل البيت وأصبح مكانها الأثير. "لن تبقى هنا وحدك، سأبقى معك، أو تأتي معنا". فوجئ حسن وبهتت هوى، تمنى أن تكون الصرخة الأولى من هوى، تمنى لو كان أخبرها بمفردها ليعرف منها ما تحاول أن تخفيه عنه، لكن شَخْتة سبقت.

يعرف حسن أن هوى لا تبقى على حال، مرة ثانية يصعد بها إلى عوالم سرمدية وآفاق لا متناهية وينتهي كل شيء. لكن هذه المرة لا تأتي سريعا، يحتاج وقتا ينسى فيه فشله، لكن هوى لا تساعده، نظراتها تخترقه، وتعريه، يحاول أن يسترضيها، دون فائدة. وفي هذه المرة لا تدرك هوى حجم الهول الذي هم مقبلون عليه. "ما الفرق أن يأتي فرنسيس أو يأتي إنجليز، المماليك يعيثون في الأرض فسادا ولا يقل عنهم جنود السلطان وحشية والجنود الأرناؤود والإنكشارية والأعاريب؟ ماذا سيفعلون بنا أكثر مما نحن فيه؟" "لن أغادر، وسأبقى معك" قالتها بحسم غامض.

بعد يومين جاءه عبد العال، أخبره أنه اتفق مع بكر أن يخرج بالأسرتين، بينما يبقى عبد العال يحرس حجراتهم من اللصوص، الأمر نفسه فعله سليم الذي أخرج أسرته.

الطرقات تمتلئ بالناس، نساء حاسرات الوجوه والرأس، وأطفال تصرخ، وعجائز تبكي لعدم مقدرتها على مواصلة السير، وحمير تباع بأضعاف أثمانها، وروايات تحكى عن أهوال يلقاها

كل من يخرج بعيدا عن مصر شرقا، أو شمالا، أناس تقتل، وبيوت تنهب، ونساء تغتصب، وعربان تتلقف كل خارج فتجرده من كل ما يملك، وقد ترحمه فتتركه عاريا حتى من ثيابه، أو تقتله. وأغلب الحوانيت مغلقة، حاول الوالي بما تبقى له من سلطة إجبار الناس على فتح حوانيتهم، وعلى وضع قناديل على أبواب المنازل وفي مفارق الدروب، لكن كيف يمكنه أن يعاقب المخالفين، هو نفسه احتجب وآثر الانتظار مع المنتظرين.

شمس منتصف الصيف تحرق الوجوه، والأرض الخلاء حول مسجد السلطان حسن أصبحت موحشة، تركها ساكنوها من فقراء المصريين وبعض الجعيدية والفلاحين. جلسة الأصدقاء الثلاثة في دكان حسن غير كل جلسة، يزداد سليم وعبد العال جزعا على أسرتيهما مع كل خبر يأتيهم من خارج مصر. يوقن حسن أنه لا عمل له هذه الأيام، مع ذلك لا يكف عن المجئ خوفا على بضاعته الثمينة من السرقة. أما صاحباه، فأحسن حالا منه إذ ليس في حوزتهما ما يخافان عليه. وأحاديثهم تحاول أن تتنبأ بما هو قادم خاصة مع الإشاعات الكثيرة التي تناقلها من بقي من الناس في مصر.

بدا حسن أكثر اطمئنانا من صديقيه عكس مشاعره الأولى. قرأ عليهم رسالة بونابرته التي احتفظ بنسخة منها، ودارت بينهم نقاشات

حادة حول صدق نوايا الفرنسيس، سليم كان ميالا لتصديق الرسالة، خبر حياتهم في أسفاره الكثيرة، وعرف بعضا من لغتهم، وعن هذا الطريق قال لصديقيه إنهم قوم لا يكذبون، ما الداعي لأن يكذبوا؟ هل يخافون منا؟ ثم قال باستنكار: ماذا لدينا يخيف؟ لا شيء. لا شيء ألبتة، قالها بلهجة حاسمة قاطعة.

سأله حسن: لكن قل لي: إذا كان استنتاجك صحيحا، فما الثمن الذي سيحصلون عليه إذا كانوا فعلا يريدون تخليصنا من المماليك؟ لا تقل لي إنهم سيفعلون ذلك لوجه الله والعدل.

- لا أدري، ما أعرفه أنهم يريدون أن يقضوا على المماليك، وهذا يكفي.

أما عبد العال فلم يكن يشترك معهما جديا في الحوار. بدت تدخلاته مبهمة، وآراؤه لا استواء فيها.

اطمئنان حسن لم يأت من محتوى الرسالة، بل جاء من أمر آخر عرفه من بعض الشيوخ المتصلين بأمراء المماليك. المماليك يهربون خارج مصر، أفرغوا بيوتهم من البشر وما استطاعوا حمله وتفرقوا شيعا في البلاد، بعضهم اتجه إلى الشرقية، وآخرون إلى الصعيد. إذن ستفرغ مصر من العدو المعلن للفرنسيس، سيكون قتالهم خارجها، فلا داع للقلق. أسر باستنتاجه لصديقيه، فلم يوافقوه أو يخالفوه، بل أشاروا لتقدم الفرنسيس إلى إنبابة في شمال مصر

الغربي والمعركة المنتظرة هناك بينهم والمماليك، واحتمالات أن تمتد هذه المعركة إلى مصر نفسها.

ترك حسن دكانه قبل المغرب بحوالي الساعة في حراسة جاره في نوبته الليلية. وغادر مع صديقيه. اخترقوا سوق السلاح شمالا ليتفرقوا في نهايته كل إلى بيته. لكنهم بمجرد دخولهم إلى أول الطريق لمحوا جلبة على البعد.

- يبدو أنها آتية من حارة النصارى. قال عبد العال

- السرقات المعتادة والسطو على البيوت. ما الذي نفعله بأنفسنا في هذه الظروف العجيبة؟ رد سليم.

- لا أظن ذلك، كأني ألمح يوسف آتيا إلينا من بعيد. ربنا يستر. عقب حسن.

كان يوسف يهرول تجاههم بفزع ظاهر، وبعض الصبية تجري وراءه وتقذفه بالحجارة، أسرع الثلاثة في اتجاهه، ثم حجزوه وراءهم، ووقفوا في مواجهة الصبية

- ماذا تريدون منه؟

- نريد أن نقتله، هذا نصراني كافر، هو واحد منهم، هم الذين أتوا بالفرنسيس إلى مصر.

- امش يا ولد أنت وهو، هؤلاء مثلنا. من قال لكم هذا الكلام الفارغ. صاح سليم.

- إذا لم تتركوه لنا، سنضربكم معه.

في تلك الأثناء، اقترب حشد غاضب آخر، لكنه من الرجال، يبدو أنهم أنجزوا مهمة جليلة في حارة النصارى نفسها، فصياح النساء والأطفال من أهل الحارة يملأ المكان، والمتاع الذي يحمله الرجال يشير إلى طبيعة مهمتهم.

- ما الذي فعلتموه يا ناس؟ صاح حسن

- كل القبط ونصارى الشوام واليهود يجب أن يخرجوا من مصر، هؤلاء سبب البلاء. صرخ صوت من بين الحشود.

"لكزه سليم طالبا منه ألا يكمل حواره معهم، هؤلاء ناس لا عقول لهم، ومع كثرتهم هذه يمكن أن نخسر حياتنا" همس سليم، تجاهله حسن ووجه كلامه للناس:

- لكني أستحلفكم بالله وبحق قرآننا الكريم أن تتركوا أهلنا في حارة النصارى في بيوتهم

- تقول أهلنا، هؤلاء ليسوا أهلنا، إنهم الذين نقلوا كل أخبارنا إلى الفرنسيس، من أين يعرف الفرنسيس كل هذه الأخبار عنا سوى من هؤلاء. رد أطولهم لحية.

في لحظات كانت جنود للوالي آتية من القلعة خلف حسن ورفيقيه لتعيد النصارى إلى بيوتهم، ولتفرق الجمع منهية هذا الحوار العبثي، وتحذرهم من مغبة تكرار هذه الأفعال، وإلا ستعلق رؤوسهم جميعا على باب زويلة. انصرف الناس معلنين أن هذا ليس آخر ما بينهم وبين الأقباط، بينما وقف بضع جنود يحرسون حارة النصارى.

عاد حسن وصديقاه ويوسف إلى الدكان مرة أخرى، تركوا يوسف قليلا، واتجهوا لصلاة المغرب في مسجد السلطان حسن، كانت فترة كافية يخلو فيها كل منهم إلى نفسه، ويعيد ترتيب أفكاره، كان ظنهم أنهم سيعيدون النقاش حول ما جرى، لكن بدا في كل منهم زهد في الكلام، وبخاصة يوسف الذي بدا منكسرا على صورة لم يره حسن عليها من قبل. آخر ما قاله يوسف لهم قبل أن يودعهم: لن نخرج من هذه الأرض إلا بالموت.

***

استعد حسن لنوبته الليلية أمام بيته مع عدد من جيرانه الذين لم يغادروا مصر. يريد محمود ابنه أن يبقى معه في الخارج، يوافق حسن، لكن هوى ترفض بشدة، يجب على الولد ألا يقترب من هؤلاء الأولاد الذين يملأون الشوارع. "لكنه سيكون معي" "ولو، لن تضمن أن يستمع إلى الألفاظ القبيحة التي يتفوهون بها" "سيبقى محمود" يصمت حسن، ويظهر رضى، علها تلين.

***

يخاف عبد العال من الظلام، يخاف أن ينام وحده. لم ينتبه وهو يوافق بكر على ما اقترحه الأخير إلى المأزق الذي وضع نفسه فيه. كيف سينام وحده في البيت، في الحجرة، على السرير. عادته وهو نائم أن يغطي رأسه وكل جسمه، يطمئن على أن كله قد اختفى تحت ملاءة أو لحاف، لا أصبع ولا كف، ولا أي شيء، فقط منخاره الذي لا يتمدد خارج الملاءة إلا بقدر ما يسمح بالتنفس. يخاف من اللامرئي، من الأشباح والعفاريت التي تملأ في وهمه الظلام، يمكن أن تعابثه، فما الذي سيفعله وقتئذ، لا شيء، سيموت خوفا، بل رعبا. الآن فإن عليه أن يدبر حاله. اهتدى إلى أن يبقى في البيت حتى سويعات قليلة قبل الفجر، ثم يذهب إلى الأزهر أو الحسين فينام هناك وسط الناس. وبينهم لا يمكن أن تميزه بعلامة، ولا هندام. رثاثة ثيابه وعدم استحمامه لأيام عديدة جعلته يذوب وسط جموع الناس الذين على شاكلته، أما كيف يدبر طعامه وشرابه، فهو سؤال لا يسأله أحد لأحد في مصر. وحين يفكر في الذهاب لحسن، فإنه يستعيد كل فروض النظافة التي ينساها أياما عديدة.

في تلك الأيام التي يترقب فيها الناس وصول الفرنسيس مصر، كثرت جموع الناس في المساجد، كانوا يبتهلون إلى الله أن يدفع عنهم شر البلاء. وحين توجه مراد بك لقتال الفرنسيس اجتمعت العلماء في الأزهر وقرأت البخاري وغيره من الدعوات، وكذلك مشايخ فقراء الأحمدية والرفاعية والبراهمة والقادرية والسعدية

وغيرهم من أرباب الطوائف والأشاير وكذلك أطفال المكاتب، ويذكرون الاسم اللطيف وغيره من الأسماء. كان عبد العال يندس وسطهم ويقول مثلما يقولون، يبدو متحمسا أن ينزل الله لعنته على بونابرته وجنوده، وحين يخلو إلى نفسه يتذكر أنه عانى من المماليك مثل غيره، ضربوه وأخذوا رزقه القليل، وأهانوه أمام زوجه مرات عديدة، فلماذا حين تأتي الفرصة للخلاص من ظلمهم، يبتهل إلى الله أن يبقيهم. يشعر عبد العال بحيرة، لكنه لا يترك نفسه لتيار الأسئلة أن يصل إلى مداه، تستغرقه حالة الفورة عند الناس والحماس الذي لا يدري أسبابه. يقينه أنه يتحرك مع الناس دون اقتناع واضح بما يفعل، ودون أن يدري أشر يراد لهذا البلد أم خير؟

وحين وقعت معركة انبابة كان يقف وسط الجموع على الشاطئ الشرقي من النيل، يشاهد الدخان ويسمع أصوات المدافع، ويرى المماليك في حركتهم المرتجلة بين البرين الشرقي والغربي بمراكبهم القليلة وأعدادهم الكثيرة. كان يصيح مع الصائحين "يا رب، يا لطيف، يا رجال الله" ويصرخ مع صراخهم، ولم يرعو مثل غيره حين يتدخل بعض العقلاء ليأمروا الناس بالسكوت، ويقولوا لهم إن رسول الله والصحابة لم يكونوا يحاربون أعداءهم بالصياح والصراخ، بل بالعدة والعتاد. تنصت الناس قليلا، ثم تعود إلى حالتها العشوائية.

يعود إلى بيته وقد استبد به قلق غريب، بانت الرؤية عنده، وانتصر الفرنسيس، فماذا هم فاعلون بنا، ماذا هم فاعلون بي؟ لقد كنت أدعو عليهم، وخرجت مع جموع الناس أرجو من الله أن ينتصر الوالي وجنوده، ماذا لو وشى بي أحدهم عند كبيرهم بأنه قد رآني أدعو بهلاك بونابرته، أدعو على جنودهم أن ينتصر عليهم المماليك، أخذ يستعيد الوجوه التي كانت حوله، اطمأن إلى أنه لا أحد منهم يعرفه، ولو كان منهم أحد، فإنه قال مثلما قلت، وساشي به، لو فكر أن يشي بي. هل سيعلقون لنا المشانق؟ هل يقطعون رؤوسنا؟ أم يحرقون علينا بيوتنا؟ لا يمكن أن يمر هذا دون عقاب. وقبع في بيته حتى الصباح مستيقظا يختار من بين الاحتمالات، خائفا من الظلام ومن بونابرته.

***

حسن هو الذي اقترح على الشيخ خليل البكري أن يستعين بسليم معاونا له في أعمال الديوان الذي أنشاه نابليون، وأصبح الشيخ البكري عضوا فيه. سليم يعرف التركية وقليلا من الفرنسية، وهي ميزة ستسهل له أمور معيشته في الأوضاع التي طرأت على مصر. استطاع في الأيام الأولى أن يكسب ثقة الشيخ، رأى فيه الشيخ ملامح رجل يمكن الاعتماد عليه في أمور كثيرة غير الترجمة، لذلك طلب منه أن يكون رفيقه في حله وترحاله.

– تعرف يا سليم، العبء الملقى علينا نحن الشيوخ أكبر من الاحتمال.

قال له ذلك دون مناسبة ظاهرة وهما جالسان في منضرة الرجال ببيته. لم ينتظر منه ردا ولا استفسارا، بل أردف:

– مطلوب منا أن نرعي أمور الناس عند أولي الأمر، ونحن نفعل ذلك بإخلاص، مع ذلك، كلا الطرفين ينظر إلينا بتوجس، فلا الناس راضية مع ذلك عن مخالطتنا لأولي الأمر، والأخيرون يطلبون منا أن نسيطر على هذه الجموع ونضبط تحركاتهم.

– لم أفهم يا مولانا هذه المفارقة، ألا يتطلب قضاء حاجات الناس أن تتصل بالوالي أو المماليك أو الآن الفرنسيس إن اقتضى الأمر، فكيف يغضب الناس من ذلك؟

– يريدون منا أن يكون اتصالنا بهم بحساب. وهذا لا نقدر عليه، ماذا لو دعاك الوالي أو دعاك واحد من الأمراء على حفل أو وليمة، ماذا أنت فاعل إذن؟ هل ترفض الذهاب؟ وإذا رفضت، هل تضمن أنه سيلين معك بعد ذلك فيما تطلب؟

في هذه الأثناء، حدث ما لم يحدث مع سليم في أي من البيوت التي دخلها في مصر، دخلت فتاة صبيحة الوجه، خمرية البشرة، ذات عينين آخاذتين، قصيرة القامة قليلا، اقتربت من الشيخ، ثم

قبلته على رأسه، التفت الشيخ إلى سليم: هذه زينب ابنتي، ثم رفع رأسه إلى ابنته: وهذا سليم الذي حدثتك عنه، فوجئ سليم بزينب وهي تمد يدها إليه بالسلام، انتفض واقفا ومد يده لتتلامس اليدان، ولتنتقل إلى بدنه قشعريرة توسل إلى الله ألا يلاحظها الشيخ الجالس أمامه. انتحت زينب بأبيها، وهمست في أذنه بما تريد، ثم خرجت ملقية تحية على سليم دون أن تسلم. لا يدرى الفتى كيف مر الوقت بعدها، ولا تذكر وهو عائد إلى بيته فيم كان يتحدث مع الشيخ، ولا أي الأمور قضاها له. فقط هذه اليد الممتدة لتصافحه والوجه المكشوف والابتسامة الغامضة، وأمام من؟ أمام أبيها.

***

يوم واحد ترك فيه عبد العال البيت، يوم واحد فقط، لكنه كان فاصلا. عاد إليه فوجد أبوابه المتهالكة وشبابيكه كلها قد خلعت، وبقايا ما تركه ساكنوه الذين هربوا من مصر قد اختفت أو كادت، لم يترك اللصوص بيتا خاليا إلا ودخلوه، أفرغوه من محتوياته، يستوي في ذلك بيوت المماليك، وبيوت الفقراء من المصريين. عاد إلى البيت فوجده أطلالا. حين استغرقته الحرب البائسة غير المتكافئة بين المماليك والفرنسيس بإنبابة، الهرج والمرج والرعب والفوضى أنسوه أمر بيته فظل نهارا مع الأوباش من أمثاله، ثم بات معهم ليلا في الجامع الأزهر، وفي اليوم التالي تابع معهم دخول

الفرنسيس إلى مصر. ولما عاد إلى البيت لم يجد إلا بقاياه.

***

لما نقل حسن هذا المشهد الذي حدث بين سليم وابنة الشيخ البكري إلى هوى، كان ينقله في أثناء حوار طويل عن الأحوال المضطربة في مصر، وعن عودة أسرتي بكر وعبد العال من الشرقية، وتهدم بيتهما، ورغبته أن يستضيف الأسرتين في بيته ريثما يتدبران أحوالهما، بدا ألق في ذهن هوى وهي تستمع إليه، لم تشغلها كثيرا كل الحكايات التي كان يحكيها حسن، الذي شغلها هو كيف يمكن أن تصل إلى زينب، أن تعرف منها كيف استطاعت أن تقنع أباها بما فعلت، وأبوها هو من هو. هذه فتاة قوية لا شك. وقر عزمها على أن تقايض حسن بموافقتها على استضافة أسرتي صاحبيه نظير أن يأخذها معه إلى بيت الشيخ البكري. لكنها لم تعلن له صراحة ما أسرته في نفسها. "أهلا بهم في البيت، هذا بيت أخيهم أيضا". أظهر حسن امتنانا لهوى. كان ظنه أنها سترفض رفضا قاطعا. لكنها فاجأته.

ما توقعه حسن كان صحيحا، الفرنسيون لما دخلوا مصر لم يمسو أهلها بسوء، بل رأى منهم ما أذهله، وما لم يتعوده من المماليك، جنودهم يسيرون بين الناس ضاحكين، يدفعون بسخاء أثمان بضائع لا تستحق ربع ما دفع فيها، والناس معهم تغالي

في البيع، وبدا من الناس حالة من الطمع فيما بين أيدي هؤلاء القادمين الجدد. يقترب منهم أناس فلا يدفعونهم، ولا يصيحون فيهم، ولا يتعاملون معهم بازدراء ولا عنف، بل خالطوهم محاولين أن يكسبوا ودهم، والأعجب أن جماعة من النساء ممن كن معهم خرجن أيضا إلى الأسواق، مكشوفات الوجه، ليس معهن رجل يحميهن، بل يتدبرن أمور أنفسهن بأنفسهن، لا يرتدين السواد كعادة نساء مصر، بل ملابسهن مزركشة بألوان عدة.

برغم أن توحيدة وفاطمة زوجي بكر وعبد العال دخلتا بيت هوى مرات عدة، فإنها المرة الأولى التي يدخلان فيها البيت كي يقيما، وفي ظروف وأهوال سبقت مجيئهما لا يعلم بها إلا الله. رحبت بهما هوى ترحيبا يليق بهما، وأفرغت لهما منضرة الرجال، بينما أبلغها حسن – على غير الحقيقة – أن نفقاتهن سيتحملها بكر وعبد العال، وحين نظرت إليه بارتياب، أخبرها أن صديقيه رفضا بشدة أن يحملاه فوق ما يطيق، ويكفي أنه سيوفر لهم المأوى. شَحْتَة بدت أكثر سعادة بالمرأتين وبنتيهما وكذلك كانت الخادمة. تشعر شَحتة أن بكراً وعبد العال وتوحيدة وفاطمة ينتميان إليها، تجد معهم ما يمكن أن تقوله، بينما يحدث أن يمر اليوم بطوله لا تتبادل فيه مع هوى إلا بضع كلمات، وغالبا يكون محورها محمود بن حسن.

من اليوم الأول لاحظت هوى ميلا واضحا من المرأتين تجاه

شحتة، برغم كل مظاهر الود التي استقبلتهما به، ولما أسرت بذلك إلى حسن، لم يعط الأمر أهمية، وقدم تبريرات لم تقنعها.

أعطته هوى ما تمنى، وصعدت به إلى معارجه الأثيرة، وبدا معها أنه في ملكوت غير الملكوت. وفي الصباح كانت رائقة مستبشرة سعيدة، قبلته وشكرته.

تحاول أن تتقرب من توحيدة وفاطمة، وتفعل ذلك أيضا المرأتان، في ذلك الصباح الندي وبعد أن خرج حسن سمع كل النسوة في البيت ضجيجا هائلا، وجلبة أكثر مما يعتاده سكان البيوت في هذا الجزء من مصر. صعدت النسوة إلى الطابق الأعلى، ونظرن من خلل المشربيات المطلة على الطريق، فوجدن جنودا فرنسيس وهم يقفون على باب الحارة المجاورة ويخلعن باب الحارة، يتابعهم بفضول ورفض ظاهر وقلة حيلة بشر كثيرون، لم يتدخل أحد منهم لمنع الجنود، ولا كانوا قادرين على ذلك، ظلوا يضربون أخماسا في أسداس في السبب الذي يحدو بهؤلاء الجنود إلى فعل ما يفعلون، قال قائل منهم: "لعلهم يحتاجون إلى خشب هذه الأبواب للتدفئة في فصل الشتاء القادم؟ وأردف آخر متعجبا "أكل هذه الرحلة الطويلة من أماكن لا نعرفها والحرب والموت من أجل أبواب قديمة متهالكة؟ لو طلبوا ذلك وهم في بلادهم لكنا أرسلناها على الرحب والسعة". أما الثالث فقال: هم لم يكتفوا بالأبواب، بل

رأيتهم يقلعون أشجارا كثيرة في مكان قريب من الأزبكية.

وأما النساء في الأعلى فكن يتطلعن بفضول إلى الجنود، توحيدة تدعو عليهم، وتؤمن شَحتة عليها، وتتنقل فاطمة ما بين المشربيات محاولة أن تلم بكل أطراف المشهد. وأما هوى، فسرحت ببصرها بعيدا وهي تشاهد الجنود، أول مرة تشاهدهم عن قرب، أجسام ممشوقة، وبشرة متوردة على الرغم مما يبدو عليها من إرهاق، ولطف في التعامل فيما بينهم، وعلى الرغم من أن أصواتهم التي تصل إلى النسوة تبدو لهن أقرب إلى الرطانة، لكن وقع اللهجة عليها كان آسرا.

***

على بكر الآن أن يصلح ما أفسده عبد العال، ودون أن يدخل معه في شجار أو حتى يعاتبه، بدأ يفكر في كيفية إعادة البيت إلى حالته الأولى. كانا قد أرسلا الأسرتين إلى بيت حسن ريثما يعيدان بناء البيت، لكن المشكلة الكبرى كيف يحصلان على الأخشاب اللازمة، والفرنسيس يستولون على كل شيء؟ وحتى لو وجد ما يحتاج إليه فكيف ينقله ويصل به آمنا حيث البيت؟ وكان سليم هو الحل. دلهم سليم على مكان يقع خلف مسجد بن طولون جنوب بيتهم المتهدم، لكن بكراً احتاج من سليم إلى أكثر من هذا، أن يرافقهم سليم في رحلتهم. بكر بدا متحيرا من الأوضاع الجديدة في مصر،

الحكام الجدد الذين لا يشبهون أي أحد كيف يمكن له أن يتعامل معهم. لقد ألف جنود الباشا وجنود الأرناؤود والمماليك وغيرهم، ألف منهم جرس لكنتهم، وطريقة زجرهم ونهرهم وحتى أشكال ضربهم وركلهم للناس، وكان يتوقع دائما ردود أفعالهم على كل شاردة وواردة، أما هؤلاء فكيف سيتفاهم معهم، ولو رأوا منه ما يريب، فماذا هم فاعلون؟

ذهب مع عبد العال واثنين آخرين لشراء الخشب، وكان معهم سليم، وجدوا ضالتهم حيث أشار بجوار جامع ابن طولون، خمسة أبواب تحتاج إلى بعض إصلاح يقدر عليه، ومثلها من الشبابيك، دفع سليم ثمنها دون انتظار، ودون حتى أن ينظر إلى صاحبيه، وتقبل منه بكر الأمر متمتما بكلمات شكر لم ير سليم داعيا لأن يجاوبه عليها، هما صديقاه وفي محنة، وهو لا يقل عن حسن شهامة في هذه المواقف. وكانت المشكلة هي كيفية نقلها هذه المسافة الطويلة التي سيمرون فيها بجوار بركة الفيل وبدروب وأعطاف كثيرة. الفرنسيس أخذوا كل حمير مصر، اشتروا جزءا منها بأثمان باهظة، واستولوا على الجزء الآخر عنوة من أصحابها، ولا وسيلة لنقل الأشياء إلا أن تحمل على الأكتاف. تعاون الخمسة في حمل جزء مما اشتروا، وتركوا الباقي للغد.

في الطريق استوقفهم جنود فرنسيون، كانوا أربعة يسيرون معا

يتفقدون الطرق والناس، والوقت حوالي السادسة بعد الظهر ومعهم مترجم. سألوهم عما يحملون، ورد عليهم سليم بخليط من عربية وفرنسية ركيكة. بكر كان متجهما وهو واقف قبالتهم، كان يتأمل سحنتهم، ويحاول أن ينفذ إلى أعماقهم، ما الذي أتى بهؤلاء إلى هنا؟ ماذا يفعلون؟ وماذا يريدون منا؟ الوالي هرب، والمماليك فروا إلى الصعيد وإلى المناطق الشرقية، وهم لا حول لهم ولا قوة في مواجهة هؤلاء. لم يشأ بكر أن يتحدث، لم يكن يدري ما سيقول، ترك لسليم كل المهمة التي أنجزها بلباقة وفطنة غير مستغربة منه. وفي الطريق أيضا مرت عليهم نسوة من الفرنسيات، شعر بكر ساعتها أن ظهورهن بهذه الطريقة في قلب مصر من علامات يوم القيامة الصغرى. أنساه مرآهن تعب الباب الذي يحمله على ظهره، لمحهن بطرف عينه، فتوقف، واستغفر الله، النسوة يرتدين ملابس ملونة، وجوههن وشعورهن مكشوفة وجزء من صدورهن نافر إلى الأمام، يسرن في الطريق متبذلات ضاحكات لا يردعهن إنسان، لم يكن وحده الذي يبسمل ويحوقل، همهمات كثيرة حوله وعيون متطلعة تركت ما في يدها لتتابع مشهد النسوة حتى آخره. دفعه سليم من ظهره وقال له "سر يا بكر، سر، سترى مثل ذلك كثيرا في الأيام القادمة، أمامك عمل كثير".

***

نبهوا على الناس بالمنع من دفن الموتى بالترب القريبة من المساكن كتربة الأزبكية والرويعي، ولا يدفنون الموتى إلا في القرافات البعيدة، والذي ليس له تربة بالقرافة، يدفن ميته في ترب المماليك، وإذا دفنوا يبالغون في تسفيل الحفر. ونادوا أيضا بنشر الثياب والأمتعة والفرش بالأسطحة عدة أيام، وتبخير البيوتات بالأبخرة المذهبة للعفونة.. كل ذلك للخوف من حصول الطاعون وعدواه. ويقولون إن العفونة تنحبس بأغوار الأرض، فإذا دخل الشتاء، وبردت الأغوار بسريان النيل والأمطار والرطوبات، خرج ما كان منحبسا في الأرض من الأبخرة الفاسدة فيتعفن الهواء، فيحصل الوباء والطاعون. ومن قولهم أيضا: إن مرض مريض لا بد من الإخبار عنه، فيرسلون من جهتهم حكيما للكشف عليه إن كان مرضه بالطاعون أو غيره، ثم يرون رأيهم فيه.

***

اجتماع صاخب، هذا الذي دعا إليه المعلم يعقوب في بيته، يقع بيته بعيدا عن قصر محمد الألفي بالأزبكية، هذا القصر الذي بناه الألفي وزخرفه وزينه وفرشه بأثمن الفرش، لكنه لم ينعم فيه بليلة واحدة، إذ جاء الفرنسيس، فاستولوا على مصر، واستولى نابليون على القصر وسكن فيه. أما بيت يعقوب، فيقع بعيداً قليلاً عن بيت ساري عسكر في الجنوب من جهة الرويعي على حدود الموسكي

الغربية وسط بيوت القبط في الحي الذي يشكلون أغلبية فيه مع اليهود ونصارى الشام.

الوقت منتصف النهار، والأشجار في حديقة البيت تحجب أشعة شمس أغسطس لكنها لا تحجب حرارتها اللافحة، المجتمعون الذين يبلغون المئتين يتصببون عرقا لكنهم لا يبالون إذ يتصور كثير منهم أن هذه هي فرصتهم، وأن اقتناصها هو واجب الوقت والعقيدة والأهل. كان يوسف حاضرا بين هؤلاء، جاء من حارة النصارى البعيدة في سوق السلاح ليشهد اجتماعا مصيريا لعشيرته. بدا يعقوب منفعلا وهو يعرض ما عنده: "لن نسكت على ضيم بعد اليوم، لقد آذونا كثيرا، منعونا من بناء كنائسنا، منعونا من توسيع بيوتنا، ضيقوا علينا في الطرقات، وألزمونا بملابس معينة لا نتجاوزها، هل علينا أن نقبل بهذا إلى الأبد" ورد الجمع الحاشد "لا، لن نقبل" عاد يعقوب "هل علينا أن نعاونهم في طرد الفرنسيس من مصر؟" ورد الجمع الغاضب "لا، لن نقبل"، "ماذا فعل لنا الفرنسيس حتى نعاديهم، إنهم ما جاءوا إلا لتخليصنا من ظلم هؤلاء" بدت إشارته عن هؤلاء غامضة، يوسف لم يستوعب الإشارة "من يقصد بهؤلاء؟ هل يقصد المماليك أم يقصد المصريين المسلمين؟ إن كانت الأخيرة، فهي الكارثة" وأراد أن يتدخل، لكنه آثر الصمت، لا يضمن أن يفهمه أحد. "انظروا إلى ما فعله الفرنسيس في شهر، وما كان يفعله المماليك مئات السنين، الناس الآن آمنة، هل كانوا

يشعرون بالأمن قبل ذلك؟" ويرد الجمع "لا" "الناس الآن تأخذ حقها، هل كانت تأخذ حقها قبل ذلك" ويردون: لا. علينا أن نعاون الفرنسيس، وأن نقف بجوارهم بالمال والسلاح وحتى القتال إن لزم الأمر."

رد واحد من بين الجمع: لكن من تقاتل يا معلمنا؟ هل تقاتل المماليك أم تقاتل المسلمين؟ ورد يعقوب: نحن نقاتل المماليك أولا، ولا نقاتل المسلمين إلا إذا قاتلونا. لكن الرجل الذي بدا متحيراً خائفا مما سيأتي واصل: وإذا انضم المسلمون إلى المماليك، فما العمل إذن؟ ولا تعجز يعقوب الحيلة والرد في مثل هذه المواقف: صمت قليلا ثم قال: على المسلمين أن يعرفوا أن بونابرته لم يأت إلى مصر إلا ليسلمها إلى أهلها من القبط والمسلمين وليخلصها من ظلم المماليك، وعليهم أن ينتبهوا إلى أن هذه بلادهم، وأنهم عليهم أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم، وأن يدركوا أننا كلنا سواء النصراني والمسلم، وإذا لم يعرفوا ذلك، فما ظلموا إلا أنفسهم" استحث النقاش آخر فتدخل: لكن المسلمين أغلبية في هذا البلد ونحن أقلية" رد واحد من الجمع اسمه بقطر: إنهم أغلبية، لكن لا وزن لها، غثاء كغثاء السيل، وتابع يعقوب: الفرنسيس جاءوا إلى مصر ليبقوا فيها زمنا طويلا، ونحن في حمايتهم حتى تتغير أحوال البلد وحتى يدرك المسلمون بأن حياتنا واحدة، والأمر يحتاج إلى زمن حتى يفهموا، والزمن في صالحنا".

تكفل يعقوب بكل تكاليف الفرقة القبطية التي تكونت في ذلك اليوم ومعه المعلم جرجس الجوهري، وكان له لقاء في اليوم التالي مع الجنرال كليبر للترتيب للخطوة القادمة، أما يوسف فلم يبد حماسا للانضمام إلى هذه الفرقة.

***

حان الآن وقت المقايضة، هكذا لمع الأمر في ذهن هوى وحسن ينقل لها أخبار دعوة الشيخ البكري له في بيته بمناسبة تنصيبه نقيبا للأشراف. "سيتم الاحتفال غدا". "آتي معك" هكذا ردت وهي تحاول أن تجعل نبرتها محايدة.

- لكنه اجتماع للرجال، فماذا ستفعلين هناك؟
- أجلس مع أهل بيته ونشاهدكم على البعد.
- أنت لا تعرفينهم، وهم كذلك.
- هذا أمر هين، وافق أنت واترك الباقي لي.

لكن حسن أفسد عليها خطتها عن غير قصد حين أخبرها أنه سيأخذ معه أيضا محمود وشَحتة والخادمة.

وافق يوم التنصيب المولد النبوي، استعد حسن وأهل بيته، ارتدوا أفضل ما لديهم من ثياب، لاحظ حسن بعد أن خرجوا إلى الطريق بعد صلاة الظهر أن هوى لم تعتن بتغطية وجهها كعادتها،

كان البرقع مرتخيا بحيث تصل حافته العليا حتى أسفل أنفها، وأما عصبة الرأس فكانت مسحوبة إلى الوراء بحيث تكشف جزءا من شعرها. نبهها حسن بلطف إلى هذا الأمر، فامتثلت في البداية، لكنها أهملته بقية الطريق. وفي الطريق لاحظوا جميعا خروج الناس للاحتفال بالمولد النبوي. قبلها بأيام كان الاحتفال بوفاء النيل، ولأن مصر الآن غير مصر التي ألفوها مئات السنين، فإن الناس قبعت في منازلها لم يخرج للاحتفال كالعادة سوى القبط ونصارى الشوام، أما اليوم فإن نابليون أمر وشدد على الاحتفال بالمولد النبوي، بل أعطى الشيخ البكري ثلاثمئة ريال لزوم الزينة التي ستعلق على مساجد مصر الكبرى. وأمام بيت الشيخ البكري تجمع الفرنسيس بطبولهم الكبيرة يضربونها، ويحدثون أنغاما لا تألفها آذان المصريين، لكن مزاميرهم كانت مطربة استهوت الناس، وجعلت حسن وأهل بيته يقفون قليلا يستمعون ويشاهدون احتفالات الفرنسيس بالمولد النبوي قبل أن يدلفوا جميعا داخل البيت من بابين مختلفين.

استقبلت إحدى الجواري هوى وشحتة والخادمة، بينما ذهب محمود مع أبيه في الدور الأسفل. الجزء الخاص بالحريم يعج بالنسوة المصريات المتشحات بالسواد برغم عدم وجود الرجال فيما بدا لها للوهلة الأولى، وبعض الفرنسيات اللاتي يرتدين الملابس الملونة. نوافذ البيت العلوية تطل على الفناء، وتتيح للنسوة أن يشاهدن

الرجال بالأسفل. الأهم من هذا أن هذا الجزء الخاص بالحريم لم يكن معزولا تماما عن بقية أجزاء البيت. رأت هوى بعض الفرنسيات يتحدثن مع شيخ وقور عرفت فيما بعد أنه الشيخ المهدي، ورأت فتاة صبيحة الوجه تتحدث مع ضابط فرنسي عرفت ساعتها أنها هي: زينب ابنة الشيخ البكري التي جاءت لتراها ولتعرف منها كيف واتتها جراءة الدخول على أبيها في حضرة أحد الرجال، بل مد يدها بالسلام عليه. حين اقتربت منها، التفت إليها زينب وفي عينيها تساؤل عمن تكون، رحبت بها ترحيبا حارا حين عرفتها، وأثنت على حسن زوجها الذي لم تره، إنما رأت خطه في بعض الكتب والرسائل، وخمنت أن له ذوقا رفيعا، وها هو يصدق في اختياره لزوجته. لم تكن هوى تتصور أن الحميمية بينهما ستبدأ من الوهلة الأولى، زينب تصغر هوى ببضع سنين، وهما متماثلتان تقريبا في الطول، لكن هوى أكثر امتلاء منها قليلا، وبخاصة عجيزتها، وأقل منها سمرة. تمنت هوى في هذه الحظة لو تخلصت من عباءتها مثلما فعلت زينب، لكنها تذكرت شَحتة التي ذابت وسط النساء، لو رأتها لما سكتت أبدا، ولأخبرت حسن. تلاصقت الفتاتان على شباك واحد وهما يشاهدان وقائع ما يجري بالأسفل.

وفي الأسفل، نابليون حاضرا وسط حشد من ضباطه. لاحظ حسن أن آذان المغرب الذي ارتفع من مسجد قريب ووصل صوته برغم الضوضاء داخل البيت لم يحرك إلا بضعة شيوخ انتحوا

جانبا لأداء الصلاة ومعهم حسن، بينما نابليون نفسه الذي أعلن إسلامه في منشوره الذي نسخه حسن لم ينتبه ولم يبال، حتى الشيخ البكري نفسه تكاسل عن أداء الصلاة في وقتها مع جماعة الشيوخ احتفاء بساري عسكر، صلاها بمفرده فيما بعد في حجرة جانبية. سليم حاضر أيضا، لازم لحسن. ورأى معه احتفاء ساري عسكر بالشيخ البكري، واحتفاءه ببقية الشيوخ. ألبس نابليون الشيخ البكري عباءة بنية اللون، وأعلنه نقيبا للأشراف بديلا عن السيد عمر مكرم الذي ترك مصر وذهب إلى الشام، كما أعلن أن من له حاجة من المصريين، فليرسلها لهم عن طريق الشيخ البكري. وسيكون بيت البكري من هذه اللحظة مكانا لالتقاء الفرنسيس والمصريين.

المشاعر بين الصديقين كانت متناقضة وهما عائدان من بيت البكري، سليم وحده مع حسن يسيران في المقدمة، بينما أسرة حسن تسيران خلفه بمسافة ليست بعيدة. سليم لم ير بأسا في علاقة البكري أو الشيوخ بالفرنسيس، هم الآن السادة الجدد، وهم – لاشك – أخف وطأة وأقل ظلما من المماليك، بينما يرى حسن أن العالم الذي كان يعيش فيه من قبل يتداعى، وأن هناك عالما جديدا يتشكل لا يدري ملامحه حتى الآن...... وفي الخلف كانت هوى تحلم بلقاء جديد مع زينب في بيتها، لكن كيف السبيل؟

***

أما محمد علي، فإنه في هذه الأثناء شعر بسعادة بمولد ابنته توحيدة، رابع أبنائه بعد إبراهيم وطوسون وإسماعيل، يتذكر محمد علي سعادة الشوربجي حين أبلغه بأنه أسمى ابنه الأخير على اسمه، يحمل محمد علي جميلا كبيرا للرجل، فهو قد احتواه وأسبغ عليه حمايته من كثيرين في قصره الذين رأوا مدى العناية الفائقة التي يوليها الشوربجي إسماعيل للفتى، أرادوا له كيدا، لكن ثقة الرجل به وبقدراته دفعت عنه كل دسائسهم. والآن هو يحمل ابنته بين يديه، ويتطلع بحب ظاهر إلى أمها التي كانت طالع السعد عليه منذ أن تزوجها، أخلص لها طوال هذه السنين، ولم يتزوج عليها إلا أخيرا، لم تشعر أمينة بالغيرة من زوجته الجديدة ماه دوران، بل عدتها مثل أختها الصغيرة، تعلم أمينة مدى إخلاص محمد علي لها وحبه، أفسحت لها مكانا ظاهرا في البيت، وكانت ماه دوران خير معين لها في الأوقات التي تحتاج إليها، وبخاصة في لحظات الولادة العسيرة.

الفصل الثاني

لا يدري بكر كيف تمر به الأيام الآن، اختار العزلة حتى عن أصدقائه. عبد العال نفسه رفيق عمره لا يراه كثيرا. يخرج ليصلي الفجر في جامع الغوري غير البعيد عن بيته، ولا يعود إلا بعد صلاة العشاء، وما بين الصلاتين يذهب هنا ليبني سورا، أو هناك ليساعد في حفر أساس لدار، وقد يمكث أياما بلا عمل، فلا يكاد يخرج من المسجد إلا لماما، وفي المسجد أصبحت له وظيفة مهمة. بكر بصوته الجهوري هو المُبلِّغ، له دكة تقع في الإيوان الغربي وفي مواجهة المحراب، وهي مكان نومه في أوقات الفراغ.

في حارة الجوانية القريبة من باب النصر خلف بيت القاضي،

انتهى من طلاء إحدى غرف بيت من بيوت الحارة، الوقت ضحى والساعة حوالي الرابعة تبقى ساعتان حتى يؤذن لصلاة الظهر، وهي مدة كافية أن يصل إلى المسجد ويستعد لدوره الآخر. جلس القرفصاء متوجها إلى القبلة وهو يشرب ماء من "كوز" يحمله معه بعد أن التهم فطيرة محلاة بالسكر، عندما سمع أصواتا متداخلة عالية أمام دكان صيرفي قريب من مكانه. ذهب ليستطلع الأمر. الصيرفي يصيح في وجه آخر:

- نعم، السيد البدوي في الشرق والسيد إبراهيم الدسوقي بالغرب يقتلان كل من يمر عليهما من النصارى. أخي جاء من طنطا بالأمس، وشاهد نصرانيا مقتولا من السيد البدوي.

- أخوك هذا يكذب، وأنت تهذي وتخرف. رد أحدهم بحدة.

- نعم يقتلانكم، ويخلصانا منكم. أنتم الذين أتيتم بالعساكر الفرانسة إلى هنا. نظر إليه الصيرفي بغضب.

- نحن لم نجيء بأحد، وحتى لو كان هذا صحيحا، فهم خلصوكم من ظلم المماليك واستعبادهم لكم.

- تقول خلصونا، وماذا يفعل معنا فرط الرمان، كل يوم يرسل لنا صاروفيم أو سدره أو بانوب أو يوحنا ليطلبوا مالا للفرنسيس، والحجة أنهم يستعدون للقضاء على المماليك

نهائيا في الصعيد أو في الشرقية، هل هذا هو العدل الذي تتحدثون عنه.

وتدخل آخر كان مرافقا للصيرفي:

- والأسوأ نساؤهم الكاسيات العاريات، هل يعقل أن تسير المرأة في الطريق تكشف وجهها ورقبتها؟ هل ترى رجالهم السكارى في الطرقات.

- وما شأننا نحن بذلك؟ امنع نساءك من الخروج، تريح وتستريح. ماذا تريدون منا؟ هل تريدون أن تبيدونا عن آخرنا.

- الله قادر على هذا

انفعل النصراني، وأمسك بخناق الصيرفي، وتجمع حوله حشد من نصارى الشام يريدون ضربه، بينما بدا الصيرفي وزميله محصورين في الدكان. بكر يستمع إلى الحوار غير بعيد، ولما رأى الأمور تتطور إلى شجار اقتحم الجمع، وخلص الصيرفي من النصراني، ووقف قبالتهم يتوعدهم بالموت إن تمادوا مع الرجل بأكثر من هذا.

انصرف الرجال النصارى، لكن أحدهم عاد بعد وقت قليل ومعه ثلاثة جنود فرنسيس ليقبضوا على الصيرفي وصحبه وعلى بكر الذي لم يكن قد ابتعد كثيرا عن الدكان عائدا إلى المسجد.

اقتادوهم إلى بيت الشيخ البكري الذي أصبح جزء منه موئلا للفرنسيس، وهناك ضربوا كل واحد منهم مئة سوط، ثم حبسوهم مدة يومين، وقبل أن يطلقوا سراحهم أمروا الصيرفي أن يدفع خمسمئة ريال فرانسة.

***

في تلك الأثناء كانت توحيدة زوج بكر قلقة بعد أن تأخر عن العودة في موعده المعتاد بعد صلاة العشاء، ساعة وساعتان ولم يعد بكر. اضطرت إلى أن تستنجد بعبد العال النائم مع أسرته في الحجرة المجاورة. لا يدري عبد العال ما يفعل في هذا الوقت المتأخر، كل ما يعرفه عن بكر أن مقامه الدائم هو جامع الغوري، وقد يخرج ليعمل هنا أو هناك، أما أين هذا الـ "هنا" أو "هناك" فالله أعلم. ذهب إلى حارس المسجد، أيقظه من نومه بخبطات زائدة على الباب، حسبه الرجل قبل أن يراه أنه من الجنود الفرنسيس، ففتح الباب منزعجا خائفا، ولما تبين لكنته العربية ورأى هيئته الرثة، نهره قائلا "يحنن"، لكن عبد العال قال له إنه ما جاء ليشحذ، بل جاء ليسأل عن بكر. أخبره الحارس أنه أيضا قلق عليه، فهو لم يجئ منذ صلاة الظهر، وليست هذه عادته. أما أين ذهب، فالله أعلم.

دار عبد العال حول المسجد، ووصل إلى الأزهر، ثم انتقل إلى

المسجد الحسيني في الجهة المقابلة، فتش بين النائمين، وأزعج بعضهم حين يقترب منهم اقترابا مريبا لهم ليتبين وجوههم. ثم عاد إلى توحيدة بخفي حنين.

في الصباح عاد عبد العال مرة أخرى إلى جامع الغوري عله يجد شخصا يعرفه، سأل أصحاب الحوانيت القريبة عنه، هم يعرفون بكراً بالطبع، فلم يستدل منهم على شيء. انتظر حتى ميعاد صلاة الظهر، وظل في مواجهة باب المسجد ينظر في وجوه الداخلين، ثم الخارجين حتى أنه نسي في هذه الأثناء أن يصلي مع المصلين.

على وجهه هام عبد العال بحثا عن صديقه الأثير. جاب الدرب الأحمر كله دروبه وأعطافه وشوارعه الواسعة، لم يعثر على خيط يقوده إلى بكر. الحر شديد، والعرق ينز على جبهته وينساب خيوطا داخل ردائه، ويتحول العرق مع الغبار في الجو إلى بقع على قميصه الأزرق الفضفاض، أما الصديري الذي يرتديه أسفل جلبابه فتنبعث منه رائحة كريهة ألفها عبد العال فلا يشعر بها. اقترب من منزل مصطفى كاشف طرة، جلس في ظل جداره يستريح قليلا، ويفكر في خطوته القادمة من أجل أن يعثر على صاحبه. انفتح باب ليس بعيدا عن مجلسه، خرج منه فرنسيان، أحدهما مقطوع أحد رجليه عرفه على الفور، هو أبو خشبة الذي يتحدث عنه الناس، والثاني الذي نظر إليه فدعاه: أنت، تعال.

هرول عبد العال إليه خائفا: نعم، ماذا تريد؟

– ممكن تحمل الأغراض الحمار؟

لم ينتبه عبد العال إلى لكنته العربية الغريبة وهو يحمل أشياء غريبة لم ير لها مثيلا من قبل، أوان زجاجية وآلات لا يدري ما هي، ونظارات سمع بها، ولم يرها، وقطع حديدية مصنوعة بطريقة عجيبة ليست من جنس ما رأى أو عرف. نقل كل هذا في قفتين كبيرتين وضعتا على جانبي الحمار. استغرق عمله كله من نقل هذه الأغراض من داخل البيت وترتيبها على هيئة معينة، ووضعها بعناية شديدة داخل القفة قريبا من الساعة، نسي فيها تعبه، بل نسي فيها بكراً نفسه. لم يتحدث فيها مع هذا الفرنسي بكلمة واحدة، وأما أبو خشبة فكان يراقب كل هذا في صمت واهتمام، وفي النهاية نفحه الفرنسي بضعة قروش كانت كفيلة بأن يسيل لعاب عبد العال لها، وليسأل الفرنسي في النهاية: هل يمكن أن آتي إلى هنا كل يوم، يمكن أن تحتاجوا إليّ؟ قال له الفرنسي: تعال، لكن ليس متأكد العمل كل يوم.

في النهاية وجد عبد العال رجلا يعرف بكر، قال له: إنه رآه في حارة الجوانية صباح أمس. وحين ذهب هناك، وعرف ما حدث، كان الحل واحدا من اثنين: حسن أو سليم.

***

انزعج حسن حين أخبره عبد العال بسجن بكر في بيت الشيخ البكري. كان يعرف بعلاقات الشيخ الكثيرة مع الفرنسيين، لكنه لم يكن يظن أن الأمر يصل بالشيخ إلى هذا المدى. أن يصبح بيته سجنا للمصريين. قر عزمه أن يذهب في الصباح إلى بيت الشيخ، وأن يحاول بكل ما له من دالة على الشيخ إخراج بكر من حبسه. هوى عرفت بنيته، فأخبرت حسن أنه لا يصح في هذه الظروف أن تترك توحيدة وحدها، تذهب معه أولا إلى بيت الشيخ، ولما يعودان، يتركها في بيت توحيدة قليلا. استحسن الأمر.

لم ينتبه حسن في الصباح إلى هوى وهي تستعد للذهاب معه. كان مشغولا بصديقه، وبكيفية إخراجه، أما هي فكانت مشغولة بأناقتها، وباختيار أفضل ما لديها من ثياب.

هللت زينب لما رأتها، قادتها إلى الجناح الجنوبي من البيت، وفي حجرتها العلوية كان يمكن لهما أن يريا حركة الجنود الفرنسيين بالأسفل من خلال نافذة ضيقة يحيث تسمح برؤية واضحة من الداخل، بينما لا يستطيع من في الخارج أن يتبين من وراءها. اقتطع الفرنسيون جزءا من البيت بطوابقه الثلاثة ليكون مركزا لتعاملهم مع المصريين. للشيخ البكري في هذا دور كبير. رأت الفتاتان حسن وهو يتحدث مع البكري، ثم وهما يدلفان إلى داخل إحدى الحجرات.

طلبت زينب من هوى أن تتخفف من عباءتها، هما في أمن لن يراهما أحد. سألتها هوى: ألا يغضب والدك وهو يراك تتحدثين مع الرجال؟

أجابت زينب: أبي يرى أن مجتمع الرسول عليه الصلاة والسلام لم يكن مجتمعا منفصلا، كان للنساء دور مهم في كثير من الأمور، في الحرب والبيعة والتجارة التي تستلزم الاختلاط وغير ذلك، وطالما أن هذا الأمر يتم باحترام ووقار، فما المشكلة؟

هوى لم تكن في حاجة إلى من يقنعها هي، حسن هو الذي يحتاج، لكن كيف السبيل إلى ذلك؟ سألتها زينب عما إذا كانت تريد أن ترى الفرنسيس عن قرب، هناك حجرتان منفصلتان يأتي إليهما أحيانا بعض الفرنسيس، لكنهم ليسوا جنودا، وبعضهم يتحدث العربية. شعرت هوى بتوتر وهي توافقها، عبرا دهليزا طويلا انتهى إلى سلم حلزوني ضيق هبطا منه إلى الطابق الأسفل، ثم اجتازا ممرا قادهما إلى إحدى الحجرتين. هناك رأت ثلاثة منهم، اثنان واقفان بجوار مجموعة من الكتب يبدو أنها تخص الشيخ البكري منهمكين في حديث، والثالث جالس على كرسي وراء "تختة" طويلة مستطيلة ينسخ من كتاب أمامه. توقف الاثنان عن الحديث عندما رآيا الفتاتين، بينما لم ينتبه الثالث لوجودهما لأول وهلة، وحين انتبه أسرع بالوقوف قائلا لزينب: أهلا سيدتي"، أسعفته

عربيته، في الوقت الذي كان آخر يقول "أهلا فيكم في الحجرتنا الصغير". ضحكت هوى ضحكة مكتومة، التفتت زينب إلى الذي كان جالسا على الكرسي، وقالت له: هذه هوى، صديقتي، أرادت أن تعرف ماذا تعملون هنا". مد يده إلى هوى وهو يقول" أنا سعيد برؤيتك يا سيدتي" ترددت هوى لحيظات قبل أن تمد يدها إليه. شعرت أن المسافة التي ستقطعها يدها حتى تلامس يده ستستغرق منها زمنا فلكيا لا تدري منتهاه، شعرت أن هذه اللمسة الآتية لا محالة تودع بها عالما، وتدخل بها عالما آخر، وحين تلامست اليدان سرت قشعريرة في كل جسدها. "أنا اسمي جان بول، وأنت يا سيدتي، ما اسمك؟" لم تكن في هذه اللحظة التي يسألها قد أفلتت يدها، انتبهت، فسحبت يدها بسرعة ونظرت إلى زينب. زينب هي التي ردت: "لقد أخبرتك للتو، اسمها هوى". رد جان: "لم انتبه، معذرة". سألتهم زينب عما يفعلون الآن، رد أحد الواقفين: "نحن نكتب الكتب في المكتبة الشيخ" استدرك جان "يقصد نحن ننسخ الكتب، مكتبة الشيخ عظيمة، وفيها كتب غير موجودة عندنا في فرنسا".

- لكن ماذا ستفيدكم هذه الكتب هناك؟ سألت هوى

- العلم، نحن نريد أن نعرف كل شيء عن البلاد الأخرى، ولما نعرف، يمكننا أن نساعدهم حتى يعيشوا أفضل. رد جان

- أفضل ممن؟ نحن نأكل كما تأكلون، ونشرب كما تشربون، ونلبس كما تلبسون.
- يا سيدتي، لو جئت إلينا لوجدت أشياء لا تجدينها هنا أبدا. ونحن نحاول أن نجعلكم مثلنا. ولن يحدث هذا قبل أن نخلصكم من المماليك. صمت قليلا ثم أردف: لو أذنت لي يمكن أن تأتي إلي دار لنا بالأزبكية وستشاهدين فيها ما يقنعك بما أقول.

بهتت هوى من الدعوة، ومن جرأته على توجيهها. لم تجبه، لكنها نظرت إلى زينب نظرة متساءلة، قالت زينب: إن شاء الله سوف نرى.

مكثت الفتاتان بضع دقائق أخرى، ولما أرادوا الخروج، فوجئت هوى بجان بول وهو يقول لها: هل قال لك أحد قبل ذلك إن لك عينين ساحرتين؟ فاجأها الرجل فانعقد لسانها

استدارت هوى ناحية الباب والأرض تميد تحت قدميها، فتحت باب الحجرة فتعثرت في الدرجة التي ترفع مستوى الحجرة عن الممر أمامها. أمسكت زينب بيدها حتى لا تهوي، لكن الأوان قد فات إذ التوت قدمها، وسقطت على ركبتيها. ساعدتها هوى على أن تقوم، ثم قبضت على يدها حتى صعدا معا إلى الطابق الأعلى دون كلمة واحدة بينهما.

***

لم يكد حسن يدخل بيت الشيخ حتى راعه جم غفير من المصريين متفاوتي العمر متجمعين في أحد الأفنية في البيت، كان الشيخ وسطهم يطيب خاطرهم ويحدثهم بما يطمئنهم، وهم يتصايحون ويتحدثون في صوت واحد. لم يشأ حسن أن يقتحمهم حتى ينتهي منهم الشيخ، سمعه في النهاية وهو يقول لهم "اذهبوا إلى سليم في هذه الحجرة" وأشار إلى مكانها "وهو سيرتب معكم كل شيء، باب الحجرة ستجدونه مطلا على الطريق هناك في الخلف".

رحب به الشيخ ترحيبا حارا، وأعلمه أن هؤلاء هم من أرباب الوظائف وبعض المرضى في بيمارستان المنصوري وأوقاف عبد الرحمن كتخدا وبعض العميان وأطفال الكتاتيب ممن قطعت الأوقاف رواتبهم، وقد طلبت منهم أن يسجلوا أسماءهم عند سليم حتى أتدبر أمرهم في الديوان. ثم أردف "الناس يا حسن لا ترحم، يظنون أننا نمالئ الفرنسيس، وما يعلمون أننا لا نفعل ذلك إلا من أجلهم، انظر إلى هؤلاء، من يمكنه أن يقضي حاجتهم سوانا". أخبره حسن بمراده، كما أخبره أن زوجه موجودة الآن مع ابنته الفاضلة. هش الشيخ وبش وقال له "هذا بيتها تأتي في أي وقت، هي وكل أهل بيتك مرحب بكم دائما".

قال له الشيخ: أعلم أن الفرنسيس قد خصوا بعض حجرات الجزء الذي يشغلونه من البيت لسجن اللصوص وقطاع الطرق

والذين يحدثون الفتنة بين الناس، لكني لا أعلم صاحبا لك بينهم. حكى حسن كل التفاصيل التي يعرفها، فقال له الشيخ علينا أن نتدبر أمرنا معهم حتى نخرج صاحبك، لكن لنأخذ سليم معنا، هو يستطيع التفاهم معهم، هل سليم يعرف صاحبك هذا؟ لم ينتظر إجابته، "ليس مهما أن يعرفه أو لا يعرفه، المهم أن يكون سليم انتهى من هؤلاء الناس".

انزعج سليم لما عرف بالأمر، نظر إلى حسن نظرة معاتبة "لماذا لم تخبرني بالأمر قبل هذا؟" قال له حسن "إنه لم يعرف إلا بالأمس مساء" انتقل الثلاثة إلى الجزء الفرنسي من البيت، كان الشيخ أول الداخلين تبعه سليم ثم حسن. انتبه ضابط فرنسي لما رأى الشيخ ورحب به، لكنه هلل حين رأى سليم، دار بينهما حوار قصير ضاحك بالفرنسية عرف حسن بعد أن انتهوا أنه كان يسأله عن الملوخية التي وعده بها، ولم يأت بها بعد. استفسر منه سليم عن بكر، فسحب الضابط من رف خلفه مجموعة أوراق جعل ينظر فيها، ثم أخبر سليم أنه مشترك بالتحريض على الفتنة بين النصارى والمسلمين، وأننا لن نسمح بهذا أبدا في مصر، والواجب أن ينال كل مذنب جزءاه. تشفع الشيخ في بكر، وأعلم الضابط عن طريق سليم أنه قريب له، وأنه لم يكن يعرف أنه مسجون هنا، تفرس الضابط في وجه الشيخ، ثم أطرق إلى الأوراق، وقال إنه سيخرجه

وحده لأن جرمه أخف، وهو على أي حال نال عقابه، أما زميلاه فلن يخرجا إلا بعد أن يدفع الصيرفي ثلاث مئة ريال.

نادى الضابط على أحد الجنود وطلب منه أن يحضر بكراً من حبسه، دقائق قليلة وبكر واقف في حال مزرية أمام صديقيه اللذين خلصاه من مهانة لا يعلم إلا الله مدى أثرها في نفسه.

***

في الطريق إلى بيت بكر، حكي لحسن كل ما حدث له في اليومين السابقين. هوى تسير خلفهما على مسافة قصيرة متدثرة بردائها، محكمة البرقع على وجهها، مخفية يديها داخل عباءتها، حسن ينصت باهتمام زائد إلى صديقه، وهوى خلفهما سابحة في عالم آخر منتشية باللمسة والنظرة والوعد.

***

قصص الحبس والتعذيب كثيرة في مصر، بل القتل وجذ الرقاب وتعليقها على باب زويلة أو الطواف بها في حواري ودروب مصر، قبل أن يجيء الفرنسيس وحتى بعد أن أتوا، فلماذا جزع حسن يبدو زائدا؟ تذكر والده وهو صغير، تذكره والجندي المملوك يهوي بقبضته على وجهه، حادثة لم يبرأ منها حتى الآن، أورثته كرها عميقا للمماليك، وتمنى الخلاص منهم، لكنه الآن لا يعرف كيف يضبط مشاعره، الفرنسيس وعدوا بتخليص مصر من المماليك،

لكن مارآه في بكر زلزل بنيانه، وزعزع يقينه. أول مرة يرى صديقه مهانا مكسورا، لاحظ منه حين التقاه خارجا من محبسه أنه لم يواجهه بعينيه كما كان يفعل، وحتى وهو يودعه بعد أن أوصله إلى بيته لم تلتق العيون. تذكر أنه قال له كلاما سخيفا مكررا يطيب به خاطره، ويشد من أزره، لكنه يعرف – وهو أدرى بصديقه – أن جرحه غائر، وأن وقتا طويلا سيمر قبل أن يلتئم. ما الذي فعلوه مع بكر غير ما حكاه له؟ لا يدري، يقلب حسن الأمر ولا يصل إلى شيء، حبس ليومين وضرب خمسين جلدة. كانت المماليك تفعل أشد من هذا، ربما يقتل المملوك مصريا ولا يطرف جفن له، "على الأقل استطعنا أن نصل إليه وأن نخرجه من محبسه، هذا كان مستحيلا قبل شهور قليلة من الآن، والفرنسيس لم يجادلوا الشيخ البكري كثيرا حين توسط في إخراجه، فلماذا يبدو بكر مهزوما؟ ولماذا انتقلت عدواه إليه؟"

يمضي حسن الليل مسهدا، هوى نائمة في الطرف الأبعد من السرير، يحاول أن يقترب منها، يدخل في مملكة عطرها الخفيف الرقيق الفواح حتى وهي نائمة، يتمنى لو استيقظت، لكنها بعيدة بعيدة، أياما كثيرة قبل الآن وهي تنزوي في ركنها الأقصى على السرير، تخبره بهدوء أن عرقه الزائد في أيام الصيف لا يجعلها تنام، ولا يقتنع حسن، مرت عليهما أيام صيف وسنوات، ولم تكن

تفعل ما تفعله الآن، تذكر جملة من بكر بدت عارضة وقتها، "كيف يضربني هؤلاء الأنجاس ويحبسونني؟" لماذا يصفهم بكر بالأنجاس؟ وإذا كان المماليك هم الذين فعلوا معه هذا، هل كان سيسكت ويرضى؟ وبماذا كان سيصفهم وقتها؟ لكن حسن انتبه إلى أمر آخر، ربما يكون هو السبب في جرح بكر الغائر، جرمه نفسه الذي عوقب عليه، إهانة القبط ونصارى الشام لم تكن من الأشياء النادرة في مصر برغم نبوغ بعضهم ووصول آخرين إلى مراتب عليا عند ذوي الحظوة، وغنى بعض آخر، لكن الشعور العام في مصر أن هؤلاء أدنى درجة، ولا يحق لهم ما يحق للمسلمين، الآن فإن بكر يعاقب على إهانتهم، الآن رأى بعينيه من جاء من آخر الدنيا ليحميهم، رآهم وهم يمرحون في الطرقات يتعابثون مع المسلمين، بل ينهرون فقراء المسلمين إن لم يقفوا لكبير من القبط حين مروره.

حسن رأى شيئا من هذا، لكن لم يعره انتباها، كان يراهم وهو جالس أمام دكانه، قدر من الخيلاء والزهو في مشيتهم، على الأقل من يعرفهم من القبط، لأن سائرهم خلع الملابس التي تميزهم وتزيا بزي المسلمين. هل هذه هي أزمة بكر؟ ربما، أرق حسن يزداد والفجر يقترب، وهوى تغط في نومها العميق، وشحتة أخته يتصاعد شخيرها من الحجرة المجاورة. يقوم، ليغتسل ويستعد لصلاة الفجر، اليوم سيصلي الفجر في المسجد على غير عادته،

يحب كثيرا مسجد المارداني القريب من بيته، مساحته صغيرة، أربعة أروقة لا أكثر، وهو يعرف فيه كثيرا ممن يصلون. يحتاج إلى أن يتحدث مع أحد، اي أحد.

***

وفي قولة كان الشوربجي جالساً مع أصفيائه ومنهم محمد علي يتحدثون عن الفرنسيس ونابليون الذي هبط بجنوده على أرض مصر. مصر في نهاية الأمر جزء من أراضي السلطان، وفيما تصلهم من أخبار، فإن السلطان يجهز جيشاً بمساعدة من الإنجليز يزحف برا عبر الشام، لكن هذا سيستغرق وقتاً ليس قليلا:

– هل تظن مولاي الحاكم أن السلطان سيستعين بنا في هذه الحملة؟ سأل محمد علي باهتمام ظاهر.

انتبه بقية الحاضرين لإجابة الحاكم، فأغلب الحاضرين في هذه القاعة الجنوبية من قصره من الضباط الكبار في حامية قولة، وقليل منهم من كبار التجار في المدينة، وعلى رؤوسهم سيتم هذا الأمر.

– لا أعلم نوايا الباب العالي، ولا كيف يدير الصدر الأعظم أمر مصر؟ لكني أظن أنهم يمكن أن يطلبوا منا عددا من الجنود، وربما يكتفون بالمال الذي يجب أن نكون مستعدين من الآن لتدبيره حال طلبه.

نظر محمد علي في وجوه الحاضرين، بدت في بعض هذه الوجوه حيرة لا يدري بواعثها، صمت استمر لثوان قطعه محمد علي بقوله:

- لو أذنت لي أن أقول رأيي، فإني أرى أن السلطان لو قرر أن يذهب بجيشه عن طريق الشام، ولو وجد في جنوده حول الآستانة وفي الشام ما يكفيه، فإنه لن يحتاج إلينا، أما إذا قرر أن يشن مع الحملة البرية حملة بحرية مرافقة، فاستعانته بنا لا مفر منها، وبخاصة أن ما يفصلنا عن مصر هو البحر فقط، وهو الطريق الأقصر إليها.

تمنى محمد علي في سره ألا يستعين السلطان بجنود قولة، لا يريد أن يترك تجارته في التبغ ولا أسرته، ولا هذا الجو الذي أحبه، "ما شأني أنا بمصر وما يجري فيها؟" هكذا ردد في نفسه ولفحة الهواء البارد تضرب وجهه وهو خارج من عند الشوربجي.

الفصل الثالث

يشعر سليم براحة كبيرة هذه الأيام، عمله مع الشيخ البكري، وقربه من الفرنسيس أتاحا له سعة من العيش لم يكن يتصورها. الحجرة المفتوحة على الطريق، والتي لها باب يربطها بالجزء الفرنسي من بيت الشيخ أصبحت هي عالمه النهاري، فيها يقضي أغلب وقته، وإليها يأتي الشيخ ليطلب منه أشياء، أو ليصحبه في زياراته المتعددة لسازي عسكر، أو للديوان الذي يحضره ثلة من الفرنسيس، وفي كل هذه الزيارات يؤدي سليم دورا لا يستهان به. الشيخ يطمئن له ولنواياه، ولاستقامته الظاهرة ولحبه العميق لبني جلدته: المصريين، وهي كلها عوامل وطدت ما بينهما، أما الفرنسيس فكانوا في مدى بصره واهتمامه. كان يلاحظ منهم

سلوكا فيما بينهم لم يلحظه في المماليك. الفرنسيس أقل صخبا وأكثر تماسكا في ردود أفعالهم، كما أن احترامهم الظاهر بعضهم لبعض يلفت نظره ويتعجب منه، حتى مراتبهم الدنيا من الجند تنال احتراما يليق بها. يسأل رفيقه الضابط الفرنسي الذي أخرج بكر من الحبس عن أسباب ذلك، فيعلل له الضابط بأنهم جميعا بشر وأخوة، وكل منا يؤدي عمله في خدمة فرنسا ومن أجل مجدها، فما الذي يدعوه لأذيته دون سبب أو حتى الحديث معه بترفع وتعال لا مبرر له. يخبره الضابط أن كثيرا من هؤلاء الجنود الذين تراهم لديهم شغف بالقراءة، وهم من أجل ذلك أقاموا bibliothèque لهم في حي الأزبكية، ولا يفهم سليم الكلمة، ولا يعرف لها مقابلا عربيا واضحا، فيفهمه الضابط أنها مكان يضعون فيه الكتب والطاولات، ويأتي الناس ليقرأوا مما فيها، ثم يتركوا الكتب قبل أن يخرجوا. أخبره الضابط أن بعض المصريين أتوا إلى هذا المكان وتحادثوا مع القائمين عليه، منهم الشيخ الجبرتي.

لا يفهم سليم سر ارتياب المصريين من الفرنسيس ولا رفضهم لهم، لم يكونوا أسعد حالا لما كان المماليك يسومونهم سوء العذاب: يقتلون أبناءهم ويستحيون نساءهم، ولم يكونوا أحسن حين كان الوالي بأوامر من الباب العالي يفرض عليهم ما يفرضه من فرد وإتاوات تحت مزاعم كثيرة كلها باطلة، فما أطعموا من جوع ولا

أمنوا من خوف، يبيت الواحد منهم ليله، فلا يعرف إن كان له نهار تال أم لا، ويصبح، فلا يدري كيف سيحصل على قوت يومه، فلماذا يكره المصريون ما أتاهم، لعله خير أريد بهذه الأرض وهم لا يفطنون.

إعجابه بالفرنسيس مقرون بما يحققونه على الأرض، وما يفعلونه من أجل أهله وعشيرته، ولم ير منهم حتى الآن ما يقلقه. يسيرون في الطرقات، يحاولون كسب ود الناس، ويشترون منهم ما يبيعون بأغلى مما تستحق بضاعتهم، وهم يعلمون ويسكتون.

يخبر حسن بهواجسه حين زاره في اليوم التالي لخروج بكر، جلس معه طويلا يجادله في ضرورة التعايش مع الفرنسيس. حسن الذي كان يعلم بطوية سليم وبمواقفه منهم، أزعجته في نبرة صاحبه حماسه الزائد لهم، ومخالطته إياهم على غير حاجة.

- لم أحدد لنفسي موقفا واضحا منهم حتى الآن، صحيح أنهم يحاولون استمالتنا، ويقولون لنا كلاما لا نفهمه عن ضرورة أن نحكم أنفسنا بأنفسنا، يبدو كلامهم جميلا، لكنه غير ممكن.
قال له حسن

- كيف ذلك يا صديقي؟ ألا يوجد من بيننا من هو غير قادر على تولي أمور وأحوال الناس؟

- ماذا تقصد بنا؟ من نحن؟

أعاد سليم سؤال حسن باستنكار واضح:

- من نحن؟ نحن المصريون، أصحاب البلاد الأصليون.

قابله حسن باستنكار مقابل:

- لا تعبث معي يا سليم، لا أظن أنك جاد فيما تقول، هل تظن أن من تراهم في الطرقات هائمين قادرون على حكم أنفسهم، ما القوة التي يستندون إليها في حكم أنفسهم، ولا تقل لي شيوخ الأزهر وبعض التجار الموسرين في مصر، قوة هؤلاء مرتبطة بمن يحكم وبمدى تأثيرهم في أتباعهم، وليست قوة سلاح. السلاح مع المماليك تارة، ومع الفرنسيس تارة، ومع السلطان والوالي تارة، وربما مع الإنجليز غدا، من يدري، ألم يكونوا هنا في الإسكندرية قبل شهور.

- ما الذي يضيرنا أن نستفيد من الفرنسيس لنتخلص من المماليك وربما من الباب العالي والسلطان نفسه، ثم يساعدوننا كي نحكم أنفسنا بأنفسنا، أتفق معك أنهم كلهم ظلمة وطامعون فينا، لكن الظلم والسوء درجات، وما رأيناه من الفرنسيس حتى الآن لا يقلقنا.

– لا أقبل ما تقول، ولا أرفضه. في نفسي شيء لا يريحني من كل ما يحدث.

يتركه حسن بعد أن دخل عليهما الضابط الفرنسي من الباب المتصل بالحجرة، ألقى تحية مقتضبة على حسن بالفرنسية، نظر إليه حسن نظرة باردة، ولم يرد عليه. ركب حماره متجها إلى الجامع الأزهر حيث الوقت يكفي للوصول قبل صلاة الظهر. بعد الصلاة لاحظ أن الأعداد تتزايد في الجامع على غير المعتاد في هذا الوقت من اليوم، الداخلون إلى الجامع كثر، وهم يتجمعون في دوائر حول من يعرف بعضهم، ومن لا يعرف الآخر، رأى وسط الجماعة الأكبر في صحن الجامع الشيخ عبد الله الشبراوي، ولاحظ في جماعة أخرى الشيخ سليمان الجوسقي شيخ طائفة العميان، وهم يصيحون في الناس مهددين الفرنسيس. كان يهم بالخروج عائدا إلى بيته، لكن حماسة الشيخ الشبراوي أوقفته، يعرف الشيخ جيدا، نسخ له عددا من الكتب قبل مجئ الفرنسيس، والشيخ يعرفه، لذلك آثر حسن أن يقف في موضع لا ينتبه إليه فيه الشيخ. الشيخ يصيح فيمن عدهم أنصاره "هل ترضون بالدنية في دينكم؟ هل ترضون أن يحكمكم هؤلاء الأنجاس الكفرة؟ هل ترضون أن تؤخذ أموالكم ليصرفها الفرنسيس على المنكرات والعاهرات؟ ألا تنتصرون لشريعتكم؟ شريعة الله التي نموت دونها؟ انصروا شرع

الله، اعلوا كلمة الله في الأرض، لقد وعدنا السلطان بخير كثير لولا أن هؤلاءِ المناكيد أفسدوا كل شيء، انصروا سلطانكم الذي يدعي هؤلاء الخنازير أنه معهم، ألا إنهم لكاذبون؟ السلطان لا يتحالف مع الكفار".

هياج الناس يشتد، وانفعالهم يزيد، وحسن واقف بينهم لا يدري ماذا يفعل. يعلم حسن بمحاولات كثيرة بذلها الشيخ الشبرواي من أجل أن يكون بين الشيوخ الذين اختارهم ساري عسكر نابليون في الديوان، أخبره الشيخ البكري بذلك حين وسطه لينقل رغبته إلى ساري عسكر، لكن الفرنسيس كان لهم رأي آخر لم يهتد إليه، لذلك بدا عجيبا منه هذا التحول الكبير في لهجته تجاه الفرنسيس، لكن الأكثر عجبا هو أنه رأى بكراً وهو ينضم إلى جمع الشيخ. لم ينتبه إليه بكر أول الأمر. أمسك حسن بذراعه يحاول أن ينتحي به جانبا، لكن بكراً رفض أولا مستمهلا إياه حتى ينتهي الشيخ، أصر حسن دون أن يترك ذراع صديقه.

جلسا معا في الرواق الذي شهد جلساتهم صغارا وهم يتلقون العلم بالأزهر، بعيدا قليلا عن صخب المتجمعين. أخبره حسن بما يعرفه عن الشيخ. بدت في ملامح بكر أمارات عدم التصديق. قال له حسن إن الشيخ الشبراوي يحرض على فتنة لا يدري عواقبها

– ماذا لو انتفض هؤلاء الناس وخرجوا يطلبون الفرنسيس؟

ماذا سيكون رد الفعل وقتها؟

- نحن لسنا قلة، والله معنا سينصرنا، هل يجب علينا أن نواجههم كما فعل المماليك؟ ماذا لو أتعبناهم، وحولنا إقامتهم في مصر إلى جحيم؟

شعر حسن بالقلق وهو يستمع إلى بكر، أحس أن في ذهنه خطة ما لم يشأ أن يخبره بها. بدا بكر أمامه في هذه اللحظة وكأنه حدد اختياراته، أراد استدراجه كي يكشف له عن طوية نفسه:

- كيف ستفعل ذلك يا بكر؟ وماذا تقصد بنحن؟

- ماذا أقصد بنحن! أقصدنا كلنا يا حسن أنا وأنت وعبد العال وجيراني وجيرانك. هل ترضى أنت بما تراه في العطوف والحارات منهم. هل رأيت النصارى وما يفعلونه مع المسلمين؟

- ما دخل النصارى بهذا الأمر؟

- هم الشوكة التي في ظهورنا، يجب أن ننتزعها، يجب......

لم يجد حسن فائدة في استمرار جداله مع بكر، الجموع التي تزداد بالوقت، الصخب الذي لا يليق بالمكان جعلاه يقرر الخروج، نظر إلى بكر نظرة أسى، واستحلفه أن يخرج معه، لكن بكراً أبى، فاقترح عليه حسن أن يلتقي به في دكانه ظهر غد، يصليان معا في السلطان حسن ويتناولان الغداء.

وجد بكر مفاجأة في انتظاره حين لاح له دكان حسن من بعيد، سليم جالس مع حسنٍ يتحدثان، بينما عبد العال يعابث إحدى النساء التي تبيع المخلل والباذنجان المقلي والفلافل على مسافة ليست ببعيدة عن الدكان. "ما اجتمعوا إلا من أجلي" قالها بكر لنفسه وهو يتقدم بخطى بطيئة ناحية دكان حسن. "ولو" وسوس بها. لام نفسه على الكلمة، هؤلاء هم ذخيرته في هذا الزمان الأغبر. لما رآه عبد العال، هلل: "أخيرا شرَّف المتعوس"، ضحك سليم وعقب "إذن أنت خائب الرجا". خلع بكر عمامته وألقاها في الدكان، واجه الثلاثة وهو يبتسم موجها حديثه إلى حسن "لم تقل لي إن هذين الشخصين سيأتيان، هل سيأكلان معنا أيضا؟"، رد سليم: "لا تخف يا سيدي، أنا أحضرت معي طعاما يكفيني وعبد العال". شعر حسن بارتياح لهذه البداية، أراد لجمعهم أن يظل ودودا لطيفا حتى نهايته، يعرف أنهم في هذا الوقت قلوبهم شتى، وطأة اللحظة شديدة، ومواقفهم منها متباينة، وقد تذهب بهم إلى حيث لا يرغب، وبخاصة بكر وسليم. كل منهما اختار لنفسه طريقا نقيضا للآخر. بدا عبد العال بالنسبة له غامضا، سأله حسن وهو يحضر الطعام الذي أعدته أخته شحتة من داخل الدكان:

– ما رأيك يا عبد العال؟

– رأيي في أي شيء؟ هل تقصد الأحوال الآن؟ ميت فل وعشرة.

حكى لهم عبد العال بتلقائيته المعهودة ما حدث له مع "أبو خشبة".

– ما أخذته منهم لم أحصل على مثله من المماليك، هؤلاء ناس أسخياء. حتى الآن لم نر منهم إلا كل خير.

احتد بكر عليه وكان يعلم بالقصة:

– لولا أنك صاحبي لقلت إنك بعت دينك بعرض من الدنيا قليل.

انتبه حسن إلى أن حدة بكر يمكن أن تفسد كل ما خطط له، وربما تعمق شروخا غير بادية حتى الآن في علاقات الأصدقاء الأربعة، فوجه كلامه إليه: صلى على النبي يا بكر، نتحدث، نعم، لكن لا ننفعل.

– هل يعجبك كلام هذا الأهطل؟

تدخل سليم: المسألة ليست أن كلامه يعجبنا أو لا يعجبنا، المسألة هي ماذا نفعل؟

رد عبد العال: أنا رأيت الحرب بينهم وبين المماليك في إنبابة، قوتهم ونظامهم لا نقدر عليها، لا المماليك ولا حتى السلطان نفسه يقدر عليهم، والمثل يقول اليد التي لا تستطيع أن تعضها، "بوسها".

التفت حسن إلى بكر وسأله: ما الذي في ذهنك يا صاحبي؟

ببساطة قال له بكر: نقاومهم، لا يمكن لهم أن يبقوا بيننا.

سأله حسن: لصالح من؟ من سيأتي بديلا عنهم، من الذي سيحكمنا؟

- السلطان، هل نسيت أن هذه بلاد السلطان، هو الذي يحفظ الإسلام، ويقيم شرع الله.

الحوار بين الأصدقاء يمتد، ثم يدور حول نفسه، ويتوقف، ثم تعلو الأصوات وتتغاضب، وفي كل انعطافة خطيرة يتوقفون حين يدركون أن ما بينهم أقوى من أي أمور طارئة حتى وإن كانت غزو الفرنسيس لمصر.

لم يستطع حسن ولا صاحباه إثناء بكر عما في رأسه، بدا صلبا غير قابل للاختراق وهو يستند إلى ما يظنه اليقين المطلق في مواجهة حقائق الواقع، "الله سينصرهم" الجملة التي تكررت بكثرة على لسانه نسي معها آية "وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة" في ظنه أنهم بمجرد ما يبدأون، فإن السلطان في الآستانة سيمدهم بجنود وعتاد تمكنهم من طرد الفرنسيس من مصر. فهم حسن من كلام بكر أن المماليك دسوا بين الناس من يحرض على إرهاق الفرنسيس وإتعابهم حتى تستحيل حياتهم في مصر، وأن السلطان أرسل رجالا للغرض نفسه، اتصل هؤلاء الرجال ببعض الشيوخ

الموتورين من الفرنسيس لسبب أو لآخر مثل الشيخ الشبراوي، هؤلاء يقومون بدورهم على أحسن وجه. معلومات كانت تتساقط من فم بكر دون أن ينتبه أقلقت الثلاثة. في نهاية حديثهم بدا عبد العال أكثر جدية مما يظن بقيتهم وهو يوجه كلامه لبكر "أنت وشأنك يا صاحبي، لكن لا تنس أن الذي يحمل قربة مخرومة ستخر أولا فوق رأسه".

***

بدا حسن متعبا مرهقا وهو يدق باب بيته، تفكيره في أحوال مصر، وقلة حيلته فيما يجب أن يفعله، بل أن يفعلوه جميعا زاده رهقا. فتحت له شحتة، تبين في ملامح وجهها غضبا لكنه لم يبال. لم تنتظر شحته حتى يسألها وهو لم يكن سيفعل على أي حال. أخبرته وهما داخلان إلى فناء البيت عن مقبولة الخادمة التي خرجت بأوامر من هوى ولم تعد حتى الآن. "تجاوز الوقت صلاة العصر والخادمة لم تعد بعد، هل يصح هذا؟ حتى أنا لا أعرف أين ذهبت". ربت حسن على كتف أخته "بسيطة يا شحتة، سنعرف حالا من هوى، الموضوع بسيط".

– لا شيء، أنا أرسلتها إلى زينب بنت الشيخ البكري.

أجابت هوى وهي تبتسم، أضافت قبل أن يسألها حسن: كانت قد طلبت أن ترى بعض "المكرميات" التي أصنعها، فأرسلت واحدة

مع مقبولة، الموضوع تافه لا يستحق الشكوى".

- نعم الموضوع تافه، لكن من حق شحتة أن تعرف. شحتة ليست ضيفة في هذا البيت.

مالت عليه هوى وقبلته على خده هامسة "سأعتذر لها، ولن أكرر ذلك مرة أخرى". أثارته حركتها وهيجت ما هو نائم لديه. فهمت، فتراجعت قائلة "في الليل، في الليل، عندما ينامون".

وفي الليل كان جان بول يستولي على كيانها، صعدت معه وهبطت، مالت واستمالت، ملمس يديه، ونظرة عينيه، ورقة صوته، حلقت معه إلى عوالم أسطورية ودروب من بهجة غير مألوفة، كتمت شهقتها مرة، ومرة، وحين همدت شعرت بقبلة حسن على خديها امتنانا بهذه الليلة الاستثنائية.

***

يستيقظ عبد العال من نومه متأخرا، لا تجد فاطمة زوجته داع لأن توقظه مع وقت الفجر، تعلم أنه لا ينتظم في صلاته، غيرها، تحرص على الصلاة في وقتها، وتود لو فعلت ذلك في المسجد لولا أنه أمر غير مألوف في مصر. تحاول ألا تزعجه، فتخرج لتجالس توحيدة زوجة بكر في فناء البيت مع النسوة المستيقظات في ذلك الوقت من اليوم، وحين يعلو صوتهن يقوم عبد العال،

وبعد أن يمارس طقوسه اليومية، يخرج ليبحث عن رزقه ورزق زوجته وابنته. وجد عبد العال ضالته في هذه الأيام مع الفرنسيس منذ أن استعانوا به لحمل أغراض "أبو خشبة"، يعود إليهم بين الفينة والأخرى، فيعاونهم مرة، ويجالسهم دون عمل مرات حتى ألفوه، وأصبح جزءا من ملامح المكان، واجه في أول الأمر مشكلة التواصل معهم، لكنه في النهاية وجد صيغة للتفاهم، هي مزيج من عربية وبضع كلمات فرنسية ينطقها بطريقة شديدة الركاكة وإشارات باليد والوجه وربما بالأقدام.

أكثر من ارتبط بهم من الفرنسيس كان أبو خشبة نفسه، الرجل لم يكن ضابطا فقط بل كان مهندسا، هذا لم يفهمه عبد العال، ولم يستوعب أمورا كثيرة يقوم بها الرجل، حاول في مرات كثيرة أن يسأله عن اسمه في اللحظات التي يجد فيها مزاجه رائقا، فكان يتراجع العلاقة بينهما لا تتجاوز علاقة السيد بالخادم، لا يبدأ معه حديثا ولا يجوز، فهم ذلك من اللحظات الأولى التي أصبح فيها جزءا من المكان، لذلك أحبه الفرنسيس، واطمأنوا له.

طلبه أحد الضباط الفرنسيس مرة أن يذهب معه إلى الأزبكية، سيحمل عنه بعض الأغراض من بيت مصطفى كاشف، لكنهم سيمرون أولا على بيت ساري عسكر ليأخذوا منه أغراضا أخرى. أجولة متوسطة الحجم بها تراب أسود شديد النعومة يراه

عبد العال لأول مرة، عشر أجولة حملها على حمار عجوز سار به مع الضابط الذي كان يركب حماراً آخر. اخترق الاثنان شوارع الدرب الأحمر بعيدا عن بيت عبد العال في الجهة الجنوبية، لم يكن يتمنى لأحد يعرفه أن يراه وهو يسير بجوار الضابط ممسكا بلجام الحمار وبخاصة بكر أو جسن، لكن من رآه هو أحد جيرانه في لحظة كان فيها بعيدا عن الضابط، سار معه جاره يستفسر منه عما يفعل، ولما أنس منه عبد العال رغبة في العمل، استأذن الضابط أن يكون معه حتى الأزبكية، لا تسل الآن كيف استطاع عبد العال أن يبلغ الضابط هذا الكلام، فهذه من أسراره وقوته، تفرس الضابط في وجه الجار، وبعد هنيهة أوما له برأسه أي موافق.

عند بيت الألفي، أشار الضابط لعبد العال أن يقف فلا يدخل معه، وقف الرجلان تحت ظل شجرة أمام البيت يشاهدان الجنود الفرنسيس في حركتهم ونشاطهم وانتظامهم الذي لم يألفوه مع جنود الإنكشارية أو حتى جنود الوالي، ما أدهشهما أن الجنود لم يقتربوا منهما بسوء، أو حتى يسألهما أحد عما يفعلانه في المكان. لم يمر وقت طويل حتى خرج الضابط ومعه آخر، شاهدهما عبد العال وجاره وهما يشيران ناحيتهما، ولما اقتربا طلب الضابط الآخر من جار عبد العال أن يبقى معه، سأله بالعربية إن كان يود أن يعمل، فأجابه الرجل بنعم. ترك عبد العال جاره واتجه مع الضابط غربا، مرا في هذه الأثناء على قنطرة المغربي الآيلة للسقوط. أشار

الضابط إلى القنطرة والمكان كله وقال لعبد العال: "هنا فيه شغل كثير". لم يفهم عبد العال ماذا يعني، لكنه هز رأسه دلالة الفهم.

بجوار القنطرة استدار الضابط يمينا في طريق كثيف الأشجار، وبعد مسيرة دقيقتين وقفا أمام بيت عثمان بك الأشقر الذي هجره أهله بعد دخول الفرنسيس. دخل الضابط أولا، ثم تبعه عبد العال، لم يكن عبد العال مدركا لطبيعة المكان الذي أصبح الآن في فنائه الداخلي وأشجاره الجميلة، لكن من زآهم في هذه اللحظة بضع أفراد فرنسيين يدخلون ويخرجون من حجرات بعضها يطل على الفناء، وبعضها الآخر يمتد فيما وراء.

لا يشعر عبد العال بقلق من المكان ولا الناس، لكنه شعر برهبة، وبخاصة في هذا الصمت الذي يتحرك فيه الفرنسيس، صمت لا يقطعه سوى صوت آت من الداخل، لم يكن صوت إنسان، صوت كأنه صوت أحجار تساقط بانتظام، وحين دخل المكان، ورأى مصدر الصوت ازداد الأمر عليه التباسا. خمسة من الفرنسيين متحلقون حول شيء في وسط الحجرة، استطاع عبد العال أن يميز فيه عمودين خشبيين عريضين وسميكين موضوعين بإزاء بعضهما، ويربطهما من أعلى لوح خشبي ثالث سميك أيضا، وفي الفراغ ما بين العمودين شيء يشبه "التختة"، لكنها ليست هي، موضوعة بطريقة تجعلها مع العمودين تشبه الصليب، يتحرك من

تحتها صندوق مربوط من أسفل اللوح السطحي للتختة يبدو أنه هو الجزء الأهم في هذا الشيء، ثم يأتي آخر بكرة جلدية عليها شعر أسود وما ظنه عبد العال "هباب"، ويلوث سطح الصندوق به، ثم يضع ورقة بيضاء فارغة على لوح في طرف التختة، ثم تسحب لتوضع على الصندوق المتحرك، ثم يسحب الاثنان إلى ما بين العمودين حيث هناك شيء يرتفع ثم ينخفض ضاغطا على اللوح الذي تحته الورقة، وحين يرتفع مرة ثانية يسحب أحد الفرنسيس الورقة، فإذا هي تحوي أسطرا مكتوبة. اقترب عبد العال أكثر من هذا الشيء، ولاحظ انهماك الفرنسيس في عملهم حتى أنهم لم يلتفتوا إليه، بله لم يكلف أحدهم نفسه أن يشرح له ما يرى. اقترب عبد العال أكثر من الأوراق فوجدها تحوي سطورا مكتوبة بلغة خمن أنها لا بد أن تكون الفرنسية. عبد العال وجد هذا عجيبا، لم يسمع به من قبل، واستطاع في ثوان أن يربط بين ما يراه وحسن. "حسن لا بد أن يرى هذا الشيء، سيفيده جدا".

***

لا يفهم حسن سر هذا الشرود الذي أصبحت عليه هوى، يظن أن هوى بعد هذه الليلة الاستثنائية ستعيد معه ما كان بينهما في الأيام الخوالي قبل بضعة أعوام. لكنه يتوهم. تحادثه في أمور البيت، وربما في الأحوال العامة، لكنها ليست هي التي عرفها من قبل،

تحاول أن تكون لطيفة رقيقة، وتتقرب من شحتة، وتزداد عنايتها بابنهما، لكن أمرا ما يحول بينه وبينها، أشياء صغيرة بسيطة كانت تقوم بها معه، كفت عنها، وحين يلفت نظرها تتعلل بتعكر المزاج، أو بالأحوال في مصر، أو، أو.... يبيت مسهدا، يصبح متعبا، وذهنه مشتت، ولا يدري أيهما أشد وطأة عليه: ما يحدث من هوى في البيت أم ما يحدث خارجه.

***

وفي بيت محمد علي الذي شهد مولده، كانت ماه دوران تجلس في حجرتها التي تطل على البحر مباشرة في الركن الأقصى من البيت بعيدة عن حجرة أمينة، تجلس في حجرها توحيدة الطفلة التي جاوزت الآن الشهور العشر، تحاول أن تعلمها بضع كلمات، وتمشط شعرها، وتغني حين دخل عليها إبراهيم بن محمد علي فجأة، لينتزع الطفلة منها، وينظر إليها بغضب دون أن يتكلم. لايستطيع إبراهيم أن يبوح بما في نفسه تجاه هذه المرأة التي تشاركهم في أبيهم، يعلم أن أباه لن يغفر له زلة لسان تجاه زوجه، يود هو أن تخرج هذه المرأة من حياتهم، أن تموت، ولا تقترب من أحد منهم، يشعر بغيظ واحتقان كبير وهو يرى أباه يبيت أحيانا في حجرتها، ولا تظهر أمه شكوى ولا تتذمر، بل تبدو مرحبة بهذه المرأة، وأبوه الذي يفضل أخاه الأوسط طوسون لا يلتفت إليه كثيرا، بل

لا يلتفت إلى هذه الطفلة التي أصبحت أقرب الموجودين في البيت إلى إبراهيم، يرى أباه وهو يحملها، وأحيانا يقبلها، لكن مشاعره تجاه طوسون لا يستطيع أن يداريها، ولا يعلم إبراهيم لذلك سبباً.

الفصل الرابع

يوم مشمس آخر من أيام مصر، الوقت في الخريف، لكن الصيف كأنه لم يغادر الناس بعد، صحيح أنه لا يمارس سطوته التي مارسها قبل شهرين أو ثلاثة من اليوم، لكن الجو حار، وزحمة الناس في الطرقات الضيقة في حواري الموسكي والغورية وحول باب زويلة زادت من إحساسهم بالحر وضيقهم، الناس تبيع وتشتري، والأطفال يلهون هنا أو هناك، والباعة في حوانيتهم لهم ألف عين وعين خوفا من أن تمتد يد إلى بضاعتهم المعروضة خارج أبواب الحوانيت. الناس في حالة من الرضا، أو هكذا أرادوا لأنفسهم أن يظهروا، بدأ الفرنسيس يتحولون بمرور الوقت إلى أن يكونوا جزءا من حقائق الحياة على أرض مصر، ووجد بعض الناس معهم طريقة للتعايش

لا تنكد على الطرفين ما يريدونه من هذه الحياة.

بضع جنود من الفرنسيس ومعهم عبد العال يتجولون في نواحي المناطق القريبة من خان الخليلي والموسكي، ثم يقفون عند الزوايا أو أماكن تجمع الناس في الحوانيت الكبيرة، وأمام المساجد، ويلصقون أوراقا على الجدران، بعض من كان يحسن القراءة من المصريين يحوقل، ثم يدعو الله لاعنا الفرنسيس ومن والاهم، وحين يعرف الناس ما احتوته هذه الأوراق يتصايحون غاضبين شاتمين، ويخصون في شتيمتهم ساري عسكر وأبو خشبة، لماذا أبو خشبة؟ لا أحد يدري.

في اليوم التالي، بكر جالس في مقعده الأثير في دكة المبلغ في مسجد الغوري، يقرأ القرآن بصوت عال، يسمعه بعض من اتخذوا المسجد مكانا للراحة في الأسفل، الوقت قبيل الظهر بساعة أو حواليها، حين اقتحم المسجد شخص لم يره بكر، بل سمع صوته وعرفه، أحد أتباع الشيخ عبد الله الشبرواي يطلبه بالاسم، ختم آيته التي يقرؤها، ثم هبط إلى الرجل وجلاً.

– ماذا وراءك؟

– الشيخ يريدك حالا.

الشيخ عبد الله الشبرواي جالس في الركن الأيمن من صحن

الجامع الأزهر يتحلق حوله جمع غفير، لما رأى بكر داخلا أشار إليه بيده أن يكون بجواره. الشيخ يتحدث عن "الفردة" التي قررها الفرنسيس على الأملاك في سائر مصر، لم يستثنوا منها عقارا أو محلا أو حماما أو خانا أو معصرة أو وكالة أو حانوتا، كل سيدفع بحسب اتساع عقاره أو ربحه منه أو خساسته أو ارتفاعه، الشيخ يمسك بورقة كانت ملصقة على الحانوت المواجه للجامع الأزهر من الجهة الغربية، يقرأ منها، ثم يلوح بها أمام الناس "ماذا يريد منا هؤلاء الكفرة؟" ألا يكفهم أنهم استولوا على كل بر مصر، وعطلوا شرع الله، ألا يكفهم أنهم جعلوا أراذل الناس من القبط والأروام في مكانة عالية؟ إنهم يسرقون قوتنا، ويريدون لنا ألا نجد ما نطعمه أو نطعم به أولادنا، والله لا نعيش على هذه الأرض يوما إن رضينا بهذا الذل".

خطبته الحماسية ألهبت حناجر المتحلقين حوله، فتنادوا إلى الجهاد. لما شعر الشيخ بأنه ملك زمامهم، صاح بهم ثانية بأن مكانهم ليس هنا، عليهم أن يخرجوا في الطرقات، وأن يعلنوا عن رفضهم للفرنسيس بكل السبل، بالسلاح إن أمكنهم ذلك. قام الشيخ، وسحب معه بكر، وقام معه أغلب الجمع خارجين من الأزهر في حشد تكاثر بمرور الوقت. وأمام الجامع طلب الشيخ من بكر ألا يترك هؤلاء الناس تنصرف دون أن يطمئن إلى أن الفرنسيس

تراجعت عما أعلنته، بكر بصوته الجهوري قادر على يضمن لحماسهم أن يظل عاليا. اتجه الجمع إلى مسجد الحسين، بينما اتجه الشيخ إلى منزله.

لم يختلف الحال كثيراً حول المسجد الحسيني عن الأزهر، مجموعات من البشر متجمعة في حلقات ولا هم لها إلا الفردة الجديدة التي قررها ساري عسكر، صياح الناس وجلبتهم امتدت عدواه في الأنحاء. لا يحتاج بكر إلى أن يثير حماس الناس ضد الفرنسيس، لكنه يحتاج إلى أن يطور هذا الحماس إلى فعل.

هو وبعض رفقائه في هذا التجمع خلصوا بأنفسهم في ركن من المسجد الحسيني، واتفقوا على أن يتجمعوا في الغد بعد أن يأتي كل واحد منهم بما عنده من أسلحة، وأن يدعو في ذلك غيرهم. لكن ماذا سيفعلون بعد ذلك، تركوا هذا لحركة الناس ومدى حماسهم.

***

في الصباح، لم يستطع بكر أن يقنع عبد العال بأن ينضم لهم، "ما شأني أنا وهذه الفردة التي قررها الفرنسيس، لست صاحب حانوت أو حتى تابوت حتى يأخذوا مني شيئا"، حاول عبد العال في المقابل أن يثني بكر عما في رأسه "ما الذي يضيرك من الفردة، أنت مثلي لا تملك من الدنيا غير ملابسك، فما الذي تفعله؟ أو ما الذي تنوي أن تفعله؟". لم يشأ بكر أن يحتد عليه، أو أن

يحاججه، ويواجهه بحديث رسول الله "من لا يهتم بأمر المسلمين فليس منهم"، لام نفسه على أن فاتحه، نظر إليه نظرة غاضبة، ثم قال: ما الذي كنت أتوقعه منك غير ذلك يا فالح، اجلس مع النساء، وخذ بالك منهن، لو كنت تستطيع". لم يكن عبد العال يتصور أن الأمور ستؤول إلى ما آلت إليه في هذا اليوم واليوم التالي، وإلا لم يكن يترك صديقه يذهب، حسبه حينئذ أنه سيفرغ شحنة غضبه في الأزهر أو في الغوري كما يفعل كثيرا، ثم يعود آخر النهار مهدودا فاقدا للنطق.

***

هوى على موعد مع زينب في هذا اليوم، لم يشأ حسن أن يرفض لها طلبا عسى أن تلين، اقترح أن يصحبها إلى بيت الشيخ البكري، ثم يعود ليأخذها قبيل صلاة العصر، فوافقت، صحبتها مقبولة الخادمة، فلم يعترض حسن، "شحتة في البيت وستتولى كل شيء فيه".عند الباب وجد بكر آتيا إليه، سارا في المقدمة وفي الخلف المرأتان.

– ما الذي وراءك يا بكر؟

– بل ما الذي وراءنا يا جسن؟ لماذا خرج أهل بيتك اليوم؟

رد حسن باستغراب: لماذا؟! ما الفرق بين اليوم وأي يوم؟

– كأنك لم تعلم ما قرره الفرنسيس على الناس؟

– أعلم، وقد ذهبت إلى الشيخ الشرقاوي بالأمس مع جماعة من أصحاب الحوانيت ورفعنا مظلمة إلى ساري عسكر.

– كأنك أيضا لا تعلم ما فعله الناس بالأمس في الأزهر والحسين.

– أعلم أيضا، ولا أشك أنك كنت موجودا بينهم، هذه هي الأجواء التي تعجبك.

– يا حسن الأمر جد هذه المرة، ويجب ألا تتخلف

– أتخلف عن ماذا؟ لا تقل لي الجهاد والحرب والسلاح وقتال الفرنسيس.

– بل هذا هو، لكنك كما أنت، ولن تزحزحك الجبال. كنت أظن أنك صاحب مصلحة في الانضمام إلينا.

بعد أن تجاوزوا باب زويلة، وعبروا إلى جامع الغوري، رأوا جميعهم تجمعات قليلة من الناس تتجه صوب الأزهر، آتية من الحسينية، الوقت مبكر، حوالي الثالثة بعد شروق الشمس، تجمعات لم تقلق حسن على ما انتواه مع هوى، نظر إليه بكر وقال وهو يشير إلى الناس، "هؤلاء هم المقدمة فقط" انتظر حتى الظهر وسترى من أمر المسلمين عجبا". كانا قد تجاوزا الحسين في هذا الطريق الضيق الذي يفصله عن خان الخليلي، لم يجد بكر فائدة أن يستمر

معه، لديه من المهام الكثير، تركه عائدا إلى الأزهر، بينما أكمل حسن وهوى الطريق إلى بيت زينب.

***

– لماذا تأخرت حتى اليوم يا هوى؟ جان بول يسأل عنك كل يوم.

بادرتها زينب، بعد أن طلبت من مقبولة أن تغادر إلى جناح الخدم. تلعثمت هوى وهي ترد على زينب: ماذا يريد مني؟ ألم تخبريه أنني متزوجة؟

– أخبرته، لكن ماذا أفعل معه وهو يلح كثيرا. إنه ينتظرك في الأسفل.

– أنا خائفة يا زينب.

– ممن؟ لا أحد في هذا الجناح يعلم ما نفعل

باغتتها جرأتها وصراحتها، ماذا عن أبيها وأمها؟ ماذا عن بقية من في البيت، كيف تستطيع زينب التحايل على كل من حولها؟ وهل سيظل أمرها في طي الكتمان؟ أسرت لها بكل ما في نفسها، تريد أن تطمئن إلى شروط وقيود العالم الجديد المقبلة عليه. لاح لها طيف حسن من بعيد، زوجها مدله بها، لكنها لا تدري لماذا هذه الحواجز قائمة بينها وبينه؟ لا تحبه، ربما، لكنها لا تكرهه. كانت

تعشقه حين تقدم للزواج منها، وبعد أن تزوجا، وحتى أن انجبت ابنهما الوحيد، ثم ماذا؟ لا تدري. هزت رأسها كأنها تريد أن تطرد هذه الهواجس والوساوس التي ستفسد عليها اللحظة. طلبت من زينب أن يجلسا قليلا، يتحدثا علها تستطيع امتلاك الشجاعة للنزول إلى جان بول. تفهمت زينب موقفها، خرجت، ثم عادت لها بشراب البنفسج دافئا، "سينعشك، ويقوي قلبك" أضافت زينب "هل أحضر لك قهوة". شكرتها هوى.

– لا تخافي يا هوى، أنا أحتاط لكل شيء.

وحده في الغرفة حين هبطت إليه هوى مع زينب، عند الباب تركتهما زينب عائدة من حيث أتت. وجيف قلبها لديها أعلى من كلمات الترحيب التي استقبلها بها جان بول. الغرفة واسعة بها شباكان يطلان على حديقة داخلية، ولها بابان أحدهما الذي هبطت منه من أعلى، والثاني لا تدري إلى أين. بضع كراس و"تختة" كان جالسا عليها في اللقاء الأول عليها أوراق وأقلام، وأرفف موضوع عليها كتب.

– أخاف أن يأتي أحد ويرانا.

– لن يأتي أحد، كلهم مشغولون بالخارج، وهذه الحجرة منسية تقريبا.

اعتذر لها جان بول عن عربيته التي ربما لن تسعفه في بعض الجمل، حكى لها عن حياته في باريس، وكيف تعلم العربية وشغف بها، وسألها عن أحوالها في مصر، وكيف تعيش. انجذبت له برقة حديثه وطوله الفارع واستقامة جسمه بمنكبيه العريضين، وولهه الظاهر بها، ولمعة عينيه، أثارها كل هذا، فكانت مستعدة في هذه اللحظة أن تعطيه كل شيء، تماسكت، وبادلته حديثا بحديث، وظهر منها ما كان طاويا: قدرة على الجدال، ورغبة دائمة في الانتصار على محاورها. بدت له امرأة في قالب من السحر، فلا هي شرقية بعقلها الاستثنائي، ولا هي غربية بأنوثتها وغوايتها الظاهرة، في لحظة انتبهت هوى إلى نفسها، قامت واقفة، شعرت أنها جلست أكثر مما ينبغي، أمسك جان بول بيديها، ورفعهما إلى شفتيه، ثم انحنى ليلتقيهما في منتصف الطريق في موازاة صدرها تماما، قبلهما، ثم اقترب منها وطبع قبلة على خدها. فاجأتها جرأته، لكنها صمتت، شعرت لحظتها أنها لا تستطيع السيطرة على نفسها، بل لن تستطيع إكمال طريقها إلى الأعلى. استدارت لتخرج، لكن جان بول أمسك بيدها مرة أخرى: متى سأراك؟

– لا أدري، ستخبرك زينب، لكني لن أغيب عنك.

***

حسن جالس على باب حانوته مع بعض جيرانه من أصحاب

الحوانيت. الوقت ظهر حين رأى تجمعات الناس تزداد حول جامع السلطان حسن، تجمع لا يألفه في هذا الوقت من اليوم، لاحظ أنه كلما يتجمع حوالي العشرة في المكان يغادرون متجهين إلى سوق السلاح حيث الطريق إلى الأزهر غالبا. ما أقلقه أنهم كانوا يحملون في أيديهم العصي والشوم والخناجر والسيوف، وقلة منهم من تحمل بنادق لا يدري من أين أتوا بها. "إذن ما قاله لي بكر صحيح، وإذا كان الأمر بهذه الصورة، فلابد أن آتي بهوى الآن" هذا ما شغله في اللحظة. "هوى ستكون في خطر، في هذا المكان البعيد، وهي في بيت الشيخ البكري حيث سيكون هدفا لهؤلاء". قر عزمه على أن يصلي الظهر، ثم يذهب لإحضارها قبل أن تتفاقم الأمور.

لكن الأمور تفاقمت بأسرع مما خطط ونوى. لما وصل قرب الأزهر وجد آلافا يسدون المساحة ما بينه وبين الحسين، وصلت أصواتهم إليه وهو قريب من مسجد الغوري، هتاف واحد يكاد يغطي على ما عداه "نصر الله دين الإسلام". تمتم في نفسه "هذه فتنة لعن الله من أيقظها، إلى أين يؤدي بنا هذا الغضب الظاهر، أتمنى من الله أن تنتهي الأمور على خير". لم يشأ حسن أن يقترب أكثر من الجمع، تحاشاهم واتجه يسارا في دروب خان الخليلي موليا شطره بعد ذلك إلى الشمال حيث هوى في بيت الشيخ البكري. لكنه لم يكد يسير بضع دقائق، وقبل أن يقترب من جامع السلطان قلاوون حتى تجمد في مكانه، لم يستطع أن يتقدم بعد ذلك خطوة. رأى أفواجا

من البشر تخرج من الحواري الضيقة والعطوف رافعة عصيا وشوما وسيوفا وبنادق تجري في اتجاه بيت القاضي القريب من "بين القصرين"، أرادوا اقتحامه فلم يتمكنوا، وأراد قاضي عسكر الفرنسيس أن يهرب فلم يتمكن، بدأت هذه الجماعات الغاضبة ترجم البيت بالحجارة أولا، فرد بعض الجنود من الداخل عليهم بإطلاق البنادق في الهواء، فلم يرعو الناس، بل ازدادوا غضبا، ثم بدأ بعض من يحمل منهم البنادق بإطلاق النار على البيت دون أن يصيب أحدا. في هذه الأثناء حضر بعض الفرسان من الضباط والجنود من الجهة الشرقية قاصدين بيت القاضي، ولما رأوا الجمع الغفير تراجعوا إلا أنهم ووجهوا بإطلاق النار من بنادق المسلمين، فقتل منهم عدد كبير. بادلوهم إطلاق النار، وقتلوا منهم أيضا عددا.

لم يستغرق هذا الأمر إلا حوالي الساعة، لكنه لم يكن إلا بداية لأحداث أشد هولا في الساعات التالية. حسن شاهد ما جرى، لكنه لم يكن طرفا، أحس وقتها أنه لا بد أنه يذهب إلى الشيوخ: الشرقاوي أو البكري عسى أن يجدوا حلا لهذا الجنون، لكن عليه أن يأتي بهوى أولا.

في وسط الجموع المغبرة المنهكة وقف، أصوات كثيرة تهلل وتبشر بالنصر القادم، وأخرى تبكي على قتيل تحسبه شهيدا عند الله، وثالثة تدعو الواقفين إلى تنظيم الصفوف والاستعداد للمواجهة

التالية. تراجع الفرنسيس إلى معسكراتهم آخذين قتلاهم وجرحاهم. وبدأ يظهر قرب بيت السحيمي على البعد عدد منهم يحمل بنادقه في استعداد لقتل من يقترب.

"لن أستطيع الوصول إليها"، شعر بالأسى وهو يصل إلى هذه النتيجة، كل الطرق إليها مسدودة، كان على استعداد أن يجازف بحياته في هذه اللحظة ليراها، ويطمئن عليها، سيشعرها بمدى حبه لها، وبأنها الدنيا التي يعيش فيها، والهواء الذي يتنفسه، يمني نفسه بأنها حين تراه في لحظات الخطر هذه، وحين تعلم بمجازفته من أجل أن تعود إلى بيتها، ستذيب جليدا غير مرئي بينهما، وستعود إلى ما كانت عليه: هوى التي هام بها عشقا.

لام نفسه على وساوسه. إنه يقف فعلا في قلب معركة حقيقية بين المصريين والفرنسيس، أي عبث هذا الذي يستولي عليه؟ إنها مجرد امرأة ليس إلا، وهؤلاء بشر يموتون من أجل ما يظنون أنه نصرة لشرع الله، أيهما أولى بالتفكير. نعم هي امرأة، لكن ليس كمثلها امرأة. إن عقلي مع هؤلاء الواهمين أمامي، لكن قلبي هناك في بيت الشيخ البكري".

***

عندما ترك بكر حسن في الصباح، اتجه صوب الأزهر حيث التقى مرة أخرى بالشيخ الشبرواي، لم يكن وحده في هذه الأثناء، بل

كان معه أيضا الشيخ يوسف المصيلحي والشيخ إسماعيل البراوي والشيخ أحمد الشرقاوي والشيخ سليمان الجوسقي وآخرين لا يعرفهم بكر. اختلف الجمع على الخطوة القادمة التي ينبغي أن يقوموا بها، هم لا يدرون عدد من سينضم إليهم، وما إذا كانوا سيحملون سلاحا أو لا؟ وهل سيكفي سلاحهم لمواجهة الفرنسيس؟ وماذا عن العون الذي وعدنا به المماليك؟ وأين السلطان مما يحدث؟ وإذا استوثقوا من كل هذا، فماذا هم فاعلون على الأرض؟ اتفق أغلبهم على أن يبدأوا بحصار بيت القاضي، ثم ينتقلوا إلى الأزبكية إن أمكنهم ذلك، حيث تجمع الفرنسيس الكبير، وحيث بيت ساري عسكر بونابرته. أحد الشيوخ تشكك في هذه الخطوة، فقوة الفرنسيس لا يستهان بها، والشهداء من المسلمين سيكونون بالمئات وربما الآلاف، لكن الشبراوي رد بأنهم لن ينتقلوا من بيت القاضي إلى الأزبكية إلا بعد أن يأتيهم العون بالسلاح والرجال من المماليك خارج مصر. "لكن علينا أن نبدأ أولا".

صلى الجميع الظهر بالأزهر، ثم تنادوا للجهاد، فاتجهت الجماعة الأكبر إلى بيت القاضي حسب الخطة، بينما قاد بكر جماعة صغيرة إلى حارة الجوانية. كان ظنه أن الطريق الطويل إلى الحارة سيحشد له عددا أكبر يستطيع به إخراج المتعاونين من القبط والأروام مع الفرنسيس في الحارة، لكن من انضم للجمع كان له أرب آخر، فوجئ بكر عند الحارة بأن كثيرا ممن انضموا إليه لم يكن همه

إلا السلب والنهب، وليس هناك فرق في هذا بين حانوت أو بيت لمسلم أو نصراني، حتى النساء لم تسلم من أيديهم. ما أراده بكر لم يستطع أن ينجزه، كبار القبط والمتعاونون فعلا مع الفرنسيس تركوا الحارة، واتجهوا إلى بيت يعقوب القريب من بيت ساري عسكر، أما من بقوا في الحارة، فهم من لا حول لهم ولا قوة.

في تلك الأثناء، عبد العال موجود بالدرب الأحمر مع "أبو خشبة" في البيت الذي اتخذه سكنا له ومكانا للعمل، لا يدري حجم الهول القادم في هذا اليوم. كلفه أبو خشبة أن ينظف بعض الأدوات والآلات والنظارات والأواني، فاختار أن يجلس بها في حديقة البيت في ظل إحدى أشجارها، شدد عليه الرجل أن يحافظ على كل قطعة فيها، فيعيدها إلى مكانها كما كانت. عبد العال يريد أن يفهم فيما تستخدم هذه الأشياء، لكن لغته لا تسعفه في السؤال، لكنه حتى إن استطاع أن يسأل، لم يكن واثقا من الفهم.

وقت الظهيرة وصل إليه صوت الآذان، فلم يبال كثيرا، "سأصلي بعد أن أنتهي من التنظيف". انهمك في مهمته وهو يمني نفسه بمكافأة كبيرة، لكن دقاً متواصلا عاليا على الباب أفزعه وأخرجه من خواطره، قام مسرعا ليفتح، فإذا سبعة جنود يهرولون إلى الداخل، سأله أحدهم: أين الضابط كفرللي؟ أشار بيده إلى حجرة تطل على الحديقة: هناك. دخل اثنان منهم، بينما بقي الخمسة غير

بعيدين عنه. لم يبال عبد العال في البدء بما رآه، ولم يربط بينه وبين ما شاهده وهو قادم إلى المكان، لكن كفرللي خرج بعد دقائق مع الاثنين، ثم طلب منه أن يدخل هذه الأدوات بسرعة، ولما أفهمه عبد العال أنه لم ينته بعد، قال له الجندي الذي سأله أولا، ليس مهما، ادخلها بسرعة. لم ينتظر الجنود أن يقوم بالمهمة وحده، بل حمل كل منهم ما استطاع أن يحمله إلى الداخل. لكن هذا التدبير لم يمنع شيئا مما حدث بعد لحظات.

أفواج من البشر حاصرت البيت، وبدأت تهدر بأصواتها التي أصمت الآذان، في هذه اللحظة استوعب عبد العال المشهد كاملا، وبدأ يتذكر بكراً وحوارهما العنيف في الصباح. "ماذا يريد هؤلاء الواقفون في الخارج وليس في البيت ما يغري بالأخذ؟ وإذا دخلوا، ماذا أنت فاعل؟ وجد نفسه في لحظة فارقة، "لو تأخروا قليلا، لكان ذهب دون عناء، وليحدث للطرفين ما يحدث. لكنه الآن هنا، ولن يستطيع الهروب، لكن ماذا لو كان بكر بين الجموع في الخارج؟" لم تتركه الأحداث يسترسل في كوابيسه، إذ بدأ من في الخارج يلقي بالأحجار في الحديقة، ثم بدأ خبط شديد على الباب تلاه صوت قرقعة شديدة جراء سقوط الباب على الأرض، الجنود في هذه الأثناء في وضع استعداد لضرب النار، ولما وجد عبد العال نفسه محاصرا بين الطرفين جرى إلى الداخل مختبئا مع "أبو خشبة".

لمحه أحد المهاجمين، فصاح: نصراني، نصراني معهم، اقتلوه. لم يكمل الرجل جملته حتى استقرت رصاصة في رقبته، تلاه رجل آخر بجواره، ثم ثالث، فاشتد هياج الناس، أدرك الجنود أنهم لن يستطيعوا مواجهة كل هذا الحشد، فتراجعوا إلى الداخل، لكن الناس أمسكوا بثلاثة منهم، فأوسعوهم ركلا وضربا، وأوقعوهم على الأرض وداسوا عليهم حتى أزهقوا أرواحهم، بينما استطاع الأربعة الآخرون ومعهم عبد العال وأبو خشبة أن يهربوا من الفناء الخلفي، حيث تسلقوا سورا متوسط الارتفاع، اختبأ عبد العال وأبو خشبة في بيت قريب، وجرى الجنود صوب القلعة.

لم تجد الناس ما كانت تأمله في البيت، فحطموا ما استطاعوا تحطيمه، وحملوا معهم ما استطاعوا حمله من أدوات دون أن يدروا أي منفعة لهم فيها. خلو الدار عليهم أشعرهم بالأمان، فبقوا فيه أكثر مما ينبغي، وهذا الذي أدى بهم إلى مقتلة عظيمة، إذ جاء الفرنسيس بعد حوالي الساعة بجمع كبير، فضربوا ببنادقهم الواقفين في الخارج، ودخلوا، فقتلوا من المهاجمين عددا أكبر كان منهم الشيخ محمد الزهار.

***

طلب بكر ممن معه أن يثبتوا في مكانهم من حارة الجوانية، وأن يمنعوا السرق والنهب الذي شاع، "ما خرجنا لنسرق وننهب، بل

خرجنا لننصر الإسلام، هذا عيب، والله ما يفعله هؤلاء الأوباش" وأشار إلى مجموعة تحمل بعض المتاع خارجة من بيوت النصارى. "يمكن أن يأتينا العدو من القلعة عبر هذه الجهة الشرقية، فعلى الناس أن تقف عند باب النصر وباب الفتوح، وتمنعهم من الدخول، والأخوة عند جامع السلطان حسن وعند باب زويلة سيتكفلون بمن يأتي من الجهة الجنوبية، هم أقرب إلى القلعة، لذلك سيكون العبء عليهم أشد". قال هذا أحد المرافقين لبكر، بعدها بدأ الناس يجمعون الأحجار من كل مكان ليصنعوا منها متاريس تعوق في ظنهم اندفاع الفرنسيس إلى الداخل، حتى أنهم كسروا مصاطب الحوانيت، وهدموا بعض الجدران ليستخدموا أحجارها متاريس وسلاح عند الحاجة.

لم يختلف المشهد في أنحاء مصر الأخرى، متاريس في كل مكان يظن فيه الناس أنه ثغر يمكن أن ينفذ منه الفرنسيس إلى الداخل، وحشود هائلة تفرقت خلف هذه المتاريس تنتظر ما هو قادم، يظهر الجنود عند جهة المناخلية، فيطلقون النار على المتترسين، فيبادله هؤلاء بإلقاء الأحجار من الكثرة، وإطلاق الرصاص من بعض النفر، لا تستمر المناوشات إلا بعض الوقت، بعدها يهرب الناس مخلفين وراءهم عددا ليس قليلا من القتلى.

بدت مصر محاصرة من جهاتها الأربع، مع بعض الاختراقات

في هذا المكان أو ذاك، وبخاصة من جهة باب الشعرية شمالا الأقرب إلى الأزبكية، وما حول مسجد السيدة زينب من الجهة الجنوبية الأقرب إلى القلعة وتجمعات الجنود والسلاح. لكنها اختراقات لم تصل بالجنود إلى قلب مصر حيث الجامع الأزهر.

في تلك الأثناء بدأت عمليات سلب ونهب في كل مكان تقريبا، امتدت أيدي اللصوص إلى الحوانيت، فكسروا أبوابها ونهبوا محتوياتها، ودخلوا بيوت بعض الموسرين، فاعتدوا على النساء، وأخذوا منهن أقراطا من الذهب أو سلاسل أو خواتم، هرج ومرج لم ير المصريون له مثيلا حتى في أثناء دخول الفرنسيس إلى مصر.

الضرب بين الفريقين في كل الجهات يشتد، والقتلى تسقط من الجانبين، لكن قتلى المصريين أكثر، تعلو أصوات المساجد في كل الأنحاء "حي على الجهاد" ولا يصلي العصر داخلها إلا العواجيز والمقعدين، النساء تخرج من بيوتهن كاشفات الوجوه، حاملات زادا وشرابا للمرابطين على المتاريس، يهدأ القتال، فيلتقط المصريون أنفاسهم، ويطعمون ويشربون ويصلي بعضهم صلاة الخوف، بينما يتبدل الجنود الفرنسيس، فيحل في المقدمة عدد بديل للواقفين في الأمام، الذين يتراجعون إلى الخلف ليأخذوا قسطا من الراحة.

يأتي وقت المغرب، فيتكرر ما حدث في العصر، والأمر نفسه

وقت العشاء حتى أُنهك الجانبان، لكنهم لم يبارحوا أماكنهم حتى الصباح.

استطاع حسن أن يصل إلى بيت الشيخ عبد الله الشرقاوي، أراد أن ينقل له ما رآه على الأرض، الشيخ جالس في إيوانه المعتاد في منزله الفسيح ذي الطوابق الثلاثة وحديقته المثمرة بأنواع الفاكهة المتنوعة. معه بعض الشيوخ، منهم الشيخ مصطفى الصاوي، كانوا يتداولون الأمر حين دخل عليهم حسن، رحبوا به واستمعوا لما رأى، لكن حسن أدرك أن ما عندهم من تفاصيل عما يحدث الآن في مصر أكثر اتساعا، وأشد هولا، وكان عندهم شيء آخر حاروا في الرد عليه: رسالة من ساري عسكر تطالبهم بالتدخل لدى الناس ليهدأوا حتى ينظر في مطالبهم.

أحد الشيوخ رأى أن هذا هو الوقت الذي يجب أن تظهر فيه قوة الشيوخ، يعلمون جميعا أن سبب هذه الفتنة هو الفردة التي قررها الفرنسيس، فليتراجعوا حتى يكف الناس عما يفعلون، آخر رأى أن علينا أن نثبت أننا لسنا داعة فتنة ولا تخريب أو دمار، فليعد المسلمون أولا إلى بيوتهم، ثم تذهب جماعتنا إلى ساري عسكر لتحمله على إلغاء الفردة. أما الثالث، فرأى أن يحدث هذا في الوقت نفسه، يذهب فريق إلى ساري عسكر، ويذهب آخر إلى الأزهر لحث الناس على الكف عن القتال. حسن رأى في الذهاب إلى الأزهر أمرا غير مأمون

النتائج، لقد كان هناك في الأيام الفائتة، ورأى من بعضهم ما أقلقه، وبخاصة رسل المماليك التي تتصل بشيوخ مثل الشبرواي وغيره وتعدهم بالمساندة إن قاموا في وجه الفرنسيس، وهاهم قد قاموا، بينما المماليك مختبؤون في حجورهم في أماكنهم البعيدة، تركوا المصريين شبه عراة في مواجهة قوة لا يقدرون عليها. بدا الشيوخ عاجزين عن الوصول إلى رأي فيما يحدث، فأجلوا الرد على بونابرته إلى الغد، لكن الغد حمل هولا حسم به الفرنسيس كل شيء.

في الصباح عادت المناوشات بين الطرفين كما كانت بالأمس، بدا اليوم كأنه يكرر أحداثه. استمر الضرب حتى الظهر، وامتد حتى العصر. في هذه الأثناء الفرنسيس ينصبون مدافعهم على القلعة وبعض التلال المحيطة بمصر والقريبة منها مثل تل البرقية الواقع في الجهة الشرقية. لما شعر الفرنسيس بأن هذا الأمر يمكن أن تكون له عواقب عليهم، وبخاصة مع احتمال هجوم المماليك عليهم من جهة الجيزة أو من الجهة الشرقية، بدأوا يضربون المدافع صوب مساجد مصر وبيوتها وحاراتها، وبخاصة الجامع الأزهر الذي خصوه بوابل كثيف من الضرب، سقطت قنابلهم على الأزهر وعلى سوق الغورية والفحامين وقريبا من باب زويلة، وبعض البيوت المجاورة له، وقتل في أثناء الضرب ما لا يحصى من البشر. فوجئ الناس بالأمر، ولم يكونوا له مستعدين، ولا دار

في خلدهم أن الفرنسيس يمكن أن تضربهم بالمدافع، ترك الناس المتاريس وهم يهربون إلى الشقوق والأماكن التي ظنوا أنها آمنة، وهم يصيحون "يا سلام من هذه الآلام" "يا خفي الألطاف، نجنا مما نخاف".

الضرب المتتابع الذي استمر حتى المغرب حسم كل شيء، ومهد الأرض بعد ذلك لدخول الفرنسيس مصر أول الليل دون عناء، دخلوا، فإذا مصر مدينة الأشباح يخلوا منها البشر، تقدم الفرنسيس حتى الجامع الأزهر فدخلوه بخيولهم وتفرقوا بصحنه ومقصورته، وربطوا الخيول في مكان القبلة، ثم عاثوا بالأروقة وكسروا القناديل والسهارات، وهشموا خزائن الطلبة والمجاورين والكتبة، ونهبوا ما وجدوه من المتاع والأواني والقصاع والودائع والمخبئات بالدواليب والخزانات، ودشتوا الكتب والمصاحف، وعلى الأرض طرحوها وداسوها بنعالهم، ثم بالوا وتغوطوا في صحن الأزهر، وشربوا الخمر فيه، ثم أخرجوا كل من بداخله بعد أن عروه من ثيابه، فخرج من الأزهر كما ولدته أمه.

نام المصريون في وجل مما سيحدث لهم في الساعات القادمة، الرجال المستيقظون وقفوا خلف الأبواب ينصتون لوقع أقدام الخيول وهي تمرح في الحواري وحدها مع الفرسان فوقها، والنساء والأطفال منكمشون في أبعد مكان في البيت خائفين أن يقتحم عليهم

الجنود بيوتهم في أي لحظة، وفي الصباح كان المشهد قاسيا، من خرج من بيته قاصدا الأزهر للصلاة واجهه جنود واقفون على بابه يمنعون الناس من الاقتراب، بينما باب الجامع موصد بأخشاب وضعها الجنود عليه. عدد آخر من الجنود يزيل المتاريس التي أقامها المسلمون في اليومين الفائتين، بينما عدد من النصارى مع فرط الرمان يجول في الطرقات، يقبض على بعض الأفراد دون ذنب واضح، فيقيدونهم بالحبال، ويسوقونهم وهم يضربونهم على ملأ من الناس، ثم يأخذونهم إلى حيث يسجنون في مكان تابع للفرنسيس.

قبض الفرنسيس على الشيوخ الذين أثاروا الفتنة: سليمان الجوسقي، وأحمد الشرقاوي وعبد الوهاب الشبراوي ويوسف المصيلحي وإسماعيل البراوي وحبسوهم في بيت الشيخ البكري، ثم أعدموهم بعد ذلك.

***

أصبح لمحمد علي دوراً ملحوظاً في حامية قولة، اعتماد الشوربجي عليه يزداد بمرور الأيام، وافق له على أن يظل في تجارته للتبغ، يباشرها بنفسه أحياناً، ويتركها لبعض أبناء عمه أحياناً أخرى، علاقته بأبناء عمه توثقت، وبخاصة أنهم باشروا معه أيضا بعض الصفقات التي درت عليهم جميعا قدراً غير قليل من الثروة، قدر فيها محمد علي وهو يقترب من الثلاثين من عمره أنه سيصبح ذات

يوم من أكبر تجار قولة إن لم يكن أكبرهم على الإطلاق. يستمع إلى الشوربجي ذي المزاج الشاعري وهو ينصحه بأن يركز في مجال الجندية، يقول له كثيراً "ربما ستكون تاجرا كبيرا يا محمد، لكن مجال إبداعك الحقيقي سيكون في الجندية، تستطيع في وقت قصير أن تحوز على رضا الباب العالي بشجاعتك وحنكتك، وأن تصل عن هذا الطريق إلى مكان أعلى مما تظنه في نفسك". محمد علي يرى الأمر بعيداً كثيرا، ويقول في نفسه "ما أنا إلا جندي في حامية صغيرة في مدينة بعيدة عن استانبول، فكيف يمكن للسلطان أن يلتفت إلى واحد مثلي، هذا أمر بعيد". ويفضي بهواجسه إلى الشوربجي، فيحثه الرجل على أن يعرض نفسه على الصدر الأعظم لينضم إلى الحملة العثمانية التي تتشكل لمحاربة الفرنسيس في مصر، ولا يرى محمد علي الأمر مناسباً، "لا أعرض نفسي بهذه الطريقة، ولا أرغب في قتال الفرنسيس، ثم ماذا يمكن أن أفعل في مصر؟".

الفصل الخامس

في يوم الأحد الذي بدأت فيه الأحداث، كان سليم موجودا في حجرته التي يعمل بها في بيت الشيخ البكري بجوار الجزء الفرنسي من البيت، لم يدر في خلده ما ستؤول إليه الأمور في ذلك اليوم، لكن صوت الرصاص الذي تناهى إليه، وحالة الفوضى التي رأى بعض ملامحها من حركة الناس في الطرقات القريبة، وما استطاع أن يعرفه من بعض الفرنسيس والمصريين الموجودين في المكان، كون لديه صورة واضحة عما يحدث. سليم ربط أيضا أحداث اليوم بما تحدث فيه بكر قبل أيام لما التقاه في حانوت حسن. حين اكتملت ملامح المشهد في ذهنه قرر أن يغادر المكان حالا. لا يجوز له أن

يبقى في معية الفرنسيس، وهو يعرف أنهم يقتلون أهله المصريين. نعم، هو معجب بهم، وهو راض عن دخولهم مصر لتخليص أهلها من ظلم المماليك والسلطان وواليه، لكن قتل الناس أمر آخر حتى إن أخطأ الناس أو تجاوزوا، وهم لم يخطئوا في الحقيقة لما أعلنوا رفضهم للفردة، فلا يصل الحال بالفرنسيس إلى قتل المصريين.

إلى أين يذهب؟ عليه أن يأخذ عائلته أولا، الطرقات كلها خطرة، وهو لن يشارك في هذه الأحداث على أي حال، يجب أن يتخذ طريقا آمنا بعيدا عن زحام الناس وهوجتهم، هداه تفكيره إلى أن يلتف من طريق بعيد نسبيا، حاذى السور الذي يقع فيه باب الفتوح وهو أقرب أبواب مصر لبيت البكري، ثم اتجه إلى ناحية باب الشعرية، ومن هناك اتجه جنوبا إلى أطراف الموسكي الغربية حيث بيته، وصل إلى هناك، وقد قرر أن يذهب إلى بولاق. يعرف أحدا هناك يمكن ان يتدبر معه أمر بياته واسرته.

***

– لن تخرج يا بكر من هذا الباب.

قالها عبد العال بحسم غير معهود، وهو يمد ذراعه النحيلة ممسكا بالباب المتهالك للبيت الذي يأوي ست أسر في ثماني حجرات موزعة على طابقين.

- الفرنسيس في الطرقات يترصدون كل من يظنون أنه حرض على هذه الفتنة، ومعهم بعض النصارى من أتباع يعقوب وجرجس الجوهري.

حاول بكر أن يدفعه حتى يخرج، لكن إصرار عبد العال وقوته التي لا يدري من أين أتت إليه لم تمكنه.

- ما شأنك أنت بي؟ سأخرج غصباً عنك.

- إذن أرني كيف ستفعل؟

أمسك به بكر من وسطه يريد أن يحمله ويلقيه إلى الداخل، ثم يخرج، لكن عبد العال أفلته دون أن يمكنه من مراده. انتبهت النسوة بالداخل إلى ما يجري على الباب، فهرولت فاطمة وتوحيدة زوجاهما، وحين عرفت توحيدة لطمت على خدها، ثم وقفت وراء عبد العال تسد الباب بجسمها الممتلئ. نظر إليه عبد العال نظرة غضبى وقال له:

- إذا لم يكن من أجلي أو أجل نفسك، فعلى الأقل راع أن عندك زوج وبنت، من سيكفلهما إذا أخذوك وقتلوك.

انسحب بكر إلى الداخل بخطوات بطيئة ثقيلة. وهو يتجه إلى غرفته، لم يلتفت إليهم، ولم يفتح فمه بعدها. دخل الحجرة، ألقى نفسه على السرير المتهالك. أما عبد العال في الخارج فقد شدد على

توحيدة ألا تسمح له بالخروج بأي شكل، وبخاصة إلى المسجد، هو سيأتي لهما بكل ما يحتاجون إليه، ولن يغيب عن البيت إلا ساعات قليلة. "بضعة أيام فقط وستهدأ الأمور، وسيكف الفرنسيس عن طلب الناس".

بكر في غرفته يحوقل ويستعيد محفوظه الكثير من القرآن، يدعو الله أن يفرج عنه هذه الكربة، اغرورقت عيناه وهو يسترجع ما جرى قبل لحظات. شعر بالقهر والخزي، كيف آلت الأمور إلى ما آلت إليه؟ هل نحن أخطأنا حين خرجنا لننصر الإسلام، ونعلي من شرع الله؟ ماذا كان يجب علينا أن نفعل؟ عيناه معلقتان على سقف الحجرة، قال في نفسه "هذه العروق يبدو أن السوس ضرب فيها"، كانت هناك في العروق الخشبية السميكة فتحات صغيرة سمحت لبعض الحشرات أن تتخللها، يلمح بكر سحلية تخرج، ثم تسير محاذية للعرق الخشبي في الاتجاه الذي يقع تحته السرير، خشي أن تسقط عليه، فقام يطاردها بعصا طويلة داخل الغرفة، توقفت السحلية، ثم اختبأت في فتحة أخرى. قفز عبد العال إلى خياله فجأة، لم يكن يدري مدى حب عبد العال له، هما رفيقا عمر مع حسن، لكنه مع عبد العال شأن آخر، لم يفارقه حتى اليوم، وبرغم أنهما مختلفان في كثير من الأشياء، فإن ما يجمعهما من "عشرة" يصمد أمام كل شيء. يحب عبد العال جدا، ويشكر الله أن منحه مثل هذا

الصديق. تناهى إليه صوت آذان الظهر، عاد إليه شعور القهر، قام من سريره ليخرج. لما رأته توحيدة التي كانت في الخارج مع بعض النسوة، أسرعت إليه، وأغلقت الباب عليهما، ثم قالت:

- على جثتي يا بكر، لو خرجت من البيت.

***

لم ينس حسن زوجته، "هوى تبيت الآن بعيدة عني"، برغم الهول الذي يعيشه مع شَحتة وابنه وأصوات القنابل تصل إليهم وهم قابعون في البيت ينتظرون في كل لحظة أن تسقط عليهم إحداها، فإن هوى هي التي تهيمن عليه، لم يكن قلقاً عليها في بيت البكري، على الرغم من وجود الفرنسيس به، فهم برغم الوحشية التي يتعاملون بها مع الناس الآن، لا يجرؤون على المساس بنسوة البيت، وهو ليس أي بيت: بيت الشيخ البكري الأقرب إليهم من كل الشيوخ. "ما هذه الأوهام يا حسن؟ كيف يصل بك التفكير إلى هذا المدى؟ مشكلة الفرنسيس مع الناس في الشارع، وليس في طباعهم اقتحام البيوت كما يفعل المماليك". اطمأن قلبه قليلا، وحين هدأت الأحوال في يوم الثلاثاء، خرج في الصباح صوب بيت البكري ليحضر حبيبته وزوجه.

طمأنه الشيخ البكري عليها، هي مع زينب منذ أن بدأت الفتنة، ولما أسر له بهواجسه، ضحك الشيخ وقال له: كل الجنود تركوا

البيت انشغالا بما حدث، لم يبق في البيت إلا اثنان وهما ليسا من الجنود، أحدهما ينسخ بعض كتبي التي استهوته، وهو يعرف العربية جيدا، ثم إنه ينسخ الكتب مثلك تماما يا حسن. هو موجود الآن، لو أردت رؤيته، اسمه جان بول. اعتذر له حسن، "ربما مرة أخرى بعد أن أطمئن على هوى". طلب الشيخ من حسن أن يبحث عن سليم، "لم يأت من يوم الأحد، أنا أتفهم الأحوال، لكنك تعلم أني لا أستطيع الاستغناء عنه".

في الطريق حكى لها عن حواره مع البكري، فانخلع قلبها. صمتت بقية الطريق تفكر في ورطتها، وفيما تفعله.

***

رأى عبد العال بأم عينيه الدمار الذي ألحقته مدافع الفرنسيس بالبيوت والمساجد والخانات والأسبلة المنتشرة بمصر، كأن زلزالا اتى، أو كأنه يوم القيامة على الناس، ما رآه يكفي أن يردعه للاستمرار في طريقه، لكنه برغم ذلك استمر لا يلوي على شيء متجها إلى بيت مصطفى كاشف طرة يستطلع الأمر فيه. اطمأن إلى أن توحيدة ستقوم بما ينبغي عليها مع بكر، هناك وجد جنودا على فتحة البيت التي كانت بابا منذ يومين، ارتابوا فيه، فأمسكه أحدهم من كتفه، لكن أبو خشبة رآه، طلب منهم أن يتركوه. تلقاه بالترحاب والحبور. عبد العال أنقذه من موت محتم قبل يومين، أراد أن يعبر

له عن امتنانه، فلم يستطع بعربيته شديدة الركاكة إلا أن يقول له شكرا، شكرا.

بقي معهم بضع ساعات يلملم الأدوات والأشياء التي لا يفهمها، يضع السليم منها في ركن من الحجرة، والمتكسر في ركن آخر، حوله أبو خشبة وآخرون يرطنون والأسى باد على وجوههم. أدرك عبد العال أن ما سرق من هذه الأشياء أكثر بكثير مما بقي منها، "لكن لماذا يأخذها الناس؟ وماذا سيفعلون بها؟ نحن عقولنا تعجز عن فهم هذه الأشياء التي يقوم بها الفرنسيس، فما الذي استفاده من أخذ؟"

اقترب منه أحدهم وقال له: ممكن تساعدنا، أحضر الأشياء، وسنعطي قروش كثير كثير.

وجل عبد العال من العرض، فوقف فاتحا ذراعيه وهو يقول: أنا لم آخذ شيئا. رد عليه الجندي: أنا أعرف، أعرف، لكن أنت ممكن تعرف من أخذ، اسأل وساعطيك قروش كثير.

***

ظلت هوى لأيام متتالية ترقب حسن دون أن يبدو عليها توتر، لا تسأل عن الشيخ البكري، ولا تبادر بالسؤال عن سليم، ولا تصمت طويلا، حاولت ألا تظهر لنفسها أنها قد أذنبت، اشتغل

عقلها الجبار، واستطاع في هذه الأيام القلائل أن يوجد لها مبررا: أنها تحب ذاك ولا تحب هذا، أما حب حسن لها ورغد العيش النسبي الذي تعيش فيه مقارنة بأيامها الخوالي قبل الزواج، وحتى مقارنة بصويحباتها الآن، فقد توارت إلى الخلف باندفاع الغريزة وفوران الشهوة. ادهشت هوى شحتة في هذه الأيام حين وجدتها تقوم من نومها المعتاد، فتأتي بالدقيق، وتستحث شَحتة على أن تخبز لها فطائر مما تجيد شَحتة عمله بالقرفة والسكر، وادهشتها مرة أخرى حين وجدتها تجلس معها بالساعات تسمع لها ثرثراتها الفارغة، وتجاريها. وأما حسن، فإنها تجلس معه طويلا في أماسي الخريف، حاولت أن توهمه بأنها تستعيد معه ما كانت تفعله في سنواتهما الأولى.

يشعر حسن بسعادة فائقة، وفي هذه الأماسي يعيد عليها حسن كل ما لاقاه في يومه. يخبرها حسن أن سليم عاد للعمل مرة أخرى مع البكري بعد تردد وتمنع طويل، أفهم الشيخ أن الفرنسيس بالغوا فيما فعلوه، وأن حوادث الأيام الفائتة ستعمق الجرح في نفوسهم، وأن عليهم أن يبذلوا جهدا فوق الطاقة حتى يثبتوا للمصريين أنهم ليسوا قتلة بالفطرة كما ظهر منهم في أثناء الفتنة، ولا تحاول هوى أن تدافع عن الفرنسيس أو حتى تهاجمهم، تشعر أن الفرنسيس كلهم قد تم اختصارهم في جان بول، وأن أي إشارة بالإعجاب للفرنسيس قد تشي بمكنونها، وفي الوقت نفسه لا تريد هي أن تهاجمهم. كيف

تهاجمه وقد ملك قلبها. في هذه الأماسي لا تبخل هوى على حسن بما يرغب، يتوجان أماسيهما بلقاءات حلوة، وفي هذه اللقاءات يكون جان بول هو الغائب الحاضر.

كيف لها أن تراه ثانية دون أن تثير ريبة حسن؟ الأيام الطويلة الماضية التي ضاعت شعرت فيها بحنين جارف، وشوق إلى ملمس يديه ودفء قبلته، لكن كيف السبيل إليه؟ ظلت أياما أخرى تفكر في طريقة يرضى عنها حسن كي تذهب إلى زينب، تعرف أن رده في كل الأحوال أنه يخاف عليها الطريق، وأن تجربة اليومين اللذين غابت فيهما كانت صعبة عليه كما قال لها مرارا. لكنها يجب أن تذهب، لن تستطيع الصمود طويلا أمام رغبتها الجارفة في أن ترى جان بول، ثم أتى لها الفرج من حيث لا تتوقع.

دخل عليها حسن ذات مساء وقال لها: ألم توحشك زينب ابنة الشيخ البكري؟

بهتت هوى، لكنها تماسكت وقالت: بلى، لكني لا أريد أن أكرر ما حدث في هذين اليومين، لو اتت هي أهلا وسهلا.

- صعب أن تأتي هي، لقد جاء لي سليم اليوم وأعطاني رسالة من الشيخ البكري كتبتها زينب ابنته إليك، الرسالة مفتوحة، لذلك سمحت لنفسي ان اقراها.

مدت هوى يدها إلى الرسالة وحاولت ألا تهتز وهي تمسكها، فتحتها، فإذا فيها سطر واحد "اشتقت إليك، لو استطعت أن تأتيني غدا، فسأكون سعيدة" وفي النهاية كتبت "زينب". "إنه هو وليس زينب" انفجر بركان من الشوق داخلها، لكنها بدت جامدة وهي ترد على حسن "ماذا ترى؟ لن أذهب إليها إلا إذا كنت مطمئناً وراضياً".

قال لها حسن: لا بأس، سآخذك غدا إليها، ثم أعود عند العصر لنرجع سويا إلى البيت.

***

انشغل عبد العال بمهمته الجديدة في البحث عن الأدوات الضائعة، لما خرج من عند أبو خشبة، لم تكن مشكلته أين يذهب من أجل أن يجد هذه الأشياء، بل سيبحث عن ماذا؟ ماذ سيقول للناس وهو يبحث عما يطلبه الفرنسيس؟ ما اسم هذه الأشياء التي لا يعرف منها غير النظارات؟ سار هائما في يومه الأول يفكر في طريقة، لو سأل عن الناس الذين هاجموا بيت مصطفى كاشف، لاستراب فيه الكل، وربما تعرض لأذية لا يريدها، والحوانيت التي تبيع الأشياء "الخردة" لن يبلغ بها الأمر أن تعرض مثل هذه الأشياء فيها، فظهورها خطر على صاحب الحانوت، كما أنه لا أحد سيفهم فيما تستعمل هذه الأشياء، كل هذا دار في ذهنه دون

أن يصل إلى شيء. وفي اليوم التالي وسع من دائرة بحثه، فوصل إلى مناطق قريبة من القلعة، ودخل في حارات وعطوف المنطقة الواقعة خلف الحسين، ذكره هذا اليوم ببكر واليوم الذي اختفى فيه، لكن الهواء اليوم ألطف، والشمس أقل حرارة. لمح عبد العال أطفالا يلعبون في إحدى الحارات، بينهم طفل يمسك بقطعة من الحديد تشبه ما كان ينظفه في ذلك اليوم. هم بأن يجري نحو الطفل ويأخذ منه القطعة، لكنه تريث قليلا. بدأ يفكر لو أنه فعل ذلك ما ضمن عواقب فعلته، وأقصى ما يمكن أن يحصل عليه هو هذه القطعة، لكنه اتخذ طريقا آخر. اقترب من الطفل وسأله عن أبيه: هل يمكن أن أكلمه. ارتعب الطفل أولا، لكنه أشار بخوف إلى حانوت قريب: أبي هناك في هذا الحانوت.

الرجل في داخل حانوته يرتب أكواما من القفاطين والقلنسوات والطرابيش والسراويل التي بدت من طريقة رصها داخل الحانوت أنها كلها قديمة وللبيع. لحية الرجل الطويلة وطوله المتوسط ذكره ببكر، وحين ألقى عليه السلام، كان صوته أخفض. حاول عبد العال أن يتلطف مع الرجل، وأن يدخل له من باب الطمع، وأن يوهمه أنه ما جاء ليبحث عن هذه الأشياء إلا بسبب ما عرضه الفرنسيس من قروش كثيرة على من يأتي بها، وأنه سيحتاط لنفسه أولا قبل أن يحتاط لغيره حتى لا يظن الفرنسيس أنه هو من أخذ هذه الأشياء

من البيت. هم عبد العال أن يدله الرجل على غيره ممن أخذوا هذه الأشياء، وأن يأتوا بها سواء أكانت سليمة أو متكسرة، أخبره عبد العال أنه لا يريد حتى أن يعرف هؤلاء، عليهم فقط أن يأتوا بما أخذوا للرجل، وهو سيمر عليه بعد يومين. لكنه قال للرجل في النهاية: إن المكافأة في هذه الحالة سيكون أغلبها من نصيبي ونصيبك. اطمأن الرجل ووعده خيرا.

بعد يومين عاد إلى الرجل ومعه قروش كثيرة أخذها من أبو خشبة بعد أن رفض أن يذهب أحد من الجنود معه وهو يحضر الأدوات والنظارات. استقبله الرجل بحذر وهو يتطلع إلى ما وراءه، ولما اطمأن له، أخرج له ما استطاع جمعه، وأخذ منه بضع قروش عدها ثروة لقاء هذه الأشياء التي لا قيمة لها عنده، بينما استبقى عبد العال لنفسه الجزء الأكبر.

أصبح عبد العال منذ هذه اللحظة ذا حظوة عند الفرنسيس وعند أبو خشبة بالذات، الآن التفت الرجل إلى رثاثة ثياب عبد العال، وخمن أنه لا بد يسكن في مكان بائس، أفهمه عن طريق أحد الجنود الذين يلوكون بعض العربية أنه يجب أن يغير سكنه ويسكن في مكان قريب منهم، كما أن عليه أن يغير ثيابه، لا يجوز أن يعمل مع الفرنسيس وتكون هذه هي ثيابه.

***

أوصلها حسن إلى جان بول.

- ارتمت في حضنه أول ما رأته، فاجأتها اندفاعتها، لم تخطط لنفسها أن تفعل ذلك حين تراه، أحبت أن تترك له الحركة الأولى، أن تترقب منه مدى الشوق لها، واللهفة عليها والحنين، أحبت أن تسمع منه مفردات الشوق والعذاب والألم، لكن اندفاعتها محت كل خيالاتها، وأصبحت الآن في حوزته، يديه تتحسس ظهرها، وأنفاسها الحارة تلهب صدره، وعبق رائحتها يخطف أنفاسه وروحه. تماسكت، فأفلتته برفق، ثم جلست بجواره. قالت وهي تميل برأسها على كتفه:

- ثم ماذا بعد؟

- لم أعرفك لكي أتركك، أنت المرأة التي في خيالي منذ أن ولدت.

- تعرف حرج موقفي.

- لا شيء سيمنعني عنك، حتى الموت نفسه.

أخبرته هوى بأن زوجها يمكن أن يراه في أي يوم بناء على طلب الشيخ البكري، وبأن سليم الذي يعمل في البيت نفسه معاونا للبكري هو صديق زوجها القريب، ومن ثم، فإن هناك خطراً كبيرا

في لقاءاتهما في البيت. وأخبرها جان بول بأنه سيفكر في مكان آخر يلتقيان فيه بعيداً عن كل هذا. جلست معه وقتاً لا تدريه، طال بهما الحديث، وتشعب، ودخلت أكثر في عالمه، وغرق هو في عالمها.

بعد العصر، جاء حسن ليأخذها من عند جان بول سعيدا بها مبتهجا.

***

احتاج سليم وقتاً حتى يعود إلى مكانه في بيت الشيخ البكري، جلس مع الشيخ طويلاً قبل أن يقرر العودة، تفهم الشيخ دوافعه، لكنه في المقابل باح بما لا يقوله لكثير من الناس. هؤلاء هم السادة الجدد في مصر، وتعاملنا معهم تعامل المضطر لا السلطان قادر على حمايتنا، ولا المماليك الذين فروا أمامهم كالجرذان، وخذلوا المصريين في أكثر من موقف. لكن سليم يرى الأمر من زاوية أخرى، كان يأمل منهم أن ينقذوا المصريين مما هم فيه من هوان على أيدي المماليك ورجال السلطان، حتى يمكنهم أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم. ما رآه حتى الآن أقلقه.

يحاول صاحبه جاره الضابط الفرنسي في حواره معه بعد أن عاد أن يقنعه أنهم اضطروا إلى ما فعلوه بعد أن تفاقم الأمر وخرج عن السيطرة ووصل إلى بونابرته تحالف بعض الشيوخ مع المماليك،

يقول لسليم "سترى يا صاحبي في الأيام المقبلة ما يطمئنك ويجعلك تعود إلى رأيك السابق فينا". ويسمع سليم عن بعض الأقباط الذين قتلهم الفرنسيس لأنهم يجاهرون بالسكر في الطرقات برغم اعتراض جرجس الجوهري ويعقوب أقرب الأقباط إليهم مع فرط الرمان، ويشاهد جماعات الفرنسيس التي تطارد الكلاب الضالة لتخلص مصر منها بواسطة اللحم المسموم، ويراهم وهم يمهدون الطريق ما بين الأزبكية وبولاق، ويعيدون بناء قنطرة المغربي. وأخبره الضابط عن مطاردتهم لقاطعي الطريق من العربان الذين كانوا يترصدون الحجاج ذهابا وغيابا.

شعر سليم في خلال أكثر من شهرين بمحاولا حثيثة من الفرنسيس لاسترضاء الناس وكسبهم، تقربوا منهم في المشهد الحسيني واستمالوهم، وفتحوا لهم المقاهي يسهرون فيها، يعبثون ويلهون مع من شاؤوا، وأقاموا أكثر من احتفال بالأزبكية، حاولوا في أحدها أن يطيروا طيارة ضخمة، لكنهم فشلوا في ذلك. كل هذا أراحه وأنساه بمرور الوقت فتنة الناس ودخول الفرنسيس بخيولهم ساحة الأزهر.

***

مهمة عبد العال صعبة مع بكر وهو يحاول إقناعه بترك المكان لينتقل معه بأسرته للعيش معه في بيته الجديد خلف قصر الأمير

طاز عند الصليبة وقريبا من بركة الفيل. بيت من طابقين في مساحة بيت حسن تقريبا، لكنه أكثر في عدد حجراته كما بدا له. لا يفهم بكر من أين أتى عبد العال بالمال الذي استأجر به هذا البيت أو اشتراه، ولا يعلم طبيعة علاقته بالفرنسيس التي أعطته كل هذا المال فجأة، ويطمئنه عبد العال أنه لا يسرق، ولا يتآمر على أهله، ولا يرتكب حراما، كل ما يفعله أنه ينتهز جهل الفرنسيس بالبلد، فيكسب من وراءهم كثيراً. "ثم إنك ستكون في مأمن معي، لا تنس أنهم لم يهدأوا بعد في طلب من حرض على الفتنة".

- رزق أرسله الله لنا من وراء هؤلاء، هل نرفضه؟ هذا والله كفر بالنعمة.

- هذا إذا كانت نعمة، ولم تكن نقمة.

- النقمة يا صاحبي هي ما نعيش فيه هنا. اتق الله واحزمْ أمرك معي..

سكت هنيهة ثم أردف: أو لا تحزم أمرك، أنت ليس لك خيار في الأمر، ستأتي شئت هذا أم أبيت، هل تظن أني سأفارقك بعد هذا العمر الطويل؟ أنت تحلم.

ما بين الصديقين اتفاق لم يعلناه، ألا يسأل بكر عما يفعله عبد العال مع الفرنسيس، وفي المقابل لا يحكي عبد العال إلا ما يعرف

انه سيرضي بكر. يحاول بكر ان يقنع نفسه ان مأكله ومشربه ومنامه في البيت نفسه مع عبد العال كله حلال، فلا يحاول بدافع الفضول أن يعرف أشياء ربما ستسؤوه إن عرفها عن صاحبه، يحاول أن يطمئن نفسه ان طينة عبد العال واصله سوي، وأنه عاش معه العمر كله، فلم يره يرتكب منكراً ولا دعا إليه. فلماذا يقلق إذن؟

اما أكثر ما أهم عبد العال، فهو الا يشعر صديقه أنه يعيش وأسرته عالة عليه، أوهمه – كاذباً – انه يستأجر البيت من أحد الأشخاص، وأنه سيقتسم معه الأجرة بحسب عدد الحجرات التي تشغلها كل أسرة، أعطى بكراً وأسرته حجرتين في الطابق السفلي، بينما استبقى لنفسه بقية البيت، وبهذه الحسبة أخبره أنه سيتحمل الجزء الأكبر، وسيدفع بكر الباقي.

***

دخل الشتاء بزعابيبه ورياحه وأمطاره، هوى تذهب كل أسبوع مرة أو مرتين لتلتقي جان بول، ثم تعود منتشية، وتمارس حياتها الأخرى في بيت حسن كأن شيئا لم يكن أو يكون، تضحك مع حسن، أو تحكي له حكايات زائفة مع زينب، روائح جديدة دخلت البيت ليست من نوع ما يعرف أو تقتني، لكنها زينب دائما السخية بكل ما لديها. "ماذا أفعل معها؟ وكيف أرد لها عطاياها؟" ويقترح

عليها حسن أشياء لا تراها كلها مناسبة. تقول له: لا تقلق، أنا أعرف كيف أرد الهدية بطريقتي وأسلوبي.

***

وتصل الأنباء إلى الشوربجي أن الصدر الأعظم يوسف باشا يجهز لحملة برية وبحرية ويجمع الجنود من الإنكشارية ومن غيرهم باتفاق مع مصطفى باشا الذي اتفق معه أن يقود الحملة البحرية من رودس، بينما يقود الصدر الأعظم الحملة البرية، والحملتان بمساعدة من الإنجليز. لكن مصطفى باشا لا يذهب إلى قولة، ولا يطلب منها جنودا للمعاونة على طرد الفرنسيس من مصر. ويحمد محمد علي الله على أنه بقي في قولة ليس جبنا ولا هروبا، بل إنه حسب الأمر بطريقته ووجد احتمالات المكسب والخسارة في الذهاب غامضة بالنسبة له، وما سيعود عليه من الاشتراك في هذه الحملة لن يتساوى مع المكاسب التي يحصل عليها من تجارته هنا في قولة، وبما أنهم لم يأتوا ليطلبوا جنودا، فلماذا يتطوع هو بالذهاب، لينتظر ويرى. وما يقوم به الشوربجي إسماعيل من جمع للأموال في مساعدة الحملة يكفي حتى هذه اللحظة.

الفصل السادس

الأيام تكر، ولم تتقدم هوى خطوة في علاقتها بجان بول، يلتقيان خلسة في غيبة من رفقائه في الحجرة، يتحدثان كثيرا في كل شيء، وعند لحظة الحقيقة تجفل هوى، فليس لديها أفق تحل به هذا الالتباس الذي أوقعت نفسها فيه، وحسن شغلته أعماله التي تزدهر أياماً وتكسد أسابيع، وسليم يدير أعمال الشيخ البكري وعلاقاته بالفرنسيس مع شعور طاغ بالملل من كل شيء، حن إلى أيامه الماضية قبل أن يأتي هؤلاء، على الأقل كانت لديه فسحة للسفر ورؤية الدنيا الواسعة. وبكر هدأت حركته قليلا دون أن يهدأ قلبه وعقله، أكثر ما كسر نفسه أنه لم يستطع العودة إلى جامع الغوري

مرة أخرى خشية أن يدل عليه أحد عند الفرنسيس، أما عبد العال، فهو الوحيد الذي يحلو زمنه وينتعش.

الناس تدهورت أحوالها في الشهور التي تلت الفتنة، ثم عمت الفوضى بعد أن خرج بونابرته وقسم من جيشه لحملة على بلاد الشام، الجعيدية والحرافيش تهيج فتخطف عمائم الرجال وثياب النساء وأزرهن، ويجاهر النصارى بفاحش القول ويستذلون المسلمين، وعلى الرغم من أن الفرنسيس شددوا على النصارى ألا يأكلوا جهاراً في نهار رمضان، فإنهم لم ينتهوا، وتظهر بعض النسوة في المقاهي التي انتشرت أيام الفرنسيس لترقص رقصات خليعة على مرأى ومشهد من المارة، ولا يقترب منهن أحد.

وتصل أخبار الحملة إلى الناس، فيخوضون في أخبار: بعضها أكاذيب وتهاويل، وبعضها الآخر حقيقي، ويشدد الفرنسيس على ضرورة أن تمسك الناس ألسنتها، فلا تنشر الشائعات وإلا تعرضوا للعقاب، لكن ما آلم بعض الناس ومنهم عبد العال هو وصول الأنباء بموت كفرللي "أبو خشبة" على أبواب عكا، ثم وصول الأنباء بعد ذلك بفترة عن قرب قدوم الجيش بعد أن فشلت حملته على الشام بسبب عكا. ويدخل الجيش مصر وقد تغيرت ألوان العسكر القادمين، واصفرت وجوههم، وقاسوا مشقة عظيمة من الحر والتعب، يلاحظ المصريون ذلك، لكنهم لا يظهرون الشماتة،

ولا يجاهرون بالعداء. بل يفعل بعضهم شيئاً مدهشاً.

***

ظن الشيخ البكري وهو في طريقه مع سليم إلى بيت ساري عسكر بونابرته بالأزبكية أنه سيرى تجمعا من الجنود تحيط بالبيت كما كان يرى دائما، لكنه رأى بدلا من ذلك مشهدا أقرب إلى مشهد الموالد: مجموعة من الحواة والقرداتية والراقصات وأصحاب الأراجيح والألعاب وغيرهم يسدون الطريق تقريباً أمام البيت ومعهم طائفة كبيرة من الناس تحتفل ابتهاجاً بعودة نابليون من الشام.

استقبله بونابرته بترحاب يليق به، وأجلسه في مكان قريب منه، هناك أيضا عدد آخر من الشيوخ يرحبون بعودة ساري عسكر، حاول الرجل أن يطمئنهم على قوته، وعلى قوة الفرنسيس عامة، أفهمهم أنهم باقون في مصر لمدة طويلة، وعلى الناس ألا تقلق منهم، فهم جاءوا لخير المصريين، ولن يسمحوا للمماليك بأن يظلموهم مرة أخرى، وكلام كثير استمع له سليم وفهم منه رسالة أخرى لا يمكن لبونابرته أن يعلنها على الملأ.

– الفرنسيس في أزمة، وكل كلام ساري عسكر اليوم يؤكد هذا.

قال سليم هذا للشيخ البكري بعد أن خرجا من بيت الألفي وتجاوزا مولد سيدي بونابرته أمام البيت. اندهش الشيخ من رأيه وهو يعدل حماره إلى وجهة البيت في هذا الطريق الضيق الطويل.

- لا تقل هذا، صحيح أن الفرنسيس خسروا في الشام، لكن قوتهم الأساسية ما زالت موجودة في مصر، وسيأتيهم مدد كثير من بلادهم في وقت قريب.

- أنا لا أصدق كل هذا الكلام عن المدد، والأخبار تقول إن عساكر العثمانيين يتجمعون في الشام، وأخرى غير مؤكدة تقول إنهم نزلوا في الإسكندرية بمساعدة من الإنجليز.

ازداد اندهاش البكري من سليم: من أين تأتي بهذه الأخبار؟ أخشى أن تكون إشاعات؟

- ربما تكون كذلك، لكن كلام بونابرته اليوم أكدها لي.

***

فتح حسن حانوته اليوم متأخراً عن موعده المعتاد، لم يجد داعياً لأن يذهب مبكراً، الزبائن التي تشتري الأوراق أو الأحبار قليلة، ومن يحتاج إلى النسخ لا يأتي في هذا الوقت من اليوم، نشاطه في النسخ يبدأ بعد صلاة الظهر، وبخاصة من طلاب العلم في مسجد السلطان حسن، وهم أيضا أصبحوا قلة. يشعر حسن

بالقلق وبخاصة بعد أن ذهب مع عبد العال ليشاهد آلة الطباعة التي وضعها الفرنسيس في بيت عثمان بك الأشقر بالأزبكية قريباً من بيت ساري عسكر. تهدده هذه الآلة، وتهدد مهنته كلها، عليه في هذه اللحظة أن يفكر في طريق آخر يتكسب من وراءه، سنه الآن تجاوز الثلاثين بقليل. لم يفت الآوان بعد.

دون انتظار وجد بكراً يقبل عليه، أحس براحة وهو يراه، يحتاج إلى صديق قريب يتحدث معه، ويفضي إليه بهمومه، ما لاح له من عيني بكر وطريقته في إلقاء التحية أشعره بإحباط. "لعل الذي عنده مثل الذي عندي وإن تعددت الأسباب، لا بأس".

– ادخل لتصنع لنا قهوة أولا، ثم نتحدث، ستجد كل شيء موجوداً في هذا الركن الأيمن.

في صمت دخل بكر، وعاد بعد دقائق ومعه كوبان من القهوة. شكا لحسن من عبد العال:

– لا أفهم من أين يأتي بكل هذا المال، أخشى أنه يرتكب محرمات، أو أنه يسرق الفرنسيس دون أن يدروا.

– لا أظن عبد العال يرتكب محرمات، لكني أوافقك على أنه من الممكن أن يسرق الفرنسيس، ولو صدق تخمينك، فهو في خطر.

- المشكلة الأخرى أنني لا أعرف ماذا أفعل معه، هو يسخو على كل من في البيت بأكثر مما أتخيل، وأنا لا أستطيع أن أجاريه في هذا، ما أحصله من الأطفال الذين أحفظهم القرآن في مسجد الأمير يوسف بحارة الهياتم يكاد أن يكفيني أنا وأسرتي، وفي الوقت نفسه، لا يريد أن يتركني اسكن وحدي. اشعر بحيرة مع هذا الشخص، ولا أدري ماذا أفعل؟

- لا شيء، لا تفعل شيئا، لعل الله جمع بينكما كل هذا العمر لحكمة يعلمها.

تراجع حسن عن أن يحكي لبكر عن همومه، لم يكن من طباعه أن يفعل هذا مع أحد سوى هوى، هاجسه في الصباح لم يكن يدري إن كان سيفعله أم لا، بكر وسليم وعبد العال كانوا يرونه دائما الأكبر والأكثر عقلا برغم أن بكر حقيقة يكبره في السن، وهو يريد أن يحافظ على صورته هذه، شكواه وهمومه يحتفظ بها لنفسه، هذا أفضل، "يكفي هم واحد اليوم".

***

"اليوم سنجد حلا للمكان، وعدني اليوم بأن نذهب إلى مكان آخر غير هذه الحجرة الخانقة التي نجلس فيها متوجسين أن يدخل علينا اي أحد". همست هوى لنفسها في جزل، صباحها ندي، تشعر بفرح وهي منهمكة في صنع "مكرمية" تهديها لجان بول، أخبرت حسن

أن زينب ستعرض هذه المكرمية على الفرنسيس، فلو أعجبتهم، ستصنع منها كميات لتبيعها هي لهم. لم يمانع حسن، لكنه شدد عليها ألا يكون لها أي لقاء مباشر بالفرنسيس.

- وهل تظن اني أجرؤ على أن أتحدث مع أحد منهم، أخاف منهم جداً؟

قبلها حسن على خدها قبل أن يخرج، عادت إلى "مكرميتها" بهمة ونشاط، تريد أن تنجزها قبل الظهر بكثير حتى تطير إلى جان بول، وتجلس معه المدة الأطول. كانت معها مقبولة الخادمة وهي ذاهبة إلى بيت البكري، تركتها كما تفعل مع الجواري والخادمات، ثم صعدت إلى زينب:

- سنخرج يا هوى اليوم من البيت، أبي مع سليم في بلبيس له أرض زراعية هناك ولن يعود إلا بعد يومين، وجان بول أخبرني أنه استطاع أن يدبر مكاناً نجلس فيه بعيداً عن أعين الرقباء.

لم تفهم هوى ماذا تعني بنحن، معنى ذلك أنها ستذهب معهم، ماذا ستفعل إذن؟ ابتلعت أسئلتها منتظرة في شوق اللحظات القادمة.

نزلت إلى جان بول، أعطته المكرمية، فأمسك بها بحنان، ثم قبلها على خدها قبل أن يخبرها أنهم سيخرجون الآن إلى بيت زميل له في باب الشعرية متزوج من مصرية، تراجعت لما سمعت

كلمة مصرية، لكن جان بول طمأنها بأنه احتاط لكل شيء، "لا تخافي".

لدواعي الأمان على الفتاتين خرج جان بول أولا مع زميل له، وبعدهما بقليل خرجت هوى وزينب، سارتا خلفهما على مسافة غير بعيدة. في أثناء ذلك لمحت مقبولة الخادمة سيدتها وهي خارجة، عرفتها من طريقة مشيتها ومن الخف الذي ترتديه، كانت واقفة في فناء الدار قرب الباب المفتوح حين لمحتها تخرج من باب آخر. تتبعتها، وجدتها بعد أن ابتعدت قليلا التحقت مع أخرى، خمنت أنها لا بد أن تكون زينب، رأتهما تقتربان من اثنين من الفرنسيس.

دخلت هوى البيت مع جان بول، أما زينب وصاحبها فمضيا في طريقهما إلى حيث لا تدري. شعرت برعشة في جسدها وجان بول يمسكها من يدها ويدخل بها إحدى حجرات البيت الضيقة، الصمت يلف المكان إلا صوت عصفور على شجرة في الحديقة، لم يفتح فمه بكلمة، ولا هي، اقترب منها، ثم غابا في قبلة تمنت أن تدوم الدهر كله. بارع جان بول في إثارتها وفي التلاعب بها، لا تدري كيف بدأت تصعد معه وتحلق في سماوات المتعة لا تدري متى بدأت تشعر بملمس السحب الناعمة التي تسافر بها بعيداً نائمة مسترخية متوفزة متوترة سعيدة، أظافرها تنغرس في جلده الناعم وهي تستزيده وتطالبه ألا يتوقف، وهو لا يتوقف، ويبدأ يرطن بالفرنسية، وتصرخ فيه، ثم تهدأ، ثم تهمس بأنها تحب أن تسمعها

بالعربية، ولا يعرف الرجل ماذا يقول، فتضحك، ثم تصمت، ويسألها فلا تجيب.

ساعة أو ساعتان لا تدري، لكن ما تيقنت منه أنها لا تريد أن تنتهي، لا تريد أن تعود إلى الأرض مرة أخرى.

أخبرها جان بول وهما على الفراش أنها الآن زوجته، لا أحد سيمنعه عنها، وأنها من اللحظة يجب أن تفكر في طريقة تتطلق فيها من حسن، وإلا فإنه سيقتله.

في طريق عودتها إلى البيت مع مقبولة تشجعت الخادمة واقتربت أكثر منها، ثم أخبرتها بما رأت. شعرت هوى بالرعب، لكن مقبولة طمأنت هوى: "لا تخافي سيدتي، لا تخافي، أنا لا يمكن أن أخبر اي أحد عنك شيئاً، لا تخافي".

***

اطمأن الفرنسيس لنوايا عبد العال، وإخلاصه وصدقه في خدمتهم، فبدأوا يكلفونه بمهام تتجاوز مهامه السابقة في التنظيف أو البحث عن الأشياء الضائعة. مقتل أبو خشبة صدمة كبيرة له، لكن الرجل وقد أدرك إخلاصه أوكله إلى أحد الضباط الذين يحسنون العربية كي يستفيد منه، وفعلا كان لعبد العال دور في دحض الإشاعات التي انتشرت بامتلاك عسكر العثمانيين الإسكندرية. رأى فرح الناس عندما أظهروا البشر، وتجاهروا بلعن النصارى

حتى أن أحدهم قال لنصراني من الشام "إن شاء الله تعالى بعد أربعة أيام نشتفي منكم"، مع ذلك بدا كأنه أخذ جانب النصارى في هذا. وكان له دور في الاحتفال بالمولد النبوي الذي شدد الفرنسيس على الاحتفال به، ثم ساعد الفرنساوية في تهيئة مراكب الزينة التي أجروها للاحتفال بوفاء النيل بعد المولد بثلاثة أيام، وكان احتفالا كبيرا مارس فيه عوام النصارى كل أنواع اللهو والقصف والخلاعة ومعهم الآلات والمغاني والنساء والخمر، حتى أنهم في هذا اليوم تجاهروا بكل قبيح من الضحك والسخرية والكفر ومحاكاة المسلمين، وتزيا بعضهم بزي أمراء مصر، ولبس سلاحاً وتشبه بهم، وحاكى ألفاظهم على سبيل الاستهزاء والسخرية. لم يكن عبد العال يهتز لما يرى، على عكس بعض المسلمين الذي تأذوا بالمشهد. وعندما سافر نابليون وحل كليبر مكانه، أصبح عبد العال جزءاً من موكبه، ثم حضر الوليمة التي أقامها كليبر للمشايخ، وفي هذه الوليمة التقى بسليم.

– الله يخرب بيتك، ماذا تفعل هنا. بادره سليم حين رآه، ثم أردف: ألا تخشى أن يقبضوا عليك.

احتضنه عبد العال بشدة وهو يقول له: يقبضوا على من؟ أتحب أن أحبسهم لك جميعاً؟ لم يكن الاثنان قد التقيا منذ فترة طويلة. يعلم سليم أخبار عبد العال من حسن، زاره مرتين في بيته الجديد

حين انتقل إليه، لكن السبل باعدت بينهما في الشهور الأخيرة. استأذنه عبد العال ليقضي بعض الشؤون، فرآه وهو يتحدث إلى أحد الضباط ويشير إلى مكان في حديقة البيت، ثم يذهب إلى مكان آخر ليطمئن على شيء ما، ثم يغيب بعض الوقت في داخل البيت، ثم يعود إليه، تطلع إليه سليم وقال له:

- يظهر أنك مشغول جداً، ما رأيك لو نلتقي غداً عند حسن بعد الظهر.

سكت عبد العال برهة يفكر، ثم قال: إنه مشغول أيضاً الأيام القادمة، ما رأيك لو نلتقي بعد أربعة أيام، نصلي الجمعة سوياً، ثم نتغدى عند حسن.

***

ظلت هوى أياماً متتالية تدور حول نفسها دون أن يهدأ لها بال، تحاول أن تتقرب من حسن المشغول بكساد أعماله، وتلحظ مقبولة الخادمة في حركتها وفي نظراتها حين تحدثها، وفي جلساتها الطويلة مع شحتة، وتؤول كل شاردة وواردة منها. لكن ما زاد من قلقها حتى شارف بها على الموت هو أن طمثها تأخر يومين أو ثلاثة عن ميعاده المعتاد، في هذه الأيام بلغ بها الرعب منتهاه، "ماذا لو كان حملا فعلا، من سيكون الأب؟"

في اليوم الرابع قامت على بلل عدته علامة على الانعتاق،

قامت، واغتسلت، ونسيت من أمر الناس في البيت كل شيء، ثم بدأت تجهز "مكرميات" أخرى تذهب بها مع مقبولة إلى بيت الشيخ البكري.

***

وفي بيت محمد علي استقبلته أمينة زوجه بوجه بشوش حين دخل عليها في المساء عائدا من حيث لا تدري. صوت المطر يقرع نوافذ البيت المطل على البحر، يتوقف قليلا، ثم يعود أشد أو أخف مما سبق، وأمينة تستقبل زوجها وتسر له ببشارة الحمل الجديد، وتعلم أن زوجها لا يظهر انفعالاته، ولا تبدو من ملامح وجهه ما يدور في داخله، وتكتفي هي منه بما يفعل معها، لا بما يقوله لها، وحتى الآن لم يظهر منه إلا ما تطمئن له، حتى زواجه من ماه دوران لم يزعجها كثيرا، بل عدت هذا من حقه، وهي في كل الأحوال لم تكن لتقدر على منعه من الزواج لو أرادت، وحتى لو هددته بأموالها التي تاجر بها وكسب ما كسبه وهو ليس قليلا. تراه يحوط أسرته بعنايته الفائقة، وتعلم يقينا أن أولاده وبخاصة الذكور وعلى الأخص طوسون لهم مكانة في قلبه لا يعدلها مكانة، ولذلك لا تقلق أمينة، ولا تخاف مما سيأتي وهي معه. في كل أحواله محمد علي هو الزوج الذي تمنته. وأما الرجل فقد كان ساهما حين أخبرته بحملها، تمنى أن تكون هذه البشارة آتية من ماه دوران،

سنوات على زواجهما، وليس هناك أي بادرة على حمل، "لا بأس، هي امرأة صالحة، استطاعت أن تكسب أمينة وأغلب الأولاد معها، هذا يكفيني منها".

الفصل السابع

لم تكن الأخبار التي تداولها المصريون في الشهور الفائتة كلها إشاعات، فالعثمانيون فعلا جهزوا لحملة بقيادة الوزير الأعظم يوسف باشا عبرت الشام واستعدت للزحف إلى مصر. دخلت غزة، ثم استولت على العريش، ثم وصلت إلى الصالحية، وهناك أرسل لهم كليبر وفداً فاوضهم على الجلاء عن كل بر مصر في غضون ثلاثة أشهر.

ثم تأكد الأمر حين دخل محمد أغا أحد رجال الدولة العثمانية مصر من باب النصر بعد صلاة التراويح بوقت ليس طويلا في اليوم الثاني من أيام رمضان، كان النهار ملبداً بالغيوم، ثم بدأ

مطر خفيف يسقط بعد المغرب بقليل، وحين أذن لصلاة العشاء كان المطر قد توقف، لكن برودة الجو قارصة. لم يمنع هذا الناس من إحداث ضجة كبيرة وهم يرون الموكب داخلاً من باب النصر مخترقا مصر عبر حاراتها ودروبها وعطوفها: برجوان والسلحدار والخرنفش، ثم مخترقاً خان الخليلي، ومحاذياً الأزهر من جهته الغربية إلى درب سعادة حتى وصوله إلى سويقة اللالا حيث بيت حسن أغا بخاتي محتسب مصر.

ازدحم الناس لمشاهدة الموكب الذي يتعاظم بمرور الوقت وطول الطريق، ركب الناس مصاطب الدكاكين وأسقفها، وانطلقت زغاريد النساء خلف طيقان الأبواب، وهم مبتهجون بقدوم العثمانلية دون أن يتبينوا هذا القادم ماذا سيفعل.

***

بيت بكر ليس بعيداً عن سويقة اللالا، الأخبار التي ملأت مصر في الأيام الفائتة وصلت إليه، لكنه كان متوتراً، تجربته قبل أكثر من عام لم تزل ماثلة أمامه، والخيبة التي نالها من وعود لم تتحقق، وقوة انكسرت عند أول لقاء ولدت لديه شعوراً أقرب إلى غريزة الحذر من تصديق كل ما يقال له. وحين رأى موكب الناس المتجمعين أمام بيت المحتسب، ولملم أطراف الأخبار التي استوثق

منها، عاد إليه شعوره القديم واندفاعه العاطفي، وبات ليلة من أجمل لياليه.

لم يخذل محمد أغا الناس في اليوم التالي، فقد أبرز في صبيحته لما اجتمع مع العلماء وأعيان الناس وكبار النصارى فرماناً مضمونه أنه هو أغا الجمارك بمصر وبولاق ومصر القديمة، وأنه يحتكر جميع الواردات من أصناف الأقوات، فيشتريها بالثمن الذي يحدد هو سعره، ويودعها في المخازن. ثم أبرز فرماناً آخر مؤداه أن الثلاثة آلاف كيس من النقود اللازمة لرحيل الفرنساوية سيدفعها التجار، وأن السيد أحمد المحروقي كبير التجار ملتزم أمامه بتحصيل المبلغ من التجار. دفع التجار، فغلت الأسعار على الناس، واحتكر الأغا، فأخفى التجار السلع.

في الطريق إلى مسجد الأمير يوسف بحارة الهياتم، قبل الظهر بثلاث ساعات، كان بكر فرحاً بعودة العثمانلية، لم تشغله الأمطار التي بدأت تهطل عليه بشدة، حين دخل المسجد ورآه الصبية الذين يحفظهم القرآن أشفقوا عليه، وتركوه وقتاً حتى تهيأ للدرس. بعد الصلاة خرج بهم في الطريق حتى مسجد السيدة زينب وهو يصيح ويصيح معه الأطفال "الله ينصر السلطان، ويهلك فرط الرمان"، ويزداد فرحه وهو يرى الناس حوله وهم يزدرون الجنود الفرنسيس

ويتحرشون بهم، ويسبونهم سباً لا يفهمه أكثرهم، لكنهم يدركون ما وراءه من حقد وغل تجاههم.

***

أما عبد العال فقد قضى ليلة ليلاء يوم أن دخل موكب الأغا، لم يعلم بمفاوضات الفرنسيس مع العثمانلية على الخروج، ولما أخبره الضابط الذي يعمل معه أنهم سيخرجون في خلال ثلاثة أشهر من مصر ضرب أخماساً في أسداس، أكمل يومه مع الفرنسيس مرتبكاً خائفاً، ثم عاد إلى بيته، وأغلق على نفسه حجرته يسترجع فيها كل شيء، هل آذى أحداً من الناس؟ هل تطاول على ذي شأن منهم؟ هل بدأ الناس يعرفونه على أنه يتعاون مع الفرنسيس؟ وماذا سيفعلون معه إذن؟ وماذا لو وشى به أحد إلى رجال السلطان؟ ماذا سيفعلون به؟ وماذا سيفعلون ببيته وأسرته؟ ألف سؤال وسؤال دارت في رأسه هذه الليلة، وفي الصباح لم يقم من فراشه، ولا كان ينوي. اعتكف في حجرته لا يرى أحداً، ولما سأل عنه بكر، وعرف بعزلته، تفهم حاله، وأشفق عليه، ونوى أن يحميه حتى لو كلفه هذا عمره.

***

– كيف هذا؟!

خرج السؤال من فمها عفواً لما أخبرها حسن بتأهب الفرنسيس للخروج من مصر. كانت تأكل لحظتها تفاحة شعرت فجأة بمرارتها فتركتها جانباً. تماسكت وهي تواصل مع حسن حتى لا ينتبه لوقع الخبر عليها:

– والله هؤلاء أمرهم عجيب، جاءوا دون دعوة، وقالوا إنهم سيبقون، ثم فجأة سيخرجون، فلماذا أتوا إذن؟ ما رأينا منهم لا خيراً ولا شراً.

ولم ينتبه حسن الذي غرق في هواجسه: بل نالني أنا منهم شر كثير، كسدت بضاعتي، وتوقف حالي.

اشتغل دماغها بسرعة بعد أن غادرها حسن، "يجب أن أرى جان بول في أقرب وقت، لا بد". كانا قد اتفقا ألا يلتقيا في رمضان. لا تتخلف هي عن صيام رمضان أبداً، فإذا التقت جان بول نهاراً، فسد صومها دون أن تلمسه، يثيرها مرآه وبنيانه ونبرة صوته وإيماءاته، ولا تستطيع أن تلتقيه ليلاً. لكن الظرف مختلف. أرسلت مقبولة برسالة شفوية إلى زينب، وقامت زينب بما ينبغي أن تقوم به.

– كيف لم تخبرني بأنكم ستغادرون، كيف؟

بادرته بنبرة توبيخ ممزوجة بلين وخضوع تبرع فيه براعة مدهشة، صمت قليلاً، ثم أمسك بيدها وهو يقول بصوت خفيض:

- كنت أعرف منذ مدة قصيرة، لكني لم أكن متيقناً.

ذابت في يده وهي تقول: وهل تتركني بعد كل هذا الحب؟

فاجأها وهو يقول: ومن الذي قال إنني سأتركك، لقد فكرت كثيراً، لن أطلب منك بالطبع أن تأتي معي، أعرف أن هذا صعب عليك، لذلك قررت أنا أن أبقى، سأتحول إلى الإسلام من أجلك، ولو طلبت أن أغير اسمي لفعلت، سأترك كل شيء لي في باريس، وأبقى معك، لا أتصور حياتي بدونك. لست جندياً معهم، فلم أحمل سلاحاً ولم أقتل إنساناً، رافقتهم فقط من أجل العلم.

مادت بها الأرض وهي تسمع لكلامه، لم تتصور أنه يحبها كل هذا الحب، وأنه سيضحي بكل شيء من أجلها. اقتربت هي منه لتحتضنه وتغيب معه في قبلة كادت أن تفقدها وعيها. أجلسها جان بول على رجله، أفاقت قليلاً، ثم أمسكت وجهه بكلتا يديها وهي تقول:

- كيف ستتصرف إذن؟

- لقد تصرفت فعلاً، أخبرت رؤسائي بأني سأبقى في مصر لمتابعة ما أقوم به من جمع ونسخ للمخطوطات العربية، وسأسكن قريباً من القبطان الفرنسي الساكن بجوار المشهد الحسيني، وله زوجة مصرية أيضاً.

خرجت هوى منتشية بما سمعت، لفحة البرد التي استقبلتها بمجرد أن خرجت إلى الطريق مع مقبولة، وحركة الناس بما يحملونه من أطعمة وأشربة استعداداً لإفطار اليوم ذكرتها أنها في رمضان، ثم عادت لتذكرها بأن صيام يومها فسد، تمتمت في نفسها "ليغفر لي الله هذا اليوم، سأعوضه في يوم آخر إن شاء الله".

***

يزداد ظهور العثمانيين في مصر، ويخرج الفرنسيس تباعاً منها، فيقل وجودهم في الطرقات والدروب وأماكن تجمعات الناس، ويحدث ما هو متوقع بين طرفين متحاربين تجمعا في مكان واحد، اشتباكات بين العثمانيين والفرنسيس أدت إلى مقتل عدد منهم، وفي الوقت نفسه أرسل الضباط الموجودون بالإسكندرية استعداداً للرحيل رسائل إلى كليبر تفيده أن الإنجليز يترصدونهم. هذا أدى به إلى أن يعيد التفكير في كل الاتفاق الذي أبرمه مع العثمانيين، فأعاد تجميع قواته ليعيد احتلال مصر مرة أخرى وبخاصة أنه تيقن أن العثمانيين الموجودين بمصر ونواحيها غير قادرين على مواجهته.

***

حسن متحير وهو يرتدي ملابسه في الصباح، رأته هوى وكأنه

يكلم نفسه في الحجرة، انتبه لوجودها، فتحول همسه إلى كلام كأنه يحدثها به:

– قالوا إنهم سيخرجون، فخرجوا، فلماذا يريدون العودة مرة أخرى؟

لم تكن هوى على علم بما يحدث على الرغم من أنها عادت لترى جان بول بعد انقضاء رمضان، لكن غالب حديثها معه كان حول ترتيبات إقامته الدائمة في مصر والتسويفات التي كانت تقدمها لجان بول وهو يلح عليها في طلب الطلاق من حسن.

– هل سيعودون فعلاً؟

– لا أدري، لكني ذاهب الآن إلى السيد عمر مكرم أفهم منه الأحوال.

رحب به السيد عمر مكرم ترحيباً حاراً، كما رحب به السيد أحمد المحروقي كبير التجار، خرج حسن معهم بعد أن علم بنيتهم: "تحريض الناس على الدفاع عن مصر". في الطريق يسأل نفسه "ثم ماذا بعد؟ هل يمكن لهؤلاء حتى إن تجمعوا عن بكرة أبيهم أن يقفوا في مواجهة الفرنسيس؟ هل يمكن لهم أن يقفوا في مواجهة أي أحد؟ هل نسوا ما حدث أيام بونابرته؟ هل هذه هي الطريقة للدفاع عن مصر؟ انضم إليهم كثير من أتراك خان الخليلي والمغاربة، وكثير

من العامة. اتجهوا إلى باب النصر ومعهم النبابيت والعصي، وقليل منهم من يحمل السلاح. وقفوا ينتظرون المجهول، ويتطلعون إلى الجهة الشرقية حيث الطريق إلى القلعة التي لم يغادرها الفرنسيس بعد.

انسل حسن من الجمع، وجد نفسه مشتتاً، كان فرحاً بخروجهم، لكنه لم يكن سعيداً بعودة الأتراك والمماليك، والآن في هذا الموقف الذي يمكن للمواقف فيه أن تتبدل، ماذا سيختبر من نفسه في هذه الحالة، فتش في أعماقه عن شعور مختبئ هنا أو هناك تجاه ما يشهده، فوجد نفسه مبلبلاً. سار على غير هدى، لا يريد العودة إلى حانوته، ماذا يفعل فيه والأحوال كاسدة؟ اقترب من باب الفتوح القريب من باب النصر، وجد جمعاً أكبر من الناس، انضم الجمعان وفيهم عدد من الأتراك العثمانيين الذين دخلوا مصر، منهم عثمان بك الأشقر ونصوح باشا الذي كانت تحيط به العسكر، وغيرهما. سار الحشد الهائل داخل مصر صوب الجمالية، وجد حسن نفسه يسير معهم دون أن يشترك في صياحهم وجلبتهم، وصل معهم إلى مكان قريب من وكالة ذي الفقار، وهناك سمع، ثم رأى ما جعله يحزم أمره على اعتزال هذه الفتنة التي بدأت بوادرها العنيفة في هذا اليوم.

نصوح باشا بعربيته التي لا تبين واقف أمام الناس يصيح فيهم:

اقتلوا النصارى وجاهدوا فيهم. هتف حسن من فوره "أي جهاد هذا أيها المأفون، لعنة الله عليك". في هذه اللحظة بدا له خيال يوسف، وشعر بالحزن، "أين أنت يا صديقي العزيز؟".

صاحت الناس وهاجت وماجت، ثم أسرعوا يقتلون من يصادفونه من النصارى القبط والشوام، ورآهم وهم يجرون ناحية حارات النصارى وبيوتهم في "بين الصورين" وباب الشعرية والموسكي وعند سوق السلاح القريب من حانوته. غادر الجمع عائداً إلى حانوته خائفاً على محتوياته، لكنه علم في الليل من جيرانه أصحاب الحوانيت بما فعلوه. فقد كبسوا على بيوت النصارى، وقتلوا من صادفوه من الرجال والنساء والصبيان، ونهبوا وسرقوا ما وجدوه، ولم يسلم من أيديهم شيء حتى بيوت المسلمين المجاورة لهم. وفي المقابل دافع النصارى عن أنفسهم بالبنادق والأحجار، وقتلوا من المسلمين ما استطاعوا، لكن كثرة المسلمين غلبت شجاعتهم.

***

لم يسلم بيت الشيخ البكري ولا أهله من أذية العامة، كان هناك جماعة من الحجاز ومن المغاربة أكثر الناس تحريضاً على قتل الفرنسيس والنصارى ونهبهم. اتجهوا إلى بيت الشيخ البكري في صباح اليوم التالي، حاصروا البيت من جهاته الأربع. لحسن حظ الشيخ أن البيت خلا من الفرنسيس، مع ذلك كان صياح الناس

أمامه أن اخرج لنا الكفرة من بيتك لنقتلهم. وقع الشيخ في حيص بيص، كل أهل بيته محصورون معه، وهو لا يجد منفذاً يهرب منه. صياح الناس يزداد، ثم خبط على أبواب البيت تريد أن تحطمه، وتصل إلى أسماعه جمل تحرض على قتله وقتل كل أهل البيت معه، "هذا رجل خسيس، يتعاون مع الفرنسيس، ويرسل إليهم الأطعمة والأشربة، وربما يعطيهم أخبارنا، لا بد من قتله" وينزع الناس الباب، ثم ينتشرون كالجراد في أنحاء البيت، ولا يراعون حرمة لأحد، يسحبون حريمه وبناته ومنهم زينب من شعورهن، ثم يمسكون بالشيخ فيضربونه في كل جزء يطالونه من جسده، ويسحبونه إلى الطريق مع أهل بيته عاري الرأس حافي القدم، جرسوه وأهانوه حتى وصلوا به إلى عثمان كتخدا. رآه الرجل فاغتم لمرآه غماً شديداً، فطيب خاطره ووعده خيراً. أخذه أحد التجار مع حريمه إلى داره، فأكرمهم وكساهم، وأقاموا عنده.

حين علمت هوى بما حدث لزينب صرخت في حسن: لا بد أن تأتي زينب لتقيم معها في البيت، قالت له في لهجة تشبه التهديد: إذا لم توافق على أن تأتي، فسأذهب أنا إليها وأقيم معها". لم يجد حسن أي داع لهذه اللهجة، هو لا يعترض على قدومها أو قدوم الشيخ نفسه إلى البيت، لكن بيته صغير، أما زينب وحدها فأمرها هين.

استطاع حسن واستطاعت هوى أن تقنع الشيخ وأهله أن يأخذا

زينب معهما حتى يقضي الله أمره في هذه الحوادث. شكره الشيخ، وامتن له على بادرته.

***

في هذه الأيام التي اعتكف فيها عبد العال في حجرته، لا يكاد يخرج منها، جلس يفكر في حاله وما وصل إليه. كان شخصاً أقرب إلى أن يكون شحاذاً، ثم استطاع بفضل نباهته مع الفرنسيس أن يعيش في هذا الترف المعقول، فماذا هو فاعل الآن؟ لا يعرف كيف يتعامل مع العثمانيين ولا المماليك القادمين بقوة وقسوة إلى مصر، فكر أن يهجر مصر إلى الصعيد أو طنطا أو الإسكندرية، لكن الأحوال هناك أشد بؤساً من مصر. على الأقل هنا سيجد قوت يومه، لكن كيف يعود مرة أخرى إلى الفقر ومد اليد للاقتراض أو حتى للإطعام. أنفاسه تضيق، فيفتح شبابيك حجرته الواسعة، وبرغم لفعة البرد التي تسللت إليه، فإنه يشعر بالاختناق.

الآن، وبعد أن عرف من بكر أن الفرنسيس نقضوا عهدهم مع العثمانيين، ويخططون للعودة إلى مصر، عليه أن يحدد لنفسه موقفاً.

أقبل في حجرته وأدبر، وخرج إلى الطرقات يستطلع الناس، ويرى ما يفعلون، ويتبين في وجوه من يعرفهم آثار الحوادث، ويحاول أن ينفذ إلى النوايا علّه يعرف رأي الناس فيه. ووجدهم

في شغل عنه، لم يعره أحد اهتماماً، ولم ينتبه أحد إلى قيمة ما فعل مع الفرنسيس، فما فعله لم يكن ظاهراً لهم. عندئذ وصل إلى اختيار عده مجازفة قد تودي به إلى التهلكة، أو تصعد به إلى مكانة عالية. اختار أن يساعد الفرنسيس. وحين عاد إلى بيته بدا مستريحاً لاختياره، متصالحاً مع نفسه. لكن المشكلة التي ظهرت في أثناء تفكيره هي بكر. ماذا يفعل معه؟ ما كان حاسماً فيه مع نفسه أن معرفة بكر ما نوى وبما سيفعل دونها خرط القتاد، "يجب أن أحتاط كثيراً حتى لا يعرف بكر ما سأفعله". يعرف عبد العال ان بكراً مهما رأى منه لن يشي به، لكن المسألة كيف يقنع بكراً أنه لا يتعاون مع الفرنسيس ضد أهله وناسه، بل ضد العثمانيين والمماليك، "بكر يراهم كلهم مسلمين، أما أنا فارى بيننا وبينهم فرقاً كبيراً".

***

كانت أياماً قاسية على يعقوب وفرقته التي كونها لمساعدة الفرنسيس، ها هم يفاجئونه ويرحلون، ويتركون النصارى بين أناس لا تتورع عن قطع رأس طفلة صغيرة طمعاً فيما على رأسها وشعرها من الذهب. ولقد وجد من الأكابر من أهل ملته سلوكاً وضيعاً لا يليق بهم، وجد أشخاصاً مثل جرجس الجوهري وفلتيوس ومالطي يطلبون الأمان من المسلمين ويبذلون من أجل ذلك الغالي

والنفيس في مساعدتهم ضد الفرنسيس، وحجتهم أنهم حوصروا في ديارهم، فلم يجدوا إلا هذا الطريق للنجاة. أما هو ومن معه فلن يستسلموا بسهولة، وسيدافعون عن النصارى حتى آخر رجل فيهم، آلمه أنه لم يستطع الدفاع عن أهل ملته في حارات النصارى البعيدة، "أما هنا فلن يتمكن المسلمون من دخول الحارة إلا على جثثنا".

وجاء عسكر الترك ومعهم حسن بك الجداوي ووراءهم حشد من الناس كبير، ووجهوا بنادقهم إلى بيت يعقوب، ورد عليهم يعقوب ببنادق أشد، ضربهم، وقتل منهم، وقتلوا منه، لكنه لم يمكنهم من دخول المكان. كان يوم فرح بين النصارى، وأصبح يعقوب كبيرهم الذي لا يبارى.

***

عساكر العثمانلية ترابط على نقاط التماس مع تجمعات الفرنسيس، تضربهم ساعات من النهار، وتتلقى في المقابل ضربات أشد قوة. استطاع الفرنسيس إبعاد الوزير الأعظم يوسف باشا إلى الشام مرة أخرى، وبقي لهم العثمانيون والمماليك وأعداد أخرى قليلة من جنود من بقاع كثيرة يقاتلون مع العثمانيين داخل مصر. بعض الوجهاء في داخل مصر أرادوا الموادعة، فسعوا بالصلح بين الطرفين مثل عثمان بك البرديسي ومصطفى كاشف. أقام الفرنسيس خيمة

كبيرة، وأرسلوا رسولاً إلى الباشا وكتخداه يطلبون مقابلة الشيوخ، أتى الشيخ الشرقاوي والمهدي والسرسي والفيومي وغيرهم، حينئذ قال لهم الفرنسيس: "لأي شيء تفعلون هذا الفعل وهذه المحاربات، والوزير بتاعكم ولى مهزوماً ورجع هارباً، ولا يمكن عوده في هذا الحين إلا أن يكون بعد ستة أشهر؟"، فاعتذروا بأن هناك من يهيج العامة، ويمنع الصلح، وتعلمون أن العامة لا عقول لهم، فقال لهم الفرنسيس: "قولوا لهم يتركون القتال، ويخرجون فيلحقون بوزيرهم، فإنهم لا طاقة لهم على حربنا، ويكونون سبباً لهلاك الرعية وحرق البلدين مصر وبولاق"، فقال لهم الشيوخ: "نخشى أنهم إذا امتثلوا، وجنحوا للموادعة وخرجوا وذهبوا إلى ساري عسكرهم تنقمون منا ومن الرعايا بعد ذلك"، فقالوا: "لا نفعل ذلك، فإنهم إذا رضوا ومنعوا الحرب، اجتمعنا معكم وإياهم، وعقدنا صلحاً، ولا نطالبكم بشيء، والذي قتل منا في نظير الذي قتل منكم، وزودناهم وأعطيناهم ما يحتاجون من خيل وجمال، وأصحبنا معهم من يوصلهم إلى مأمنهم من عسكرنا، ولا نضر أحداً بعد ذلك".

فلما رجع المشايخ بهذا الكلام، وسمعه الانكشارية والناس، قاموا عليهم، وسبوهم، وشتموهم، وضربوا الشرقاوي والسرسي، ورموا عمائمهم، وأسمعوهم قبيح الكلام، وصاروا يقولون: "هؤلاء المشايخ ارتدوا عن الإسلام، وعملوا فرنسيس، ومرادهم خذلان المسلمين،

وانهم أخذوا دراهم من الفرنسيس" وتكلم السفلة والغوغاء من أمثال هذا الفضول. وتشدد في ذلك الرجل المغربي الملتف عليه أخلاط العامة والغوغاء والدهماء، ونادى من عند نفسه "الصلح منقوض، وعليكم بالجهاد، ومن تأخر عنه ضرب عنقه". ثم بدأ يشيع بين الناس أن الفرنسيس ما دعوا إلى الصلح وأصروا عليه إلا لأنهم ضعفاء جبناء، وأنهم يعرفون أنهم سينهزمون إذا لاقوا المسلمين.

حتى كان يوم الخميس السابع عشر من إبريل عام 1800، غيمت السماء وأمطرت مطراً غزيراً، ووحلت الأرض، فانشغل الناس بتجفيف المياه وتنظيف السكك، في هذه اللحظة، بدأ الفرنسيس ضرباً لم تشهده مصر من قبل، مدافع وقنابل وبنادق في كل الاتجاهات، ولا تميز بين أحد، وخصوا بولاق بالضرب، وأعملوا فيها القتل والحرق، وفعلوا بأهلها ما يشيب من هوله النواصي حتى صارت القتلى مطروحة في الطرقات والأزقة، ثم استولوا على كل شيء فيها: الخانات والوكائل والحواصل والودائع والبضائع، وملكوا الدور وما بها من الأمتعة والأموال والنساء والخوندات والصبيان والبنات ومخازن الغلال والسكر والكتان والقطن والأبازير والأرز والأدهان والأصناف العطرية. لم يتركوا شخصاً أو شيئا إلا استولوا عليه. لكن مصر نجت مما فعله الفرنسيس ببولاق، فتصالح أهلها بعد عناء وممانعة من بعض الأتراك والعثمانية، ثم كان خروجهم من مصر ومعهم السيد عمر مكرم والسيد أحمد المحروقي. فكانت

مدة الحرب والقتال بين العثمانيين والفرنسيس سبعة وثلاثين يوماً.

***

استطاع عبد العال بوسائله وطرقه العجيبة في التواصل أن يبلغ الفرنسيس بأماكن تجمع العثمانيين وأعدادهم وقدر الأسلحة التي معهم على حسب ما رأى، يتحرك بين العامة، ويجري معهم، لا تميزه وسطهم بشيء، لكن عينه ترقب وتتابع وترصد وتسجل في الذاكرة، ثم تنقل إلى الفرنسيس.

***

انتصر الفرنسيس، وعادوا إلى مصر، واستقر كليبر في بيته الجديد بعد أن خرب العامة بيت الألفي. أول ما فعله أن جمع المشايخ وأعلن العفو عن الجميع، ثم طلب منهم أن يعلنوا للناس بضرورة حضورهم في الغد عند باب النصر وكل الطرق الكبيرة في مصر ليشهدوا موكب الفرنسيس المنتصرين. وكان موكباً مهيباً ضخماً سار فيه أغلب جنودهم بأسلحتهم وملابسهم الملونة بأعلام بلدهم، بدا منهم خيلاء وكبرياء وتعال على الناس المصطفين على جانبي الطريق، لكن ما آلم الناس في هذا الموكب وجود بعض المشايخ فيه، وسير عثمان بك البرديسي وعثمان بك الأشقر في معية ساري عسكر الفرنساوية في نهاية الموكب.

***

في خضم هذه الأحداث، شدد حسن على أهل بيته في عدم الخروج لأي سبب، سيكفيهم حاجتهم من كل شيء، وإذن لا داع للخروج. أما هوى فبدت سعيدة بوجود زينب معها، سعادتها بدت نشازاً وسط هذا الهول والدمار والموت الذي تتوالى أخباره كل ساعة عليهم. نبهت هوى على زينب ألا تخرج مكشوفة الوجه أمام حسن، ولا أن تسلم عليه باليد. "ربما سيسكت حرجاً من أبيك الذي يحبه، لكنه لن ينسى، ومن المحتمل أن يمنعني من رؤيتك ثانية"، وفهمت زينب، وتقبلت. وكان حسن مدركاً لحرج الموقف، فغاب عن البيت أغلب الوقت، وإذا عاد في النهار فلأجل أن يحضر شيئاً أو يطمئن عليهم، ثم يعود من حيث أتى.

وحين انتهت الأحداث، وعاد الفرنسيس، كان أول ما فعلوه أن أعطوا الشيخ البكري بيت عثمان كاشف كتخدا الحج بدلا عن بيته الذي خربه الناس، ثم دمروه.

زينب سعيدة بعودتها إلى أسرتها، طلبت من هوى أن تأتي معها لترى معها البيت ولتساعدها في اختيار حجرتها وفرشها. وهوى أكثر سعادة، ستخرج من البيت أخيراً وستكون هناك فرصة لأن ترى جان بول.

طلب الشيخ البكري من حسن أن يبحث له عن سليم، أرسل له أكثر من رسول في بيته، لكنه لم يجده، ولم يجد أحداً من أهل بيته.

حسن يعلم بمكانه، ذهب إليه فوجده في حال بائسة وأزمة عنيفة، أخبره سليم أنه لن يستطيع العودة إلى الشيخ في هذه الأيام، يحتاج وقتاً حتى يبرأ مما هو فيه، وبعدها سيقرر إذا كان سيعود إلى الشيخ أم لا. لم يشأ حسن أن يجادله في قراره، يعلم ما به جيداً، ويتفهم دوافعه، و"لعل الذي عنده هو الذي عندي، لكن أفعالنا مختلفة"، اتفق معه على أنه سينكر وجوده، وينكر أنه عرف طريقه، وسيبلغ الشيخ بهذا.

***

ارتدى الشيوخ أفخر ثيابهم وهم ذاهبون مبكرين إلى بيت ساري عسكر كليبر. كل واحد منهم يمني نفسه بمنصب عال أو أن يكون من أهل الديوان الخصوصي. لما استقروا جلوساً في القاعة الخارجية، أهملهم الجنود كثيراً، ولم يؤذن لهم بالدخول على كليبر. ولما دخلوا لم يجدوه، ولم يجدوا أحداً، فمكثوا في حجرته مدة طويلة. بعدها دخل عليهم في موكب من كبار ضباطه، وجلس في منتصف القاعة، وبدأ حديثاً بالفرنسية لم يفهمه الشيوخ، لكنهم توجسوا خيفة من قسمات وجهه، وانفعالاته وحركات جسمه، ولما نقل إليهم كلامه صدق حدسهم، كان يوبخهم على أنه اطمأن إليهم وإلى قدرتهم على ضبط الناس، وأن الفرنسيس اصطفوهم من أجل هذا، أما والحال هكذا، فإنهم لا قيمة لهم عند الفرنسيس. حاول

الشيوخ الدفاع عن أنفسهم، وإفهام ساري عسكر أنهم لم ينحازوا إلى العثمانلية إلا بعد أن علموا بخروجهم من مصر، فرد عليهم كليبر: "ولماذا لم تمنعوا الرعية عما فعلوه من قيامهم ومحاربتهم لنا؟" فقالوا له: "لا يمكننا ذلك، خصوصاً وقد تقووا علينا، وربما سمعتم ما فعلوه معنا من ضربنا وبهدلتنا عندما أشرنا عليهم بالصلح وترك القتال"، فكان رد كليبر عليهم حاسماً: "إذا كان الأمر كذلك، فما فائدة رياستكم؟ ولأي شيء يكون نفعكم؟ وأنتم لا يأتي منكم إلا الضرر. لولا أننا أعطيناكم الأمان لكنا فعلنا معكم مثلما فعلنا مع أهل بولاق، لكننا لن نقتلكم، بل سنأخذ أموالكم، فالمطلوب منكم عشرة آلاف ألف فرنك، عن كل فرنك ثمانية وعشرون فضة، يكون فيها ألفا ألف فرانسة عنها خمس عشرة خزنة رومي بثلاث عشرة خزنة مصري". ثم وزع هذا القدر الهائل من الأموال على الشيوخ: السادات ومحمد الجوهري ومصطفى الصاوي والعناني، و"سنأخذ بيوت الفارين مع العثمانلي وهم المحروقي وعمر مكرم وحسين أغا شنن، وما بقي من هذه الأموال تديرون رأيكم فيه، وتوزعونه على أهل البلد، وتتركون عندنا منكم خمسة عشر شخصاً، انظروا من يكون رهينة عندنا حتى تغلقوا ذلك المبلغ". وقام من فوره مع أصحابه، ثم أغلقوا الباب على الشيوخ.

ظل الشيوخ محبوسين في المكان حتى العصر متحيرين لا يدرون ماذا يفعلون مع هذه الداهية التي ألمت بهم حتى بال أكثرهم

في ثيابه، وشرشر بعضهم ببوله من شباك المكان. وصاروا يستغيثون بنصارى القبط الموجودين بالمكان ويقعون في عرضهم، فالذي انحشر فيهم، ولم يكن معدوداً من الرؤساء، أخرجوه بحجة أو سبب، وبعضهم ترك مداسه وخرج حافياً، وما صدق بخلاص نفسه.

***

وقع هزيمة الجيش العثماني على الجالسين عند الشوربجي إسماعيل شديد، وبخاصة ما حدث لهم في الإسكندرية وأبوقير، الفرنسيس برغم أعدادهم الأقل من العثمانيين الذين نزلوا من سفنهم في أبو قير كان تنظيمهم للقتال مذهلا، وصلت لهؤلاء الجالسين بعض المعلومات عن هذه المعركة التي حطمت آمال السلطان العثماني في استعادة مصر مرة أخرى، وانبهر بعضهم بالجيش الفرنسي على الرغم من أنه هو العدو في نظر كثيرين. أما محمد علي فبدا بينهم أكثر انشغالا بما هو آت. أخبرهم بأننا يجب أن نستعد من الآن للمشاركة في القوات التي سيرسلها السلطان مرة أخرى إلى مصر، في المرة الأولى اكتفى مصطفى باشا بما عنده، أما في المرة القادمة فلا بد أن يأتوا هنا ليأخذوا من قولة ما يحتاجون إليه من جنود وأسلحة ومؤنة، وعلينا أن نكون مستعدين لهذا اليوم.

انتحى الشوربجي بمحمد علي جانباً بعد أن ذهب البقية، وسأله

عما إذا كان مستعدا للذهاب إلى مصر في حالة قدوم الأسطول العثماني، فأخبره محمد علي بأنه لا يعصي للحاكم أمرا لو كانت هذه رغبته، بالنسبة له الأمر سواء، إذا ذهب وإذا بقي في قولة.

الفصل الثامن

فجأة شعر حسن بحنين إلى لقاء أصدقائه، أحداث الأسابيع الماضية شغلتهم وأخافتهم، لكن الحياة تستمر بكل أحزانها ومصائبها. لا جديد في بيت حسن سوى هوى التي زاد انعزالها وابتعادها عنه، ولا يدري لذلك سبباً، وشحنة التي تتفانى في خدمته بحب ظاهر وشفقة لا يدري بواعثها، وابنه الملتصق بخالته كأنها أمه، ومقبولة الخادمة التي أصبح حضورها في البيت ظاهراً بأكثر مما ينبغي لخادمة. يشتاق لبكر وعبد العال وسليم، يريد أن يراهم الآن. يخرج من بيته لا إلى حانوته، بل إلى بيت بكر، وينادي عليه، فتخبره توحيدة زوجه من خلال الشباك أنه في المسجد، ويستدل

على المسجد في حارة الهياتم، ويجد بكراً مستغرقاً مع الأطفال في تحفيظهم القرآن، فيتركه حتى ينتهي، ثم يجلس معه حتى صلاة الظهر، فيصلي وراءه، ثم يخرجان على موعد باللقاء في اليوم التالي. يشدد عليه أن يأتي بعبد العال معه. لا يأتي إلا به. بكر الأقرب إلى قلبه.

ثم يتجه إلى بيت سليم، ويجده كما هو معتكفاً في بيته. يخرجان يتمشيان في الطرقات القريبة، يتبادلان أحاديث فارغة، ويستعيدان بعض الأحداث والكوارث، ويحاولان استشراف ما ستأتي به الأيام، ويخبره حسن بلقاء الغد، ثم يتركه ليذهب إلى حانوته. سليم الأقرب إلى عقله.

***

تموت هوى وتحيا كل يوم وهي لا تدري شيئاً عن جان بول، اشتاقت إليه شوقاً ملأ كيانها، فكرهت المكان، وكرهت أن يلمسها حسن، ودت أن تترك البيت وتغادر، لكن إلى أين؟ ومع من؟ وإلى متى؟ لو تعرف له طريقاً، لو تعلم عنه خبراً، لارتاحت. "لعله قتل، أو اضطر إلى أن يغادر مصر بعد ما رأى أهوال الأسابيع الفائتة. لو فعل ذلك، فله عذره. لكن لماذا؟ وما ذنبي أنا؟ وهل أستحق منه هذا؟" توسلت إلى الله أن يكون حياً، وتضرعت ألا يكون غادر مصر. "حين أراه سأرتمي في حضنه، ولن أتركه، ولن أعود إلى

هذا البيت مرة ثانية، وسأتزوجه". لكن أين هو؟

ولما عاد حسن أخبرته أنها تريد أن ترى زينب وتجلس معها بعض الوقت، وعد أن يأخذها في الغد إليها.

***

في الصباح استيقظ الزوجان منتشيين: حسن لأنه سيجتمع بأصحابه اليوم، وهوى لأنها ربما تعرف أخباراً عن جان بول من زينب. أوصلها إلى بيت الشيخ البكري الجديد مع خادمتها مقبولة، ثم عاد إلى حانوته. قبل الظهر بحوالي الساعة. أهل بكر وعبد العال، ثم جاء سليم. نظر حسن إلى بكر وهو يقول له:

– رايت يوسف بالأمس مصادفة وطلبت منه أن يحضر، ممكن تلم نفسك معه اليوم

جفل بكر من اسم يوسف، وهم بالنطق، لكن عبد العال عاجله ووضع يده على فم بكر وهو يقول لحسن:

– لا تخف منه، لن أجعله يفتح فمه بكلمة مع يوسف، أرأيت؟

أفلته بكر وهو يضحك ويقول:

– فقط من أجل هذه القعدة الحلوة لن أقتله، يمكن بعد ذلك.

ويأتي يوسف بعد صلاة الظهر، يفاجئهما حسن بفطائر صنعتها

لهم شحتة لما علمت بأنه سيراهم، "كانت تود لو التقت بكم في البيت. مرة أخرى إن شاء الله".

يبادر سليم: هل تذكرون قعدتنا هذه قبل سنتين، كانت الحال غير الحال.

يتنهد بكر وهو يقول: نعم، كانت أحوالنا أحسن.

يتعجب عبد العال: أحسن في أي شيء يا فالح.

يرد بكر: أحسن في كل شيء، هل تنسى... ولم يدعه عبد العال يكمل جملته، وضع يده على فمه وهو يقول: أعرف ما ستقول، ثم موجهاً كلامه للباقي: تصوروا أسمع منه هذا الكلام صباح مساء، كأن أمه ولدته به، مللت منك يا أخي ومن كلامك.

ويحاول بكر أن يتكلم، لكن عبد العال يكمل: اسكت، لا تنسى أن يوسف جالس بيننا.

ويضحك يوسف وهو يقول: أعرف ما سيقوله بكر عني وعن كل النصارى، نحن أصبحنا مثل اللقمة في حلقه، لا هو قادر على بلعها، ولا قادر على لفظها.

ويصمت بكر، ويشعر حسن بحرج الموقف فيقول: قدرنا أن نعيش معاً، لا حيلة لنا ولا مهرب، المهم أن يعرف العقلاء في الطرفين هذه الحقيقة.

يصيح سليم: أين هم؟ أين هم؟ إذا كان لدينا في المسلمين نصوح باشا، فلدى النصارى يعقوب.

يحاول حسن أن يغير من الحديث فيسأل سليم: لكن ما رأيك فيما يجري؟

يعتدل سليم، ويأخذ نفساً عميقاً، ثم يقول: خائف جداً من الأيام القادمة، لا أظن أن العثمانلية لن تعود مرة أخرى، تقديري أنهم ربما يعودون في خلال ستة أشهر من الآن.

ينظر إليه عبد العال باهتمام وهو يقول: لا أعتقد ذلك، الأسلحة التي رأيناها مع الفرنسيس قادرة على أخذ إسطمبول ذات نفسها.

يرد سليم: صحيح ما تقوله، لكن الفرنسيس محاصرون، والإنجليز واقفون لهم بالإسكندرية.

عبد العال الذي بدا عليماً بالأمور على غير المألوف رد: هل تظن أن بونابرته سيترك جيشه ينهزم في مصر. أنت تحلم!

طال الحديث بالأصدقاء، وأعادوا فيه الكلام وزادوا، لكنهم تركوا حسن في حالة من المتعة افتقدها زمناً على وعد بلقاء آخر.

***

استقبلتها زينب وأسرتها بترحاب زائد، انفردت بها وهي تقول:

سأموت يا زينب إذا لم أعرف عنه أي خبر، وتهدئها زينب وهي تقول: الأيام الفائتة وانا افكر في طريقة أعرف به أي أخبار، لكني فشلت، أخبرني ابي انه سيأتي بما تبقى من كتبه في البيت القديم، وسيجمع ما احترق او تمزق أو ضاع من معارفه، ولعله يأتي إلى هنا بعدها.

ترد هوى: هذا وقت طويل يا زينب، طويل، وانا أريد أن أراه الآن؟ لا بد أن تجدي لي حلاً.

- يأتي إلينا بعض الضباط إلى البيت، ومن السهل ان اسأل أحدهم عنه، لكن المصيبة لو أخبر هذا الضابط أبي بحسن نية، سافتح على نفسي وعليك ابواب جهنم.

وتصمت هوى، وتفكر، ثم تصيح: سأرسل مقبولة تسأل عنه، سأرسلها الآن.

- هل جننت؟ أين ستذهب؟ ومن تسأل؟ اصبري حتى نجد طريقة.

***

أصبح يعقوب كأنه الحاكم بأمره في بر مصر، وكله كليبر يفعل بالمسلمين كيف يشاء. سار بأتباعه وسط حوانيت المسلمين، ناهراً هذا، وزاجراً ذاك. ثم أصبح هو المسؤول عن جمع الفردة العامة التي ألزموها على الناس، فدهى الناس بهذه النازلة التي لم

يصابوا بمثلها ولا ما يقاربها، ومضى عيد النحر ولم يلتفت إليه أحد، بل لم يشعروا به، ونزل بهم من البلاء والذل ما لا يوصف، فإن أحد الناس غنياً أو فقيراً لا بد وأن يكون من ذوي الصنائع أو الحرف، فيلزمه دفع ما وزع عليه في حرفته أو في حرفتيه وأجرة داره أيضاً سنة كاملة. فكان يأتي على الشخص غرامتان أو ثلاث، وفرغت الدراهم من عند الناس، واحتاج كل إلى القرض، فلم يجد طالب الدين من يدينه لشغل كل فرد بشأنه ومصيبته. فلزم بيع المتاع، فلم يوجد من يشتري. وإذا أعطوهم ذلك، لا يقبلونه. فضاق خناق الناس، وتمنوا الموت، فلم يجدوه.

وتطاولت النصارى من القبط والنصارى الشوام على المسلمين بالسب والضرب، ونالوا منهم أغراضهم، وأظهروا حقدهم، ولم يبقوا للصلح مكاناً. وصرحوا بانقضاء ملة المسلمين وأيام الموحدين.

***

– الرجل يسأل عنك ويلح في السؤال. ماذا أقول له؟

بادره حسن حين التقاه بعد عدة أيام. لكن سليم لم يكن متحمساً للعودة إلى الشيخ البكري، ما زالت آثار ما فعله الفرنسيس بأهل بولاق ماثلة في مخيلته. صدمته فيهم لا حدود لها، كان يمني نفسه بأن الفرنسيس جاءوا فعلا لينقذوا المصريين من بلاء العثمانيين والمماليك، لكن إسرافهم في القتل لم يفهمه. لا يستطيع أن يتعامل

معهم ثانية، للشيخ خياراته، لكني أيضاً لي خياراتي.

- الشيخ يحبك، فلماذا لا تقابله وتفضي إليه بكل ما عندك؟ ثم إنك يا سليم لن تظل متمنعاً إلى الأبد، أنت ترى الأحوال، والفرد أو الدواهي النازلة علينا، والحمد لله أني قادر على الالتزام بما علي حتى الآن، لكن حتى متى؟ وأنت لو فاجؤوك بما لا تقدر عليه ماذا ستفعل؟ اعقل، ورح قابل الرجل.

- ليكن.

وفي اليوم التالي ذهب إلى الشيخ وواجهه بما عنده دون التفاف، وسمع من الشيخ المبررات نفسها التي كررها عليه مرات ومرات، ولما رآه الشيخ لا يلين، قال له:

- أنت يا سليم في مقام ابني، وأنا لن أجد إنساناً مثلك في استقامتك ونباهتك، ولا تتصور أني سأستغني عنك بسهولة، ولولا أنني أعلم أنك تحب زوجتك، لزوجتك من ابنتي زينب. سأوفر لك مكاناً بعيداً عن الفرنسيس، تتلقى فيه حوائج الناس، وتكون فيه مسؤولاً عن رعاية أملاكي في مصر والأرض ببلبيس. ولا نقاش بعد الآن.

***

ظل عبد العال أياماً متتالية يفكر فيما قاله سليم عن احتمال عودة

العثمانيين في خلال ستة أشهر، "ماذا لو كان كلامه صحيحاً، هذه داهية سوداء، ربنا ستر معي حتى الآن". رأى عبد العال بعينيه وسمع من بكر ما فعله الناس في المتعاونين مع الفرنسيس. حظه أنه لم يكن ظاهراً، وبكر بالطبع لا خوف منه، وجيرانه في بيته الآن لا يعرفون عنه إلا أنه رجل مقتدر دون تفاصيل كثيرة عن حياته الخاصة، ولا عن أصوله الفقيرة، وحياة التشرد التي كان يعيشها في بيته الأول. حرص على ألا يدعو أحداً من الفرنسيس إلى بيته، ولا أعلمهم مكانه. يظهر لهم دائما في الوقت المناسب والزمن المناسب، فلا يحتاجون للسؤال عنه. والآن فإنه يتوقع أن ترتفع مكانته عندهم، وأن يكلف بأشياء أكثر أهمية، لكن ما العمل؟ كيف سيواجه هذا؟ وماذا سيقول إذا اضطر أحياناً إلى أن يكون ظاهراً مع الفرنسيس في تجوالهم بين الناس؟ ثم يأتي العثمانيون كما يظن سليم، وإذن هو الموت، لا محالة. أرعبته الفكرة، حاول أن يطردها من رأسه، لكنها كانت تحوم حوله، تلح عليه بأكثر مما توقع. واجهها بمنطقه الذي أعلنه لسليم: الفرنسيس أقوياء، ولن يهزموا، وأنهم باقون في مصر مثلما بقي العثمانيون فيها.

يقضي ليله مسهداً، لا يستقر على جنب، ولا يغمض عينيه ويروح في نوم عميق إلا مع تباشير الصباح الأولى، يسمع صوت بكر من أسفل عند آذان الفجر تقريباً كل يوم، وهو يصيح "الله

يهديك يا عبد العال، قم يا رجل لصلاة الفجر، الصلاة خير من النوم"، وترد عليه زوجه فاطمة دائماً التي تستيقظ للصلاة "والنبي يا أخويا، عبد العال ما نام إلا من ساعة واحدة". ويجاوبها بكر "وما الذي جعله يتأخر في النوم هكذا، ربنا يهديك يا عبد العال" ثم يصمت الاثنان، ولا يسمع عبد العال بعد ذلك إلا صوت المياه التي تتوضأ بها فاطمة في الأعلى، وإلا حركة مداس بكر وصوت الباب وهو يفتح خارجاً إلى الصلاة في المسجد. لا يمل بكر من دعوته للصلاة، ولا تكل فاطمة في المداراة على زوجها والتماس الأعذار. في هذه اللحظة يغط في نوم عميق لا يقوم منه إلا قبيل الظهر بقليل.

***

جاء الرسول من زينب، وصل لبيت هوى، وجعلها تقفز من مكانها، جرت صاعدة إلى الطابق الأعلى. تعجبت شَحتة وهي تراها تترك المطبخ مهرولة، سألت مقبولة الخادمة التي كانت قد همست في أذن هوى: ماذا يحدث؟ أخبرتها مقبولة أن زينب تريد أن تراها الآن. خمنت شَحتة التي لم تسترح لزينب أن الأمر جد. لكن ما هو، لا تدري. وفي الأعلى كانت هوى تفكر في حجة تخرج بها دون إذن من حسن. تعلم هوى أن شَحتة لن توافق على خروجها من البيت دون إذن، لكنها يجب أن تخرج حتى إن كلفها هذا ألا

تعود للبيت مرة أخرى، لا بد أن الأمر متعلق بجان بول وإلا لما أرسلت زينب تطلبها على وجه السرعة. عقلها الجبار يشتغل وهي ترتدي ملابسها وتضع البرقع على وجهها "يجب ألا أخسر شَحتة ولا حسن على الأقل الآن". نزلت، ثم دخلت المطبخ، ورفعت البرقع، ثم مالت على شَحتة وهي تقبلها "اعذريني يا خالتي، زينب في حاجة إلى الآن، يبدو أن الأمر جد، سآخذ مقبولة معي، هي أعرف بالطريق، ساعود قبل أن يأتي حسن، وسأخبره بكل شيء". وسحبت مقبولة التي كانت متهيأة فيما يبدو.

***

– سترينه الآن، هل أنت مستعدة؟ بادرتها زينب بمجرد أن رأتها.

صاحت هوى في فرح: بالطبع، بالطبع. أين؟

– في حديقة الأزبكية.

سألتها هوى: لكن كيف وصلت إليه؟

أخبرتها زينب: أنا لم أصل إليه، هو الذي وصل، وهذه حكاية كبيرة سأحكيها لك في الطريق، الرجل مغرم بك فوق ما تتخيلين.

الرجل جالس تحت الشجرة الضخمة التي تتوسط حديقة الأزبكية حين دخلت النساء الثلاثة من مدخل الحديقة الشمالي، عرفها فترك رفقاءه وهرول إليها، كانت تود لو ألقت نفسها في حضنه، لكنها تماسكت، العيون تتابع المشهد من بعيد، بعضها من أهل البلد وهذا واضح من ملابسهم، وبعضها من الشوام وهذا ظاهر من سحنتهم. كانوا عدداً قليلاً في هذا الوقت من النهار في ساعة الظهيرة. كرهت المكان وكرهت هؤلاء المتلصصين. تركتها زينب ومقبولة، حيث زينب تعرف ماذا تريد، وأما مقبولة، فهامت في الحديقة، ثم لمحتها هوى في أثناء جلستها مع جان بول واقفة مع بعض الفرنسيس وهي تضحك.

حكى لها جان بول عن معاناته في الأسابيع الماضية، كيف استطاع أن يقنع رؤساءه بالبقاء في مصر. حذروه من تعرضه للقتل قبل أن يفهم العثمانيون طبيعة مهمته في مصر، لكنه أخبرهم أنه سيبقى على مسؤوليته. وكانت معاناته بعد ذلك أشد، فقد اختبأ عند أحد معارفه من نصارى الشام، ولما اشتد حصار المسلمين لأماكن تجمعات النصارى، ذهب إلى بيت يعقوب الآمن، حيث آواه أسابيع كثيرة لم ير فيها نور الشمس حتى كاد يجن. "لو كنت بجواري لكانت أجمل أيام عمري، لكن ما شارف بي على الموت أني لا أعرف عنك شيئاً، وتصل إلى الأخبار في مخبيء عن دمار

هنا أو هناك، وأخشى أن يكونوا قد اقتربوا منك. الحمد لله، أنت هنا معي".

ودت هوى أن تقبله، وأرادت أن تشعر بملمس يده، لكنها كانت تسيطر على نفسها بقوة حديدية لا تلين. وحاول هو، لكنها كل مرة تسحب يدها بسرعة هامسة "ليس هنا، حين نكون وحدنا". وأخبرها جان بول أن لقاءهما القادم سيكون في بيت ليس بعيداً عن هذه الحديقة. وتمنى لو كان لقاؤهما في الغد، لكنها قالت إنها لا تستطيع، وليكن بعد ثلاثة أيام، في الوقت نفسه وفي المكان، ومن هنا أذهب معك إلى البيت.

وفي الطريق اتفقت المرأتان على حكاية واحدة تحكيانها لحسن وللشيخ البكري. وأما مقبولة، فإنها لم تر ولم تسمع ولا تتكلم.

***

قُتِل ساري عسكر كليبر في بيته بالأزبكية، ظن الفرنسيس أنها من فعل أهل مصر، فأحاطوا بالبلد وجهزوا المدافع، وقال أحدهم "لا بد من قتل أهل مصر عن آخرهم". لكن الفرنسيس سعوا حتى عثروا على قاتله وكان مختبئاً في بيت مجاور لبيت ساري عسكر، كان شخصاً حلبياً، واسمه سليمان. سألوا عنه وعن مأواه، فعرفوا أنه يأوي ويبيت بالجامع الأزهر، وسألوه إن كان معه أحد ساعده، فأنكر. ثم تفرق بعضهم في جهات مصر يتفرسون في وجوه الناس،

فلم يجدوا فيهم قرائن دالة على علمهم بذلك، ورأوهم يسألون من الفرنسيس عن الخبر، فتحققوا من براءتهم، وتركوا أمر ضربهم بالمدافع.

***

شعر بكر بحزن شديد، ود لو كان قد نال هو هذا الشرف، عدة أيام بعد الحادثة يجلس بعد العشاء في حجرته بالطابق الأسفل، وهو يتخيل نفسه داخلاً على ساري عسكر، وبيده خنجر يخفيه في كم جلبابه، ثم يقترب من ساري عسكر ويطعنه، ويعيد استحضار كل المشهد الذي يعيد الناس حكايته في كل مكان بتشف وفرح غير ظاهر.

وفي الطابق الأعلى يجلس عبد العال مع زوجه متوتراً، يعلم أن هذه الحادثة لها ما بعدها، لا يصارح فاطمة بهواجسه، فلم يتعود من نفسه ذلك، لكنها تشعر، فتسكت، وتنشغل بالفراغ، أو تنزل إلى الطابق الأسفل، فتجلس مع توحيدة زوج بكر.

شارك عبد العال الفرنسيس في الذهاب إلى الجامع الأزهر، وساعدهم في القبض على ثلاثة رجال أخبر سليمان الحلبي أنهم عرفوا بأمر ما نوي، لكنهم لم يشتركوا معه في التدبير ولا التنفيذ. ذهابه محض صدفة لم يتمناها لنفسه. كان حاضراً وقتها وهم يستعدون للذهاب، فطلب أحدهم منه بما يشبه الأمر أن يذهب

معهم، لم يكن وحده، معه عدد آخر من المصريين، منهم الأغا محتسب مصر.

في الأيام التالية حضر محاكمة الحلبي، ورأى من ترتيب الفرنسيس وتنظيمهم في المحاكمة ما أذهله، فقد تعود في مصر في مثل هذه الحوادث أن يتم قتل الجاني من فوره بمجرد الإمساك به متلبساً، لكن جاءوا بسليمان وسألوه منفرداً، ثم سألوا الجماعة التي أرشد عنها منفردين، ثم قام أحدهم وهو يخطب بالفرنسية، ويترجم آخر إلى العربية حتى يفهم سليمان ورهطه ما يقول، والرجل يحرض على إيقاع أشد عقوبة عليه وعلى رفاقه وهي القتل، ثم قام آخر ليدافع عن سليمان، ويبرر له فعلته، ويطلب التخفيف. وبعد كل هذا صدر الحكم بقتل سليمان ومعه اثنين، وأما الثالث، فقد أطلقوا سراحه لما وجدوه بريئاً.

نقل كل هذا إلى بكر وهو يحثه على أن يقارن بين فعل أوباش العسكر الذين يدعون الإسلام ويزعمون أنهم يجاهدون، لكنهم يقتلون الناس ويتجرأون على سفك الدماء لمجرد الشهوة والشك. في حين أن هؤلاء لا دين لهم، مع ذلك حكموا على سليمان بالعدل. توقع أن يجدى صدى ذلك في بكر فيقلع عن غيه، ويعدل عن رأيه في الفرنسيس، لكن بكر لم يرد عليه إلا بجملة "الله يهديك يا عبد العال".

***

تقلد عبد الله جاك مينو الذي تزوج من زبيدة الرشيدية مهام ساري عسكر. وذهب إلى الأزهر يتفقده، فأخلوا له الجامعِ من المجاورين والكتب وكل شيء، وطلب الشيخ الشرقاوي إغلاق الجامع وتسميره، فاستهول بعض القبط الحاضرين وقالوا: هذا لا يصح ولا يتفق، فنهرهم الشرقاوي وقال لهم: اكفونا شر دسائسكم يا قبطة. وقصد الشيخ الشرقاوي من ذلك منع الريبة كلية. فأجابه مينو إلى طلبه وأغلق الأزهر.

***

اختار الشوربجي إسماعيل ابنه عثمان قائدا للكتيبة الألبانية التي تشكلت قبل وقت قليل من قدوم الأسطول العثماني، وأصبح محمد علي نائبا له، يعلم حاكم قولة أن محمد علي هو الأجدر بقيادة الكتيبة، مؤهلاته وشجاعته وبعد نظره في أمور كثيرة تجعله هو القائد. أسر بهذا إلى محمد علي وأخبره أنه اختار ابنه قائدا للكتيبة حتى يعطيه مزيدا من الثقة في نفسه حتى يكون مؤهلا بعد وقت لأن يحل محله في حكم قولة، "لكنك يا محمد ستكون القائد الفعلي، وعثمان يعلم هذا جيدا، ولن يتخذ قرارا إلا بعد أن يتشاور معك". تفهم محمد علي الموقف، ولم يضايقه كثيرا أن يكون عثمان هو القائد، عثمان صديقه منذ فترة طويلة، وعلاقتهما معا تتجاوز مثل هذه الأمور.

ودع محمد علي أسرته، أراد لهذا الوداع أن يكون سريعا وغير عاطفي، يعلم مدى تعلق زوجه به، ويدرك متاعبها بعد أن وضعت ابنته "نازلي"، لكنه يثق في ابنه إبراهيم برغم صغر سنه، ويثق في أقاربه الذين سيتولون أمور تجارته في أثناء وجوده بمصر، أخبرها أنه لن يغيب كثيرا، شهور قليلة، سنة على الأكثر، ثم يعود.

وعلى السفينة التي اتجهت إلى الإسكندرية، كان محمد علي يتطلع بشغف إلى جبال قولة المتوسطة، وخضرتها الداكنة، وبيوتها التي تتضاءل والسفينة تبعد أكثر عن شواطئ قولة، تمنى لمهمته أن تنجح، وبخاصة أن الإنجليز يقفون بقوة مع السلطان في مواجهة الفرنسيس.

الفصل التاسع

لا شيء يعدل السعادة التي تعيش فيها هوى، تلتقي بجان بول مرتين أو أكثر في الأسبوع، لديها أسباب كثيرة تقولها لحسن أو لشَحتة من أجل الخروج، وحسن في المقابل مشغول بعمله الذي يحاول أن ينقذه، فلا يعصي لها طلباً. لكن جان بول يلح عليها كثيراً في مسألة طلاقها، ويسألها في كل مرة عما فعلت، وهي لا تريد أن تشعره أنها تسوف معه في أمر الطلاق، أو أن تصل إليه فكرة أنها تتلاعب به. فهي في أعماقها تحبه كما لم تحب إنساناً من قبل، وتريد أن تبقى معه بقية حياتها، لكن الطلاق يحتاج إلى ترتيب محكم حتى لا تفاجأ بأنها وجدت نفسها في الحواري والدروب تستجدي حسنات الناس. أوضاع الفرنسيس في مصر كما خبرت

في المدة الماضية "على كف عفريت"، وجان بول نفسه لا يقدم لها ما يطمئنها، ماذا بعد أن يقيم في مصر؟ ماذا سيفعل؟ وكيف يعيش؟ وهل تحتملهما مصر معاً: هي وحسن؟ لا تطمئن هوى إلى أن الفرنسيس سيبقون إلى الأبد كما يحاول جان بول أن يقنعها.

تستغرقها متعة اللقاء به، فتنسى هواجسها، تنبهه في كل مرة إلى أهمية أن يحترس فلا يبالغ، ثم تنسى نفسها تماماً، ما زال لقاؤهما الأول والرعب الذي لازمها بعده حتى ميعاد الحيض ماثلاً في ذهنها، ويحاول جان بول، لكنها لا تأمن لما يفعل، تقوم بسرعة لتغتسل من بقاياه، وتبالغ فيما تفعل. وينظر إليها جان بول في عتاب رقيق ويقول: ما عليك بهذا، لو كنت زوجتي الآن أمام الناس، هل كنت تحتاجين إلى فعل ما تفعلين؟ وتمنحه قبلة تثيره مرة أخرى وتقول: أنا أيضاً أريد أن أنتهي، وستسمع مني في الأيام القادمة ما يرضيك. تعود إلى حضنه فينظر لها نظرة تساؤل وهو يقول: هل تخونيني؟ فتتراجع هوى على الفراش وتتحفز: أنا؟ مع من؟ فيشدها مرة أخرى إليه وهو يقول: أنت تفهمين ما أقصد. وتضحك هوى، ثم تقسم له بالله أيماناً كاذبة أنها لا تفعل: لا أطيق رائحته، فكيف ألمسه.

***

الخريف بدأ يحمل هواءه اللطيف إلى مصر، وأوراق الأشجار

بدأت تصفر وتنزوي، ثم يتساقط بعضها، والناس في شغل عن تغيرات الطبيعة وتقلباتها، أثقلتهم الغرامات والفرد وسطوة القبط وهدم البيوت الذي يباشره النصارى بحجة توسعة هنا أو بناء هناك.

ثم يقبض على محتسب مصر في تهمة بدت لعبد العال غامضة، فلم يهتم بتتبعها. يتابع أعماله معهم بعد أن زادت مهامه، ثم يعود ليحكي لبكر ما فعلوه مع المحتسب.

- تشغل نفسك كثيراً يا عبد العال بالفرنسيس، يكفي أنك رضيت أن تعمل معهم.

- قلت لك يا صاحبي مئة مرة أنا أعمل معهم دون أن أضر بالمسلمين، هل رأيت مني شيئاً سيئاً.

ينظر إليه بكر في شك وهو يقول: لا رأيت شيئاً سيئاً أو جيداً، أنا لا أعرف إلا ما تحكيه لي.

ويتجاوز عبد العال كلامه، وهو يتساءل: ترى من سيكون المحتسب القادم؟

وفي الصباح يخبره أحد مساعدي ساري عسكر بأنهم اختاروه ليكون المحتسب الجديد. نزل عليه الخبر كالصاعقة، فلم ينطق،

انتبه الرجل، فسأله: هل تستطيع القيام بهذه المهمة؟ أجاب عبد العال وهو يتلعثم: نعم، نعم.

***

آخر ما يتصوره حسن وهو يستمع من سليم إلى الخبر.

- هل ما تقوله صحيح؟ هل عبد العال فعلاً هو المحتسب الجديد.

- نعم، يا سيدي، لله في خلقه شؤون، أول ما تأكد الخبر لدي اليوم، قلت إنك يجب أن تعرف حالاً.

حسن مذهول من الخبر، وسليم ليس أقل منه. ماذا سيفعل عبد العال مع الناس في الأيام المقبلة وقد أصبح فجأة آمراً ناهياً في مصر؟ من المبكر جداً أن يحكما عليه، "أرجو من الله أن يوفقه في مهمته الثقيلة". هكذا قال حسن لنفسه ولسليم قبل أن يغادره.

***

- هل تدري يا صاحبي المهمة الثقيلة فوق رأسك؟

بادره بكر بعد أن استوعب صدمة الخبر، يرد عبد العال: أرجو أن يعينني الله عليها.

- بل يجب عليك أن تنتبه إلى كل ما تفعله، هل يمكن أن تمشي

بالعدل بين الناس، هل تستطيع ضبط الأسواق وانفلات الأسعار وجشع التجار، هل يمكنك أن تمنع هذه المواخير التي نصبها الفرنسيس، وتحجز النساء المصريات عنها. هذه مهمة ثقيلة ثقيلة.

– إني قادر عليها إن شاء الله، وأنت تعلم أو ربما لا تعلم أن أول من يهمني في هذا الأمر هو أن يشعر المسلمون بالعدل والأمان، فلا يسرقهم أحد، ولا يعتدي عليهم أحد دون ذنب جنوه.

ويتعجب بكر من المقادير التي ساقت عبد العال إلى هذه المكانة، هو لا يحسده، ولا حتى يتمنى أن يكون مكانه، لكن سيرة عبد العال منذ طفولته – وهو لم يفارقه أبداً – لا تؤهله إلى مكانة المحتسب، ولكن، لله في خلقه شؤون. ويفاجئه عبد العال

– سنترك يا بكر هذا البيت بعد أسبوع أو أسبوعين، استعد يا صاحبي. سنسكن في بيت أكبر، ليس بعيداً عن هنا، بالقرب من بركة الفيل مباشرة.

رد بكر باستنكار:

– من يترك البيت؟! أنت وحدك الذي ستترك البيت، أما أنا فسأعود إلى غرفتي القديمة، لا أستطيع بالطبع أن ادفع أجرة هذا البيت الكبير، تعلم مواردي.

لا يستطيع عبد العال أن يقايضه في البيت الجديد كما فعل في المرة السابقة، ويعلم أن بكراً أحياناً ما يتصلب دماغه، ويصبح النقاش معه وقتها دون فائدة. وقد وجد نفسه مستريحاً لرفضه، فالفرنسيس سيزورونه لا شك في البيت الجديد، فماذا يفعل إذن؟

أعد عبد العال نفسه لهذا الحوار، فأخبره أنه لن يتركه أبداً يغادر هذا البيت بعد أن ينتقل عبد العال إلى بيته الجديد، سيشتري هذا البيت من صاحبه، ثم أردف:

– يمكن أن تدفع الأجرة لي.... صمت ثم واصل: ستقول لي لا أقدر على كل الأجرة، طيب يا سيدي، اسكن في حجرتين وأغلق الباقي كأني غائب مدة ثم أعود، وحتى أريحك، سأترك كل فرشي فيه.

***

فرحت شَحتة لعبد العال، وأطلقت زغرودة، وأبدت هوى اندهاشها، وقالت لحسن:

– ألم تكن أنت أولى بوظيفة المحتسب؟ لك معارف كثيرة من الشيوخ، وهم على ما تقول يحبونك ويحترمونك.

– هل تحسدين عبد العال يا هوى أم ماذا؟

– لا أحسده، بل أتعجب منك أنت ومن حالك. تستطيع أن تكون

في مكانة أفضل، وتسكن في بيت أحسن. فلماذا..؟

لم يتركها حسن تكمل جملتها، فقال:

- كل ميسر لما خلق يا هوى، أنا لا أستطيع أن أقوم بما يقوم به عبد العال، ولا هو كذلك، والحمد لله على الصحة والنعمة والستر.

ثم يتركها حتى لا تتفاقم الأمور. يشعر حسن أن هوى تزداد عزلة عنه، أشياء صغيرة كثيرة كانت تقوم بها كفت عنها، قبلتها في الصباح، وملمس يديها الناعم وهي توقظه، وهمسها الذي يثير جنونه، والأهم هو الألق والفرحة في عينيها حين تراه عائداً من الخارج. مشغول حسن بعمله وبما يحدث في مصر، لكنه ليس غافلاً عن معشوقته التي لا يعرف إلا إياها. يرضيها ويسترضيها علها تعود، لكنها لا تعود.

وأما هوى فقد شعرت أن هذه هي اللحظة التي يمكن أن تبدأ منها طلب الطلاق، لن تستطيع تحمل إلحاح جان بول أكثر من هذا، وهي تريد أن تنهي هذا الرعب الذي تعيشه كل شهر مع تأخر حيضها، فكرت أن تشركه معها في التفكير حتى يتأكد من جديتها. "لكن لا، ليس إلى هذا الحد، أستطيع أنا أن أسوي الأمر بعيداً عنه".

***

فجأة أصبح عبد العال ذا سطوة، لا يمشي وحده، بل حوله أتباع ومعاونون كثر، بعضهم اختارهم بنفسه، وكثير منهم اختارهم الفرنساوية. استغرقته حياته الجديدة، لكنه أبداً لم ينس نبوءة سليم عن عودة العثمانلية في خلال ستة أشهر، مر الشهر السادس، ثم السابع، ولا يعودون، ولا يبدو أنهم سيعودون. يطمئن قلبه قليلاً، وتتراجع هواجسه، ثم يبدي همة أكبر في خدمة الفرنسيس، وإثبات جدارته بوظيفة المحتسب.

في تجواله بالأسواق، يبتعد عن أسواق الدرب الأحمر والأماكن التي شهدت فقره وبؤسه، يترك هذا لأعوانه، أما هو فيذهب إلى أسواق الموسكي والأسواق الموجودة في الجمالية وباب الشعرية. أظهر عبد العال حزماً في متابعة الموازين التي يغش فيها أحياناً بعض التجار، وارتفاعات الأسعار التي يقومون بها لغير سبب مقنع له، يعرف بحكم ماضيه في التشرد أماكن شراء السلع بأسعار رخيصة، يدل عليها كثيراً الناس الذين يصادفهم في أثناء تجواله، وأما التجار فيشدد عليهم دون عقاب بألا يلجؤوا إلى رفع أسعارهم إلا إذا أعلنوه بذلك قبلها، وبينوا السبب.

لكن وظيفته اضطرته إلى أن يقوم بالقتل، لم يكن يظن نفسه سيفعل هذا، ولا أن يضطر إليه، لكنه فعل. والحكاية أن بعض اللصوص سرقوا بيت أحد الأثرياء بالقرب من بركة الفيل، استقصى عنهم،

وعرف أنهم أتوا من خارج مصر بابو زعبل. أخذ من يعرفهم معه، وذهب إلى المكان حيث قبض عليهم، ظل يضربهم هناك حتى يدلوه على المسروقات دون جدوى، فعاد بهم إلى مصر. ثم اعترف اثنان منهم تحت وطأة التعذيب بأن ثالثهم هو الذي حرض وخطط ونفذ، وكانوا له فقط معاونين، أمر عبد العال من فوره بضرب عنقه. واختار أن ينفذ هذا الأمر تحت باب زويلة قريباً من بيته القديم.

وفي الليل لاح له الرجل المضروب عنقه من بعيد، ولام نفسه، ألم يكن من الأجدر له أن يتأنى حتى يستوثق؟ لقد رأى الفرنساوية وما فعلوه مع سليمان الحلبي، فلم يقتلوه حتى حاكموه. فلماذا لم يفعل مثلهم؟ واشتغل ذهنه في اتجاه آخر، هؤلاء الفلاحون يجب ألا نظهر لهم اللين والموادعة، ولو ظللت معهم شهوراً، فلن أظفر منهم بشيء. ما فعلته اليوم رادع لغيرهم، وستستقيم الأمور بعدها. الشدة مطلوبة أحياناً ولو قتل فيها أبرياء.

***

"ماذا أقول له إذا سألني اليوم عما فعلته في موضوع الطلاق؟" كانت تفاضل بين سراويلها لتختار واحداً منها ترتديه وهي ذاهبة إليه وتفكر فيما ستقوله. تعلم أنها لم تصل حتى الآن إلى اللحظة الحاسمة مع حسن، حاولت في الأيام الماضية، وربما الأسابيع أن تشعره بعزلتها عنه، أن تجفوه بلا سبب في بعض الأحيان، ولأسباب

تافهة في أكثر الأحيان. لقاءاتهما الليلية تستغرقها لحظتها، لكنها تشعر بالنفور بعدها، وحسن لا ينتبه. طقوسه اليومية هي هي، ومحاولاته للكلام معها لا تنقطع، تشعر أياماً أن في عينيه تساؤلات حائرة، وجملاً يهم بها لكنه يبلعها. وتتمنى أن يتكلم، لكنه يتراجع. تكمل ارتداء ملابسها، وتستعجل مقبولة على الخروج، وتكون الخادمة جاهزة في الأسفل، تنزل هوى وتقبل محمود، وتحادث شَحتة أحاديث تافهة، ثم تقبلها على خدها وتخرج. تنظر إليها شَحتة ولا تتكلم، حسن لديه علم بخروجها، فما شأنها هي؟

لا تحتاج هوى إلى أن تمر على زينب في كل مرة تذهب إلى جان بول، اتفقت المرأتان على كل شيء، وفي اللحظات المهمة ستعرف كل واحدة ماذا ستنبئ عن الأخرى. وصلت إلى الأزبكية، إلى الشجرة المباركة التي رأت تحتها حبيبها لأول مرة بعد غياب. تركتها مقبولة، تعرف هي الأخرى ماذا تفعل. تلاحظ هوى أنها تتجول في الحديقة، وبعد وقت يطول أو يقصر تجدها وقد خرجت مع أحد الجنود. بين المرأتين اتفاق صامت أن تفعل كل واحدة ما تراه، ولا تحدثها هوى فيما تفعله، ولا ينبغي لها. هي في نهاية الأمر خادمة لا أكثر.

يأتي جان بول، ويذهبان إلى بيته أو بيتهما كما يقول لها. يسألها عما فعلت، وتخبره أنها ألمحت لزوجها بأنها لا تطيقه، ولا تريد أن

تستمر معه بعد ذلك يوماً واحداً. يتلهف جان بول على رد زوجها، فتخبره بأنه خرج غاضباً، فلم يرد عليها، "لا أظن أنه سيتحمل معه امرأة لا تطيق عشرته، كلها أيام أو أسابيع قليلة على الأكثر".

تستعيد هوى إحساسها بجسدها مع جان بول. فقدت هذا الإحساس منذ زمن طويل مع حسن. تمطر السماء مطراً شديداً، ويبرد الجو فجأة، فتلتصق به تستدفئ، ثم تغفو بعد إنهاك وبهجة. تستيقظ وترتدي ملابسها، ثم تعود إلى حسن.

***

واجه عبد العال اختباراً قاسياً في هذا الشتاء القارص. استدعاه وكيل ساري عسكر، وطلب منه أن يقبض على الشيخ محمد الأمير وابنه لأنهما يحرضان الناس على قتال الفرنسيس. مصيبة وهبطت فوق رأسه، كيف له أن يقبض على الشيخ والرجل له حظوة وكلمة مسموعة بين عدد كبير من الناس. فكر أن يتراجع، ويطلب إعفاءه من المهمة، لكنه استعاد كلمات الضابط، فشعر من نبرته أنه لم يكن يطلب، بل يأمر. كان ساهماً شارد البال بين أتباعه وهو ذاهب لمهمته."لماذا لا يذهبون هم للقبض عليه؟ ما شأني أنا". ووجد أن ما سيفعله جزء من مهام وظيفته، منع الفتنة بين الناس والقبض على مروجي الإشاعات. "لكنه الشيخ محمد الأمير، هذه مهمة كبيرة". ووصل عبد العال إلى نتيجة لم ترحه: الفرنسيس يدفعونه

إلى المقدمة ويواجهون الناس به في المهمات التي تثير بلبلة وتقود إلى الشغب، ولم يستبعد أن يأتي الفرنساوية ليفرجوا عن الشيخ حتى يكسبوا تعاطف الناس على حسابه هو.

فوجئ الشيخ وعبد العال واقف أمامه يطلب منه أن يذهب معه بعض الوقت إلى منزله، كان الرجل محاطاً بأتباعه، فنظروا إلى عبد العال شذراً، لكنه طمأنهم على الشيخ، حديث بسيط مع الشيخ لا يجوز أن يسمعه أحد. واحد من الحاضرين صاح: ولماذا لا نقف نحن خارج البيت، وتخبر الشيخ بما تريد على انفراد؟ الشيخ فهم من دعوة عبد العال ما كان يخاف منه الأيام الماضية، فقال لأتباعه مازحاً: هل تحرمونني من غذاء في بيت محتسبنا الهمام السيد عبد العال؟ سأذهب معه، وأعود في الليل إن شاء الله.

حاول الرجل أن يبرر لعبد العال فعلة ابنه، صغير السن لا يدرك عواقب الأمور، ويظن أن جهاد الفرنسيس واجب وفرض عين. ويرد عبد العال وهو حائر مع الشيخ: أنا أفهم يا شيخنا ما تقول، لكن ابنك كان من مثيري الفتنة قبل شهور، وعفا عنه الفرنسيس لما عادوا مرة أخرى، والآن يعود إلى حث الناس على قتالهم.

يبيت الشيخ في بيت عبد العال، وفي الصباح يذهب به إلى القلعة حيث يحبس عدة أيام، ويعود إليه عبد العال، ويطلب منه أن يكف ابنه عن إثارة الناس، فيخبره الشيخ أن ابنه ليس في مصر، بل

مقيم بفوة. عبد العال يقول له إن معلومات الفرنسيس أنه في مصر، فيخبره الشيخ أنهم كاذبون، وأنه على استعداد أن يذهب إلى هناك ويحضره. فيمهله عبد العال ثمانية أيام مسافة الطريق ويرسل معه اثنين من أتباعه.

***

الأيام تمر وجان بول يلح على هوى في إجراءات الطلاق، وهي كل مرة تعطيه خبراً كاذباً أو صادقاً، وتوهمه بأمور لم تحدث. تخاف جداً من المواجهة النهائية مع حسن، تود فعلاً أن تنتهي من هذا العذاب وهذه الأساليب الملتوية التي تقوم بها في كل مرة تلتقي فيها بجان بول. لكنها كل مرة تهم بإعلان رغبتها في الطلاق، تجد نفسها تتراجع، ولا تفهم لذلك سبباً، تريد أن تبقى حتى آخر عمرها مع جان بول، لكنها لا تريد أن تدفع الثمن. في لحظات يأس تقول له "كم أتمنى لو التقيتك أولاً، ساعتها كنت سأكون أسعد امرأة في مصر".

***

عانى بكر من الوحدة وعدم الاتزان بعد أن فارقه عبد العال. فعلى الرغم من أنه لم يكن يلتقيه ساعات طويلة كما كانا يفعلان في بيتهما القديم، فإنه يعرف أنه هنا، في مدى رؤيته لو أراد. أكثر من ثلاثة أشهر على لقائهما الأخير يوم أن غادر البيت لآخر مرة

بملابسه التي عليه هو وأسرته، تاركاً كل أشيائه في البيت كما وعد. لم يعد هو أبداً، لكن فاطمة زوجه كانت تأتي بين الفينة والأخرى تجلس بالساعات مع توحيدة، وتعود على وعد بلقاء ثان.

يشتاق إلى صديقه شوقاً عارماً، ويفكر أكثر من مرة أن يذهب إليه، لكنه يتراجع، يعلل نفسه بأن عبد العال لا بد مشغول، ولن يجد وقتاً للجلوس معه، ويعلم أن هذا ليس السبب الحقيقي، يخشى أن يلقاه، فيجده قد تغير، ولا يجد فيه عبد العال القديم، وحينئذ تكون صدمته موجعة. ما يحيط بعبد العال الآن يغري ويصيب بالغرور، ولا يدري إن كان الرجل قوياً بحيث ينتبه، أم لا. يدعو الله أن يبقى عبد العال كما يظنه فيه. ويبقى بكر بعيداً.

لكن اليومين الماضيين دفعاه إلى التفكير جدياً في لقائه. تناثرت أقاويل تشبه الهمس في جامع الأمير يوسف عن أن العثمانيين جهزوا جيوشهم وعتادهم، وتجمعوا بالشام استعداداً للقدوم إلى مصر مرة أخرى وطرد الفرنسيس، همس مشوب بالفرح عند قلة من المصلين، وممتلئ قلقاً عند أغلبهم. ما رآه بكر واستنتجه في هذين اليومين أن الناس تعبت مما يجري، الموت والدمار ووقف الحال وارتفاع الأسعار والنهب والسرقة وإباحة الدماء لأسباب لا تستحق والخوف والرعب والأوبئة، يقين بكر لم يهتز بضرورة رحيل الفرنسيس، فلم يجيئوا إلا ومعهم كل الشر وهدم الدين والعقيدة،

لكنه ليس موقناً الآن أنه سيفرح بعودة العثمانيين ومعهم المماليك. تذكر صديقه ورفيق عمره، وأحس أنه في خطر داهم، فلو صدقت هذه الأقاويل، ولا بد أن يكون لها أصل، فإن عبد العال لن يسلم مما سيحدث. أصبح الآن أحد المتعاونين الكبار مع الفرنسيس.

ذهب إلى بيته مرة، ثم أخرى، فلم يلقه، أخبر أهل بيته أنه لا بد أن يراه لأمر عاجل. توهم أنه لا يعرف ما يدور حوله.

لكن عبد العال كان يعلم، وحين التقى ببكر بعد ذلك أخبره أنه عرف مبكراً، لكن ماذا يفعل "لقد اخترت طريقي يا بكر، ولا حيلة إلا أن أمضي فيه إلى النهاية، صدقت نبوءة سليم حين التقينا في آخر مرة عند حسن، لكن كل هذا لا يفيد الآن".

أخبره عبد العال أن الفرنسيس يعلمون أيضاً ما يحدث في الشام، وهم مستعدون له استعداداً طيباً، ولن يستطيع العثمانلية أن يدخلوا مصر بسهولة، الفرنساوية ليسوا ضعفاء كما يتحدث الناس، وسنرى.

***

لكن الذي حدث أن العثمانيين دخلوا سيناء من الشرق ونزلت سفنهم على ساحل البحر في الإسكندرية باتفاق ومعاونة قوية من الإنجليز. وكانت السفينة الألبانية التي تقل محمد علي وجنوده واحدة من هذه السفن.

قبل يوم من وصولها وحين اقتربت من سواحل الإسكندرية كان محمد علي واقفا على سطح السفينة يرقب من بعيد الشاطئ وملامحه تزداد وضوحا، عرف من خلال عثمان أن الفرنسيس وافقوا على الخروج وفق الشروط التي اتفقوا عليها مع العثمانيين في العريس قبل أكثر من عام، وأن الإنجليز طرف أصيل في هذا الاتفاق، ومن ثم فإن نزولهم إلى الشاطيء لن يواجه بمقاومة، وإذن لا قتال مع الفرنسيس على الأقل الآن.

بعد يومين من نزولهم على الأرض واجه محمد علي مشكلة توقعها لكنه لم يكن يظن أنها ستأتي بهذه السرعة، عثمان بن الشوربجي أسر له أنه لن يستطيع المكوث في الإسكندرية، وهو يريد العودة إلى قولة في أقرب وقت تاركا قيادة الكتيبة له. لم يحاول محمد علي أن يثنه عن قراره، بل ساعده على أن يحفظ ماء وجهه لدى قائد الأسطول العثماني الذي يأتمرون بأوامره. وفي خلال أسبوع كان محمد علي هو القائد الفعلي لمجموعة من الجنود عددهم ثلاثمئة.

الفصل العاشر

ضرب الطاعون مصر مع كل الاحتياطات التي اتخذها الفرنسيس، حصد من الأرواح ما يفوق العد، حاولوا محاصرته بإجراءات كثيرة تخص طريقة نقل الموتى والتعامل مع المصابين والبيوت التي اقترب منها الطاعون أو توطن، ومع ذلك كان الموتى كثر. مات محمود بن حسن، في لحظة خرج الصبي من منزله لأمر ما، فلم يعد إليه ثانية، أمسك به الفرنسيس عندما اشتبهوا به قريباً من أحد البيوت المصابة، أخذوه إلى البيمارستان المنصوري، ومنعوا أحداً من الاقتراب منه، ثم تفاقمت حالته، ومات بعد يومين، ودفن بملابسه.

استطاع أبوه بعد تجاوز الصدمة الأولى أن يتماسك، على الأقل

ظاهرياً، وانعزلت هوى في حجرتها لا تغادرها إلا لماماً، مذهولة، يائسة، بائسة. وأما عمته فهي التي أعلنت حزنها عالياً، بصراخ يمزق القلوب. ظلت أياماً تدور وتلف في أرجاء البيت باحثة عن ابنها الذي لم تلده، باكية، لاطمة.

هوى في عزلتها بدأت تستقبل شعوراً آتياً من بعيد، من أعماق أعماقها، حنين جارف إلى جان بول. "لو كان معي في هذه الحظة لاحتواني وخفف من حزني، لكن أين هو، وهل علم بمصابي". تلوم نفسها، وتطرد شيطان عواطفها، لكن الشيطان يعود، ويلح، ويتوطن، ويتمكن.

جاء سليم إلى حسن ومعه بكر، وحتى عبد العال برغم شواغله الكثيرة، جاء بموكبه، وجلس مع أصدقائه طويلاً، ثم غادر.

***

أما الأخبار التي كانت ظنوناً في الأسابيع الماضية فقد أصبحت حقيقة الآن، العثمانلية دخلوا غزة، ثم استولوا علي العريش من الشرق، وبعضهم أتى من البحر بمساعدة من الإنجليز، استولوا على الإسكندرية، وأصبحت مصر مهددة من الجهين: الشرقية والشمالية.

أيقن عبد العال أن الواقعة لا بد آتية، لكنه ما زال يأمل في

قوة الفرنسيس، لما وجد الناس يلهجون بقوة العثمانلية وضعف الفرنساوية، أشاع في الناس أن ساري عسكر بونابرته قادم بجيش يسد عين الشمس، ولما رأى الناس يغلقون حوانيتهم خوفاً من القادم، شدد على فتحها ومعاقبة من يخالف ذلك. اجتهد عبد العال في خدمة الفرنسيس، وبالغ فيما يفعل انتظاراً للمجهول.

***

شهران مرا على وفاة ابنها، لم تخرج فيه من البيت، جاءتها زينب بعد أسبوع من موته، فلم تذكر لها جان بول، ولم تسأل هي. لكنها الآن تريد أن تراه، كراهيتها للمكان تضاعفت، وأصبحت مستعدة الآن لفعل ما كانت تخشى مواجهته في الشهور الماضية. لكنها يجب أن ترى جان بول أولا، لم تسمع عنه خبراً طوال الشهرين. أرادت أن ترسل مقبولة لزينب، لكن مقبولة قالت لها إنها تستطيع أن تصل إلى جان بول مباشرة، لها وسائلها في الوصول إليه.

***

طلبوا المشايخ إلى الديوان، فلما تكامل حضورهم، حضر "فوريه" وكيل مينو وصحبته عدد من الفرنسيس، تكلم فوريه كلاماً كثيراً ليزيل عنهم الوهم ويؤانسهم بزخرف القول، قال إنه يحب المسلمين ويميل بطبعه إليهم، وخصوصاً العلماء وأهل الفضائل، ويفرح

لفرحهم، ويغتم لغمهم، ولا يحب لهم إلا الخير، وسياسة الأحكام تقتضي بعض الأمور المخالفة للمزاج، وأن ساري عسكر قبل ذهابه رسم لهم رسوماً، وأمر بإجرائها والمشي عليها في أوقاتها، وأنه عند سفره قصد أن يعوق المشايخ والأعيان، ويتركهم في الترسيم رهينة عن المسلمين. فلما ظهر له وتحقق أن الذين وردوا إلى أبي قير ليسوا من المسلمين، وإنما هم إنجليزية ونابلطية وأعداء للفرنساوية وللمسلمين أيضاً، وليسوا من ملتهم حتى يخشى من ميلهم، أو يتعصبوا من أجلهم.. والآن بلغنا أن يوسف باشا الوزير وعساكر العثمانية تحركوا إلى هذا الطرف، فلزم الأمر لتعويق بعض الأعيان، وذلك من قوانين الحرب عندنا، بل وعندكم. ولا يكون عندكم تكدر ولا هم بسبب ذلك.. فليس إلا الإعزاز والإكرام، أينما كنتم".

انتهى كلامه وانقضى المجلس على بقاء الشيوخ: الشرقاوي والمهدي والصاوي والفيومي رهينة للفرنسيس في القلعة.

***

بكت عندما رأته في الأزبكية، لمح دموعها وراء البرقع الذي يخفي كل وجهها عدا عينيها، فصمت، ولما وصلا إلى البيت ارتمت في حضنه وأجهشت بالبكاء. "لا أحتمل البقاء يوماً واحداً في هذا البيت" لم يكن قد نطق بكلمة حتى الآن، ولا أراد ذلك. احترم حزنها، وترك لها أن تسير به كيفما شاءت، وعندما نطقت بهذه

الجملة رد عليها: "الأمر بيدك، اليوم لو أردت يمكن أن نتزوج". تنهدت من قلبها وقالت: يا ليت.

مكثت معه بضع ساعات حتى العصر، ثم عادت مع مقبولة. ظلت تقابله بعد ذلك يوماً بعد يوم

***

عبد العال يبدي همة ونشاطاً في عمله، والفرنسيس يبدو أنهم نسوه، فتركوا له كل شيء، بل لم يسألوه عن شيء، كانوا منشغلين بحربهم القادمة مع الإنجليز والعثمانلية. رجاله ينتشرون في نواحي مصر، يراقبون التجمعات، ويحاولون قدر ما يستطيعون ضبط الأمور. في الأزبكية كان هناك بعض من رجاله يراقبون النساء اللائي زاد تبرجهن والرجال الذين زاد تهتكهم وجهرهم بالفواحش في الأيام الماضية.

واحد من أتباعه كان ينظر بأسى إلى بعض النسوة الفرنسيات المتبذلات في ملابسهن وسيرهن وطريقة ضحكهن، كان معهن بضع رجال. لم يستطع أن يقترب منهم. استدار بوجهه عنهم غاضباً، ولمح امرأتين متدثرتين لا يرى منهما إلا العينين. "مصريات، لاشك في ذلك، ما الذي جاء بهما في هذه الظهيرة إلى الأزبكية وحدهما؟ أليس لهما رجال تمنعهم؟" عند الشجرة الضخمة وسط الحديقة لاحظ أحد المرأتين تتجه إلى رجل فرنسي واقف تحتها،

لحظات ورأى الاثنين يسيران خارجين من الحديقة. قال في نفسه "هذا صيد ثمين، لن أتركهما حتى أعرف إلى أين يتجهان". سار خلفهما على مسافة ليست بعيدة حتى وجدهما يدخلان بيتاً ليس بعيداً عن الحديقة. لم يشك الرجل أبداً أن في الأمر شيئاً. فكر للوهلة الأولى أن يدق عليهما الباب، ثم يقبض عليهما، لكنه قال في نفسه "هذا رجل فرنسي، يحتاج إلى ترتيب آخر، عبد العال نفسه هو الذي يقرر ماذا نفعل".

هرع إلى عبد العال يخبره بما رأى. قال له عبد العال: أذهب معك وأرى وأتأكد، لعلك واهم. دله على البيت، فوقف أمامه مع الرجل متردداً هل يدق على الباب أم يترك كل هذا الموضوع؟ ولما وجده الرجل هكذا، أقسم له أنه رآهما قبل حوالي الساعة داخلين هنا.

دق عبد العال الباب فجزعت هوى، واضطرب جان بول، لكنه تماسك. قالت له:

- من بالباب؟

أراد أن يطمئنها فقال: لا تخافي، يظهر أنه أحد زملائي، هم يعرفون قصتنا، ويعرفون البيت

- لكن لماذا يأتي إلى هنا؟

– لا تقلقي، الأمر بسيط.

أغلق عليها باب الحجرة، ثم أغلق باب البيت وتجاوز الفناء إلى الباب الخارجي وفتحه ليجد عبد العال ومعه الرجل الآخر، قال له عبد العال ما رتبه في ذهنه قبل أن يفتح له جان بول:

– هذا الرجل يقول إن معك امرأة مصرية بالداخل، و...

لم يدعه جان بول يكمل كلامه، فرد من فوره: نعم، هي امرأتي، وكانت تقضي بعض شؤونها والتقينا بالأزبكية، ثم رجعنا إلى البيت. ثم نظر إليه شذراً وأضاف: ماذا تريد؟

تردد عبد العال لحظة، ثم قال: لا شيء، لا شيء، نريد فقط أن نطمئن عليكم.

أغلق جان بول الباب بعنف في وجه عبد العال، ودخل مضطرباً خائفاً على هوى، لكنه حين دخل الحجرة ابتسم في وجهها وقال: ألم أقل لك؟ أرادوا أن يزعجونا بلا سبب. لعنة الله عليهم.

وأما عبد العال فوبخ الرجل معه، وقال له: ماذا تقول يا فالح؟ حكايتك تطابقت مع حكايته، هل كنتما متفقين في هذه أيضاً؟

تركه ومضى، لكن الرجل لم يخالجه شك في صدق هواجسه، "ليست زوجته، وهو يكذب، إذا أراد عبد العال أن يصدقه، فهو وشأنه، أما أنا فلست عبيطاً" وقرر الرجل أن يكمن في مكان قريب

من البيت، "إذا صدقت ظنوني، فإن المرأة لن تبقى في البيت حتى الليل، ستخرج حتماً في أي وقت".

وخرجت هوى ومعها جان بول، توقع الرجل أن الفرنسي سيمسح بعينيه المكان بمجرد أن يخرج، فاختبأ بحيث لا يراه. ولما وصلا إلى الأزبكية رآه وهو يتركها، ثم تنضم إليها المرأة الأخرى وتخرجان من الحديقة. سار وراءهما حتى وصلا إلى البيت، فابتهج الرجل، وقال في نفسه "حتى لا يظن عبد العال أني أتوهم، غداً سأخبره بما فعلت، وسأدله على البيت".

أتاه في الصباح مبتهجاً معلناً انتصاره وصدقه فيما قاله، تعالى لأريك بيتها، سرت وراءها بالأمس حتى وصلت إلى بيتها الحقيقي قريباً من باب زويلة". نظر إليه عبد العال في شك، ثم قال له "خليك وراء الكذاب حتى باب الدار، تعال يا فالح". خرج الرجلان سوياً، واخترقا دروب مصر من غربها واقتربا من الأزهر، ثم انعطفا يميناً. "ما الذي يقودني إليه هذا المجنون؟ هذه منطقتي القديمة، إلى أين يذهب بي؟ كان الرجل يسير أمامه متقدماً خطوة واحدة، ويبدو أنه يعرف طريقه جيداً. وقف بعيداً عن بيت وهو يشير إليه بانتصار "هذا هو البيت، رجعت المرأة ومعها أخرى إلى هنا، أنا رأيتهما داخلتين هنا بالأمس بعد أن خرجت من بيت الفرنسي". بهت عبد العال وهو يسمع للرجل، هذا بيت حسن، ما الذي يقوله

هذا المجنون. صمت برهة، وأحس نفسه في حيص بيص، ماذا يفعل؟ وماذا يقول؟ هل صحيح ما يقوله هذا الرجل؟ كيف؟ كيف؟ نظر إليه بغضب وهو يقول: لا أسمعك تعود إلى هذا الكلام مرة أخرى، هل تطلب مني الآن أن أدخل على صاحب البيت وأتهمه في عرضه دون دليل، ما تقوله هراء ولا أصدقه، ولو سمعتك مرة أخرى تتحدث في هذا علقت رقبتك فوق باب زويلة. صمت الرجل في رعب من نظرات عبد العال، وطأطأ رأسه.

لم ينم عبد العال يومها ولا يومين تاليين، وهو يذهب كل يوم إلى الأزبكية ولا يرى شيئاً، حتى جاء اليوم الثالث فرأى الفرنسي الذي انحفرت صورته في ذهنه واقفاً تحت الشجرة، ثم رأى امرأتين، تتبعهما حتى البيت، وبعد أن استوثق وتأكد، وقف حائراً غاضباً مستهولاً ما رآه، "لعلها امرأة أخرى غير التي كانت، يجب أن أتأكد بنفسي أنها زوج حسن". انتظر وقتاً حتى خرجت، ثم سار وراءها حتى البيت. الغضب أعماه لحظتها، وهم أن يدخل وراءها ويخبر حسن، وهم أن يفعل أشياء كثيرة، ثم قرر أن يحمي صديقه على طريقته. انتظر حتى لقائها التالي، ووقف أمام البيت وخبط على الباب بكلتا يديه، فتح له جان بول مذعوراً، لم يمهله عبد العال، دخل البيت ونادى على هوى التي لم يكن رآها من قبل، دخل الحجرة، فوجدها مذعورة مرتعبة تكمل ارتداء ملابسها. تراجع حتى أكملت لبسها، ثم دخل ليسحبها من يدها وهو ينظر إلى جان

بول ويقول:"لو فتحت فمك بكلمة، سأقتلك الآن، واقتلها" وخرج بها مسرعاً إلى الطريق.

عبد العال يعرف ماذا يفعل، ذهب بها إلى بكر في بيته القديم. حكى له كل الحكاية، ثم قال له: حسن لا يستحق الفضيحة، هي معك الآن، تصرف كيفما شئت. ثم غادره بعد أن ترك معه كتلة من النار. أول ما فعله بكر أنه أخبر توحيدة زوجه أنه حدثت مشكلة كبيرة بين هوى وحسن، لذلك ستبيت عندنا يومين أو ثلاثة

***

عادت مقبولة وحدها إلى البيت، ظنت سيدتها ذهبت إلى زينب، وعاد حسن، فرأى مقبولة وحدها، وذهب إلى زينب، فأخبره أحد الخدام نقلاً عن زينب أنها كانت هنا من وقت قليل، ثم غادرت. وعاد إلى البيت لعلها وصلت من طريق آخر، فلم يجدها. جن جنونه، وأحس أنها في خطر، لعلها خطفت، أو قتلت"، ماذا يفعل وقد تجاوز الوقت العشاء بساعة أو ساعتين. خرج في طرقات مصر يبحث عنها، وأعياه البحث، فعاد. انتظر إلى الصباح مستيقظاً، وذهب إلى عبد العال، هو وحده يمكن أن يعرف مصيرها" لم يشأ عبد العال أن يخبره بما حدث، خاف أن يواجهه، حسن بالنسبة له إنسان غير عادي، مكانته كبيرة، وقدره عال، كان دائماً هو المثل الأعلى لهم جميعاً. وعده خيراً، لكنه قال له في النهاية: لماذا لا

تذهب إلى بكر؟ عمله قليل ومعارفه كثيرة في المسجد، هو أفيد لك مني. ذهب إليه وفي بيته عرف كل شيء.

***

سار إلى جوارها يجر قدميه حتى البيت، كانت تتمنى لو أن بكراً ستر عليها، ولم يخبر حسن، توحيدة لم تتحدث معها في أي شيء، وكل حديثها حول خلافات مزعومة، أما هو فتمنى لو كان قد قتلها في بيت بكر، لكن بكر منعه "هنا، لا، ستكون فضيحة كبيرة لك، في بيتك افعل بها ما تشاء، فهمت من عبد العال أنك لو قتلتها، فلن يحاسبك أحد". وفي البيت تركها يوماً ويومين وأسبوعاً، وفي كل يوم يصعد إليها وهي نائمة يريد أن يقتلها، فيجفل ويتراجع، ثم يبكي وينزل عائداً إلى "المنضَرة" ينام فيها أو يحاول، وفي اليوم الثامن دخل عليها قبيل الفجر بسويعات، وأمسك بوسادة وضعها فوق وجهها، وبعد أن همدت وكفت عن الحركة، رفع الوسادة، ونظر إلى وجهها، ثم مسح على رأسها، وقبلها على جبينها، وجلس يبكي بجوار جثتها.

الفصل الحادي عشر

وصل الوزير الأعظم ومعه العثمانيون دجوى جنوب بنها، وتوترت الناس في مصر، اثنان من هؤلاء الناس كان توترهم أشد: يعقوب وعبد العال، حتى اللحظة، فإن يعقوب يخادع نفسه، ويمنييها بانتصار الفرنسيس الوشيك على المسلمين كما فعلوا المرة الأولى، لا يخبره الضباط الذين يتصل بهم بالحقيقة، ولا يحاولون، لو فعلوا ذلك، سيخسرون نصيراً مهماً لهم يرتب أوضاعهم الأخيرة في مصر، ويحمي جنودهم من تحرشات الغوغاء والأوباش. ويظهر يعقوب همة عالية. وكل رجل قبطي اسمه عبد الله بجمع طائفة من الناس لعمل المتاريس في الجهات الشمالية والشرقية من مصر، فتعدى هذا الرجل على بعض الأعيان وأنزلهم من على دوابهم،

وعسف وضرب بعض الناس على وجوههم حتى أسال دماءهم. اشتكى الناس من هذا القبطي إلى يعقوب، ظنوه يفعل هذا بعيداً عنه، فوجدوه يوافقه، ويقول لهم ما فعله إلا عن أمر مني. ويرفع الناس شكواهم إلى قائمقام مينو، فيحاول أن يستميل الناس في أيامهم الأخيرة في مصر، ويحبس القبطي.

وفي هذه الأيام الأخيرة جمع القائمقام أعضاء الديوان وقال لهم: نخبركم أن الخصم قد قرب منا، ونرجو منكم أن تكونوا على عهدكم مع الفرنساوية، وأن تنصحوا أهل البلد والرعية بأن يكونوا مستمرين على سكونهم وهدوئهم، ولا يتداخلون في الشر والشغب، فإن الرعية بمنزلة الوالد، وأنتم بمنزلة الوالد، والواجب على الوالد نصح ولده، وتأديبه وتدريبه على الطريق المستقيم التي يكون فيها الخير والصلاح، فإنهم إن داوموا على الهدوء، حصل لهم الخير، ونجوا من الشر، وإن حصل منهم خلاف ذلك، نزلت عليهم النار، وأحرقت دورهم، ونهبت أموالهم ومتاعهم، ويتمت أولادهم، وسبيت نساؤهم، وألزموا بالأموال والفرد التي لا طاقة لهم بها، فقد رأيتم في الوقائع السابقة، فاحذروا من ذلك، فإنهم لا يدرون العاقبة، ولا نكلفكم المساعدة لنا، ولا المعاونة لحرب عدونا، وإنما نطلب منكم السكون والهدوء لا غير. فأجابه الشيوخ أعضاء الديوان بالسمع والطاعة.

***

أما عبد العال فكان ذهنه يعمل في اتجاه آخر، أدرك أن النهاية آتية لا ريب فيها، كل ما كان يوهمه به الفرنسيس سيصبح في وقت قريب سراباً، وإذا كان الفرنسيس قادرين على مواجهة العثمانيين وحدهم، فإن العثمانيين الآن ليسوا وحدهم، الإنجليز يدفعونهم إلى العودة إلى مصر مرة أخرى، ويساعدونهم. خلص إلى هذا من كل ما يستمع إليه حوله، وشعر بالرعب. هو الموت لا محالة، أصبح الآن عبد العال معروفاً، ولن يتركه العثمانيون ولا حتى الناس. ولن ينجو.

نومه متقطع، يستيقظ فجأة مفزوعاً من نومه القليل، ثم يستعيذ الله من الشيطان، ويحاول النوم مرة أخرى. ويستيقظ في الصباح يصلي صلاته التي ينساها كثيراً، ويحاول أن يتماسك، ويبدو هكذا أمام معاونيه ومن يلقاهم في الطرقات، لكنه في أعماقه مرعوباً، يود لو كان نسياً منسياً، ويتذكر نبوءة سليم عن عودة العثمانيين مرة أخرى، ويتمنى لو كان صدقه وقتها. لكن الأوان فات جداً.

رأى أن يرتب أوضاعه قبل أن تداهمه الأحداث بما لا يقدر. فعل هذا سراً وعلى مدى طويل، باع بعض البيوت التي اشتراها أو استولى عليها عنوة، ثم اشترى كثيراً من الذهب، وأخفاه في ركن من بيته لا تصل إليه فاطمة.

***

اقترب العثمانيون أكثر، رفعوا بيارقهم على الحسينية، سبق هذا مضاربات ومناوشات بينهم وبين الفرنسيس، فانقطعت الطرق، وخاصة التي تصل مصر بالريف حولها، فانقطع معها وصول الغلال والأقوات والخضروات والمواشي، فعزت الأقوات وغلت الأسعار فيما هو موجود داخل مصر. وجد عبد العال فرصة لأن يكسب الناس، فأحضر القبانية، والزمهم بإحضار السمن والخضروات، وضرب البعض منهم، فأحضروا له في يومين أربعة عشر رطلاً بعد الجهد في تحصيلها، وبيعت الدجاجة بأربعين نصفاً، وامتنع وجود اللحم من الأسواق، واستمر الأمر على ذلك الأربعاء والخميس، ثم انتشر بين الناس أن الفرنسيس يتفاوضون مع العثمانيين على الرحيل، فسكنوا، وفرحوا.

***

قضي الأمر، كان على عبد العال أن يأخذ الآن خطوته الأخيرة، ذهب إلى سليم، كان جالساً خلف منضدة متوسطة الحجم في حجرة داخل البيت الذي يدير من خلاله أملاك الشيخ البكري، رآه فهلل ورحب به، حاول أن يداري قلقاً وشروداً ومرارة في الروح يدري أسبابها، لكنه يجهل كيف يداويها أو يعايشها

– ماذا وراءك أيها المحتسب الهمام؟

شعر عبد العال بغربة وهو يستمع إلى الكلمة، ولاحظ نبرة أسى

في السؤال فشل سليم في كبحها.

– ورائي ما كنت أحاول أن أتجنبه، لكني لم أستطع، الآن يجب أن أواجه مصيري. أنت ترى الفرنسيس وهم يستعدون للخروج.

انتبه له سليم بكل حواسه، وأدرك بسرعة أنه لم يأت إليه إلا لأمر جلل، لكنه حاول أن يباعد ما بين الأمرين:

– وما شأنك أنت بخروج الفرنسيس، فليخرجوا كما جاؤوا، سنعود إلى ما كنا عليه قبل أن يأتوا.

نظر إليه عبد العال باستغراب وقال:

– أنت تهزل، لا شك، ما شأني؟ تقول ما شأني؟ هذا كل شأني. هل تظن أن الناس سيتركونني في حالي بعد خروجهم؟ أنت تحلم، أنا ما جئت إليك إلا لهذا الأمر. اسمع يا سليم ولا تقاطعني.

اعتدل سليم في جلسته ووضع يده اليمنى على خده، ولم ينطق، لكنه دعاه بعينيه أن يواصل:

– لقد قررت أن أرحل مع الفرنسيس، لن أستطيع البقاء هنا بعد رحيلهم.

بهت سليم وعبد العال يتحدث ببساطة هكذا، فهم أن يقاطعه، فأوقفه عبد العال:

- أرجوك لا تقاطعني، واسمعني حتى النهاية، قررت أن ارحل وأترك كل شيء ورائي، حتى زوجتي وابنتي، أعرف أن مصيري هو الموت بعد رحيلهم، في الأيام الماضية بعت كل شيء أملكه، سأحتفظ بجزء يعينني على حياتي الجديدة في مكان لا أدريه حتى الآن، وسأترك معك الجزء الباقي تعيل به فاطمة والبنت.

في عيني سليم ظهر تساؤل قرأه عبد العال بسرعة، فأردف: ستقول لي لماذا أنا وليس بكر وهو الأقرب، سأقول لك إن بكر سيرفض هذا العرض تماماً، سيقبل منه جزءاً وهو رعاية أسرتي، لكنه لن يقبل مني قرشاً واحداً، تعلم بكر ودماغه.

أنصت سليم، ولم يجد كلمة واحدة يقولها بعد أن انتهى عبد العال. ترك عبد العال له صرة فيها ما يكفي أسرته ويعينها على الحياة بعد رحيله، وقبل أن يغادره سأله إن كان يمكن أن يراه مع بكر بعد ثلاثة أيام.

وبعد ثلاثة أيام جاء عبد العال وبكر إلى سليم، وبمجرد أن جلسوا، لم يضع عبد العال وقته، أراد أن ينهي توتره والموقف

كله في أقل وقت، أشهدهم أن زوجه فاطمة أصبحت طالقاً منه من هذه اللحظة، ثم نظر إليهم والدموع في عينيه، وغادر قبل أن يفيق الصاحبان.

القسم الثالث

التمكين

الفصل الأول

الشيخوخة تدب في أركان بيت حسن، فقدت الجدران ألقها، وبدا الفناء مكتئباً. شَحتة أغلب وقتها تقضيه في تفقد حجرات البيت وإعادة ترتيب ما لا حاجة إلى ترتيبه، تبحث عمن لن يعود، وحسن صامت أبداً، متوتر دائماً، يبدو متماسكاً حين يظهر لأخته أو يحاول أن يكون كذلك، وإلا فهو في المنضرة ممد على الأرض متوسد حشية، متطلع إلى سقف الحجرة، متأمل عروقها الخشبية وزواياها. عاف الطعام أو كاد، فلا يأكل إلا ما يقيم أوده. في أول الأمر كانت شَحتة تطارده بالطعام، وتتفنن في صنع ما يشتهيه، وكان يأخذ من كل ما تصنع لقيمات، ثم يمضي. يجلس في المسجد ساعات وحيدا

في أغلب الوقت، وفي صحبة جيرانه ومعارفه أحياناً. لا تعلق في ذاكرته إلا بضع كلمات يواسونه بها في زوجه التي ماتت وهي نائمة حزناً على ابنها الذي أخذه الطاعون.

وحين يجن عليه الليل، يكره الليل، ويتمنى لو أنه لم يأت. في الليل تتمدد أحزانه، وتستولي على الفضاء فيرتجف، وتسد عليه منافذ الهواء فيختنق، ولا يقر له جنب فيتقلب، ولا يغمض له جفن فيظل مسهداً حتى مطلع الفجر، ويحمد الله أن أُذن للفجر فيقوم ليتوضأ ويذهب ليصلي عله يجد السلوى في المسجد فلا يجدها، وحين يتمطى الصبح وتستيقظ الكائنات يقوم من أرقه لا صاحياً ولا نائماً، بل متعباً، ثم لا يعرف ماذا يفعل. أهمل دكانه، وتركه لبكر يفعل به ما يشاء.

أما بكر فقد كان مندهشاً وهو يستمع إلى عرض توحيدة زوجه، يحاول أن يتأكد مما قالت، نظر إليها يحاول أن يخترق دماغها ليعرف الكامن فيه وقال:

– ماذا قلت يا توحيدة؟ ماذا تطلبين؟

تشعر توحيدة أن الوقت ليس وقت المراوغة ولا وقت اختبارات، كانت جادة وهي تعيد عليه ما قالته:

– أطلب منك يا بكر ما سمعته جيداً، تزوج من فاطمة.

لم يصدق بكر ما سمعته أذناه مرة أخرى، قال لها: ولكني لا أريد ان أتزوج من أي أحد، انت نصيبي من هذه الدنيا، وأنا راض.

كان الزوجان جالسين في حجرتهما بالطابق الأسفل من البيت، اقتربت منه توحيدة، ومالت برأسها على كتفه وقالت: أعلم، لكن هل نترك فاطمة لكلاب السكك تنهش لحمها؟ هل ترضى لها ذلك؟

مال بكر برأسه قليلاً إلى الوراء، تطلع إلى السقف، ولم ينطق، كانت توحيدة تلتصق به أكثر كأنها تحتمي به، وضع يده على كتفها واحتواها. واستعاد كل حوادث الشهور الثلاثة الفائتة منذ أن رأى عبد العال لآخر مرة مع سليم وهو يطلق فاطمة أمامهما. يشعر بوحشة شديدة بعد غياب عبد العال، يشتاق إلى صديقه ورفيق عمره الذي غاب فلا يعرف له أرضاً، في صمت يبكي، وفي صمت يحزن، ويتوارى بهمومه بعيداً، ويجد في دكان حسن سلواه، ثم تشغله حوادث الوقت فيشعر أن الحزن ترف لا يقدر عليه من هو في مثل حالته. أصبح الآن مسؤولا عن ثلاث أسر كاملة، فماذا يفعل وهو لا يحسن ما يفعله حسن؟ لا يتركه سليم، يأتي إليه كل يوم تقريباً محملا بكل ما يحتاجون إليه، وينفح فاطمة أموالا تأخذها بنفس راضية. ولكن إلى متى سيستمر هذا؟ "ألا يقول المثل خذ من التل يختل، وتل سليم ليس عالياً واختلاله سيكون أسرع مما يتوقع".

يتفهم بكر دوافع توحيدة في عرضها للزواج من فاطمة، ارتبطت المرأتان بمثل ما ارتبط هو بعبد العال، ومنذ أن عادت فاطمة إلى البيت بعد أن باعت بيتها الآخر القريب من بركة الفيل بثمن بخس وهي لا تكاد تنزل إلى الطابق الأسفل في وجوده، لم يرها إلا مرات قليلة طوال هذه الأشهر الثلاثة، والآن فإن عليه أن يتزوجها حتى يحميها من كلاب السكك، "ومن الذي يحميني أنا من كلاب السكك"، وهم يجولون في كل وقت وينهشون كل مار، ويخطفون كل شيء حتى ملابس النساء وعمائم الرجال، ما تركوا أحدا في مصر لم يؤذوه.

***

وفي الإسكندرية هواء الخريف المنعش يضرب وجه محمد علي وهو واقف قريباً من قلعة قايتباي، يتطلع إلى الأفق الممتد أمامه وطيور النورس تحلق في مدى بصره زرافات ووحداناً آتية من الشمال مخترقة الساحل. يتطلع إليها محمد علي في شغف، ويتذكرها في هذا الوقت من العام الماضي حين كان يراها في قولة آتية أيضا من الشمال صوب البحر تسافر إلى حيث لا يدري. لم تكن تشغله وقتها بحركتها، ولا برحلتها، إنما شغلته الآن وهو على ساحل الإسكندرية، إنها آتية من قولة، عائلته وأهله. شعور بالحنين

بدأ يتلاعب به، بطيئاً في حركته عميقاً في تأثيره، تمنى لحظتها أن تنتهي مهمته في مصر في أسرع وقت.

لما عاد إلى سكنه في رأس التين، الناحية الأخرى من اللسان الممتد داخل البحر، وجد صديقه المقرب محمد لاظوغلي القادم معه من قولة. محمد علي هو القائد المباشر للاظوغلي في كتيبة الألبان أو الأرناؤود كما يطلق عليهم المصريون، عددهم يبلغ ثلاثمئة جندي جاءوا إلى الإسكندرية، لكنهم لم يدخلوا في حرب مع الفرنسيس. رتب العثمانيون كل شيء بمساعدة الإنجليز قبل قدومهم، فأراحهم. الأرناؤود موجودون في مصر أيضاً قبل قدوم محمد علي، وبينهم قائد كبير ينازع على حكم مصر هو طاهر باشا.

أخبره لاظوغلي أن قائد الأسطول العثماني القبودان حسين يريد أن يراه، كان الوقت قد تجاوز العصر بقليل، والمسافة بين رأس التين وقلعة قايتباي حيث يعسكر القائد العام يقطعها على حصانه في بضع دقائق، فوجد أنه يمكن أن يذهب، ثم يعود قبيل الغروب إن كان الأمر هيناً.

استقبله القائد في حجرته من الجهة الجنوبية للقلعة، مكتب القائد في مواجهة باب الحجرة، ظل محمد علي واقفاً حتى أذن له الباشا بالجلوس. أخبره أنه يجب أن يكون مستعداً في خلال أيام للانتقال إلى

دمنهور خلال أيام، مكوثه في الإسكندرية كل هذا الوقت كان بداع الخوف من نقض الفرنسيس لاتفاقهم ومن ثم عودتهم مرة أخرى، أما وقد بان الأمر وضمن الإنجليز عودة مصر إلى السلطان، فإن الجنود الموجودين بالإسكندرية أكثر من الحاجة. تفهم محمد علي الأمر وتلقاه بالطاعة. بعد أن انتهى الباشا صمت إيذانا لمحمد علي بالانصراف. شعر محمد علي وهو يمتطي حصانه عائداً إلى سكنه أن مهمته في مصر ستطول بأكثر مما قدر، ولم يمتعض، لكن عليه الآن أن يرتب أموره مع جنوده.

***

بدأ حسن يتعافى مما فيه، حزنه الهائل يتلاشى بمرور الوقت وينسحب في زواياه، لحظات شروده تقل وإحساسه بما حوله يزداد، تفرح شَحتة وتقر عينها، حسن هو الحبل السري الذي يربطها بالحياة، تقول له دائما وهو في محنته التي لا تدرك مداها ولا عمق تأثيرها عليه "ربنا يجعل يومي قبل يومك"، ويحتضنها ويتماسك حتى لا تفلت دموعه، وحين ينفرد بنفسه، يترك لنفسه العنان لعله يهدأ، لكنه لا يهدأ، والآن فإن حسن يعود إلى نفسه، يحاول أن يلتقط ما تبعثر منه طوال أكثر من ثلاثة أشهر عاش فيها على حافة الحياة، وتمنى في أوقات لا يدري كيف مرت عليه أن يكون نسياً منسياً، فلم يمر بهذه الدنيا، ولم يعش هذه الحياة.

"صباحك ندي يا صاحبي" استقبله بكر في الدكان، رد عليه حسن "أهلا بالعريس، لم أكن أظن أنك ستأتي هذا الأسبوع".

- ولماذا لا آتي؟ أنا لم أتزوج من فاطمة إلا لظروف تعلمها، وبعد إلحاح من توحيدة.

تشرق الشمس من خلف مسجد السلطان حسن، وتنفذ أشعتها خلال الدكان فتملأه ضياء. يخرج حسن ليستقبل أوائل الضياء بعيداً عن نظرات بكر، ثم يلتفت إلى الداخل فيرى ظله على أرضية الدكان طويلاً هائلاً، ينتبه إلى يد تخبط على كتفه، فيستدير ليواجه سليم الذي يتلقاه بالأحضان. يشعر حسن بالراحة، فبرغم أن بكراً يتجنب ما يعرفه، على العكس من سليم الذي يواسيه كلما رآه، فإن حسن لا يستريح لوجوده وحده مع بكر، بكر يذكره بكل مأساته.

في جلستهم هذا الضحى حمل سليم فكرة بدت مدهشة لكليهما، "لماذا لا نعمل معاً؟ يمكن أن أسافر لجلب الورق من إيطاليا كما كنت أفعل قبل مجيء الفرنسيس. نستطيع أن نكون أكبر تجار الورق في مصر في خلال وقت قصير" نظر إليه بكر وقال "أنت وحسن كنتما تقومان بهذا منذ أكثر من ثلاث سنوات، فما دوري أنا في هذا العمل" رد سليم: بل سيكون لك دور مهم جدا، أنت الذي ستتولى استلام الورق في الإسكندرية أو رشيد ودفع الرسوم عليه

وحراسته حتى يصل سالماً إلى هنا. راقت الفكرة لبكر، وبالطبع كان حسن موافقاً عليها.

ناقشوا كل ما يتصل بتحويل هذه الفكرة إلى إجراءات على الأرض، تدبير المال اللازم لبدء هذا المشروع الكبير أول ما شغلهم. حسن فكر في ما تبقى من مال، فوجد ما عنده يكفيه وأخته شحتة في الشهور القادمة ريثما يأتي الفرج من الله بمخطوط هنا أو هناك. مشروع كهذا، بعيد عنه كثيرا، وبكر لا له في العير ولا النفير في مسألة المال، أما سليم فلم يطرح هذه المسألة ولم يناقشها، بدا لهما أنه مطمئن وواثق من إنجاز الفكرة. لكن حسن سأل: من أين نأتي بالمال اللازم؟ رد سليم: نلتقي غدا، وسأقول لكما كيف ندبره.

بعد العصر تعمد سليم أن يغادر الدكان مع حسن، سار معه في الطريق إلى منزله، تحاشيا الطرقات الواسعة التي يعيث فيها العسكر فساداً في الأرض، واخترقا دروباً لا يعرفها إلا أهل مصر المدربون، وفي الطريق أخبره سليم بمبعث اطمئنانه، أسر له بوديعة عبد العال التي تركها معه. سأله حسن:

– لماذ لم تخبر بكراً بالأمر وخاصة أن فاطمة أصبحت الآن زوجه.

رد سليم: عبد العال نفسه لم يشأ أن يخبر بكراً، كان يعلم أن

بكراً لن يأخذ منه قرشاً واحداً وهو يشك في مصدره على الرغم من الحب الذي جمعهما، فاطمة نفسها لا تعلم، وما كنت أعطيه لها كانت ديوناً مزعومة عليَّ لعبد العال، أما الآن وهي في عصمته، فلا يصح أن أتجاوزه وأخبرها بما عندي، ولن أخبره بالطبع، لأنه لو علم فسيرفض شركته معنا رفضاً مطلقاً.

صمت حسن طويلاِ وهو يستمع إلى سليم وعرضه الذي فاجأه، أخبره وهما يقتربان من منزل حسن."أنه أيضا يحتاج إلى وقت للتفكير، الآن فإن الأمر يختلف، لنؤجل لقاءنا غدا بضعة أيام، إلى يوم الجمعة القادم حتى أتدبر هذا الأمر مع نفسي، ربما نجد طريقاً آخر للمال غير هذا الطريق".

***

تعيش دمنهور في فوضى عارمة. دخلها محمد علي وجنوده، والوقت العصر، المآذن ترتفع بالصلاة. أما على الأرض فكل في شغل بنفسه عن غيره وحتى عن تأدية شعائر الصلاة، ثلة من المماليك تطارد بضعة رجال تخطف من فوق رؤوسهم أقفاص الخضار والجبنة والبيض، وتنزع من بعضهم جلاليبهم، الفلاحون المصريون مذعورون، ولما شاهدوا محمد علي وجنوده ازدادوا ذعراً، جروا ليختبؤوا في أزقة البلدة الصغيرة، ولدهشتهم وجدوا الجنود القادمين يحجزون بينهم وبين المماليك، ثم ينزعون من

المماليك ما أخذوه من هؤلاء المذعورين ويعيدونه إليهم.

طلب محمد علي من لاظوغلي أن يبقى بالجنود في وسط البلدة ليحفظ النظام، بينما سار هو والدليل الذي معهم حتى بيت الحاكم يخبره بمهمته في دمنهور. وأمام القصر المتهالك المتواضع، وقف الرجل، فلم يجد أحداً يأذن له بالدخول، وحين تقدم إلى الباب، لم يجد إلا بضعة أفراد بائسين أخبروه أن الحاكم ترك البلدة منذ يومين، وأن دمنهور الآن بلا حاكم.

طلب محمد علي من الدليل بأن يأتي بالمحتسب وكبار الشيوخ والتجار. في اجتماعهم معه أخبروه بنهب عساكر العثمانية لدورهم، وزيادة الفرد عليهم بكل أنواعها، واستباحة المماليك للحرمات، وارتكابهم الموبقات في وضح النهار، وهم بين هؤلاء وهؤلاء لا حول لهم ولا قوة. أخبرهم محمد علي عن طريق الدليل بأن مهمته هنا أن يعيد الأمن للناس، وأن يمنع أذى العسكر عنهم، "لكن هذا يحتاج إلى مال لإعاشة الجنود ورواتبهم، فدبروا أمركم حتى صباح اليوم التالي". فوجئ الشيوخ والتجار بطلبه، لكنهم أذعنوا في النهاية، فالمقايضة تستحق.

سكن محمد علي ولاظوغلي في دار الحاكم، وسكن جنوده في دور قريبة، شدد الرجل على الجنود بألا يتهاونوا مع أي معتد أو منتهك للأمن، ومن أجل ذلك أمرهم بأن يجوبوا البلدة في مجموعات

صغيرة تراقب فيها كل شيء، كما أمر مجموعات أخرى منهم بأن ترابط في مداخلها لتمنع عنها اعتداءات اللصوص والعربان الذين ينتشرون في الناحية الغربية من البلد كما فهم من الشيوخ.

***

غادر بكر مسجد الأمير يوسف بحارة الهياتم بعد أن انتهى من صلاة الظهر وتحفيظ الأطفال القرآن، واتجه إلى دكان حسن، يجلس فيه حتى صلاة المغرب، يقطع الطريق إلى هناك في حوالي الربع الساعة، عربدة العسكر في الطرقات لم يشهد لها مثيلا من قبل، كان ظنه أن العثمانيين سيحفظون الجميل للناس حين وقفوا معهم ضد الفرنسيس، استبشر بكر الخير بخروج الكفرة وعودة رايات الإسلام، لكنه الآن أصبح يخاف السير وحيداً في الطرقات، لا يراعي العسكر سنه التي تجاوزت الخامسة والثلاثين، ولا يوقرون علامات الشيب الواهنة التي تظهر في لحيته. مرة خطف أحد هؤلاء العسكر عمامته وجرى بها، واضطر بكر أن يلاحقه في الدروب الممتدة ما بين بيته وجامع السلطان حسن حتى أمسك به وحيداً في حارة لم يجد منها العسكري المسكين منفذاً، تحلق حوله الناس في الحارة وأوسعوه ضرباً، ثم أخذ بكر عمامته وغادر، ومن يومها وبكر لا يلبس عمامته وهو سائر، بل يمسكها بين يديه، وقد يضعها تحت قفطانه حتى لا يخطفها أحد من الخلف ويجري.

ما الذي يغري هؤلاء في العمائم؟ سأل نفسه كثيراً، ولم يجد إجابة.

لا يأتي سليم في الموعد المتفق، بل يأتي حسن وحده، ويخبره أن سليم أجل الموعد إلى يوم الجمعة. خبط بكر جبهته بباطن يده شاعراً بالإحباط واستدار ليجلس أمام الدكان تاركاً حسن ينسخ بعض الأوراق. لم يهنأ بجلسته حتى وجد ثلاثة من العسكر فوق رأسه، تجاوزوه ليدخلوا الدكان وهو وراءهم يصيح: حاولت منعهم، فلم أستطع. توقف حسن عن النسخ ونظر إليهم يستعلم عما يريدون، تجاهلوه وهم يجولون بعيونهم في أرجاء الدكان. لم يجدوا فيه إلا بضعة أوراق ملقاة بإهمال على الأرض. واحد منهم بادر حسن ورفع يده إلى فمه وهو يشير بها ويقول "أكل، أكل". حافظ حسن على هدوئه وهو يشير بيده داخل الدكان ويقول: لا يوجد هنا أكل، هناك في آخر الطريق أكل كثير"، لم تظهر على العسكري أي علامات فهم، لأنه أمسك بجيوبه وقال "فلوس، فلوس، هنا ما في... أكل، أكل"، أدرك حسن صعوبة الورطة وهو محجوز داخل دكانه، بكر لن يستطيع أن يفعل معهم شيئا، أراد أن يحتال عليهم. استدار من خلف "التختة" وربت بيده على كتف الرجل محاولا أن يكون هادئا ومبتسماً في الوقت نفسه، وقال لهم وهو يشير إلى الدكة الخشبية داخل الدكان: اجلسوا هنا، ثم أضاف وهو يستعين بيديه ورأسه وكل جسمه أنه ذاهب ليحضر لهم الأكل من مكان قريب.

انتفض الرجل وهو ينظر شذرا لحسن ويقول: لا، لا، هات فلوس، هات فلوس وظل يكررها حتى كاد يغمى عليه.

عليه الآن أن يواجه الموقف بطريقة أخرى، هو لن يستطيع أن يدخل معهم في شجار يعلم نتيجته، إذن فليتصرف بطريقة أخرى. نظر إلى بكر فاطمأن، كان بكر واقفاً على باب الدكان. أخبرهم بأنه ليس معه فلوس، الفلوس مع هذا الشخص الواقف على الباب، التفت الثلاثة إلى بكر في اللحظة التي كان حسن يشير فيها إليه: افرنقع الآن. جرى بكر في اتجاه جامع السلطان حسن والعساكر الثلاثة وراءه، دخل المسجد واختفى في أحد زواياه، بينما حمل حسن أوراقه وأغلق حانوته وعاد إلى شَحتة جرياً.

***

كادت شَحتة تفطس من الضحك وحسن يحكي لها ما جرى، كانت لحظتها تضع أمامه طبق الخيار المحشي الذي يحبه، تلاحظ شَحتة أنه بدأ يستعيد شهيته، فتسعد وتكاد ترقص فرحاً، تستحثه على أكل المزيد وهي تقول "كل يا حسن، كل، مطرح ما يسري يمري"، يبتسم حسن وهو يقول "تضحكين عليَّ يا شَحتة، سأردها لك" وتجاوبه شَحتة "منظرك وأنت تهرب من العسكر أنت وبكر بعد هذا العمر..." ولا يدعها حسن تكمل جملتها، بل يردد وراءها: بعد هذا العمر، ويسرح في خيالاته، ويستعيد مشاهد كثيرة مؤلمة

مع أبيه في السوق ويطأطئ رأسه ينشغل في اللاشيء، فتنتبه شَحتة إلى شروده المفاجئ، فتدفعه بيديها برفق وهي تقول "صلى على النبي يا أبو علي، الواجب أن تطمئن على بكر". استعاد وعيه وهو يقول: طبعاً، طبعاً، لكني لا أظن أنهم انتبهوا إلى شكله، داخل المسجد سيذوب وسط الناس، هؤلاء عسكر مجانين. لايهمهم إلا خطف أي شيء، غداً سأذهب إليه في البيت". ردت شَحتة: وأنا سآتي معك.

***

كان دور محمد علي في دمنهور لا يتعدي حفظ الأمن بها بعد تكرار حوادث النهب والقتل وقطع الطرق في هذه النواحي، لكن أهل البلد عدوه الحاكم الفعلي، فطالبوه بأشياء تجاوزت حدود ما هو مسموح له. استطاع الرجل في أيام قليلة أن يقمع شهوة المماليك في السطو، وعلى أي حال، فقد كان عددهم قليلا في البلدة، فلم يضطر معهم إلى مناوشات أو قتال حقيقي، ومن ناحيتهم فإن المماليك اختبروا شوكته وسرعة حركته حين يخرج إليهم، فيفاجئهم بما لم يتوقعوه. حدث هذا في مرات عديدة حين يهمون بالسطو على محاصيل لأراضي الرزق التي يصرف منها الناس على المساجد والأسبلة والكتاتيب، فيجدونه حاضراً مع عدد من جنوده كامناً لهم من حيث لا يدرون. كيف يصله خبرهم واتفاقهم وموعد خروجهم؟

أمور أصبحت من أسرار هذا الرجل عند المماليك.

يخرج محمد علي كل يوم تقريباً بصحبة لاظوغلي، يتفقدان الطرقات، ويسرحان قليلا خارج أطراف البلدة في الحقول المحيطة والقرى المجاورة، عرفه الفلاحون بحركة فرسه الرشيقة وصاحبه الملازم له دوماً، واطمئنوا له برغم أنه لا يعيرهم التفاتاً، ولا يكلف نفسه بسؤالهم عن أحوالهم، ولا يمتعضون، يكفيهم أن الطرقات أصبحت آمنة بعد أن أتى، وأن المماليك الشاردة في قرى وأنحاء المكان تفكر كثيراً قبل أن تقوم بالسطو على أرزاقهم.

وينظر لاظوغلي بإعجاب إلى صاحبه الذي عرفه أخيراً، لم يكن لاظوغلي يظن فيه هذه القدرات على ضبط الأمور، يراه وهو يتحدث إلى الشيوخ ويناورهم حتى يأخذ منهم كل ما يطلبه من أموال يحتاجها وهم راضون، ثم يراه في عسكره شخصاً آخر يلاطفهم حتى يظنوه سهلاً، ثم ينقلب في لحظة، فيتجهم ويختزل عباراته فلا يستطيع أحد له رداً. أدرك لاظوغلي أن محمد علي رجل صعب المراس، وأن له وجوهاً لا يعرف منها حتى الآن إلا بعضها. وبرغم شدته أحياناً على عسكره، فإنهم يحبونه ولا يعصون له أمراً. يعرف محمد علي كيف يرضي رجاله، فهم عدته التي يعتمد عليها وقت الحاجة، لا يرضيهم فقط، بل يعرف أقدارهم، وكيف يخاطب كل واحد منهم. يشعر لاظوغلي بالرضا وهو بجوار

صديقه. لكنه في الوقت نفسه يعرف مكانه منه، فلا يقتحمه دون حاجة، ولا يمازحه إلا إذا بدأ هو، ونادراً ما يبدأ.

***

كان الوقت ضحى حين وصل حسن مع أخته إلى بيت بكر، تركها تدخل، ثم اتجه إلى مسجد الأمير يوسف، يعرف أن بكراً هناك يحفظ الأطفال القرآن في هذا الوقت من كل يوم. عادا معاً إلى البيت بعد الصلاة. حين خطا إلى الفناء شعر بقشعريرة في جسمه، وانقباض في قلبه، أول مرة يدخل بيت بكر منذ أخذ هوى منه، كان يظن نفسه بدأ يتعافى من آلامه، لكن وقفته في الفناء أعادته إلى اللحظة التي لا يدري كم من الدهور والأزمان مرت عليها، شعر بكراهية للمكان، وود لو لم يكن أتى، خيالات المشهد الدامي تراءت له وهو يراها تهبط من أعلى متلحفة بكل سواد الدنيا، وهي تمضي وراءه في خطوات بطيئة. الآن كان يتمنى لو كان تحدث معها في طريق الآلام الذي سارا فيه حتى البيت، كان يود لو سألها عن أسباب فعلتها، وما الذي وجدته مع هذا الرجل، ولم يكن فيه. أحس بدمعة تود أن تفر، فأمسكها بقوة وتماسك، ثم استدار ودخل المنضرة وحده.

وأما بكر فلم يقتحمه، ولم يدخل وراءه، يعرف مشاعر صديقه. صعد إلى الأعلى ليجلس مع شَحتة وزوجتيه، ولا تتوارى شَحتة

عنه ولا يشعر هو بحرج وهو يواجهها، يعدها مثل أمه برغم فارق السن الصغير بينهما. نظر إليها وقال: ما الذي ستأكلينه لنا اليوم يا أم محمود. نظرت إليه توحيدة بدهشة وقالت: عيب عليك يا رجل، أم محمود ضيفتنا هنا. رد بكر باستنكار: ضيفتنا؟ أم محمود ضيفتنا؟ بل أنتم الضيوف هنا، هي صاحبة البيت أينما كانت.

وفي المنضرة سأل حسن، ما رأيك في عرض سليم؟ حسن كان مشغولا بهذا العرض في اليومين السابقين، وبخاصة أموال عبد العال التي مع سليم، كان متردداً في قبول العرض لسبب لا علاقة له بشكوك بكر في عبد العال، فهذه الأموال في النهاية تخص زوجه وابنته، ولو ضاعت في التجارة – وهذا أمر محتمل – فماذا يفعلون؟ وهل يجوز لهم أن يتاجروا بهذه الأموال دون علم أصحابها؟ لكن فاطمة لو علمت فإن هذه الأموال ستضيع، لأن بكراً لن يقبلها ولديه شك فيها. لام حسن سليماً في نفسه، لماذا يخبره بكل هذه القصة؟ ألم يكن من الأجدى له أن يأخذ هذا القرار وحده؟ فلماذا أشركني فيه؟ "لكنه في النهاية معذور" هكذا قال في نفسه. كان حسن يميل هذا الصباح وهو خارج مع أخته إلى بيت بكر إلى أن يوافق على عرض سليم، أحوال مصر لا تطمئن، والقادم أسوأ على ما يبدو. التفت حسن إلى سليم وأخبره أنهما سيلتقون غداً في صلاة الجمعة، وهناك سنحدد خطوتنا التالية.

وفي عودته مع شَحتة أخبرته أنها طلبت من توحيدة وفاطمة أن يبحثا له عن عروسة، لا يصح أن يبقى وحيداً كل هذا الوقت. انزعج حسن من فكرة الزواج مرة أخرى، لكنه لم يرد على أخته.

الفصل الثاني

تخلو مصر من وال واحد يحكمها، بدلاً من ذلك، هناك عشرات الولاة من أجناس الأرض المختلفة، وال في باب الشعرية، وآخر في الدرب الأحمر، وثالث في بولاق، وال على طائفة المعمار، وثان على باعة الخضار والفاكهة، وثالث على تجار الأقمشة، وغيرهم. هناك وال على رأس كل حارة أو عطفة، ووال على كل باب مسجد أو سبيل ينهب من الناس القليل الذي يحملونه. ما يثير عجب الناس وربما حقدهم أن هؤلاء الولاة لا يتصارعون، ولا يختلفون. اختلافهم رحمة، لكنهم لا يفعلون. جميعهم اتفق على أهل مصر، وبعضهم اتفق على المماليك على الأقل داخلها، وأما خارج

مصر في الصعيد، وفي الإسكندرية، فقد وجد المماليك حماية من الإنجليز، فأصبحوا ولاة فيها، وأخذوا من الناس أرزاقهم، ففر الفلاحون إلى مصر، فكانوا كمن يستجير من الرمضاء بالنار. جماعة الألفي خارج مصر تستولي على أي شيء تطاله من الناس، والعسكر في داخلها تنزع عنهم ملابسهم، وربما تخطف نساءهم وأطفالهم لتبيعهم في سوق النخاسة عبيداً في أوطانهم.

يسمع الناس عن محمد باشا خسرو الوالي الجديد الذي عينه السلطان، لكنه لا يأتي، أين هو لا أحد يعلم، كتبوا إلى الناس بأنه قادم، فعليهم أن يستعدوا، وفي كل يوم يخرج الناس في انتظار الباشا الجديد، المخلص الذي سيملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً وظلماً، ولا يأتي الوالي، ولا تظهر له بشارة، على الناس أن يحتملوا هذا الهوان أياماً أخر، فصبر جميل مما يفعله العسكر بهم.

يقول بعض الخبثاء ومنهم سليم: تنتظرون سراباً، وتعيشون في أوهام، وقريباً ستترحمون على أيام الفرنسيس. وقريباً هذه التي تنبأ بها سليم كعادته لم تكن إلا بعد أيام قليلة، فالعسكر أو الولاة الصغار في مصر زاد غيهم وانتشر بغيهم، فكادت الناس تلزم بيوتها خوفاً على حياتها، وتروي الحكايات عن العسكر أعاجيب، فقد انتشر بعضهم في الطرقات يستولون على حمير

المكارية قهراً، وقد يخرجون بالحمار وصاحبه إلى الخلاء، فيقتلون الرجل، ويعودون بالحمار يبيعونه في ساحة الحمير، وإذا انفردوا بشخص أو شخصين خارج المدينة أخذوا دراهمهم وشلحوا ثيابهم وربما قتلوهم بعد ذلك. وحكى غير واحد لحسن عن أقرباء لهم عن مطلعين على الأحوال عن متورطين بها أن بعض العسكر ذهبوا إلى قرية كذا التي تبعد مسيرة كذا عن أرض مصر، وأطلعوا أهلها على ورقة مكتوبة باللغة التركية، وأوهموهم أنهم حضروا بأوامر لرفع الظلم عنهم، وابتدعوا كلاماً مزوراً صدقه الناس، أو اضطروا إلى تصديقه، ومن ثم فإنهم يطلبون حق طريقهم وبشارتهم لأهل القرية مبلغاً عظيماً من الناس. ولا يجد الناس طريقاً إلا الدفع لأنهم تعلموا من القرية الأخرى التي تبعد مسيرة كذا عن قريتهم درساً مهماً، فهذه القرية كان بها بعض النابهين الذين جروا الويلات على ناسها وأرضها، فقد حرضوهم على ألا يدفعوا، ونبهوهم إلى كذب هؤلاء العسكر، فصدقهم الناس لأنهم من أهلهم، فلم يدفعوا، فما استيقظوا في الصباح إلا والنار تشتعل في حقولهم وأجرانهم، والعسكر تخطف أغنامهم وتدخل بيوتهم فتنتهك أعراض نسائهم حتى اضطروهم إلى هجر قريتهم والذهاب إلى مصر حتى ملأوا طرقاتها وأزقتها مع غيرهم من أهل الصعيد والريف المجاورين. وتذكر الناس أحكام الفرنساوية، وقارنوا، فوجدوهم أكثر عدلاً، فترحموا على أيامهم. وصدقت نبوءة سليم.

***

وأما محمد علي، فقد ازدادت سطوته وازدادت هيبته، وتسامع به المماليك في القرى المجاورة وفي البلاد البعيدة فخشوه، أو ربما بدأوا يحذرونه فلا يستهينون به وبقوته وبما يمكن أن يفعله معهم. محمد علي نفسه في هذه الأيام بدأ يوسع من دائرة نفوذه خارج دمنهور، فأرسل بعضا من جنوده إلى مناطق قريبة مثل إيتاي البارود وأبو حمص، والمراسلات لم تنقطع بينه وبين حسين قبودان باشا الذي انتقل إلى مصر استعداداً لاستقبال الوالي الجديد. وفي كل الأحوال بدأ الباشا يقدر في محمد علي قدرته على حفظ الأمن، وعلى تأمين الأموال اللازمة لإعاشة الجنود العثمانيين على الأقل فيما يخصه من القرى والبلاد التي وضعها تحت تصرفه.

وذات مساء شتوي كان محمد علي جالساً في القاعة التي خصصها لاستقبال الناس وكان عجبه يزداد وهو يستمع إلى هذا التاجر الذي أتى إليه يشي بآخر يغش في الموازين التي يبيع بها للناس. لم يكن محمد علي أكثر عجباً من لاظوغلي. هذا الرجل الواقف أمامه الآن في ملابس رثة يبيع خضاراً وفاكهة من الأنواع المنتشرة في هذه الناحية، بينما الآخر يبيع البن الذي يستورده بعض التجار من مناطق بعيدة في اليمن وغيرها. لا منافسة بين الاثنين في التجارة، ولا مشاحنات شخصية استوجبت فعله كما زعم الرجل، ولما طلب منه محمد علي أن يذهب إلى المحتسب، فهذا دوره. أبلغه الرجل بأنه قد فعل، لكن المحتسب يبدو أنه متواطئ معه.

بدا محمد علي غير معني بهذه الشكاية أول الأمر، لكنه انتبه في اليوم التالي إلى أنه إن لم يفعل فستهتز هيبته أمام الفلاحين، الشكاية سواء أكانت حقاً أو كذباً لا بد من التحقق منها وتأديب أحد الرجلين. ولما تيقن لاظوغلي من أن أحد التجار المنافسين دفع هذا الرجل البائس المندفع لشكاية تاجر البن عند محمد علي ظناً منه أنه سينال حظوة ما، استدعى محمد علي الرجلين، وأمر بجلدهما على رؤوس الأشهاد حتى يعرف الفلاحون أن التلاعب به لا يمر دون عقاب. وساعة الجلد كان عدد من جنوده يحيطون بالمكان تحسباً لأعمال شغب قد تظهر. لكن ما زاد من عجب محمد علي أن الناس كانت تتابع المشهد بلا مبالاة وخوف ظاهر على وجوههم، ولم يظهر منهم إلا امتعاضات لم تتطور طوال الوقت إلى أي فعل. بعينيه اللتين لا تستقر على مكان قرأ الوجوه، فأشعره هذا بسهولة السيطرة على هؤلاء الناس.

في الليل نام قرير العين مستريحاً، مهمته في هذا المكان ستكون أيسر مما قدر لها، لكن متى تنتهي هذه المهمة؟ هذا كله في علم الغيب.

***

بكر عائد من المسجد إلى بيته بعد صلاة الظهر، الطقس دافئ بعد مطر غزير طوال الليل، لكنه ترك آثاره على الأرض

فأوحلت، وغدا السير مغامرة غير مأمونة العواقب، يسير بكر ملاصقاً لجدران البيوت حذر الانزلاق بخفه المهترئ، وأحلامه في الخروج من عثرته المالية التي لا تكاد تنقضي بمشروع سليم الكبير في التجارة.

دخل البيت ليأخذ طعاماً أعدته توحيدة وفاطمة، سيأكله مع سليم وحسن. تنهمك المرأتان في صر الطعام في قطعة من القماش بينما البنتان تنظفان الفناء الداخلي مما به من ماء المطر. يدق الباب بعنف تضطرب له المرأتان وتجزع البنتان فتنكمشان. يقلق بكر لكنه يتقدم ناحية الباب وهو يتمتم "اللهم اجعله خير". ببطء يفتح ليجد أمامه عسكراً من العثمانيين بملابسهم المميزة، لم يمهله من بدا في هذه اللحظة كبيرهم، دفع بكراً بيده ليدخل إلى الدار ووراءه أربعة آخرين. بكر الذي فوجئ بما فعلوه وقف بقوة يصدهم بكلتا يديه وهو يصرخ في نسائه أن يصعدن إلى الطابق الأعلى بسرعة. ظن في هذه اللحظات أن وشاية ما كاذبة لا شك قد أتت بهم إليه. الرجل الذي دفعه انتبه إلى صوت النساء فوقف ومعه رجاله فلم يتقدما إلى الداخل، ثم قال لبكر بهدوء عجيب:عرفنا أنك تسكن في هذا البيت وحدك مع اثنين أو ثلاثة فقط، وهذا البيت كبير عليكم. انخلع قلب بكر والرجل يكمل بهدوءه القاتل: نحن الخمسة ليس لنا سكن في مصر فقلنا نسكن معكم بعض الوقت حتى يدبر الوالي لنا سكناً مناسباً. لن نضايقكم، قل إننا ضيوف عندكم يومين أو

ثلاثة. ذهل بكر مما يسمع، قدر في اللحظة أن القوة لن تنفع الآن، قد تكلفه حياته. حياته هنا هينة إذا كانت ستحمي نساءه وبناته، لم يكن موقناً بهذا، بل كان موقناً بالعكس، حياته الآن مهمة لهن. بادل محدثه هدوءا بهدوء ظاهر وهو يقول له: لكني الرجل الوحيد في البيت، كيف ستتحرك نسائي في البيت وأنا غير موجود؟ هل تقبل لنفسك هذا؟ اخترقه الرجل بنظرة عينيه وهو يقول: وهل تظن أننا سنقترب من نسائك بعد أن تستضيفنا؟ هم في عيوننا، فلا تخف.

ظل بكر يحاور الرجل ويناوره، والرجل لا يلين حتى قدم بكر اقتراحا بدا للرجل معقولاً

- ساعطيك قدراً معقولاً من المال تستطيع به أن تؤجر بيتاً آخر لك ولعساكرك دون أن يضايقكم أحد فيه.

انتظر الرجل أن يأتي بكر بالمال، لكنه أخبره أنه لا يملكه الآن، وعليه أن ينتظر يومين فقط حتى يأتي به، فقط يومين. نظر الرجل إليه بشك، لكنه وافقه وهو يقول: يومين كما وعدت، وإلا سنأخذ البيت كله وأطردك منه أنت ونساءك.

***

أغلق بكر الباب وراءه وهو يهرول جزعاً تجاه دكان حسن، نسي أن يأخذ معه الطعام، لم يكن في الحقيقة يهرول، بل يجري، يريد أن يلحق من أمره شيئاً لا يدريه، أنفاسه تتلاحق وترتفع وهو

لا يكاد يرى ما حوله أو من حوله. اصطدم بالبشر التائهين مثله، وتعثر في أحجار كادت تلقيه أرضاً، وانزلقت قدماه في وحل لم ينتبه له، ولو انتبه ما كاد يلقي له بالاً، ولو لم يضع يده اليسرى على الحائط القريب في هذه اللحظة لانحط على الأرض في مشهد ماساوي. يصل أخيراً إلى صديقيه منهكاً متعباً كأنه كان يرمح منذ مطلع الفجر. لم ينتظر حتى يلتقط أنفاسه، ولم ينتظر أن يسألاه، بادرهم:

– العسكر وصلوا إلى بيتي.

لم يفهم الاثنان معنى العبارة، لكنهما أيقنا أن أمراً جللاً وراءها، استفهما منه، فحكى لهما ما حدث. بهت حسن، وضرب سليم كفاً بكف وهو يحوقل. دخل حسن الدكان، وأحضر كوباً من الماء لبكر، أعطاه الكوب وهو يربت على كتفه ويقول: اهدأ يا صاحبي، سيجعل الله من أمرك فرجاً، مهلتك معهم يومان، وفيها سنجد حلاً.

– الحل عندي أن اقتلهم جميعاً، لن أتركهم يأخذون البيت، سأحضر بندقية وأنتظرهم.

انزعج سليم مما يسمع، فصاح فيه: ثم ماذا بعد؟ ماذا بعد أن تقتلهم؟ هل تظن أنك ستفلت بفعلتك؟ ولو أفلت، سيأتي غيرهم وغيرهم، ألا تسمع يا بكر مما يفعله العسكر مع الناس؟

لم يشأ سليم في هذه اللحظة أن يذكره بموقفه من الفرنسيس ومساندته لعودة العسكر العثمانلية إلى مصر، كان يود أن يقول له "هؤلاء هم العثمانلية الذين ساندتهم وقاتلت الفرنسيس من أجلهم، انظر ماذا فعلوا معك" صمت ليبتلع هواجسه وحيرته وقلقه. وأما حسن فقد وقف فجأة وقال لهما" "لنذهب الآن إلى قائد العسكر في مصر لعله يكف عسكره عن أذى الناس". تشكك سليم من هذه الخطوة "ألا يعلم هذا القائد المعزول في القلعة انتظاراً لقدوم الوالي ما يفعله عسكره؟" لكن..... "لا بأس، لن نخسر شيئاً" لم ينطق إلا بهذه الجملة الأخيرة وهو يهم بالوقوف ليساعد حسن في إغلاق الدكان.

***

يشعر محمد علي بحنين دافق إلى أبنائه لكن حنينه إلى طوسون من بينهم أشد، ويشعر بشوق ورغبة في زوجتيه، لكن رغبته في ماه دوران أشد. أمينة هي زوجته الأولى وصاحبة الفضل عليه، لكن ماه دوران هي التي تمتعه، وتعطيه من نفسها ما يشتهيه، وفي حجرتها ينتقل إلى عالم آخر، وفي أحضانها يستعيد عافيته، ويجدد خلاياه. عام تقريباً لم يقرب محمد علي امرأة. شغلته الأحداث، وشغله هذا العالم الجديد الغريب. ليال كثيرة وبخاصة في الشهور الأخيرة كان يتقلب في فراشه، لا يعرف النوم، يفكر في كل أحداث

يومه، ويدبر لكل حدث أمراً، ويظل هكذا يتقلب، ثم يتقلب، ولا يهدأ حتى يستعيد لحظات المتعة مع ماه دوران، فيبلغ معها الذروة، وينام هنيئاً سويعات قليلة يقوم بعدها قبل كل أحد ليستحم بالماء البارد في هذا الشتاء القارص.

في هذا اليوم من أيام يناير الباردة طلب من لاظوغلي أن يشتري له جارية، تهلل وجه لاظوغلي وهو يسمع طلب محمد علي، كان يود هو أن يشتري لنفسه جارية، لكنه خشي أن يخبر قائده بهذا، يعلم حجج محمد علي في هذا. أما وقد جاءت الرغبة من قائده، فلا بأس بما يفعل. قبل أن يهم بالانصراف سأله: هل أشتري أي جارية؟ قال له محمد علي: ليست أي جارية، أريدها جارية عذراء يونانية تعرف التركية، كيف سأكلمها؟ هل تنوي أن تضع بيننا مترجماً في حجرة النوم؟ ضحك لاظوغلي من دعابة محمد علي النادرة. ابتسم محمد علي وهو يواصل مع صاحبه الذي أصبح الآن عند باب الغرفة: لا تنس نفسك يا محمد.

لا يحتاج محمد لاظوغلي أن يذكره قائده بهذا، لكنه تذكر جنوده المرهقين، هم أيضا بشر لهم رغباتهم، يحتاجون إلى من يرفه عنهم، شهوراً طويلة معهما دون أن يتذمروا أو يتمردوا على محمد علي ولاظوغلي، لكن حضور الجواري بينهم أمر آخر. عاد مرة أخرى إلى قائده، وأخبره بهواجسه، محمد علي قلل من الأمر،

قال له: أعلم وأنت أيضاً تعلم ما يفعله جنودنا مع النساء، تصلني أحياناً شكاوى من نساء لم يدفع لهن الجنود أجرتهن بعد ليلة أو ليلتين قضوها معهن. انس هذا الأمر. ويخرج لاظوغلي مرة أخرى ويتعجب من الرجل، كيف تمر عليه هذه الشكاوى بعيداً عنه. كان ظنه أنه المؤتمن الوحيد على كل ما يصل محمد علي من أحداث، لكن يبدو أن للرجل مصادر أخرى يعرف منها ما يريد.

كان أمر تدبير شراء الجواري هو الخطوة التالية التي شغلت لاظوغلي، "عذراء؟ من أين آتي له بجارية عذراء؟" كان يحدث نفسه وهو ذاهب إلى كبير التجار في المدينة ليعطيه المال اللازم. ذهب إليه وطلب منه سلفة لأجور الجنود تخصم مما على التجار من إيرادات العام القادم. تذمر كبير التجار أولا، لكنه أذعن في النهاية. هل له خيار آخر؟

***

لم يستطع الرجال الثلاثة أول الأمر مقابلة كبير العسكر المتحصن في القلعة، حاوروا وناوروا الجنود المكلفين بحراسة بوابات القلعة في جهتها الشرقية، لكن وجدوا صداً من جندي وعنفاً من آخر ولا مبالاة من ثالث. تحمل حسن وبكر ما لاقاه من الجنود، بينما بدأ سليم يعلن تذمره مما يجد. "هذه أرضنا، ونحن أصحابها، فلماذا يفعلون هذا معنا؟" ينتحي به حسن جانباً، ويقول له: اهدأ يا سليم، ليس هذا

وقته، مشكلة بكر يجب أن نحلها بهدوء، ما تقوله لن يحل شيئاً.

الوقت يمر والشمس تؤذن بالمغيب، وبرودة الجو تشتد، ولا يلوح أمل أن يقابلوا قائد العسكر اليوم، حتى سمعوا جلبة وحركة زائدة آتية من الخارج، وظهر لهم ما ظنوه قائد العسكر في ثلة من رجاله. اقترب منه بكر متردداً ووراءه صديقاه. أراد أن يتكلم بالعربية، فبدا على الرجل أنه لم يفهم، تقدم سليم وحكى للرجل بالتركية ما حدث لبكر. أرغى الرجل وأزبد وقال لسليم: ألا تفسحون لإخوانكم المجاهدين، الذين حاربوا عنكم، وأنقذوكم من الكفار الذين كانوا يسومونكم سوء العذاب، ويأخذون أموالكم، ويفجرون بنسائكم، وينهبون بيوتكم، وهم ضيوفكم أياماً قليلة؟! ثم تركهم ومضى مع جماعته.

شعر الثلاثة باليأس مما سمعوا. بدا وجومهم شاملا، حتى أنهم لم ينطقوا بكلمة واحدة طوال الطريق الهابط والملتف حتى جامع السلطان حسن. لابد من حل في اتجاه آخر. اقترح بكر أن يذهبوا إلى الشيوخ، لكن حسن لم يستحسن الأمر. الشيوخ في شغل بأنفسهم، العثمانيون ينظرون إليهم بشك واضح، وعمر مكرم الذي يعول عليه حسن كثيراً لم تستقر أموره بعد مع العثمانيين على الرغم من هواه الظاهر معهم.

كان الحل الأخير هو أن يدفعوا لهؤلاء العسكر ما طلبوا. اقترح

حسن هذا وهو يعلم من أمر الأموال التي في حوزة سليم أنها حق لزوج عبد العال. "يدفعها سليم مما معه، ولنؤجل مشروعنا إلى حين ميسرة". فوجئ حسن بأن بكراً يرفض بإصرار هذا العرض، أعاد عليهم موضوع القتل، وأعادوا معه النتائج الكارثية التي ستترتب على هذا. لكن بكراً طرح حجة قوية إزاء موضوع الدفع، قال لهم إنه لو دفع هذه المرة، فإنه ليس واثقاً أن تكون مرة وحيدة، "ما الذي يمنع آخرين من أن يأتوا ويطالبوا بما طلب به الأولون، لقد عرفوا الطريق، وسيبلغ حاضرهم غائبهم، من أين آتي لهم في المرة القادمة؟". وكانت حجة غائبة عنهما أوصلتهم جميعاً إلى طريق مسدود.

***

شعر لاظوغلي بحسرة ومحمد علي يختار الجارية التي أرادها لاظوغلي لنفسه، كان ظنه أن قائده سيقبل منه الجارية الأخرى التي أسرف طوال الوقت في مدح مناقبها، لكنه فوجئ بمحمد علي وهو يستعرض الجواري الخمس الواقفات أمامه، ويختار الاثنتين معاً. "لم يكن هذا اتفاقنا، واحدة لك تكفي" هكذا ردد في نفسه وهو واقف وراء محمد علي. نبهه لاظوغلي أن الأخرى التي اختارها لا تعرف إلا القليل من التركية وليست عذراء، فقال له: لا بأس، هي تعجبني. ماذا يفعل لاظوغلي وقد اختار قائده وأنهى الأمر لما

شكره على حسن اختياره. خرج صامتاً مقهوراً بالجواري الثلاث الباقيات.

ليلته كانت خمراً وأمراً وعشقاً ومتعة وآهات حتى الصباح. والذي حدث أنه أسكن جاريتيه في حجرة ليست بعيدة عن حجرته في الجناح الذي يشغله من البيت، ثم تركهما لبعض أشغاله مع الجنود. كان الوقت عصراً، والنوم بعيد عنه بحسابات انتباه الحواس وحسابات الوقت. خرج مع لاظوغلي في جولته اليومية يجوس فيها خلال المدينة، والتقى ببعض شيوخها، واستمع منهم ما طمأنه على أحوال الأمن، ثم عاد إلى جناحه وأغلقه عليه بعد أن نبه ألا يزعجه أحد حتى الصباح. من لحظة أن رأى الجاريتين وهو مشغول طوال الوقت بمن يبدأ ليلته. الجارية العذراء كانت اختياره الأول، لكنه شغف بالأخرى التي استولتْ عليه بمجرد أن رآها. وحين فتح عليهما الباب أشار إلى هذه الأخرى بأن تتبعه.

ولم يكن حدسه فيها خاطئاً. الفتاة تماثله طولاً لكنها أصغر منه عمراً بما يزيد على خمس عشرة سنة، شقراء، دقيقة الملامح، مكتنزة الشفتين قليلاً، بدت في ملامحها شبه من ماه دوران، لكنها كانت في حجرة نومه كائناً آخر، أرته من فنون العشق، ما انخلع له قلبه. كانت تعرف كيف تخضع فيستولي عليها ويصبح لحظتها سيد العالم، وكيف تجمح فيصبح طوع بنانها، وتتحول هي إلى السيد

المطاع وهو العبد الذليل. ساعة أو ساعتان ثم همد فيه كل شيء. ظن محمد علي أن أمره انتهى هذه الليلة. كانت في هذه الأثناء تتحسس شعر صدره الكثيف فبدأ يعود إلى الحياة، وبدأت رغبته تشتعل. أراد لمتعته أن تصل إلى مداها، فطلب منها أن تذهب لتحضر الأخرى. وفي أثناء وضعها الرداء فوق جسمها قبل أن تغادر الحجرة التفت إليها وهو يسألها" "ما اسمك؟ نسيت أن أسألك عن اسمك". قالت له: اسمي نائلة، ثم غادرت.

الجارية العذراء كانت أطول قليلاً وأكثر نحافة، لم يشعر معها محمد علي بالمتعة التي استغرقته مع نائلة، ومن ثم فإنه بعد أن انتهى منها، ذهب بنفسه ليحضر نائلة مرة أخرى. ظلت معه حتى الصباح.

***

أسبوع كامل، يحاول بكر فيه أن يعيد ترتيب الطابق الأرضي من البيت بحيث يصبح مستقلاً عن الطابق العلوي في مدخله وكل حاجياته الداخلية. اضطر بمساعدة الجنود العثمانيين الخمسة الذين أتوا في موعدهم أن يفتح باباً إضافياً على الطريق في الحجرة القريبة من السلم الداخلي يقوده مباشره إلى الطابق العلوي، وأن يقتطع من هذه الحجرة جزءا أنشأ فيه جداراً عازلا، أصبح هذا الجزء المقتطع ممراً له ولأسرته.

إحساس بكر بالهوان وهو يفعل ما يفعله يداريه إنهماكه الشديد. في كل حجر أمسكه ليضعه على الجدار، وفي كل "جاروف" أو "فاس" أو "شاكوش" كان يرى أداة ناجعة للقتل. أكثر من مناسبة كان يرى فيها أحد الجنود منحنياً ليساعده في شيء، ويظن أنها اللحظة المناسبة لأن يلقي فوق رأسه بحجر. يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، ويتذكر هؤلاء اللاتي يطوقن عنقه، فيتراجع، ثم يفكر مرة أخرى، ويتراجع حتى انتهى في اليوم السابع فجلس مهدوداً منكوباً واضعاً رأسه بين كفيه، أما الجنود الذين أتوا ليروا لمساته الأخيرة، فقد أبدوا إعجابهم بما فعل، فأثنوا عليه، ثم طلبوا منه أن يحضر لهم طعام الغداء.

وعند حسن جلس إلى صديقه يبثه حزنه وهمه.

- لست وحدك يا بكر الذي حدث معه هذا، كثيرون من أصحاب البيوت الكبيرة أصابهم ما أصابك.

- أعرف، وحولي في بعض البيوت القريبة من بركة الفيل، طرد العسكر سكانها، بل ربما استبقوا بعض الجواري المملوكة لصاحب البيت نفسه. حجتهم أن زوجته تكفي، أو جارية واحدة تكفي. على الأقل حظي أنا أفضل.

لم يشأ حسن أن يذكره بحماسته للعثمانيين في أثناء وجود الفرنسيس في مصر. يشعر أن أزمة بكر عنيفة، وهي تتجاوز أمر

البيت ومن فيه من قاطنين جدد. حماسته الدينية وفرط كراهيته للفرنسيس أعمته عن حقيقة أن العثمانيين لا يختلفون عنهم إلا في أنهم يستغلون عواطف الناس الدينية في سرقتهم وإبقائهم على ما هم عليه.

بكر نفسه بدأ يشك في صدق إسلام هؤلاء، هل يبيح لهم الإسلام أن يفعلوا ما فعلوه معه؟ احتلالهم لجزء من بيته حطم عنده مسلمات رئيسية أقام عليه حياته. كان يظن أن ما يراه في طرقات مصر من سلوك متهتك للعسكر العثمانلية لا يحسب على الإسلام، بل يحسب عليهم، والآن حين وصلوا إليه واقتحموا بيته، بل أخذوه بتواطئ كامل من قوادهم، الآن فقط أدرك خطأه. لم يفعل الفرنسيس معهم ما فعله هؤلاء.

***

وصل والي مصر بعد طول انتظار. حسنو النية من الذين يصلون وراء بكر في المسجد أوهموه أنه هو الذي سيقطع دابر الظلم عن بر مصر، وأنه الذي سيعيد له بيته الذي سرق العسكر منه طابقه الأرضي. يتمنى لو كانوا صادقين، لكنه كيف يفعل؟ وجنوده هم من يحدثون الفوضى في البلاد. أمر الوالي بألا يخالط العسكر الناس، أن يمكثوا في ثكانتهم، فلا يخرجون إلا وقت الحاجة، لكنهم يخرجون وكأنه لم يقل شيئا، وأمر بتخفيض أسعار الخضار والفاكهة وباقي

أنواع الطعام وبتقليل أوزانها، فيلتزم التجار بتقليل الأوزان، لكن بدوا كأنهم لم يسمعوا شيئاً عن تخفيض الأسعار. وصل إلى الناس أن الوالي يريد أن يضبط الأمور، لكن من حوله يمانعون ويداورون، فخرجوا يناصرونه، وخرج صبيانهم يهتفون باسمه، ويدعون له بالثبات والقوة في مواجهة أعدائه. أحبه الناس حين رأوه ينصب خيمة بجوار بيته الذي يبنيه، فيباشر البناء، ويساعد البنائين حتى أنهم رأوه يحمل على كتفه بعض الأنقاض من المكان، وقالوا هذا رجل منا، هذا هو المخلص الذي سيحيل النيل إلى نهر من عسل ولبن سائغ للشاربين، العطاشى الذين طال بهم الشوق إلى العدل والأمان والطعام، لكنهم قلقوا حين رأوا رجال السوء حوله، وهم يستعظمون ما يفعل، فيسحبونه بحيلهم وألاعيبهم مرة أخرى إلى القلعة ويستبدلون به رجالا كلفوا تجار مصر بجمعهم، وإعطاء الأجرة لهم عن طريقهم، فيأخذون هم الجزء الأكبر من أجرة الرجال، ويعطونهم النزر اليسير.

لكنها أسابيع قليلة، وبان من الوالي ضعف، وقال الناس "الغربال الجديد له شدة"، لكن شدته المزعومة استمرت بأقل مما تمنوا. العسكر خارج مصر يقفون بالمرصاد لمراكب الغلال الداخلة فيحجزونها كي يضيقوا على الناس ليثوروا. والمماليك في الصعيد يكاتبون الوالي على إعطائهم الأمان وإعادتهم مرة أخرى إلى

مصر وإعادة الالتزام لهم نظير مبالغ معلومة يدفعونها، فيماطل الوالي، ثم يوافق.

***

المحظورات التي أعلنها بكر على نساء بيته كثيرة، أهمها ألا يعلو صوتهن فيصل إلى الجنود في الأسفل، وأن يحاذرن قبل أن يفتحن الباب لأحد، وألا يقتربن من الستائر التي وضعها ليعزل بها السور القصير الذي يحيط بالطابق الأعلى ويطل به على الفناء الداخلي. لكن الحذر لم يمنع من القدر.

سويعات قليلة هي التي ترك فيها بكر البيت قبل الضحى بقليل حتى سمع صراخ بنت عبد العال وفاطمة أمام المسجد، كانت تناديه في هلع ورعب وانهيار، الوقت كان قريبا من آذان الظهر، وثلة من المصلين متناثرة في أرجاء المكان، وعدد من الأطفال يلهو في المكان المخصص للوضوء والمفتوح على صحن المسجد. كلهم هرولوا ناحية الباب يسبقهم بكر. نسي أن ينتعل خفه وهو يخرج من المسجد ويقترب من البنت التي تشير بيدها ناحية البيت القريب وتصرخ: "العسكر، العسكر".

جرى بكل قوته، يسبق الريح، لم يبال أن تكون البنت معه، سبقها بمسافات وقرون، وحين وصل إلى البيت رأى بعض الناس واقفين أمام المدخل المكسور للطابق الأعلى، وسمع صراخاً ميز

فيه صراخ زوجته توحيدة. في قفزتين أو ثلاث وجد نفسه في الفناء الداخلي الذي تتوزع منه حجرات الطابق الأعلى والمتصل بالسلم. اثنان من العسكر السكارى إلى حد فقدان الوعي يناوشان فاطمة زوجه الثانية الواقفة بثبات، وهي ممسكة بسكين طويل بيدها اليمنى، بينما توحيدة على يمين العسكريين تضربهما بعصا طويلة، أحد العسكريين القريب من توحيدة يرفع يده ليتقي ضربات توحيدة، بينما زميله يحاول أن يقترب من فاطمة. هي اللحظة التي جاء فيها بكر، وجه لكمة هائلة إلى أقرب عسكري له، فانفجرت نافورة من الدم من أنفه وهو يتراجع إلى الخلف، ثم يسقط قريبا من سور الفناء الداخلي، في اللحظة التي قفز فيها بكر ممسكا بخناق الثاني، يحاول قتله. تصرخ توحيدة لتمنعه من إتمام ما يفعل، فيدفعه ليسقط بجوار زميله بعد أن ارتطمت رأسه بالسور.

سأل بكر عن ابنته، فوجدها تخرج من أبعد حجرة لا تكاد تحملها قدماها على الأرض. الجنديان بين الإفاقة والإغماء يحاولان الوقوف فلا يستطيعان، يرطنان بكلام لم يفهمه بكر ولا نساؤه، ثم يعاودان الصمت للحظات، تحسس أولهما ثيابه، فبانت آثار الدماء المتساقطة من أنفه على يديه، هاج وصرخ وأراد أن يقف، فضربته توحيدة بالعصا فوق رأسه، بينما الآخر يعود إلى الحياة، ويفتح عينيه ليرى بكر واقفا في مواجهته وعلى مسافة قريبة زوجتاه، وابنته تراقب الموقف من بعيد. تبين له أن معركته خاسرة، فلكز

زميله، ثم سحبه نازلين إلى أسفل وهو يهمهم فيما بدا لبكر أنه تهديد بعظائم الأمور.

لم يسأل بكر زوجتيه عما حدث، ما رآه يكشف عن نفسه دون حكاية. الجنديان الأخرقان كانا في حالة سكر بين، كسرا عليهن الباب وحاولا التحرش بالنساء.

– لا مكان لنا هنا بعد اليوم، علينا أن ننتقل الآن إلى بيتنا الأول، حجراتنا التي تركناها منذ زمن.

قال بكر بحزم ظاهر

نظرت المرأتان كل منهما إلى الأخرى في حسرة، ولم تنطق أي منهما بكلمة.

واصل بكر: لا أخاف على نفسي، المقدر مكتوب، لكني خائف عليكن جميعاً، لن يسكت هؤلاء العسكر. وسيعاودون ما فعلوه.

في ساعة أو أقل ساعده جيرانه على حمل ما استطاعوا حمله من البيت، ونقلوه على عربة صغيرة يجرها حمار هزيل، بينما النساء في الخلف يسرن في اتجاه بيتهم القديم.

هناك لم يجد بكر إلا حجرة واحدة شاغرة، الحجرتان الأخريان شغلهما غرباء استولوا عليهما عنوة بعد أن ظلتا وقتا طويلا دون سكان.

الفصل الثالث

دخل محمد علي مصر. أول مرة يراها، كون عنها صورة من كثرة ما سمع عن تنوعها، وعن غناها من البشر والثمر، أراد مرافقه أن يلتف حولها ليصل إلى القلعة من طريق مختصر، لكنه طلب أن يراها أولاً، أن يمشي في شوارعها، ويرى ناسها. من باب الفتوح ولج، راعه بمجرد أن دخل زحمة المدينة وضيق طرقاتها. عينه وهو ممتط فرسه تحيط بكل ما يراه. الدكاكين الكثيرة المتلاصقة على جانبي الطريق. رجال ذوو عمامات سوداء كثيرة الثنيات يمتطون حميرهم، عرف فيما بعد أنهم أقباط يحترفون مهنة الكتابة في ديوان الوالي، اصطدم وهو سائر بقافلة من الجمال

تحمل هوادج تبين فيها نساء، اضطر أن يتنحى جانباً في الطريق حتى تمر القافلة دون مشكلات. رأى جماعات من النساء يسرن ملتحفات بالسواد، بعضهن يحمل أطفالا على رؤوسهن، وفي الساحة الواسعة أمام مسجد السلطان حسن رأى موكباً عظيما احتشد فيه رجال يرتلون القرآن بصوت مرتفع، وتصحبهم أصوات ناشزة من الطبول والمزامير وأبواق الصفيح، مكفوفون يقودهم غلمان، وحمير محملة بالبطيخ والشمام، وجوه من الرجال متنوعي الألوان والأجناس، المماليك من ذوي البشرة البيضاء، والألباني المختال بمشيته، والعربي المتدثر بمعطفه الأبيض الفضفاض، وذوو البشرة السوداء. وفيما بعد حين سأل عما رآه عرف أن المدينة فيها تنوع قلما تجد نظيراً له في أي مدينة في الشرق، ففيها إضافة إلى أهل البلد الأصليين من الشوام والأتراك والزنوج من سنار ودارفور والمغاربة والأحباش والفرس والهنود واليونان والأوربيين. كلهم قدموا إليها لأغراض متنوعة، وكلهم شدتهم مصر بغناها ووفرة خيراتها مقارنة ببلادهم الأولى.

"ماذا يريد مني الوالي؟" بدت القلعة له وهو يتجاوز بوابتها في رفقة جنوده مكاناً هائلاً، حسد ساكنها الكبير على مبانيها الحصينة ودروبها الكثيرة وارتفاعها الذي تطل منه على المدينة، وقارنها بقلعة الإسكندرية، فوجد هذه الأخيرة صغيرة محدودة برغم أهميتها.

وقبل أن يدخل إلى إيوان الوالي، طلب منه الحاجب بخشونة أن يخلع نعليه، "لا يمكن لك وأنت تدخل على الوالي أن ترتدي هذا النعل" نظر إليه باشمئزاز ظاهر، تمتم في نفسه بعد أن خلع نعليه "لعنة الله عليك وعلى الوالي في الوقت نفسه.

***

أياما وأسابيع وحسن يحاول إقناع بكر بأن ينتقل بأسرته الكبيرة إلى بيته دون جدوى، "ليس لك إلا شَحتة، ما ينفع معك إلا النساء"، نظر إليه بكر نظرة حائرة، وهو يستحلفه ألا يفعل، "استطعت أن آخذ حجرة إضافية في البيت بعد رحيل الأسرة التي تسكنها، وأمورنا جيدة، لا تنس أنه بيتنا القديم، ومن فات قديمه تاه". يصمت حسن، لكنه لا يقتنع بما يقوله بكر، لم يجادله. "ما الفائدة، لن يلين، فأنا أعرفه".

لكن سليم جاء ومعه أخذت الأمور منحى جديدا. حين أهل عليهما وهما جالسان أمام الدكان عرف حسن من طريقة مشيته وملامح وجهه أن وراءه ما وراءه، لم تخطئ فراسة حسن، فقد بادرهم سليم بمجرد أن جلس: الأمور تسوء، والفوضى عارمة، ولا حل إلا بأن نكون أقوياء.

هلل حسن في سخرية وهو يقول: أفلحت والله، جاء سليم بالديب من ذيله، نكون أقوياء في مواجهة من؟

- في مواجهة كل هؤلاء الذين تراهم وتسمع عنهم وعن أفعالهم. رد سليم بتصميم ظاهر.
- وماذا بعد؟ هل تريد منا أن نحمل السلاح ونقوم على قلب رجل واحد لنقاتل هؤلاء الذين لا أفهم ماذا تقصد بهم. رد بكر.
- أنا أفهم ما يقصده سليم، لكن هل تظن أن هذا ممكن؟ لقد تداخلوا بيننا، ويصعب علينا وعليهم أن ننفصل، أو أن يتركونا.
- على الأقل يكون لنا رأي في أمورنا، أن نشترك معهم في الحكم، لا أن ينفردوا هم بكل شيء، إننا يا رجل ممنوعون حتى من القتال معهم وحمل السلاح، من يرضى بهذا؟ رد سليم بحماس ظاهر، ثم أردف: لكن ليس هذا هو موضوعنا، ما قصدته بالقوة هنا هو قوة المال، يجب أن يكون لدينا مال كثير، ولهذا جئتكم.

تذكر بكر مشروعهم القديم، وانتبه بكل حواسه لما سيقوله سليم. بدا لهما أنه رتب كل شيء، كان يغيب عنهما أوقاتاً لا يعلمان أين يذهب، ثم يعود فلا يجيبهما بشئ، والآن فإنه أخبرهما بأنه كان يجمع المعلومات ويتصل بأشخاص، ويرتب أمورا، كلها لها علاقة بموضوع استيراد الأوراق من إيطاليا. اقترح أن يذهب معه بكر

إلى الإسكندرية في خلال الأيام القادمة، يرى معه الميناء والسفينة التي ستقله مع التاجر الشامي الذي ارتبط معه بالسفر، ويتعرف على بعض الرجال الذين سيساعدونهم في تخليص بضاعتهم حال وصولها إلى الميناء، "عليك أن تألف المكان وتعرف الرجال قبل أن تعود بعد خمسة أشهر على الأقل لترابط في الإسكندرية مترقباً عودة السفينة". استحسن الاثنان الفكرة.

لم ينس سليم أمر بكر وما حدث له، التفت إليه وقال بحزم: أظن أنه آن لك أن تعقل وتوافق على أن تنتقل إلى بيت حسن، لو كنت أملك لأخذتك عندي، لكنك تعلم، أسرتي كبيرة وبيتي صغير، لكن حسن بسم الله ما شاء الله، ربنا يفتح عليه. لكن هناك أمراً آخر يجب أن ينتبه إليه حسن ايضاً.

نظر إليه حسن باهتمام وهو يعلم جدية سليم وفراسته في كثير من الأمور، واصل سليم: هل تظن أن بيت حسن بمأمن من هؤلاء المجانين المطلوقين في الشوارع، لا يردعهم رادع، لو وصلوا إليه وعرفوا أنه وحده مع أخته في كل هذا البيت، هل سيتركونه؟ الحقيقة أنك تعمل معروفاً في حسن حين توافق وتتنازل وتتعطف وتقبل أن تسكن معه. قال جمله الأخيرة بنبرة أراد لها أن تكون مرحة.

نظر حسن إلى بكر نظرة ذات معنى وهو يقول له "هه،

ما رأيك؟ ألا تريد أن تعمل فيّ هذا المعروف؟" رد بكر وهو يبتسم موجهاً كلامه إلى سليم: منك لله يا سليم.

***

عاود بكر الشعور بالقهر وهو يقوم مع حسن بإغلاق حجرات وفتح ممرات في البيت تتيح له خصوصية لا تحرج حسن في أثناء وجوده بالبيت. تذكر بيته القديم وكيف أُغتصِب منه، وكيف أنه لا يستطيع حتى الاقتراب الآن من البيت خشي أن يعرفوه فلا يتركوه إلا ميتاً، يخترق الحارات الضيقة والدروب كي يصل منها إلى المسجد الذي يحفظ فيه الأولاد القرآن في الضحى، يقضي فيه بضع ساعات، ثم يعود من حيث أتى دون أن يفكر مرة أن يطل على بيته ليرى ماذا فعل به هؤلاء الأوغاد. لم يكن موقناً بأنه سيعود إليه مرة أخرى.

انتهى الصديقان، وكان يوماً مشهوداً للبيت ولشَحتة حين أهلت المرأتان تتبعهما البنتان. أطلقت شَحتة زغرودة أرادت لها أن تمتد لتقضي بها على حزن الشهور الفائتة، انقطع نفسها، فتوقفت، تبادلها فاطمة بزغرودة أطول منها واشد بهجة. شاع في الجو ألق وفرح ظاهر ضاعفته روائح ندية من أشجار قريبة تحتفي على طريقتها بأواسط الربيع. انتشرت النساء بالبيت ينظفن ما يحتاج إلى تنظيف، ويرتبن حاجياتهن. ترك لهن الرجلان البيت يمرحن فيه

كيفما شئن. وخرجا إلى الطريق. إلى مسجد السلطان حسن. أصبح البيت مملكة للنساء.

وفي الطريق بادئه بكر بموضوع الزواج مرة أخرى، كان يعلم عمق الجرح الذي أصابه من هوى، وتعجب من قدرته على الاحتمال طوال هذه الفترة. تعمد دائماً ألا يقترب من هذه المنطقة، أراد لها أن تكون نسياً منسياً، وظن أن حسن سيأخذ قرار الزواج وحده، لكنه وهو ماض في حياته، ولا يلوح في الأفق معه أي علامة على زواجه، فإنه أصبح على يقين الآن أن حسن لم يبرأ بعد مما ألم به، حسن من ناحيته لا يتحدث معه في هذا الشأن، يشعر بالعار في كل لحظة يتذكر فيها ما حدث، وهو لا ينسى، على الرغم من أنه يعلم أن بكراً وعبد العال حافظا عليه وحصرا فضيحته فيهما فلا يعلمها إلا هما.

– الآن عليك أن تواجه نفسك يا حسن، يجب أن تتزوج.

لأول مرة يواجهه حسن وينظر إليه وهو يتحدث معه في هذا الموضوع: من قال لك أني لا أفكر في الزواج، أعلم أن العمر يجري بي، ويخيفني جدا أن يختطف الموت شَحتة قبل الأوان، فلا أعرف ماذا أفعل بحياتي بعدها، لكني خائف يا بكر، خائف أن أعيد هذه التجربة المريرة مرة أخرى.

لم يشأ بكر أن يدخل معه في تفاصيل، وأن يذكره عما يعرفه عن اختلاف النساء، بل البشر جميعاً، وأن يعيد عليه أموراً يجب أن تظل في طي النسيان. فهم من كلامه رغبته الدفينة في الزواج وأحس بالراحة لما وجده يبتسم حين قال له: إذن هذا هو الدور الكبير للنساء، لماذا خلقهن الله إذن إذا لم ينفعن في هذه المواقف، لن يمر الصيف إلا وأنت متزوج يا أخي.

***

أما محمد علي فقد ظل أياماً في حالة غيظ وغضب أخرجها في من حوله من الرجال. يتذكر الرجل الذي أجبره على خلع نعله ويلعنه مرة ومرات، ثم يلعن نفسه على أنه وافق على ما طلب، ثم يتذكر الوالي محمد خسرو. "كيف يكون هذا الرجل حاكماً لبلد بحجم مصر؟" بدا له ضئيلا في إيوانه، تافهاً في كلماته، أحمقاً في ردود أفعاله، مغروراً في رؤيته لمن حوله، عجيباً في تقديره لهم. احتفى به الوالي احتفاء مبالغا فيه، لم يفعل معه محمد علي ما يستوجب هذا الاحتفاء. بدا له أول ما رآه أصغر منه بسنوات لا تقل عن ست أو سبع. لكنه تميز عنه بطوله الفارع. وحين وقف له الوالي وهو يودعه بدا له مهيباً مهابة زائفة.

في هذه الأيام انشغل الرجل بترتيب إقامته في مصر، اختار مكاناً قريباً من الأزبكية لإقامته هو وجنده، وأرسل يحضرهم من

دمنهور ومعهم جاريتاه، لكنه شدد على أن يعاملوا نائلة معاملة خاصة.

وفي البيت أسر للاظوغلي ببعض هواجسه في الرجل: ينتظر مني هذا الأحمق أن أكون يده التي يبطش بها أعدائه، من يظنني؟

- وماذا قلت له؟ سأله لاظوغلي بلهفة.

- لا شيء، لم أقل له شيئا محدداً، تركته يفهم من كلامي ما يحب أن يفهمه. فراستي في الرجل لم تخطئ، هو لا يعرف كيف يدير الأمور، وأظن أن هناك من يتلاعب به.

تنهد محمد علي، ثم أضاف: الأيام القادمة ستكشف لنا المزيد من أحوال هذا البلد العجيب، لكني أرجو ألا تطول بنا الأيام هنا، نعود بعدها إلى قولة، وأعود إلى تجارتي وأهلي.

يتعجب لاظوغلي من هذا الرجل الجالس أمامه، حركته الزائدة، ونظرات عينيه التي لا تستقر على مكان واحد إلا لحظات، ومراوغته حتى مع أقرب أقربائه، وقسوته التي تبدت في مواقف كثيرة عاينها معه منذ أن قدما معاً إلى الإسكندرية كلها توحي بأن هذا الرجل بلا قلب. بلا مشاعر أو أحاسيس، لكنه يضبطه في أحيان نادرة إنساناً آخر وخاصة حين يتذكر قولة وأهله الذين تركهم

هناك، ولا يصارحه بما يرى من أحواله المتقلبة، لا يستطيع ذلك. من يجروء أن يفعل ذلك مع محمد علي؟

***

احترقت كنيسة في حارة الروم، كانت ليلة عيد القيامة، ظلت النيران مشتعلة فيها يومين متتاليين. وكثرت مطالبات العسكر لرواتبهم التي تأخرت أكثر من سبعة أشهر، الباشا يراوغهم، ويحيلهم إلى الدفتردار، وهذا الأخير يتهرب منهم، ولا يبقى في مكان واحد إلا وقتاً قليلا هربا من شكاية العسكر. زاد ظلم العسكر وقطعهم الطريق على الناس، أرادوا أن يأخذوا من الناس ما لم يستطيعوا أن يأخذوه من الوالي، فنهبوا الحوانيت حتى خافهم أصحابها فنقلوا ما استطاعوا نقله في أماكن مخبوئة لا تستطيع أن تصل إليها أيديهم، وازدادوا خوفاً منهم، فلم يعودوا يسيرون فرادى في الطرقات، ولا أن يسيروا ليلاً. العسكر لا تهاب أحداً، والوالي لا يهتم بالناس، جل همه أن يوطد لأركان حكمه، وأن يزيد من المكوس على رؤوس الناس فقرائهم قبل أغنيائهم، ويرسل حصيلتها إلى الباب العالي، هذه المكوس هي بوابته لسنة أخرى جديدة والياً على بر مصر.

يزداد العسكر غياً، فيخطفون النساء حتى من أزواجهن، وأشيع ذلك فامتنعت النساء عن الخروج، ويخطفون الأطفال المرد، فلهم فيهم أرب، خاف الرجال على أبنائهم، فألزموهم البيوت. أصبحت

مصر مستباحة للعسكر الذين أصابهم مس من الجنون، شعر الناس بالحنين إلى أيام الفرنسيس، هؤلاء كانوا لا يظلمون. وكان الناس في أمان، أما الآن، فالله يلطف بعباده. في كل يوم يبيت فيه الرجال في بيوتهم، لا يطمئنون إلا بعد أن يجدوا أفراد أسرتهم جميعاً. وإذا خرج أحد منهم لأمر، عدوه مفقوداً حتى يرجع، وحين يرجع يحتفلون بسلامته كأنه قادم من ميدان حرب، وقال بعض الناس الله وحده قادر على أن يخلصنا مما نحن فيه من هول، وقال آخرون: بل هذا بعض مما جنت أيديكم، ذوقوا وبال غفلتكم وغيكم وتنكبكم عن جادة الحق، وقال فريق ثالث: بل نحن في ضعف وهذا هو الحال، ولن يغيرنا الله إلا إذا غيرنا ما بأنفسنا، أن نكون أقوياء هو الخلاص لنا من كوابيس الليل والنهار.

ثم ازدادت الأحوال سوءا، دخلت طائفة من المماليك مصر، وبدأوا يناوشون العسكر، وقال الناس هذا تدبير من الوالي، يريد أن يضرب العسكر بالمماليك، لكن آخرين ادعوا أنهم مطلعون على بواطن الأمور قالوا بل هذا رأي من البرديسي والألفي، يريدان أن يحيلا حياة الوالي في مصر إلى جحيم. وأما محمد علي فقد راقب هذه التطورات بقلق، وكان لا بد له من أن يحدد موقفاً مما يجري، أي فئة ينحاز لها في هذه الفوضى التي تضرب البلاد طولاً وعرضاً.

***

سافر بكر مع سليم إلى الإسكندرية، شهراً، عاد بعده مبهوراً بالمدينة. يحكي لزوجتيه ولحسن عن البحر الذي يراه لأول مرة، وعن هدوء المدينة وأمانها مقارنة بمصر، "مصر زحمة وضوضاء، أما الإسكندرية فهي عالم آخر".

أما حسن فقد كان مشغولا بأمر زواجه، اختارت له نساء البيت ابنة جارة لهم، توطدت بينهم العلاقة في الشهور الماضية، ورأتها شَحتة وأعجبت بها، وقالت لأمها: هذه هي، هذه زوجة حسن، لن تخرج من أيدينا، وسندفع لكم المهر الذي تريدونه. ورآها حسن الرؤية الشرعية واستراح لها. حاول أن يتحدث إليها، فلم يدر كيف يبدأ وماذا يقول، سألها إن كانت تعرف أن تقرأ، فتدخلت أمها بعفوية: وما حاجتها للقراءة، هي شاطرة في أمور أخرى كثيرة"، وسألها ماذا تحب، فلم تفهم قصده ولا أمها التي بدت متحفزة ومستعدة أن تساند ابنتها وقت الحاجة، وسألها عما تفعل في يومها، فأجابته، كان يعرف أن أسئلته سخيفة، وهو في الحقيقة لم يجهز نفسه لهذا الموقف تماماً، كان يحاول وهو يسألها أن يبحث عن هوى فيها، أن يجد ظل حبيبته التي لم يخفق قلبه لغيرها، شعر بانقباض في قلبه ولوعة كادت تخرجه من المكان كله، لولا تماسكه وترحيب الأسرة الكبير به لكنه لم يبتهج. "هو زواج وكفى، كلهم في هذا على حق". ولم تكن لأسرتها طلبات وحتى المهر وافقوا

عليه على استحياء، "نحن نشتري رجلاً، وحسن زينة الرجال"، لكنهم شددوا على أمر بدا لحسن غريباً "نريد أن يكون لها فرح، البنت لازم تفرح".

تفهمت شَحتة دوافع أسرتها في هذه الأحوال المضطربة، البنت تجاوز عمرها الثانية والعشرين، ولم تتزوج بعد، بينما زميلاتها وقريباتها تزوجن وأنجبن أطفالا أصبحوا الآن صبيان. البنت الآن في بدايات مرحلة العنوسة، من حقها أن تفرح بما أتاها.

***

بدا للناس عجيباً ما يحدث في بيت حسن، والبيوت المجاورة له، قناديل كثيرة تعلق على البيت وفي الحارة المجاورة له ورايات ملونة. ولما سألوا وعرفوا أنه عرس حسن، فرح بعضهم لأن الله عوضه أخيراً عن زوجه التي ماتت حزناً على ابنها، وبعض آخر وهم الخبثاء قالوا: وهل هذا وقته، الناس في كرب وخوف وحظر اختياري للتجول، فكيف لا يشارك حسن الناس ما هم فيه.

في اليوم السابق لليوم الموعود خرجت العروس من بيت أمها إلى الحمام العمومي تصحبها ثلة من أقاربها وجيرانها تتقدمهم زفة تتكون من مزمارين وعدد من الطبول في أيدي بعض الشباب، يليها رجلان من أسرة العروس يحملان الأواني والملابس التي تستعمل في الحمام على صينيتين. جل النساء في الزفة يلبسن

ملابس مزركشة وملونة، وقليل منهن يلبسن حبرة حريرية بيضاء. أما العروس نفسها فقد كانت محمولة بواسطة أربعة من أشداء الرجال على مظلة، وهي تحتها لا يُرى منها إلا خصلة صغيرة من الشعر. وخلف كل هذا تسير فرقة أخرى من الطباليين والزمارين، وكل من في الزفة من النساء يزغردن كل على قدر طاقتها. مر اليوم بسلام، فقال الناس هذه نية حسن الطيبة، لم يظهر لهم العسكر، ولم يتعرض لهم إنسان.

لكن اليوم التالي كان له شأن آخر، بيت العروس قريب من بيت حسن، لكن أهلها أصروا بدواعي الأمان الزائفة في اليوم السابق أن تتجول زفتها في الطرقات والأزقة القريبة، عادة أهل مصر التي توارثوها منذ سنين لا يدرون عددها. هذه المرة لم تكن رباب وهو اسم العروس وحدها، كان حسن أيضاً يسير معه بكر وبعض جيرانه في المسجد والدكان، خجلاً لا يعرف ماذا يفعل، سارحاً بأفكاره لا يدري كيف يخرج منها، عجولا في انتهاء ما هو فيه. لم يبتعدوا كثيراً عن البيت حتى خرجت عليهم جماعة من الجند. وقفوا أولا يرقبونهم وهم سائرون فرحين بما يفعلون، ثم اقتربوا منهم، شعر الناس بنوايا غدر، فتصرف بعض أقارب العروس تصرفاً حكيماً، أداروا وجهة العروس مع عدد من أقوياء الرجال وكل النساء الموجودات لتعود مباشرة إلى البيت في هدوء. جماعة الرجال وقفت تسد الطريق على الجند حتى اطمأنوا إلى

وصول العروس إلى البيت، بينما هم واقفون، بعضهم يصفق على إيقاع الطبل والزمر، وآخرون يرقصون ويقومون بأمور عجيبة أقرب إلى ألاعيب الحواة. حسن نفسه لم ينتبه إلى هذا إلا متأخراً، وحين رأى العسكر استعد للأسوأ. ولم يكن ظنه خائباً. بدأ العسكر يتحرشون بالرجال وهم فوق أحصنتهم. لكن شيئاً آخر كان يحدث بعيداً عن الزفة فوجئ به حسن، ومفاجأته على العسكر كانت أشد. وقفة الزفة كانت في مفترق طرق أحدها يقود إلى بيت حسن والثاني إلى باب زويلة، والطريقان الآخران يقودان إلى دروب وحارات أخرى في الدرب الأحمر.

العسكر كانوا قادمين من باب زويلة، وصادفوا الزفة فأرادوا التحرش بها ونهب عمائم الرجال فيها كما ظهر منهم، لكن بعض الرجال راعهم ما يفعلون، فاتفقوا على أن يصعدوا إلى أسطح البيوت مع بعض الصبية الموجودين ومعهم كمية كبيرة من الأحجار جمعوها بسرعة من المكان، وحين بدأ العسكر تحرشهم فوجئوا بالأحجار تلقى عليهم من أعلى تصيبهم إصابات بعضها نافذ، أسال منهم دماء كثيرة. جن جنونهم، فأطلق بعضهم النار ناحية الأسطح لكنها لم تصب أحداً، في هذه الأثناء كان بكر يسحب حسن بعيداً ليعود به إلى البيت. تفرقت الزفة وهي تهلل وتكبر، وهرب العسكر لما رأوا بأس الناس وتصميمهم. وانتهى الأمر بفرحة كبيرة.

***

تزداد العسكر غياً ويزداد تمردهم، وحجتهم رواتبهم المتأخرة التي زادت على الشهور العشر، ويزداد الوالي عنداً ومراوغة فيستعين على العسكر بالناس، يسلحهم ويحتمي بهم. يذهب العسكر إلى الوالي فيحيلهم إلى الدفتردار، يذهبون إلى الدفتردار فيحيلهم إلى محمد علي، يذهبون إلى محمد علي فيحيلهم إلى الوالي. ضج الجند وادركوا انهم اصبحوا ألعوبة بين أيدي الكبار، فقرروا أن يتصرفوا على طريقتهم. أحالوا حياة الناس إلى حجيم، حاصروا بيت الدفتردار. وألزموا الناس بيتوهم بالقوة.

أما محمد علي فقد كان له أمر آخر معهم، كان يمكن له أن يحتويهم، ويسكن من خواطرهم مع الوالي، وكان يمكن له أن يجد حلاً لرواتبهم المتأخرة، وبخاصة أن أغلب الجند من طائفة الألبان الذين هم في النهاية أهله وعشيرته، وبعضهم فعلا انضم إلى كتيبته التي ازدادت حتى بلغت آلافاً. لكنه تركهم والوالي. كره هذا الوالي منذ أن رآه، وتمنى أن يأتي الباب العالي بمن هو أفضل منه. "إذا أحسن السلطان الاختيار، فربما استقامت الأحوال في مصر، لنعود بعدها من حيث أتينا، لكن الأحوال يبدو أنها ذاهبة في تصاعد".

– ماذا ستفعل أيها القائد؟ تطلع إليه لاظوغلي في حيرة.

نظر إليه محمد علي نظرة ماكرة وهو يقول: دعهم يخلصون

أمورهم بأنفسهم، حقوقنا محفوظة ولو نقص قرش واحد سنأخذه ولو من أعينهم

– لكن العسكر أحرقوا البيوت ونهبوا الحوانيت، وما يستطيع أحد أن يوقفهم.

– وما شأننا نحن، على الوالي أن يردعهم إن استطاع

انتبه محمد علي فجأة والتفت إلى لاظوغلي قائلاً: لا تحاول أبداً أن تكون طرفاً فيما يجري، ابتعد قدر الإمكان. في النهاية أنت محسوب عليّ

ازدادت حيرة لاظوغلي، لكنه لم يشأ إلا أن يمتثل، قبل أن يغادره قال: أنا لا أفهمك

– بل أنت الذي تريد أن تحشرنا في أمور لا علاقة لنا بها، حين ينقص واحد من رجالي شيئا، سيكون لي كلام آخر، لكن الآن عليك أن تسمع وتطيع.

تحولت الحياة في مصر إلى جحيم، احترق بيت الألفي درة بيوت مصر، واحترقت بيوت وقصور كثيرة، وازداد صراع الوالي مع العسكر، وبرز في تلك الأثناء اسم طاهر باشا أحد قواد الألبان. استطاع العسكر أن يخرجوا الوالي وحاشيته من القلعة ومن مصر كلها خروجاً مذلاً، ثم كانت المفاجأة التي أصابت محمد علي بذهول

أفقده اتزانه. طاهر باشا نصب نفسه قائما مقام والي مصر حتى تثبته الآستانة في موقعه أو تأتي بغيره.

الفصل الرابع

"ما الذي يحدث في هذا البلد العجيب؟ ذهب السيئ وجاء الأسوأ" كان محمد علي يحدث نفسه وهو واقف في شرفة بيته بعد أن استيقظ مبكراً تاركاً نائلة تغط في نوم عميق. ليلته كانت ممتعة برغم انشغال باله بالحوادث، أجهدته نائلة وأجهدها، ولاحظت شروده في لحظات حاسمة، وسألته فلم يجبها، فصمتت، تعلمت من المرة الأولى ألا تلح في السؤال، حين فعلت ذلك وقتها، خرج من حالة النشوة، ونهرها، وطلب منها بحسم ألا تعاود السؤال عن أمر لا يخصها، دورها لا يتعدى مساحة السرير الذي هم عليه الآن. نسمات الربيع الطرية تعبث بلحيته وتتخللها فتلمس

بشرته وتبعث فيه نشاطاً وانتعاشاً. لا يستقر الرجل في مكان، يذرع الشرفة جيئة وذهاباً، يقف قليلاً ليتطلع إلى بعض الأشجار وعيناه تسرحان في أفق لا محدود، ثم يعاود حركته المتوترة. يفكر محمد علي في الخطوة القادمة. "طاهر باشا هذا لا يساوي الخف الذي يلبسه" قبل أن يراه أول مرة، كان متشوقاً لمعرفة الرجل القادم من موطنه الأصلي. وجده أسمر نحيف البدن أسود اللحية كثيفها، فنفر من مرآه، السود في موطنه ليس كثرة وهم ليسوا من أهلها الأصليين، فمن أين جاء هذا الرجل؟ بتكرار رؤيته في الأيام التالية وجد فيه ميلاً إلى المسلوبين والمجانيب والدراويش، فازداد نفوراً منه. بحكم الصلة التي تجمعهما كان يلتقيه كثيراً، واستطاع محمد علي بذكائه أن يجتذب إليه عدداً ليس قليلا من رجال طاهر باشا، أصبحوا يدينون له بالولاء برغم أن الناس باتت تعرف الآن أن طاهر باشا هو قائد الأرناؤود وأن محمد علي هو نائبه. لكن محمد علي نفسه لم يكن يرى نفسه نائباً لأحد.

والآن حين تولى هذا الرجل حكم مصر حسده لما يعرفه من مواهبه المحدودة، لكن الأمر الذي لفت نظره أكثر من أي شيء هو الدور الذي لعبه الشيوخ في وصول هذا الرجل إلى منصب الوالي. هم الذين اجتمعوا به وحرروا مكتوباً للسلطان يطلبون منه أن يكون طاهر باشا هو الوالي. "الشيوخ يا لهم من قوة لا يقدرها أحد".

محمد علي نفسه لم يكن واثقاً من اللحظة التي بدأ فيها يفكر في السعي إلى اعتلاء المنصب الكبير. ما أصبح واثقاً منه في هذا الصباح أنه أحق بمنصب الوالي من طاهر باشا. نسي في هذه اللحظة خططه للعودة إلى قولة، أزاح بقوة حنينه وشوقه إلى أولاده وزوجتيه، "المغامرة تستحق، لكن الحذر واجب" كان عليه الآن أن يخطط لإزاحة هذا الرجل الذي تولى عرش مصر منذ أيام قليلة، وكان عليه أن يشرك أحداً في مسعاه، ولم يكن إلا لاظوغلي أمين سره الأكبر.

***

رباب زوج حسن أصبحت فاكهة البيت. النسوة يترقبنها ويحصين عليها أنفاسها. أحبتها شَحتة وازدادت لها حباً وهي تنادي عليها "يا خالتي" صوت البنت جميل، وقعه في أذن شَحتة يفرحها ويعيد إليها الروح التي فقدتها بعد موت محمود بن حسن، فاطمة وتوحيدة وحتى البنتان أحببنها. تهمس توحيدة في أذن فاطمة وهما في خلوة في البيت "رباب هذه أفضل من هوى ألف مرة، الحمد لله ربنا عوضه خيراً منها". شَحتة كانت تقول هذا لنفسها.

الوحيد الذي لم يكن سعيداً في أعماقه هو حسن. في الأيام الأولى بذل جهداً هائلا ليداري مشاعره، "ما ذنب هذه الفتاة المسكينة فيما أعانيه؟ لها حقوق فيَّ يجب أن تأخذها كاملة". كان يعاني وهو

يلمسها أو يقترب منها، ويلوح له طيف هوى في لحظاته الحميمية معها، فتنهد قواه ويفشل. ولا تظهر له رباب امتعاضاً ولا تحرن، بل تلتصق به كأنها تحتمي به وتحميه، ولا تنطق، ولا تشير، وتستوعبه فلا تخذله في رجولته. وفي الصباح تقوم رائقة كأنها كانت تحلق في سموات عليا، ويتعجب حسن من هذه الفتاة، ويلوم نفسه، بل يؤنبها تأنيباً، "لا تستحق رباب مني هذا النفور". تلاحظه شَحتة، تعرف أخاها جيداً، فتقول له بما يشبه التأنيب "حافظ على النعمة التي أرسلها الله لك، أنا لن أبقى لك طول العمر". وينظر إليها حسن في هلع: ما الذي تقولينه يا شَحتة؟ من الذي لن يبقى لي طول العمر، أنت، أنت يا شَحتة. لن اسمح لك أبداً أن تموتي قبلي". وتبهت شَحتة من رده، فتقول له: استغفر الله يا حسن استغفر الله، الأعمار بيدي الله. شَحتة بالنسبة لحسن هي المرأة الخالدة، الطبيعة الأم التي لا تفنى إلا بفناء الحياة ذاتها، لم يكن يتصور مدى حبه لأخته، هوى كانت تستحوذ منه على كل شيء، والآن لا يحول بينه وبين شَحتة شيء، ولا حتى رباب، الفتاة المسكينة التي ألقتها المقادير في طريقه.

لكن رباب نفسها بفطرية ربما انتقلت إليها من أمها استطاعت بمرور الأيام أن تصبح كائناً محورياً في البيت، اكتشف فيها أهل البيت صوتاً جميلاً، فطلبوا منها أن تغني لهم حين يخلو البيت عليهم. أسمعتهم الفتاة ما لم يسمعوه. صدح صوتها في المكان،

فكادت أحجاره تتمايل هزجاً ونشوة، تمنت النساء أن يطول يومهن ولا يأتي الرجلان، فلم يخذلاهن.

***

برغم الود الظاهر بين طاهر باشا ومحمد علي، فإن أحداً منهما لم يكن يطمئن للآخر، كل منهما كان يخشى الآخر، وكانت خشية طاهر باشا أشد من محمد علي، طاهر لم يكن يبالي بأن يظهر انفعالاته وثوراته على من هم دونه، ولا يتورع عن قتل معارضيه جهرة إن تطلب الأمر ذلك، وكان يعرف عن نفسه ذلك، ويرقب محمد علي فيحسده على تماسكه الظاهر، وقدرته على ضبط أعصابه في أشد المواقف صعوبة. لم يكن هذا ما يجعل طاهر باشا حذراً من محمد علي فقط، بدا محمد علي غامضاً له تماماً، لم يستطع أن يستكشف أعماقه، ويعرف موقفه من أمور كثيرة ورجال كانوا حوله يتحركون. قال لخلصائه بعد أيام قليلة من صعوده للمنصب الكبير "محمد علي هو أكثر من أخشاهم في مصر، تحركاته مريبة، وجنوده يتكاثرون، ما السبيل إليه؟" نصحه أحدهم أن يهادنه، ونصحه آخر أن يقتله، بينما رأى هو أن يراسل المماليك الذين نزحوا إلى الصعيد. سيواجهون قوة محمد علي الصاعدة، وسيحفظون لطاهر باشا مكرمته معهم لكونه أعادهم إلى مصر.

***

لم يخبر محمد علي لاظوغلي بكل نواياه، لا يفعل هذا أبداً مع أي إنسان، سره هو نفسه لا يجود بها لأي أحد، لكن لاظوغلي يجب أن يعرف ما ينبغي عليه أن يعرفه في هذه اللحظة. والآن عليه أن يعرف أن طاهر باشا لن يعيد للجنود الأرناؤود حقوقهم ولا أن يعطيهم رواتبهم المتأخرة، إذن فالتخلص منه واجب حتى وإن حسبه الناس علينا. "لا تنس أنه أعاد المماليك إلى مصر، ولو تحالف معهم وتمكن فلن يستطيع أن يزحزحه عن مكانه أحد". رد عليه لاظوغلي بعفوية: وما شأننا نحن إن تمكن؟" عاجله محمد علي: هل تتصور أنه سيتركنا في حالنا، صعود هذا الرجل خطر جسيم علينا، وسيتخلص منا في أقرب فرصة، حياته موت لنا، وإذن فلنبادره نحن.

اندهش لاظوغلي مما يسمع فسأله: ماذا تقصد؟

رد محمد علي: أقصد ما فهمته وتريد أن تتجاهله. طاهر باشا يجب أن يموت.

لم يكن لاظوغلي خائفاً، بل متعجباً من هذه القفزة في تفكير محمد علي. بدا له مصمما على ما يقول، لكنه لم يكن مقتنعاً بأسبابه. صمت واستسلم لما يسمعه وقبله، هو يثق في محمد علي وفي فطنته وحسن تدبيره.

واصل محمد علي: عليك أن تعرف الآن أن الحبل الذي سيلتف

حول رقبة طاهر باشا سيمسكه ثلاثة أشخاص: أنا وأنت وطاهر باشا نفسه، أما أنا فاترك لي ما سأفعله وانتظر مني، وأما طاهر باشا فستعرف في الأيام القادمة صدق فراستي في الرجل، أما أنت فعليك الآن أن تكون وسط الجند، أمسك عليهم الأموال التي معنا، لا تعطهم إلا القليل، وأفهمهم أن طاهر باشا هو الذي يمنع رواتبهم، اتركهم ينطلقون في حواري مصر وطرقها، لا تمنعهم فيما يفعلون.

***

في انتظار سليم الغائب في البلاد البعيدة كان حسن وبكر يقضيان يومهما في أعمالهما المعتادة، تعلم حسن ألا يترك شيئا في الدكان سوى الأوراق، ما يفعله العسكر مع الناس والتجار فاق حدود الخيال. الناس ضجت، وازداد ضجيجها، والأسواق أغلقت وتواصل إغلاقها. وانكمشت النساء والأطفال في بيوتها، فأصبحت مصر مدينة للرجال.

- هذا حال لا يمكننا تحمله، لا بد أن يحمينا أحد. لمن نذهب ونشكو؟

- لله يا حسن ما لنا في هذه الغمة إلا الله.

- لكن الله يا بكر لا ينزل بنفسه من علياءه ليخلصنا مما نحن فيه. لله جنود على الأرض، فمن جنوده المخلصون لنا؟

- لنذهب إلى الشيوخ، لعلهم لا يعلمون ما بنا من كرب.

ابتسم حسن حين سمع كلمة الشيوخ، هل حقاً لا يدري الشيوخ ما يفعله العسكر بنا؟ أشك أنهم لا يدرون، لكنهم ماذا سيفعلون، نظر إلى بكر في أسى وقال: هل تذكرهم يا بكر وقت أن كان الفرنسيس هنا، ماذا فعلوا لنا؟ لا شيء استعملهم الفرنسيس كما كان يستعملهم الولاة قبلهم، والآن هم من ساعدوا هذا الرجل المجنون الظالم على الوصول إلى منصب الوالي. مع ذلك، لنذهب إلى السيد عمر مكرم، لعل عنده حلا لما نعاني.

شعورهما بالخزي والعار وهما يسيران خائفين في مدينتهم التي لا يعرفان غيرها لا هما ولا آباؤهم ولا أجدادهم ولا أبناؤهم، غربة ما بعدها غربة وهما يتحاشيان عسكرياً هنا، أو جماعة من التكرور هناك، أو وهما يختبئان في حارة ضيقة بعيداً حين رأيا جماعة من المماليك على أحصنتها تجول في المدينة وتعبث كأن من يعيش بها قطعان من الحشرات والديدان. صمت بين الرجلين، ماذا يمكن أن يقوله الواحد منهما للآخر؟ كيف يمكن له أن يواسيه في هذه المصيبة التي لا راد لها.

وصلا إلى بيت نقيب الأشراف بعد مغامرة كبيرة، واستقبلهما السيد عمر مكرم بترحاب ظاهر. بادره حسن بمجرد أن جلس في الحجرة الكبيرة الأنيقة الأقرب إلى باب الخروج في بيته الواسع:

ثم ماذا بعد يا مولانا الشيخ؟ أنتم الذين جئتم بهذا الرجل العربيد، وعليكم أن تجدوا حلاً معه. أفهمه السيد عمر أنه لم يكن طرفاً في أي حوار دار مع الشيوخ للقبول بهذا الرجل والياً على مصر، الشيخ الشرقاوي هو الذي قاد هذه الأمور ومعه شيخ السادات، هما اللذان أقنعا بقية الشيوخ بالرجل. أضاف: لكن هذا ليس مهماً الآن، ليس مهماً من أقنع ومن سعى، نعم أتفق معك، يجب أن نجد حلاً، لكن المشكلة أن أدواتنا معه قليلة بعد أن تمكن، وجلس في القلعة. لقد أظهر مبكراً جداً وقبل الأوان وجهه الشرير، مع ذلك فإني ألمح اختلافاً بينه وبين قائد آخر للأرناؤود اسمه محمد علي، لعلنا نجد عند هذا القائد حلاً مع مجنون القلعة.

***

هاجس طاهر باشا الكبير في أيامه الأول كان أن يقبض على أتباع الوالي السابق خسرو باشا من الموظفين والأعيان وكبار التجار، لم يستثن أحداً، ولم يتورع عن قتل من قاومه في ذلك. في المقابل استشعر الشيوخ ومنهم الشيخ الشرقاوي مدى حرجهم مع أتباعهم وهم يرون الوالي لا يميز بين من وقف معه يؤازره، ومن ناصبه العداء، وحين قبض على شاه بندر التجار السيد أحمد المحروقي وكان رجلاً فاضلاً سخياً، فإن الشرقاوي واجه الوالي بما فعل، وانتهى بأن عاد الشيخ الشرقاوي بالسيد أحمد المحروقي

إلى بيته. وقبض الوالي على مصطفى أغا الوكيل، فذهب إليه الشيخ السادات، أطلعه طاهر باشا على مكاتبات من خسرو باشا تطلب منه المساعدة على التخلص من الوالي الذي اغتصب السلطة، لكن الشيخ السادات لم ير هذا دليلاً على خيانة الرجل، قال له: إنما تثبت خيانته لو كان هو الذي أرسل المكاتبة إلى خسرو، وانتهى الأمر بعودة الوكيل إلى داره.

أما المماليك فقد جاءوا وانتشروا وبدؤوا يعودون إلى سيرتهم الأولى بعد أن كادت الناس تنساهم، وفي عودتهم، فإن مصر تحولت إلى قطعة من الجحيم. أصبحت مستباحة منهم، ومن العسكر الأرناؤود ومن الإنكشارية ومن التكرور، ومن العساكر العثمانلية الذين كانوا من أخلاط الناس

وأما محمد علي فقد اتصل بالمماليك، وعرف عثمان بك البرديسي ومحمد بك الألفي، ورأى إبراهيم بك، وأفهمهم كلا على حدة أنه ليس طرفاً فيما يحدث في مصر، وأن مهمته الأساسية هي حفظ الأمن والحفاظ على حياة الناس، وفي المقابل على الوالي أن يلتزم بدفع رواتب الجند وخاصة جنده الذين يبذلون الجهد الأكبر في مصر.

حماقات الوالي تزداد، وغروره بقوته الزائفة أعمته عما يدبره له خصومه وبخاصة محمد علي. وحين ذهب إليه الجند الإنكشارية يطالبونه برواتبهم المتأخرة، قال لهم: ليس لكم عندي إلا من وقت

ولايتي، وأما ما قبل ذلك فاذهبوا لتأخذوه من خسرو باشا إن استطعتم.

دخل طرف رابع في الصراع الدائر هو أحمد باشا الذي كان قادما من الآستانة وذاهباً إلى المدينة المنورة والياً عليها، أدخله الجند في صراعهم، وأوهموه بأنه الوحيد القادر على أن يأتي لهم بحقهم، فساعدهم بالسلاح، ورتب لهم خطة يضغطون بها على الوالي حتى يأخذوا حقوقهم منه. وفي اليوم الموعود ذهبوا إليه وألحوا في طلب حقوقهم، فلما لم يمتثل، عاجله أحدهم بضربة من سيفه قطعت رقبته، فأخذها وألقاها من شباك البيت. فلم يمكث في ولاية مصر إلا ستة وعشرين يوماً. ينتشر الجنود الإنكشارية في أنحاء المدينة يطاردون الجنود الأرناؤود، ويقتلون منهم من يستطيعون قتله. الناس تهرب، وتختبئ، والحوانيت تغلق، والحياة تتوقف في مصر.

وأما محمد علي فقد أخذ جنوده، قوته الرئيسية، وصعد بها إلى القلعة واحتلها بعد مناوشات لم يصمد لها المدافعون عن القلعة. انتظر فيها يترقب الأحداث التي تتطور ساعة بعد أخرى.

وأما أحمد باشا العابر على أرض مصر في طريقه للمدينة المنورة فقد أغرته الأحداث بأن يبقى ليكون هو الوالي بدلا من طاهر باشا المقتول. رأى من الإنكشارية ميلاً إليه، وبخاصة أنه

هو الذي ساعدهم على التخلص من الوالي، ووعدهم بأن يأتي بحقوقهم. اختاروه والياً على مصر، لكن العقبة كانت محمد علي المتحصن بالقلعة. أرسل إليه المشايخ ليذعن إلى الطاعة، ولما خاطبوه في ذلك، أجاب بأن أحمد باشا لم يكن واليا على مصر، إنما هو والي المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، وليس له علاقة بمصر، وأنا كنت الذي وليت طاهر باشا لكونه محافظ الديار المصرية من طرف الدولة، وأما أحمد باشا فليس له جرة ولا شبهة، فهو يخرج خارج البلد، ويأخذ معه الانكشارية، ونجهزه ويسافر إلى ولايته، لكنه قبل كل هذا عليه أن يسلم لنا قتلة طاهر باشا، هؤلاء يجب أن يقتلوا جراء فعلتهم الشنيعة.

سمع أحمد باشا لمقاله محمد علي فاستعد للأسوأ، وساح جنوده ينهبون ويتحزبون ويتسلحون ويعملون المتاريس في مواجهة الأرناؤود. وأراد أحمد باشا أن يستميل الشيوخ، فطلب منهم أن يحرضوا الرعية على قتل الأرناؤود وسيعطيهم ما يشاؤون، أرادوا الذهاب من عنده ليبلغوا الرعية بذلك، فقال لهم: بل تبقون وترسلون واحداً منكم بذلك، احتالوا عليه حتى أقنعوه. وعند الأزهر كان عيار الناس قد انفلت، والأحداث تسارعت بما يفوق التوقع.

محمد علي راسل المماليك، واجتمعوا ليتخلصوا من هذا الوالي العابر، وحاول الوالي المزعوم أن يحاصر القلعة بجنوده، فضرب

عليهم جنود محمد علي مدافع فولوا وهربوا وعادوا مرة أخرى إلى البيت الذي يتحصن فيه أحمد باشا بالداودية.

الشيوخ في حيرة من أمرهم، وهم يجدون الضرب من كل ناحية، وكان الحل الأمثل لهم أن يعودوا إلى بيوتهم ويلزموها حتى تنقشع الغمة، ويبين الفائز في هذا الصراع الدموي.

دخل إبراهيم بك طرفاً في الصراع، فأرسل للوالي المزعوم ورقة يأمره فيها بتسليم الذين قتلوا طاهر باشا، وأن عليه أن يخرج من البلد، وأمهله إلى حادي عشر ساعة من النهار، ولا يقيم إلى الليل، وإن خالف فلا يلومن إلا نفسه.

لم يجد أحمد باشا وقد حوصر وتناقص أتباعه إلا أن يمتثل، فطلب جمالاً يخرج عليها، فأجابوه بأن عليه أن يخرج من داره ماشياً وأتباعه.

وكان مشهده مذلاً، ونساؤه حوله وعبيده يحملون علي أيديهم ما استطاعوا حمله، وهو في وسطهم يتلفت وراءه خشية أن تصيبه رصاصة طائشة من جندي موتور. ولم يمكث هذا الوالي على عرش مصر إلا يوماً واحداً وليلة.

***

أربك دخول المماليك حسابات محمد علي. كان ظنه أن مصر

ستخلو له بعد أن يرحل طاهر باشا، فإذا به الآن أمام واقع جديد. المماليك الذين تكاثروا كالنمل في طرقات البلد أفسدوا عليه كل شيء، عاد إبراهيم بك بخيلائه الكاذبة، وعثمان بك البرديسي بوجوهه الكثيرة، وأصبح الثلاثة هم ولاة الأمر الواقع في مصر.

كان عليه أولا أن يتخلص من الإنكشارية وجماعات الأتراك الذين ساندوا الوالي الأول خسرو باشا والوالي الثاني طاهر باشا والوالي الثالث الذي بقي والياً ليوم واحد. بعض كبار أتباع طاهر باشا جاءوا إليه يلتمسون الأمان ومنهم الدفتردار ونائبه، فأمنهم. ثم أوعز للاظوغلي أن يوعز لآخرين أن يسعوا وراءهما ليقتلاهم. "لا أريد أن تظهر يدي في هذا القتل يا لاظوغلي، أنت تعرف ما سيقوله الجنود". ولم يكن لاظوغلي في حاجة إلى مثل هذا التنبيه. فعلها كما تصور قائده. ثم جاء محمد علي يترحم عليهما، ويأمر بدفنهما بما يليق بهما، ومنح القائم على هذا ستمئة نصف، فأعطى هذا لغيره مئتي نصف، الذي استبقاها لنفسه، وأمر أحد أتباعه أن يدفنهما كيفما اتفق في مدافن الصدقة.

تتبع جنود محمد علي الإنكشارية في كل مكان، وفعل ذلك أيضاً المماليك. وفي أثناء ذلك لم يكن هؤلاء ولا هؤلاء يبالون بما يحدث للناس في مصر.

كل فريق يرتب لأوضاعه القادمة. محمد علي من ناحية والمماليك

المنقسمون على أنفسهم من ناحية أخرى. يكتسب المماليك كل يوم أرضاً جديدة، يبسطون نفوذهم على مناطق داخل مصر وخارجها، ويفرضون الإتاوات والفرد على التجار وأصحاب البيوت بدواع أمن مزعوم لا يأت أبداً.

***

لم يكن حسن ولا بكر في حاجة إلى أن يشددا على من في البيت بعدم الخروج لأي سبب. هن قررن ذلك باختيارهن.لا تذكر أي واحدة منهن آخر مرة فتحت فيها باب البيت لتطل منه على الطريق. تحاول النساء الأربعة ومعهن البنتان أن يتجنبن الشجار المعتاد في اجتماعات النسوة لفترات طويلة. شَحتة بحسها وتجربة السنين الطويلة فوق رأسها كانت تمنع أي بوادر فتنة لأسباب تافهة. من تنسى دورها في غسيل الأطباق، من تهمل في تنظيف الحجرات، من تتقاعس في إعداد الطعام، كل هذا وغيره كانت تعالجه شَحتة بطريقتها، فيصبح رماداً في مهده. وفي لحظات الملل وبوادر التوتر تبدأ رباب، فيرتفع صوتها بالغناء بتحريض من شَحتة أحياناً، ودون سبب ظاهر أحياناً أخرى. تصمت النساء ويستمعن ويتمايلن نشوة وطرباً.

يتصادف أحياناً أن يأتي واحد من الرجلين إلى البيت مبكراً لأمر ما. يلقى النساء وهم في حالتهم من الفرح فيتعجب. حسن واجه هذا

في اليوم الذي قطع فيه رأس طاهر باشا. رأى رأسه ملقاة بإهمال لا يليق بجلال الجسد الإنساني وحرمته. ورأى أحدهم يمسكها بين يديه ويجري بها فرحاً بينما جسده ممدد دون رأس. وتابعهم وهم يحملون الجسد ويدفنونه بعيداً عن رأسه. في هذا اليوم عاد إلى البيت عابساً مكتئباً، وحين اقترب من البيت سمع أصوات ضحكات تجلجل، وحين اقترب من الباب سمع صوت رباب وهي تغني، وقف هنيهة حتى انتهت وهو يتابع، ثم دق على الباب فساد بالداخل صمت مطبق. لحظات وتفتح شَحتة، وكان يضرب كفاً بكف وهو ينظر خلفه وأمامه ويقول لأخته: الناس تموت في الخارج وأنتن ولا على بالكن، وتقول له شَحتة بعتاب: شبعنا من الحزن والبكاء، فهل تستكثر علينا يوم فرح؟ تهزمه بمنطقها فلا يواصل معها الكلام.

ما أبهره لحظتها وأنساه رأس الوالي المقطوع هو اكتشافه لجمال صوت رباب. لا تحاول الفتاة في حضرته أن تتجاوزه أو تقتحمه، ارتضت منه أفعالاً وردود أفعال تعايشت معها بالوقت. وجدته هادئاً فهدأت، وليناً فلانت، وصامتاً فأبقت لسانها في فمها لا تتكلم إلا إذا بدأ هو. وحين يخرج تنطلق، ينفك عقالها، وتصبح رباباً أخرى, وتلاحظها شَحتة ولا تتكلم. تعلم من أخيها معاناته ومدى حبه لهوى، وتقول في نفسها "مع الأيام سيتغير كل هذا، المهم أن تحتمل رباب منه ما تراه". ولم تخذلها الفتاة أبداً.

الفصل الخامس

بدا له مهيباً أول ما استقبله في بيته الواسع، خطواته الوئيدة وهو يقوده إلى "المنضرة" أجبرته على أن يجاريه في سيره على غير عادته. وحين جلس إليه فإن ملامح وجهه أسرته بلحيته متوسطة الكثافة والقصر، وأنفه المدبب، وعيونه التي تشع طيبة. كان أطول منه قليلاً، لكنه أيضاً أقل امتلاءً. وحين استمع إليه، فقد جذبته أصوات الحروف التي ينطقها، جرس كلماته كان يقع عليه فيهزه على الرغم من أنه لا يفهم ما يقول. بدا له صارماً وهادئاً في الوقت نفسه.

المترجم بينهما يجلس، ينقل لمحمد علي ما يقوله السيد عمر

مكرم في هذا الصباح. كان محمد علي قد قرر أن يزور السيد عمر مكرم، أراد أن يسمع منه عن أحوال الناس، وأن يقدم نفسه أيضاً بوصفه أحد المنوط بهم حفظ الأمن في مصر. طال اللقاء بينهما بأكثر مما قدر الطرفان. لما فكر محمد علي في لقاء الشيوخ كي ينال منهم دعماً في اللحظة التي يراها مناسبة، فإنه سأل واستقصى وعرف أن السيد عمر مكرم هو أكثرهم استقامة ووضوحاً، على النقيض من كبار شيوخهم الذين تورطوا في أمور الدنيا بأكثر مما يليق بهم، الشيخ الشرقاوي والشيخ السادات والشيخ المهدي وغيرهم كل هؤلاء كانوا من ذوي الصوت المسموع عند العامة، لكن السيد عمر مكرم كان من طينة مختلفة، وكان لا بد من أن يلتقيه.

- ما جئت إلا لكي أطمئنك وكل الشيوخ والناس أنني وجماعتي من الجند نقف معكم، وسنبذل كل جهدنا في إعادة الأمن إلى مصر، لكن عليكم أن تساعدونا في ذلك.

انفرجت أسارير السيد عمر قليلا وهو يسمع كلام محمد علي.

- إذن هناك أمل أن يستريح الناس، لكن كيف يمكن أن نساعدكم، أخشى أنك توجهت إلى المكان الخطأ، نحن للأسف الشديد الجانب الأكثر ضعفاً في هذا الصراع الدموي.

- بل أنتم الشيوخ لكم كلمة مسموعة، ودور كبير.

قاطع السيد عمر المترجم ليرد بقوله: لا، لا أقصد الشيوخ، أنا أقصد الناس، هؤلاء الذين تراهم يسيرون في الطرقات خائفين مرعوبين، ناس لا حول لها ولا قوة، تريد فقط أن تعيش في أمان، تريد أن تشعر بالعدل، تريد أن تمشى في الطرقات فلا يتعرض لها أحد، وأن تجد قوت يومها فلا يستغلها التجار والمحتسبون والملتزمون والعسكر.

أراد السيد عمر أن يوضح الصورة كاملة لمعاناة المصريين التي طالت بأكثر مما ينبغي، ربما يستطيع هذا الرجل الجالس أمامه والتي تشع نظراته مكراً وحذرا أن ينقلها كما هي لمن بيده الأمر. أطال السيد عمر وفصل، وحكى كثيراً من القصص عن ظلم العسكر وما فعلوه من اغتصاب البيوت واختطاف النساء والغلمان وبيعهم والسطو على الحوانيت وقتل الناس وكل أشكال الظلم الحادث في مصر.

وفاجأه محمد علي بأنه يعرف كل هذا وأكثر، لكنه اعترف له بأن الأمور أصعب مما يتخيل السيد عمر، لا توجد قوة واحدة في هذا البلد قادرة على حسم هذا الصراع، ويبدو أن الباب العالي والسلطان مغيب، ولا يعنيه من أمر مصر إلا حصيلة الأموال التي يرسلها الوالي إلى الآستانة، أما كيف جمعها، فهذا لا شأن له بها.

أضاف محمد علي: مصر بها خيرات كثيرة، ولو أحسن استغلالها

تستطيع أن تنافس الآستانة نفسها، وربما تنافس فرنسا وانجلترا أيضاً.
لكن قبل كل هذا يجب أن تتوقف الفوضى في هذا البلد الطيب.

شعر السيد عمر بارتياح بعد أن خرج محمد علي، أحس بأن هذا القائد الواثق من نفسه ربما يكون عوناً للمصريين إن تحزبت الأمور بأكثر مما نرى، "على الأقل، إذا لم يكن معنا، فلن يكون ضدنا".

وأما محمد علي فقد فرك يديه مستريحاً قبل أن يمتطي حصانه عائداً من حيث أتى، "اليوم كسبت جماعة كبيرة سيكون لها شأن كبير في الأيام القادمة".

***

سافر بكر إلى الإسكندرية مرة أخرى ينتظر عودة سليم ومعه شحنة الورق. مشروع يأمل منه بكر أن ينتشله هو وأسرته من وهدة فاقة تلوح بوادرها بقوة عليهم لولا ستر من الله، وعيشهم في كنف حسن.

أما حسن فقد جلس ينتظر، وفي انتظاره فإن طوفان الفوضى اجتاح باطن مصر وظاهرها، أعاليها وأسافلها، لا يستثني شيئاً، ولا يوقر أحداً. خاف على صديق عمره في رحلته إلى المجهول، إلى الإسكندرية، ما الذي سيلاقيه في طريقه؟ وهل سيصل إلى

الإسكندرية أصلا؟ لكن خوفه على نفسه داخل مصر كان أشد. خوف لم يجد له نظيراً من قبل. مرت عليه حوادث لا يعرف كيف خرج منها كلها سالماً. لم يعرف الخوف، ولا اقترب منه. الآن يبدو الموت قريباً بأكثر مما تخيل ولا توقع ولا تمنى. حتى الأوبئة التي حصدت أرواح الناس، واقتربت منه حتى نالت منه في ابنه، لم يشعر وقتها بالخوف مثلما يشعر الآن. يجلس على باب حانوته بعد أن انتهى من نسخ آخر ورقة في كتاب لأحد الشيوخ. كان يلذ له دائماً أن يقرأ الكتب التي ينسخها، وعن طريقها اكتسب معرفة جرت وراءها شقاء، أصبح الآن بيت المتنبي:

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

رفيقه الذي لا يدري كم مرة مر على خاطره. لكنه الآن زاهد في كل شيء. "هل المعرفة والجدل وصواب الرأي سيغير من أحوالنا شيئا، كل هؤلاء الذين نراهم في اليوم الواحد مئة مرة على باطل، يتصارعون على جثثنا، ولا يعبؤون بوجودنا، بل لا يروننا أساساً. فماذا ينفع حقنا الضعيف في مواجهة باطلهم القوي".

وتزداد الأمور سوءا بشح النيل هذا العام، يزدحم السقاؤون على نقل الماء إلى الصهاريج والأسبلة ليلا ونهاراً من الخليج وقد تغير ماؤه بما يصب فيه الناس من فضلاتهم ومراحيضهم، فتحول ما تبقى من ماء في النيل إلى اللون الأصفر، مع ذلك الناس كانوا

يشربون. وزاد ضجيج الناس بانخفاض النهر، فكان الفقراء من الرجال والنساء يذهبون بغلقانهم إلى السواحل ولا يرجعون بقطرة ماء، وهم يبكون ويولولون.

ويأتي إليه جيرانه من أصحاب الحوانيت القريبة. أحوالهم أيضاً لا تختلف كثيرا عنه، وأحاديثهم لا تدور بعيدا عن ظلم الوالي الجديد على باشا الطرابلسي الذي أظهر أمارات ظلمه بأسرع مما قدر الناس، "كالعادة" كما يقول هؤلاء الجالسون أمام دكان حسن. بدأ ولايته بأن نودي على العثمانية والأتراك والأغراب من الشوام والحلبية بالسفر والخروج من مصر، وكل من وجد بعد ثلاثة أيام فدمه هدر. والذي حدث أنه خرج الأقل ظلما من هؤلاء ليدخل مكانهم الأشد فتكا وقسوة. خرج بعض العثمانية ودخل إبراهيم بك ومماليكه فازدادت مصر فوضى على فوضاها القائمة، وبدأت موجة جديدة من سلب أرزاق الناس وغلالهم، وممن؟ من الذين يفرضون فردهم وإتاواتهم علينا ليحمونا، يترصدون الفلاحين القادمين بمراكبهم عبر النيل ليأخذوا المراكب قهرا من أصحابها، ومن يعترض، فإن طلقة رصاص لا تساوي شيئا تنقله إلى العالم الآخر. والنتيجة كما رصد هؤلاء الجالسون أن الخبز قل، وعز الشعير والتبن حتى بيعت الدواب والبهائم بأبخس الأثمان.

– ما الحل؟ سأل حسن وهو يتفرس وجوه الرجال الخمسة

الجالسين معه والذين يماثلونه عمرا أو يقلون قليلا أو كثيراً.

قفز أصغرهم سنا وأقلهم كلاما وحكمة وقال: ما حك جلدك مثل ظفرك، لا بد أن نحمي أنفسنا بأنفسنا.

رد أطولهم ذقناً وأكثرهم اطلاعاً على بواطن الأمور كما يحب أن يبدو: ليس لنا من أمرنا شيئاً، الله وحده القادر على أن يخلصنا مما نحن فيه.

قاطعه الأقل حكمة: أليس الله هو القائل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾. إذن علينا أن نتغير، أن نحمل السلاح في مواجهة هؤلاء وهؤلاء وهؤلاء، لا أعرف من الذي قال هذا الشعر:

وإذا لم يكن من الموت بد فمن العار أن تموت جبانا

رد حسن من فوره: هو المتنبي

واصل الأقل حكمة: المتنبي أو غيره، لكنه قال الحق، ونحن نموت كل يوم مجاناً، لا يذكرنا أحد، ولا ينتبه لنا هؤلاء الجالسون في القلعة. لا يروننا إلا حشرات تدوسها سنابك خيولهم فلا يبكي عليها أحد. هل رأيتم أحداً بكى حين داس على حشرة قصدا أو عفوا.

كلمات الأقل حكمة ألهبتهم وأثارت فيهم نخوة كادت أن تموت. والنتيجة أنهم خططوا لجمع ما يستطيعون جمعه من سلاح، واتفقوا

أن يكتموا أمرهم، وينشروا دعوتهم بين الناس، فقوتهم في كثرتهم واتحادهم.

***

دخل لاظوغلي فجأة على محمد علي في حجرته السفلى من البيت. بدا له منزعجاً متوتراً. ولمح في وجهه اضطرابا لم يعتده منه.

– هل عرفت ما فعله جنودنا اليوم؟

رد محمد علي: الوقت ما زال مبكرا، أي مصيبة وراءك ووراءهم؟

حكى له لاظوغلي ترصد عدد من الجنود الأرناؤود من رجاله للناس عند بولاق. اصطادوا الفلاحين القادمين إلى مصر بالخضار والفاكهة والألبان، وأخذوا منهم كل ما معهم، وقتلوا منهم أربعة.

– الناس في هياج ولو واجهناهم لتحول الأمر إلى مذبحة.

كان محمد علي لحظتها يشد نفساً عميقاً من "الشيشة" التي توهجت نارها ولاظوغلي يختم جملته الأخيرة. لم يعتدل محمد علي، ولم يكترث، على الأقل هذا فيما بدا للاظوغلي، لكنه قال له وهو يطلق دخان الشيشة من أنفه وفمه: هل أنت متأكد أنهم جنودنا؟

– بالطبع، وإذا لم أكن واثقاً، ما جئت إليك.

واصل محمد علي أسئلته: هل يعرف أحد أنهم من جنودنا؟

– لا أظن ذلك، هم غادروا المكان بسرعة، فلم يلحق بهم أحد.

بعد لحظة من الصمت والتفكير، قال محمد علي: إذن دعهم وما يفعلون، كلهم يفعلون هذا، فما المشكلة. الوالي علي باشا الطرابلسي يتصرف بعيدا عنا. يريد أن يلتهم مصر وحده، فلا يشركنا معه في الأمر. عليه أن يتحمل تبعات اختياره.

وقبل أن يخرج لاظوغلي شدد عليه محمد علي: لا تمنع جنودي من شيء. وليرينا الوالي قدرته على ضبط الأحوال في مصر.

غادر لاظوغلي البيت وهو يتمتم "أنا لا أفهم هذا الرجل، كنت أظنه سينتفض للحادثة".

***

أطلقت توحيدة زغرودة بمجرد أن رأت بكراً داخلاً وراء حسن. قرابة الشهرين، غائباً في الإسكندرية البعيدة، جاوبتها شَحتة بزغرودة أخرى. تعجب الرجلان من أمر النساء، لكن هذه هي مصر وأهلها. يذكر حسن مشهداً رآه من سنوات بعيدة وظل عالقاً في ذهنه حتى اللحظة. أمام دكانه خرجت جنازة من مسجد السلطان حسن بعد صلاة العصر، وحين أخذت طريقها ناحية المقابر قابلتها زفة عرس آتية من الجهة المقابلة، متجهة في طريق سوق السلاح،

التقى الجمعان أمام دكان حسن، توقفا برهة، وسلمت كل جماعة على الأخرى، ثم استمرت في طريقها، فلا هؤلاء توقفوا عن الطبل والزمر، ولا هؤلاء عن النواح والبكاء. ما العجب فيما تفعله توحيدة وشَحتة.

لم يشأ بكر أن يحكي لزوجتيه عما لاقاه من أهوال منذ أن خرج إلى أن عاد مع سليم، حسبهم أنهم رأوه صحيحاً معافياً. حكى لحسن عن قطاع الطرق الذين خرجوا عليه ورفقته في الذهاب، وكيف تخلصوا منهم، وما حدث لهم في ميناء الإسكندرية بعد أن وصل سليم. الإتاوات التي اضطروا إلى دفعها، والرشاوي لموظفي الميناء حتى يسرعوا في الإفراج عن شحنة الورق التي ستتعرض للتلف إذا هطل المطر فجأة. مساومات ونظرات طمع في عيون كثيرين استطاع الاثنان بالحيلة والمال أن يتجاوزاها. في كل خطوة كان يضغط عليه سليم أن يقبل ما لا يمكن أن يتصوره: يقدم رشوة حتى تمضي الأمور بسلام، وفي لحظات تأزم الأمور كان سليم يضحك معه ويقول: تصرف يا أخي، ألست فقيهنا؟ حاول أن تجد مخرجاً شرعياً لما نفعل حتى تستريح ونعود بسرعة إلى مصر.

لكن بكر رأى في سليم حصافة متناهية جعلته يكبر في نظره بما يفوق التصور، وحين حكى لحسن لم يتعجب من أمر سليم، بل قال لبكر بعد أن انتهى "ليس غريباً عليه ما فعل، هذا هو سليم"

والحادث أن بكر كان يود أن يعود بشحنة الورق على قافلة من الجمال كما يعرف ويرى، لكن سليم شدد على أن ينقلا الشحنة أولا إلى رشيد، ومن هناك ينقلان الورق عبر النيل. "طريق النهر أكثر أمانا، على الأقل سنواجه العسكر فقط، وهؤلاء يمكن أن ترضيهم كما نعرف، أما قطاع الطرق من العربان والجماعات الشاردة التي لا تعرف من أين تأتي سنكون أمامها لا حول ولا قوة لنا". وفي أثناء الطريق اقترح سليم أن ينزلا الورق في قرية صنصفط القريبة من النيل، له أقارب في هذه القرية يمكن أن يخزن عندهم الجزء الأكبر من الورق، لا يطمئن لدخولهما بهذه الكمية الكبيرة أن يستولي عليها من إذا شاء فعل. فعلا ذلك وواصلا طريقهما إلى مصر بالقدر الأقل، وقبل أن يصلا إلى بولاق أوقفا المركب مرة أخرى، وأنزلا قدراً آخر عند قريب آخر لسليم. ثم وصلا بولاق بما يكفيهم شهراً أو شهرين. دفعا المكوس المعتادة، وفوقها رشاوى وإتاوات وتحايلات واستعانة ببعض العسكر والهائمين في طرق مصر لا يجدون قوت يومهم حتى وصلا بسلام إلى حانوت حسن.

***

مناورات محمد علي لا تنتهي، وبخاصة مع الوالي علي باشا. قرر محمد علي أن يحيل إقامة هذا الباشا في مصر إلى جحيم.

منع عن العسكر رواتبهم حتى استباحوا الناس في الطرقات، ضج الناس من العسكر ومن قلة المورد وشح الماء وغلاء المعيشة.

ثم جاء عثمان بك البرديسي إلى الجيزة، وسكن بقواته في الناصرية. وكانت فرصة لمحمد علي أتته من حيث لا ينتظر. يعرف الكثير عن صراعات المماليك فيما بينهم. يعرف أن البرديسي يكره الألفي، والأخير يبادله كرهاً بكره. وأما إبراهيم بك، فنجمه يأفل على الرغم من بقية هيبة زائفة يحاول التمسك بها. الألفي غائب في انجلترا في مهمة غامضة لمحمد علي، بينما قواده وكل جنوده يرابطون بالإسكندرية وبعض مناطق الدلتا في حماية الإنجليز. عليه الآن أن يلتقي البرديسي ويرتب معه الخطوة القادمة، لكن ماذا يقول له؟

ذهب إليه في بيته بالناصرية، وجلس يستمع إليه. سمعة محمد علي سبقته إلى البرديسي، الذي استقبله بحفاوة رجل يعد الآن الشخص الثاني الأكثر أهمية بعد الوالي في مصر. حاول البرديسي وهو جالس معه أن يخفي مشاعره، محمد علي لم يأت إلى مصر إلا قبل أقل من ثلاث سنوات مع ذلك فقد ارتفع شأنه حتى ساوى المماليك الذين استوطنوا هذه البلاد من مئات السنين. البرديسي يرى في مصر موطنه. هو الأحق بها، ومن ثم هي الأحق به. لكن محمد علي عرف أن يخاطب في البرديسي غرائزه، ولعب معه

على وتر الأهلية التي له على أمراء المماليك في مواجهة الألفي الغامض الذي يحتمي بالإنجليز. لم يحاول أن يقاطعه أو يختلف معه، بل قال له كل ما طمأنه. محمد علي كان يرى أن فرنسا هي الأقوى والأهم، ويقدر في البرديسي استعانته ببعض ضباط وجنود الفرنسيس. قال له "فعلت صواباً، إذ استعنت بهم، هؤلاء هم الذين يتقنون فنون الحرب الحديثة، وفي أي مواجهة بينك وبين الألفي لا شك أنهم سيكونون عونك الكبير". انتفخ البرديسي وهو يسمع إطراء محمد علي له، وانتبه إلى نبرة الود التي جاهد محمد علي في الحفاظ عليها طوال جلسته. بدا له شخصاً يمكن الوثوق به وطيه تحت جناحه. بينما كان محمد علي يدبر له أمراً قضي عليه بعد ذلك قضاء مبرما. بالغ محمد علي في إظهار ثقته بالبرديسي إلى حد أنه طلب منه أن يقوم كل واحد منهما بجرح الآخر، ثم يقوم بلحس دمه دلالة الأخوة والعهد بينهما. لذلك حين طلب منه محمد علي أن يفتح بعض مخازن الغلال التي استولى عليها ليعطي الناس كي يكسب ودهم، استصوب البرديسي رأيه.

محمد علي نفسه أخذ الغلال ووزعها بنفسه على الناس دون أن يذكر البرديسي بخير أو شر. بدا لهم الرجل العطوف المتحيز لهم.

في الأيام التالية تركه يفرض ضرائبه على الناس، يجمع بغشم

تمادي فيه بعد ذلك أموالاً كانت سبباً في ازدياد كراهية الناس له وللمماليك. في تلك الأثناء بدا للناس أن محمد علي هو الأقرب لهم من بين كل هؤلاء الكبار. وحين أخبره لاظوغلي بما يقوله الناس عليه. شعر أنه أصبح قريباً من حلمه في عرش مصر. وكانت هذه هي اللحظة التي أسر فيها بنواياه للاظوغلي وبعض قواده المقربين منه، "عليكم أن تكونوا مستعدين، أمامنا عمل كثير حتى نصل إلى القلعة لنحكم منها مصر كلها. ربما تضطرنا الأحوال أن نخوض معارك، وأن نأخذ قرارات صعبة لا نرضى عنها، فهل أنتم معي" شعر رجاله بحماس وهم يستمعون لقائدهم. كانت أحلامهم في ثروة صغيرة أو كبيرة يعودون بها من هذا البلد متنوع الخيرات، فإذا بهم أمام بلد بأكملها، هي قاب قوسين أو أدنى من متناول أيديهم. رددوا كل على طريقته عبارة تكاد أن تكون واحدة "نعم، نحن معك حتى النهاية".

***

كان على الثلاثة أن يلتقوا بشاه بندر التجار السيد أحمد المحروقي. شحنة الورق التي جلبوها من إيطاليا أدخلتهم في زمرة التجار الكبار على الرغم من أنهم لم يقصدوا ذلك، وعلى الرغم من أن حجم ما جلبوه إلى مصر قليل بالنظر إلى ما تركوه في صنصفط بالمنوفية. الرجل كان رقيقاً وسخياً وواعياً لما يحدث في

مصر. وكانت مشكلتهم هي توفير الأمن أولا، ثم فهم القواعد التي يتعامل بها التجار في مواجهة المحتسب وأعوانه إذا بان منه ظلم أو تقصد أو ربما كان خطأ غير مقصود منهم. لم يسمعوا من الرجل ما يطمئنهم، هو نفسه ليس بمأمن من أي شيء. ولولا بقية من حياء عند كبار المتصارعين في مصر، ولولا أنهم يعرفون قدره ومدى فائدته حين يحتاجون إلى جمع أموال من التجار ما تركوه ولا اهتموا به ولا وقروا سنه.

عاد الثلاثة يجرون أذيال الخيبة والإحباط مما سمعوه من المحروقي، وفي الطريق أخبرهم سليم بأنه لا حل إلا بأن نعتمد على أنفسنا، "يجب أن نحمي أنفسنا بأنفسنا حتى يظهر لهذه البلد صاحب". ولما عرف من حسن بأمر الجماعة التي تكونت للدفاع عن الناس في مواجهة ظلم العسكر، هلل وقال: إذن هناك أمل. أما بكر فقد بدا فاتر الحماس لكل شيء. شيء ما انكسر في أعماقه بعد أن راهن على العثمانيين في مواجهة الفرنسيس، ثم بان منهم ما بان.

سمعوا بأن الألفي عاد، وسمعوا بأن محمد علي والبرديسي ذهبوا بجنودهم وراءه لاصطياده في الإسكندرية أو رشيد، وتتبعوه في مناطق المنوفية وإيتاي البارود والقليوبية حتى الجيزة نفسها، وهو يفلت منهم في كل مرة. في أثناء ذلك احتاجوا إلى جمع

الأموال لتمويل حملتهم ضد الألفي، أمر البرديسي بعمل فردة على أهل البلد يجمعها المحروقي، فشرع مع رجاله في كتابة قوائم لذلك، ووزعوها على العقار والأملاك، أجرة سنة يقوم بدفع نصفها المستأجر، والنصف الثاني يدفعه صاحب الملك. وشرعوا يعلنون ذلك في الأسواق والأخطاط، فنزل بالناس ما لا يوصف من الكدر مع ما هم فيه من الغلاء ووقف الحال.

لكن هذا اليوم كان يوماً غير مسبوق في مصر. اجتمع عدد من الناس حول جامع السلطان حسن، واقترب من دكان حسن جماعته التي اتفقت على تخزين السلاح لمواجهة العسكر. وعند الدكان صاح الأقل حكمة والأصغر سناً "الفردة بطالة". ظل يرددها حتى بح صوته، عندئذ التف حوله من هم في مثل سنه وتهوره وأعادوا ما قال، بل إنهم ساروا في سوق السلاح وسائر مناطق الدرب الأحمر وهم يصيحون ويلعنون العسكر والوالي والمماليك، وفي كل خطوة تتكاثر أعداد المحتجين.

مر اليوم الأول دون أن ينتبه العسكر، فشجع هذا الناس في اليوم التالي على الخروج، لكنه لم يكن خروجاً عادياً. النساء خرجن وبأيديهن دفوف يضربن عليها ويندبن ومن وراءهن جموع الناس الفقراء. بدأت صيحات تشتم أمراء المماليك، وتشتم الوالي، وتخص البرديسي بالهتاف "إيش تاخد من تفليسي... يا برديسي"

صبغت النساء شعورهن بالنيلة، وخرجت الناس بالبيارق والطبول ووصلوا إلى الجامع الأزهر يستنجدون بالشيوخ، فخرجوا معهم ينادون بإبطال الفردة. في هذا الوقت كان كثير من العسكر منتشرين في الأسواق، فداخلهم الخوف من اجتماع الناس، فصاروا يقولون لهم "نحن معكم... سوا.. سوا، أنتم رعية ونحن عسكر، ولم نرض بهذه الفردة، ورواتبنا على الوالي والأمراء وليست عليكم، أنتم ناس فقراء" فلم يتعرض لهم أحد، ولو كانوا فعلوا لما قدر عليهم إنسان، ولا لامهم أحد. ظل الحال هكذا حتى جاء مناد ينادي بإبطال الفردة، فصاح الناس وهللوا وعادوا إلى بيوتهم.

الفصل السادس

قتلوه، استيقظ الناس ذات صباح فسمعوا خبره. كان قد اختفى أياماً كثيرة فلم يسمعوا له حساً، وقالوا إنه ذهب إلى الإسكندرية، وادعى آخرون أنه لم يغادر القلعة، كل ما في الأمر أنه كان مريضاً، وفشل الأطباء في علاجه فمات، لكن أين جثته إذا كان كلامهم صحيحاً؟ بل أين جنازته التي تليق به بوصفه والياً على مصر؟ تضاربت أقوالهم في الرجل، لكن أحداً لم يحزن عليه، ولم يفرح. كل ما في الأمر أن الناس لم تشعر بوجوده، فلم يمنع عنهم ظلماً، بل كان يداً للظالمين أحياناً، ولم يواسهم في مصائبهم، بل زاد فيهم تنكيلاً وتقتيلاً. ولما غاب لم ينهد الكون، فهو مهدود أصلاً، ولم

تنفرط أحوال مصر، لأنها لم تكن مستقرة ملمومة.

قبل أسابيع من إعلان موت علي باشا الطرابلسي كان محمد علي يجلس مع بعض قواده المقربين في بيته القريب من الأزبكية. كان اجتماعاً مغلقاً لم يشأ أن يدعو له إلا من يعرفون نواياه الحقيقية، بادره صادق بك أغا بمجرد أن دخل عليهم آتياً من حجرة نائلة التي اختارت له ما يلبس، ثم أضافت من لمساتها بحيث بدا مهيباً في هيئته: أظن أنها اللحظة المناسبة لنضرب ضربتنا الأخيرة.

اعتدل محمد علي في جلسته، ولم يرد مباشرة. كان يتفرس في وجوه الحاضرين الذين كانوا خمسة من قواده بينهم لاظوغلي. كانت نائلة قد رتبت أرائك الحجرة في الصباح لما عرفت باجتماعهم بعد العشاء الأخيرة. اختارت له أريكة أعلى وابعدت الأرائك الأخرى عنه، ثم قامت بتوزيع القناديل في الحجرة بحيث يتسلط ضوء أكثر على مكان جلوسه، ثم غيرت سجادة الحجرة فاقعة الألوان، واختارت سجادة بسيطة في ألوانها وخطوطها، أنيقة في شكلها العام، أخبرته بما فعلت، وقالت له قبل أن يخرج إليهم: لا أعرف لماذا تجتمعون، ولا أريد أن أعرف، لكن ما يهمني هو أن يهابك الرجال ويخشوك، هذه أمور ستحدث تأثيرها فيهم، وسترى صدق ما أقول.

توجه محمد علي إلى محدثه فقال: فكرت كثيراً في هذا، لكني لا

أرى ذلك، لو قمنا بخلع الوالي والاستيلاء على القلعة، فلن يرضى السلطان، ولن يرضى المماليك وبخاصة البرديسي الذي يظن أنني حليفه، ولن يرضى الإنجليز الموجودون بالإسكندرية حتى الآن، والذين يجهزون محمد الألفي لحكم مصر. وفي النهاية سنواجه جماعات ستحاربنا بكل قوتها، وليس لدينا مدد من الرجال والسلاح يساعدنا.

رد لاظوغلي: ماذا لو اتصلت بالباب العالي، لو أرسلت لهم ما يطمئنهم، فربما ضمنت وقوفهم معك، أو على الأقل حيادهم طالما أننا سنرسل لهم الأموال المفروضة على مصر بانتظام.

أجاب محمد علي: لا أضمن السلطان ولا أطمئن لرجاله، وبخاصة أن خسرو باشا لديه شكوك كثيرة من ناحيتي، هو يرى أن لي يداً في خلعه، صحيح أنه ما زال موجودا بدمياط لكنه أرسل بعض رجاله إلى الآستانة، ولا أتوقع إلا أنهم أخبروا الصدر الأعظم بكل ما حدث.

قال عمر أغا: وماذا عن الإنجليز؟

قال محمد علي: الإنجليز آخر جماعة يمكن أن أعتمد عليها، فأنا لا أطمئن لنواياها فهواهم مع الألفي، وهم لهم حساباتهم الخاصة بصراعهم مع الفرنسيين، ثم إن الناس هنا لن ترضى بوال جاء به الإنجليز لحكم مصر. لكني اليوم جمعتكم لأمر آخر. واصل كلامه

دون انتباه للعيون التي تطلعت إليه بشغف، تعلمون أن علي باشا الطرابلسي ذاهب إلى الإسكندرية لأمر لا أدريه، وهي فرصة مناسبة للتخلص منه.

رد صادق بك أغا: لكن الرجل لم يظهر لنا نوايا سيئة، وأخشى إن فعلنا فسنخسر حلفاء لنا كثر، سيتعاطفون مع الرجل ضدنا.

أجاب محمد علي: لن نفعل نحن هذا. البرديسي الأحمق سيتكفل به، كان قد اتفق معي منذ أسابيع على أن أرفع يدي عن حماية الوالي، وسيهاجم هو القلعة برجاله ويتخلصون منه على طريقتهم، لكني أخبرته أنه لو فعل هذا في مصر، فستحدث فوضى عارمة لا يضمن أحد السيطرة عليها، والأوفق أن نفعل هذا خارج مصر، والآن حانت اللحظة. الطرابلسي ذاهب إلى الإسكندرية ليلتقي حاكمها أحمد بك خورشيد، وهم سيتصيدونه في أثناء الطريق. سيختار لاظوغلي واحداً منكم يتابع الوالي حتى يبتعد عن مصر تماماً، ثم يناوش جنوده دون أن يظهر بنفسه حتى يقل حراسه، وسيتكفل البرديسي بالباقي.

***

عادت مصر سيرتها الأولى قبل عام، عادت بلا وال يحكمها، لا يشعر الناس بغيابه. هم لم يشعروا بحضوره أصلاً. هي إذن الفوضى، السطو على البيوت، سرقة الأطفال وخطف النساء، ثم

بيعهن عبيداً بعد اغتصابهن: الأطفال والنساء. انقطاع الطرق براً وبحراً، وغلو الأسعار وندرتها.

***

لم يكد حسن يجلس على دكة الدكان الخارجية حتى عاجله سليم: من هؤلاء الذين يسألون عنك؟ بان في وجه حسن اضطراب أفسد عليه ليلة رائقة قضاها مع رباب: من الذي يسأل عني؟

- اثنان من الشباب جاءا هنا أكثر من مرة، سألتهما عما يريدان منك، فلم آخذ منهما شيئاً مفيداً.

خمن حسن أنهما أحمد الأصغر سناً والأكثر تهوراً وزياد الحكيم المتهور صغير السن، سأله: صفهما لي. أجاب سليم: واحد نحيف ومتوسط الطول والثاني أكثر امتلاءً ويماثله طولاً، لكن النحيف سريع الكلام غير مستقر في حركاته. اطمأن حسن، وعرف أنهما أحمد وزياد، سأله حسن: هل قالا لك إنهما سيأتيان مرة أخرى؟ قال سليم: يبدو ذلك، هما لم يؤكدا الحضور، لكن طريقتهما في السؤال عنك فيها إلحاح مريب. صمت قليلاً ثم أضاف بجدية ظاهرة: من هؤلاء يا حسن؟ بدأ حسن يلاعبه، قال وهو يستدير داخلاً لينسخ بعض الصفحات: وما شأنك أنت؟ هما صديقان منذ الطفولة، لا تعرفهما. رد حسن استفزه فقال بعصبية: أي طفولة يا بني آدم؟ هما في نصف عمرك، هل كنت تلعب معهما "السيجة"؟ في تلك الأثناء

دخل بكر، فاستنجد به سليم: الحق صاحبك الذي يلعب مع العيال على آخر الزمان. استغرب بكر، فحكى له سليم حكاية الشابين ورد حسن. وقفة سليم بين الاثنين أتاحت لحسن أن يشير لبكر بعلامة الصمت، فصمت، وبان على وجهه الجهل والاستغراب بما يفعله حسن بعيداً عنه. أيقن سليم من رد بكر أن هناك ما يخفيانه عنه من أمر هذين الشابين، فصمت على مضض وغيظ ظاهر.

كان الوقت قريباً من صلاة الظهر، فتركهم بكر أولاً ليتوضأ، ولما أُذِّن للصلاة ذهب حسن، بينما لحق بهما سليم وقت الإقامة. ولما عادوا وجدوا أحمد وزياد واقفين في انتظار حسن. تلقاهما حسن وبكر بالأحضان وسليم واقف مذهولاً مما يرى.

أخبره حسن بهؤلاء الشباب الذين قرروا أن يواجهوا الفوضى والظلم بالسلاح. "أحمد وزياد هما اثنان، لكنهما في الحقيقة أمة بأكملها، وسترى وتسمع منهما ما يطمئنك". ولما استمع سليم إليهما دمعت عيناه فرحاً، وعندما علم بمسألة السلاح هلل وكبر وقال: إذن هناك أمل أن يفيق الناس. بدا سليم متحمساً صاخباً، وجد فيه الأقل سناً والأكثر تهوراً حيوية ودفق لم يجدها في حسن، ويقيناً لم يجده في بكر. عاد سليم شاباً ساخطاً رافضاً لكل ما يراه وبخاصة هذا الخنوع العجيب ممن يراهم وهم يتقبلون إهانات وضرب لأسباب تافهة أحياناً وبلا سبب في كثير من الأحيان. اكتشف فيه هذان الشابان كنزاً وسنداً. شباب فاض بهم الكيل مما

يعانون، وجدوا فيه معيناً ونصيراً لم يجدوه في حسن. يتريث حسن ويحسب كلماته ومواقفه معهم، ويزن الأمور ميزاناً لا يرضي هؤلاء المتهورين، وأما بكر فقد بدا فاقدا لتوازنه بعد ما لاقاه في أيام الفرنسيس ومازال يلقاه حتى الآن بعد أن أخذوا بيته. كان ظنه أنه سيكون أكثر غضباً، فإذا به يرتد على نفسه، ويبدو للمحيطين به لا مبالياً. دُهش الشابان من حيوية سليم، بدا لهما شاباً مثلهما وبخاصة وهو يقول ما يقولان، ويرى أحوال مصر ببصيرة أكثر نفاذاً من بصيرة حسن وبكر، استحوذ عليهما سليم من طلته الأولى على عالمهما. ولم يبق إلا أن تتحول أحلامهم جميعاً إلى واقع. وفي غمرة فرحهما بلقاء سليم نسيا السبب الذي جاء بهما إلى حسن.

***

أمسكت يدها قبل أن ترتفع إلى فمها، كانت شَحتة تود أن تطلق زغرودة لما أخبرتها فاطمة أن "دورتها الشهرية" تأخرت عن ميعادها بأكثر من ثلاثة أسابيع، لكنها منعتها.

– توحيدة يا خالتي، توحيدة يمكن أن تتضايق.

ولم تفهم شَحتة، أليس هذا زواجاً على سنة الله ورسوله، فلماذا تتضايق توحيدة، أكملت فاطمة:

– أنا أعلم أن بكر لم يتزوجني إلا ليحميني، أين أذهب بابنتي لو لم يتزوجني، وتوحيدة يمكن أن تغار.

ردت شَحتة: أنت – يا بنت – عبيطة، هل هذا سر يمكن أن تخفيه، وإذا أخفيته اليوم، فسيظهر غداً

أجابت فاطمة: ومن قال لك إني أريده؟

بهتت شَحتة لما سمعت سؤالها، ونظرت إليها باستغراب، بان في وجهها غيظ حاولت أن تكتمه، وتذكرت حسن ورباب اللذين مضت على زواجهما شهور كثيرة، ولم تظهر أمارة على الحمل، تخجل شَحتة أن تسأل حسن. وأما رباب فقد أسرتها بما تفعله، هي تستغرقها بأساليبها اللطيفة المعسولة، فتنسى معها كل شيء. عادت إلى لحظتها مع فاطمة، وقالت: احمدي الله على النعمة، أما توحيدة فأنا كفيلة بها.

تحينت شَحتة بعد ذلك بأيام فرصة كانت فيها توحيدة بحجرتها في الطابق السفلي، وأخبرتها بحمل فاطمة. صمتت للحظات، وشعرت بغصة في حلقها، وكادت دمعة تطفر من عينيها لولا أنها تماسكت، ابتلعت ريقها بهدوء، ثم أطلقت زغرودة وجرت ناحية فاطمة تحتضنها. تعلم أن بكراً لا يساوي بينهما، هو يؤثرها بأيام كثيرة كثيرة، ولا تتضايق فاطمة ولا تغار، ولم يظهر منها ما يجعلها تتحول عن صاحبتها، رضيت منه فاطمة باليوم الواحد واليومين في كل شهر، مع ذلك هي التي حملت، ولم تحمل توحيدة. كانت تتمنى لو كان حملها، لكن هكذا مشيئة الله. بكت في حضن

فاطمة، فظننتها دموع الفرح، فقبلتها مرة أخرى. سعيدة شَحتة بما رأت وما سمعت، لكنها استطاعت أن تلمح في حركة توحيدة الزائدة ونظرات عينيها توتراً بذلت مجهوداً كبيراً كي تخفيه. ولما اختلت بها مرة أخرى قالت لها جملة ظلت ترن في أذنها لزمن طويل بعد ذلك: لا أحد مثلك يا توحيدة، يا بخت بكر بك. أما رباب فقد رأت وسمعت وشاركت وغنت بعد ذلك قبل أن يأتي الرجال، لكنها في أعماقها كانت تتمنى لو كان هذا هو خبرها. ولما أسرت لشَحتة بما تشعر، قبلتها وقالت: اصبري يا رباب، اصبري، كل شيء بأوان. وليس أمامها إلا أن تصبر، حسن تزوج قبلها وأنجب، فإذا كان هناك عيب فهو منها. عليها أن تستخير الله وتبتهل أن يمنحها من يقر بها عينها، ويقر عين حسن زوجها الذي شغفها حباً، ولن تجد له مثيلاً في الدنيا كلها. مسحت دمعتها، ونزلت من حجرتها حيث فاطمة وتوحيدة، وبدأت تعدهما بأغنيات خاصة للولد القادم في البيت. نظرت إليها فاطمة وعيونها تتألق فرحاً، وقالت: ومن أدراك أنه ولد؟ أجابت: ولد يا فاطمة، هل تراهنين؟

***

لم ينم محمد علي ليلتها، حاول أن يدفن إحباطه وانخذاله في حضن نائلة، ففشل مرة، وفشل أخرى. ولاحظت نائلة فأظهرت من مفاتنها وإغواءاتها ما لم تكن تتصوره هي، لكنه فشل مرة ثالثة،

فدفعها، ثم غادرها لينام في حجرة وحده. كانت خيالات هزيمته أمام المماليك لا تبارحه فقضت مضجعه حتى الصباح.

كمنوا له في البساتين، وأوقعوا منه عشرات القتلى والجرحى.

أول ما فعله في الصباح بعد أن خرج من حجرته بعد ليلة ليلاء أن استدعى لاظوغلي، وأخبره أن رده على هؤلاء المماليك الملاعين يجب ألا يتأخر كثيراً، لن يذوق طعم النوم إن لم ينتقم مما حدث لجنوده، لكن عليه الآن أن يشيع عند المماليك أنه يطلب صلحهم، فهو لا ناقة له ولا جمل فيما يحدث في مصر. الأمر بينهم وبين الوالي، إن شاء أبقاهم في مصر وإلا حاربهم هو بجنوده، أما نحن، فمهمتنا في هذا البلد قاربت على الانتهاء، ونحن نستعد للرحيل في وقت قريب. "عليك يا لاظوغلي أن تستوثق أن هذه الرسالة قد وصلت إليهم كما نريد، وغداً يكون لنا أمر آخر معهم".

في صباح اليوم التالي صعد محمد علي إلى القلعة ليقابل الوالي، هناك استقبله أحد القواد المشرفين على حصون القلعة بما يليق به. لا يعرف محمد علي لماذا تذكر وقتها دخوله الأول للقلعة أيام خسرو باشا والطريقة المهينة التي عامله بها حاجب الوالي حين أمره بخلع حذائه قبل أن يدخل على الباشا، تطلع في وجوه من رآهم لعله يجد هذا الجندي، سيأمره ساعتها أن يلعق حذائه. استقبله الوالي هاشا باشا، فأخبره محمد علي بما ينوي أن يفعل هذا اليوم،

وطلب منه ثمانين كيساً يوزعها على جنوده، فلم يمانع الباشا، ولو طلب محمد علي المزيد لأعطاه عن طيب خاطر.

نزل محمد علي إلى معسكره حيث التقى بجنوده، وزع عليهم الدراهم، وحثهم على أن يكونوا مستعدين اليوم للانتقام. في المبنى الرئيسي من المعسكر اجتمع مع قواده يراجع معهم خطة الهجوم على المماليك. عرف من لاظوغلي أن المماليك الذين هاجموهم في البساتين انتقلوا نواحي طرة، وانضموا لجماعات أخرى منهم استعداداً للهجوم على مصر في أي وقت. واطمأن إلى أن الرسائل التي أراد لها أن تصل إليهم قد وصلت إليهم وصدقوها.

قال لقواده: سنهاجمهم بعد خمس أو ست ساعات من الليل، نطمئن إلى أنهم قد ناموا، فنفاجئهم من حيث لا يتوقعون.

قال صادق بك أغا: لكن عتمة الليل قد لا تساعدنا في إنجاز ما نبغي، وقد يختلط الأمر، فيقع القتل فينا من حيث لا نريد.

أجاب محمد علي: بل الظلمة سلاح لنا لا علينا، وعلينا أن نقتل منهم أضعاف أضعاف ما قتلوا منا، ثم نعود في أقل وقت.

وفي اللحظة المتفق عليها سار محمد علي بأربعة آلاف من جنوده فرساناً ورجالاً، ولما اقتربوا من معسكر المماليك ترجلوا وقسموا أنفسهم ثلاثة طوابير: ذهب منهم قسم إلى جهة الدير الموجود في طرة، والثاني جهة المتاريس والثالث جهة الخيل، وجماعة الألفي

الصغير في غفلتهم ونومهم مطمئنون، وكذلك حرسهم، فلم يشعروا إلا وقد صدموهم، فاستيقظ القوم وبادروا إلى الهرب والنجاة، فملكوا منهم الدير وأبراج طرة، وأخرجوا منها العساكر العثمانية الموالية للوالي والذين كان المماليك يحبسونهم، وأخذوا مدفعين وثمانية من الجمال وثلاثة عشر فرساً وبعض الأمتعة، ثم قطعوا رؤوس بعضهم وعادوا بها من فورهم آخر الليل.

في هذه الليلة دخل محمد علي على نائلة مستبشراً، وحكى لها باقتضاب ما كان من أمره وجنوده مع جماعة الألفي، وهو لا يفعل هذا كثيراً. سعدت به نائلة وأسعدته، ونام في ليلته كما لم ينم من قبل.

***

زبائن حسن وصاحبيه كثر، الشيوخ والتجار والقضاة والكتبة الأقباط وحتى رجال الوالي أنفسهم. تجار الورق في مصر قليلون، لكن حسن من بينهم هو الأكثر أهمية ومكانة. لم يكن الورق له تجارة وحسب كما عند الآخرين، بل كان حياة كاملة وشغف لا يدانيه شغف. "هل تستطيع ذاكرة الناس أن تسع ما يسعه الورق من معارف وخبرات". يقول لسليم في جلسة رائقة نادرة بينهما. يوافقه سليم ويضيف "استعمالنا للورق هو الذي ميزنا عن عالم الحيوان، ولولا أننا نستعمل الورق، ما اختلفت حياتنا كثيراً عن

حياة أجدادنا الأوائل". ويدخل عليهما بكر، ويتابع حديثهما الجاد فيتعجب: أخشى أن يأتي المماليك الآن فيضرمون النار في ورقككم الذي تهيمون به. قم أنت وهو وانتبه لما يحدث في الخارج".

وكانت العساكر العثمانلية تطارد حول جامع السلطان حسن جماعة هائمة من المماليك ظنت أنها في مأمن، بينما يقف لهم من الناحية الأخرى تحت سفح القلعة بعض الجنود الأرناؤود عرف الثلاثة بعد أن هدأ المكان أنهم من جنود محمد علي القائد الألباني الغامض الذي يمدحه السيد عمر مكرم كثيراً.

- سمعنا أن محمد علي تحالف مع البرديسي، فما الذي دعاه للانقلاب عليهم الآن؟ قال سليم.

رد بكر: هذه شؤون الناس الكبار في مصر، لا شأن لنا به، دعهم يقاتلون بعضهم بعضاً، فالله يسلط الظالمين على الظالمين.

انفعل سليم وقال: متى كان هذا الأرناؤودي من كبار مصر؟ لم نعرفه إلا من شهور قليلة.

رد حسن بهدوء: السلاح يا صاحبي، إذا كان معك السلاح، فأنت من الكبار حيثما كنت.

في تلك الأثناء دخل عليهم زياد في حالة هلع، جلس بينهم ليسترد أنفاسه ثم قال موجهاً كلامه لسليم: عمي سليم، هل تعرف

أنهم قتلوا إبراهيم بك وعلقوا رأسه على باب زويلة؟

رد بكر: إبراهيم بك بجلالة قدره، هذا والله هو الخبر، ومن الذي قتله؟

- يقال إن العثمانلية ترصدوه قريباً من شبرا وأوقعوا به وعساكره.

قال سليم: إذن، تعال نذهب لنرى رأسه، فهذه حادثة لها ما وراءها، يبدو أن الأمور ستتصاعد في الأيام القادمة.

وأمام باب زويلة كانت هناك سبعة رؤوس معلقة من شعورها ثلاثة منها ملتحين أحدهم لحيته طويلة، وثلاثة بشوارب، وسابع أسود. كان هناك جمع كبير من الناس بينهم أطفال ونساء تتطلع إلى الرؤوس المعلقة، وأحدهم يشير إلى رأس ذي اللحية الطويلة ويقول: "هذه رأس إبراهيم بك بلا شك". بعض الناس كان يشمت ويقول: هذا جزاء ما فعلت يداه، آخر يقول: هل يساوي نعيم الدنيا كلها هذه النهاية، ما لفت نظر سليم وآلمه في الوقت نفسه أن الأطفال تنظر بلا مبالاة إلى الرؤوس، بل بعضهم يهلل مع المهللين. سحب زياد من يده وتركا الجمع وقال: ما الذي تنوون فعله؟ أخبره زياد أن أعدادهم ما زالت قليلة والسلاح في أيديهم أيضاً قليل، وأما أعداؤهم فكثر وسلاحهم كما تعلم، ولو انتبهوا إلينا لتركوا خلافاتهم واتحدوا ضدنا، لكننا لن نواجههم جهرة، سنضربهم من حيث لا يتوقعون،

ثم نختفي فلا يظهر لنا أثر. سأله سليم: ومتى تفعلون؟ قال زياد: قريباً، قريباً جدا. قال له سليم وقلبه يتراقص فرحاً: أنا معكم في كل ما تفعلون، ليس بالمال فقط، بل سأقوم بكل ما تطلبونه مني. ثم أخرج بعض القروش من جرابه، وأعطاها لزياد قائلاً: ستحتاجون إلى مال كثير في الأيام القادمة، لكن عليكم بالحذر، لو اكتشفوا أمركم، فسينهد كل شيء.

***

ألحت عليه شَحتة أن يأخذها لتشاهد الاحتفال بوفاء النيل، حاول حسن أن يرفض، أخبرها أنه لا يحضر مثل هذه الاحتفالات، "لا أحب الزحام يا شَحتة".

- لكن البنت لم تخرج من البيت منذ وقت طويل، ومن حقها أن تفرح بدل حبستها في البيت مع عواجيز مثلنا.

يحاول حسن أن يقدم أسباباً أخرى للرفض، لكن شَحتة يبدو أنها حزمت أمرها مع رباب، لأنه بمجرد أن وافق وجد زوجه واقفة في الفناء بملابس الخروج. نظر إليها، ثم نظر لشَحتة وابتسم: إذن اتفقتما عليَّ.

وصل إلى مكان قريب من سد الخليج وكان اليوم سبت والوقت قبل الظهر بحوالي الساعتين. حشد الناس قليل حتى الآن، جماعة من العسكر تقف لتمنعهم من الاقتراب حيث المكان الذي سيجلس

فيه الباشا وكبار العسكر والقاضي وبعض الشيوخ. اختار حسن ظل شجرة بعيدة ليجلس تحتها مع رباب التي حملت معها بعض الأطعمة، وحملته قربة الماء. حرارة الجو لم تمنع نسمات هواء لطيفة في هذا الوقت من اليوم. أول من وصل هو القاضي تبعه بعض الشيوخ، حسن يعرف أغلبهم، فكان يدل رباب على كل شيخ، ثم وصل محمد علي ببعض من رجاله، مر من أمام حسن، والتفت بخيلاء وصلف حول المكان وهو فوق حصانه. سألت رباب عنه، فلم يعرفه حسن، "لعله أحد قواد العثمانلية أو قواد الأرناؤود".

قدم الباشا، وبدأ الاحتفال. كسروا سد الخليج، فجرى الماء وافراً، وضربوا بنادقهم، فأحدثت صوتاً مهولاً، ثم ركبوا مراكبهم وقواربهم الصغيرة، وبدأوا يدورون بها في الماء، يقتربون من جمع الناس الذي بدأ يتكاثر، ثم يبتعدون، والناس في فرح تشاهد من بعيد. ثلاث ساعات أو أكثر وأصوات الرصاص تلعلع في المكان، ولما زادت أصوات الرصاص، ترك حسن مكانه ليجلس بعيداً، لكنه وهو يفعل سمع صراخاً وعويلا آتياً من حشد الناس الواقف على ضفة النيل. اقترب بحذر فلم يستطع أن يرى شيئاً، الناس متجمعة حول جثة رجل، أخبره أحد الواقفين أنها لرجل أصيب بطلقة في رقبته. لحظات وأتى الجنود يحيطون بالمكان، ثم يدفعون الناس حتى وصلوا إلى جثة الرجل، ثم حملوها حيث يجلس

الوالي. أمسك حسن بيد رباب حتى لا تفلت منه في هذا الزحام وراقب المشهد، فوجد شخصاً يصرخ على أبيه ومعه جماعة بدا أنهم من أقارب القتيل. حاولوا أخذه فمنعهم العسكر. حسن استفزه ما رأى، فطلب من رباب أن تجلس حيث هي ولا تتحرك، ثم تقدم حيث استطاع أن يصل إلى الشيوخ، اقترب من الشيخ الشرقاوي الذي يعرفه، وأخبره بحالة أقارب القتيل. بعد مفاوضات وشد وجذب سمحوا لهم بالوصول إلى الوالي، طلبوا منه أن يأخذوا جثة أبيهم، واستعوضوا ربهم فيمن قتله. لكنهم فوجئوا ومعهم حسن بما لا يمكن تصوره، الوالي يطلب منهم ثلاثة آلاف درهم فضة نظير نقل الجثة من المكان ودفنها حيث شاؤوا، وإلا سيرميها في النيل. لحظتها كاد حسن أن يجن، واقترب من الجنون أكثر وهو يسمعهم وهم يفاوضون الوالي على تخفيض المطلوب الذي وصل بعد مساومات شاقة إلى ألف وخمسمئة درهم. جمعها أقارب القتيل ممن حولهم، بينما أخذها الوالي وأعطاها لعساكره الذين وزعوها على مرأى من الناس على نساء قحبات كن يرافقن العسكر في الاحتفال بوفاء النيل.

***

لا يدري محمد علي أسباب تغير الباشا عليه، كان ظنه أن لهما مصلحة مشتركة في الوقوف في وجه المماليك الذين يتوافدون من

الصعيد ومن بحري، ويتكاثرون في مصر كالنمل. تحلل محمد علي من تحالفه مع البرديسي بعد أن غادر هذا الأخير مصر ليطارد الألفي عدوه الأكبر وربما الوحيد في الدلتا وفي صعيد مصر. وبدأ هو يطارد مماليك مصر الذين لا يعلم إلى أي فريق من فرق الكبار ينحازون.

- لقد اختار لنفسه طريق الهلاك، كنت أتمنى أن تطول الهدنة بيني وبينه قليلاً، لكن ما باليد حيلة. لكن، هل تعرف يا لاظوغلي لماذا انقلب الباشا علينا بهذه السرعة.

رد لاظوغلي: كما أعرف فهناك من أوغر صدر الباشا عليك، بعضهم أوعز إليه أنك طامع في مكانه، واتصالك الكثير بالشيوخ أكد عنده الأقاويل، العيون التي تركتها في القلعة والتي تحصي على الباشا خطواته أكدت لي أنه مقبل على عمل عظيم معك، فانتبه.

قال محمد علي: إذن فلنتغدى به، قبل أن يتعشى بنا. أنت تعرف ما ينبغي على الجنود فعله، فلن أوصيك، وأما أنا، فيجب على الباشا أن يعرف حدوده معي، لقد فتح على نفسه أبواب جهنم.

في الأيام التالية ساح الجنود في مصر وفي بولاق. أخرجوا الناس من بيوتهم، وسكنوها، ولا يقيمون في البيت إلا بضعة أيام يكسرون فيها الأبواب والشبابيك ليستعملوها لوقودهم، ويخربوا أثاثها، فإذا صارت خراباً، تركوها وانتقلوا إلى غيرها، ففعلوا فيها

ما فعلوه ذي الأولى حتى عم الخراب سائر النواحي. وما فعلوه في بيوت الأمراء والأعيان وقصور الأكابر في بركة الفيل أمر يشيب لهوله الولدان.

في الوقت نفسه ظهر محمد علي بين الشيوخ، ذهب إلى الأزهر ليصلي الجمعة مع الناس. حاول ألا يصحب معه عدداً كبيراً من جنوده أو قواده، اكتفى بالقليل. ونبه على لاظوغلي أن يكون مستعداً بالجنود على مسافة قريبة إن ظهر غدر من الباشا. استمع إلى خطبة لم يفقه فيها حرفاً واحداً، واستمع من حوله إلى لكنة عربية بانت غريبة عليه برغم أنه في مصر من ثلاث سنوات. نبه على مترجمه ألا يبتعد عنه أبداً، يريد أن يراه الناس ودوداً لطيف المعشر متفهماً لأحوالهم على الرغم من حاجز اللغة بينه وبينهم. وحين جلس إلى السيد عمر مكرم وبقية الشيوخ بعد الصلاة، بان منه تأثر على أحوال الناس. وأظهر أمارات تصميم على أن يحقق للناس الأمان. وغمز في الباشا الذي لا يعاونه كثيراً برغم أنه يظهر له وللسلطان الولاء، فلا يريد إلا خير الدولة وإلا خير الناس.

أمر محمد علي جنوده، فأحضروا أكياساً وزع منها دراهم وقروشاً وأنصافاً على الناس الذين تكاثروا حوله، ثم وعد الشيوخ بأنه سيولي عناية خاصة بالمجاورين في الأزهر، وسيهتم بالكتاتيب والأسبلة.

ما فعله محمد علي في الأزهر وصل إلى أسماع الباشا في القلعة، فاستشاط غضباً. ونصحه مستشاروه بأن أفضل طريقة للتخلص منه أن يعينه والياً على مكان خارج مصر، فاختار له الوالي جرجا، وأخبره بنفسه، فأظهر الامتثال والطاعة، واختفى بضعة أيام. قلق الناس وسألوا عنه لأنهم تعلقوا به وبأمانيه في العدل القادم.

ظهر محمد علي ونادي بالأمن والأمان، لكن عساكره الذين لا يعرفهم أحد كانوا يقومون بشيء آخر. الخطف والقتل والتعرية والاغتصاب للنساء والأطفال.

الفصل السابع

كان اليوم الثلاثاء، والوقت ظهراً، والناس تستعد للصلاة. وفي مكان قريب من حارة خوخة الكائنة في باب الشعرية، اثنان من عساكر الدلاة يسيران مختالين يبدو في نظراتهما أنهما يبحثان عن فريسة. وجداه أخيراً، صبي في الثانية عشر من عمره تقريباً يقترب من مسجد في الطريق ليصلي الظهر. الصبي مليح الوجه برغم فقره البادي في جلبابه الممزق. أمسكا به يريدان خطفه. فوجئ الصبي فصرخ يستغيث بالمارة. الناس التي كانت تنوي دخول المسجد توقفت، ثم استدارت تجاه الصوت. تقدموا بحذره تجاه الجنديين يطلبان منهما أن يتركا الصبي في حاله. الفزع الذي

أبداه الصبي وهو بين يدي الجنديين جعل الناس تتكاثر حتى شكلوا حلقة حولهم. الناس تسب الجنود وتلعنهم، وترفع أيديها متوعدة، وبدا غضب ظهر في ملامح الوجوه، كل واحد من الواقفين يحتمي بالآخرين في غضبه. شعر الجنديان بالمأزق، فتركوا الصبي، وأرادا الخروج من الحلقة المحيطة بهما، فلم يستطيعا. رفع أحدهما بندقيته مهددا، فتراجع الناس، وكان هذا كفيلاً بخروجهما. جريا جنوب باب الشعرية في اتجاه المشهد الحسيني فجرى الناس خلفهما.

في تلك الأثناء كان زياد في بيته بحارة خوخة يتوضأ استعدادا للصلاة، ولما وصلت إليه الجلبة خرج مسرعاً فوجد الجنديين يجريان والناس وراءهما. سأل فعرف السبب. فجرى مع الناس. حركته كانت أسرع، فأصبح أقرب إلى الجنديين، وفي عطفة داخل خان الخليلي حصر الناس الجنديين، ثم أمسكوا بهما، وظلوا يضربون فيهما حتى فاضت روحهما. أراد أحدهم أن يقطع رقبتيهما، فمنعه زياد، "الجثة لها حرمتها، هما الآن بين يدي الله". صاح أحدهم: لكنهم يفعلون بنا هذا وأكثر. رد زياد في حدة: ولو، افرض أنهم مجموعة من الحيوانات، هل هذا يبرر أن نفعل مثلهم؟

شعر زياد أن هذه الحادثة لن تمر بهدوء، فذهب إلى أحمد في بيته القريب من خان الخليلي. "علينا أن نكون مستعدين للأسوأ، تعال نذهب إلى سليم وحسن".

لم ينظر حسن للحادثة نظرة سليم لها. رآها حادثة عادية، "الحمد لله أنهما لم يأخذا الصبي، والحمد لله على أنكم تخلصتم منهما". أما سليم فقد رأى ما يمكن أن يحدث بعدها، "هؤلاء لن يسكتوا، هيبتهم تأتي من سكوت الناس وخنوعهم، وهذه الحادثة لا تتكرر كثيراً، علينا أن نأخذ حذرنا في الأيام القادمة، فلا بد أن عساكر الدلاة قادمون للانتقام". وأما بكر الجالس بينهم فلم يفتح فمه بكلمة، استمع إلى جزء من حديثهم، ثم مضى داخل الدكان يعيد ترتيب الورق الذي كان قد رتبه قبل صلاة العصر.

رأى احمد أن على الشيوخ أن يقوموا بدورهم قبل أن يتفاقم الأمر، "علينا أن نذهب إليهم لنحيطهم علماً بما جرى، يمكن لعمي حسن أن يذهب إليهم". لكن زياد بدا متفقاً مع سليم، وإن لم يمانع من ذهاب عمه حسن إلى الشيوخ. "المشكلة ليست في أن نحذر من القادم، المشكلة هي أن نحذر ممن. كل هؤلاء أعداؤنا: المماليك المتربصون والأرناؤود المنقسمون بين الباشا ومحمد علي. وحتى محمد علي نفسه برغم ما يظهره من ود للناس، والدلاة، وكل طوائف العسكر في مصر. وقبل كل هذا وبعد هذا الرجل الجالس في القلعة يوزع سوءاته على الناس بالعدل. نحذر ممن يا عمي سليم".

حماس زياد وقوة منطقه أوقعا سليم في حرج. وضع يده على

خده، ولم يرد. قام إلى الداخل ليعد أكواباً من القهوة، ولم يتحدث إلى بكر الذي كان منهمكاً فيما يفعل. لفت نظره صمت بكر، لكنه لم يعلق، ولا أراد أن يشركه في الحديث، "لا بد أن تكون لديه أسباب للصمت، نناقشها في وقت آخر". دقائق وعاد بصينية صغيرة عليها أكواب من القهوة، قال وهو يناول زياداً كوبه: ظني أن غداً سيكون يوماً عصيباً، أخبروا زملاءكم بالاستعداد في أي وقت. هل قلت لي إن الجنديين من عساكر الدلاة؟

رد زياد: نعم

قال سليم: في أي مكان يتجمعون؟

قال أحمد: هم موزعون في الأماكن المحيطة بمصر، جزء منهم في الشمال في بولاق والآخر في الجنوب وراء البساتين، وبعضهم خلف القلعة.

فكر سليم، ثم قال: المسألة أصبحت عويصة، يبدو أننا لا بد من أن ننتظر خطوتهم الأولى لأننا لا نعرف من أين سيأتون.

بعد أن مضى أحمد وزياد التفت سليم إلى بكر، وقال له: مالك يا بكر؟ ما الذي بك؟

أراد بكر أن يراوغ: لا شيء، كنت أرتب الورق وأنظف ما عليه من غبار.

احتفظ سليم بهدوؤه وهو يقول: أنت تستعبط علينا، خليك واضحاً، وقل لي، هل كل ما سمعته لا يهمك؟ ألم يستفزك شيء مما سمعت؟ رد بكر بهدوء: بل يستفزني، ويحرقني ما تؤول إليه الأحوال الآن، لكن ما باليد حيلة. أنت وحسن تعرفان جيداً أكثر من أي إنسان في هذه الدنيا ما فعلته أيام الفرنسيس وحماسي لعودة العثمانلية، ثم انظر الآن. نحن في ضنك ما بعده ضنك. هل أعيد عليك ما تعرفه جيداً؟

قال سليم: لا تعد عليَّ شيئاً، لكني أرى أنك كنت متطرفاً في حماسك للعثمانيين أيام الفرنسيس، والآن أنت متطرف في حماسك ضدهم. وكلا الموقفين خطأ.

قال بكر: كنت أصدق دعوات العثمانلية في أن الفرنسيس خطر على الإسلام، حماسي للدين دفعني معهم، والآن بعد أن عادوا، جاءت عساكرهم فأخذت بيتي، وحاولت الاعتداء على زوجتي وابنتي، فإذا أردت أن أناصر جماعة، فقل لي أناصر من؟

رد سليم باستغراب: تناصر نفسك وأهل بيتك، تناصر أولاد البلد. المشكلة أن أولوياتك مختلفة. أنت تظن أن رفع راية الإسلام هي الأولى بالعناية، بينما الإسلام لا يتحقق إلا بالعدل بين الناس، شعورك بالأمن في بيتك وفي الطريق، أن تجد قوت يومك بيسر،

إن حقق الوالي هذا للناس، وتركهم وما يعبدون فقد حقق مقاصد الإسلام.

حسن الذي كان يتابع حديث الصديقين بشغف استحسن منطق سليم، قال له: في النهاية، بكر لن يتخلى عن جلده بسهولة، ووقت الجد ستجد بكراً آخر. أنا أعرفه أكثر منك".

في اليوم التالي تحقق ما توقعه سليم وزياد، طوائف من العسكر دخلت المدينة في الساعة الخامسة بعد الفجر. دخلوا من الجنوب من ناحية جامع عمرو بن العاص، ودخلوا من الشمال آتيين من شبرا، كما دخلوا من ناحية قصر العيني ودير الطين. انتشروا في مصر كالجراد. أتوا على المساحات المزروعة في طريقهم، حطموا ما لاقوه من حوانيت، استوقفوا المارين والفلاحين وخطفوا ما وجدوه معهم. بل تمادوا فخطفوا النساء والأولاد، وزادوا في تماديهم فخطفوا الرجال العجائز.

جماعات منهم اقتربت من باب الشعرية، المكان الذي بدأت منه حادثة قتل الجنديين. دخلوا من الطريق الذي يربطها بالأزبكية، فإذا هو خال. الحوانيت مغلقة وكذلك أبواب البيوت والشبابيك، توغلوا فإذا الصمت المطبق يخيم على المكان. شعر بعضهم أن هناك خديعة ما تنتظرهم، فاستداروا وأشاروا لبقية الجنود أن يعودوا من حيث أتوا، ثوان بعد تقهقرهم وسيل من الأحجار فوق رؤوسهم

يأتيهم من حيث لا يرون. هاجوا، فأطلقوا الرصاص، فسكتت الأحجار، ثم عادت أشد قوة تصيب منهم من تصيب، في رأسه أو يده أو جسمه، سقط بعضهم من فوق أحصنتهم، وسالت منهم دماء كثيرة. حاولوا اقتحام البيوت، فلم يستطيعوا الاقتراب من أي باب. في النهاية لم يجدوا إلا الإسراع بالخروج من المكان وسيلة للنجاة من عدوهم الخفي.

بعد أن اطمأن المدافعون عن باب الشعرية من خلو المكان من العسكر نزلوا إلى الطرقات يهللون. كان بينهم أحمد وزياد وأفراد أخرى في مثل سنهم، انشغلوا بأمر آخر غير التهليل والفرح. طلبوا من الناس أن تضع متاريس في المداخل الرئيسية، ومتاريس في مداخل الحارات والعطوف. انهمكوا بقية النهار في وضعها وإحكامها بحيث لا يستطيع فرس أن يتجاوزها بسهولة، ثم اختاروا أقوياء البنية من أهل باب الشعرية للوقوف خلف المتاريس، وأخرجوا أسلحتهم القليلة من بنادق قديمة وسكاكين، وعصي غليظة وسيوف مثلومة. في انتظار المجهول الذي لن يطول غيابه. صلوا في أماكنهم صلاة الخوف وقت الظهر، ثم العصر، وحتى المغرب لم يظهر أحد. فاتفقوا على أن يتناوبوا الحراسة من بعد المغرب حتى الفجر.

أما الباشا فكانت تصله أخبار القلاقل في مصر حسب هوى المحيطين به. وكلهم كانوا يوغرون صدره ضد محمد علي."محمد

علي وراء كل ما يحدث، هو الذي يحرك الجنود، ويدفعهم لفعل ما يفعلون". بعض العقلاء من الكبار والشيوخ يسعون بين الاثنين لتهدئة الأحوال وتيسير حياة الناس، وكل طرف يلقي باللائمة على الآخر.

في اليوم التالي، وكان يوم الخميس السابق ليوم الجمعة الكبير. بدأت جنود كل طرف تسعى لإثبات قوتها في مواجهة الآخر. واجهوا بعضهم وسط الأسواق وبين البيوت وفي الحارات والأعطاف. قتلوا من قتلوا من بعضهم ومن الناس الذين أصبحوا بين شقي رحى. أغلقت الناس حوانيتها، ولزمت بيوتها تستجير لله أن يخلصهم من هذا العذاب. لكن الباشا ومحمد علي لم يكتفيا بما فعلا. الباشا يطلب أعوانه الأموال باسمه من كبار التجار وصغارهم في الصباح، ثم يأتي المساء فيوعز محمد علي لبعض أتباعه أن يحصلوا الفرد والغرامات من الناس ليحقق لهم الأمن. يشدد محمد علي على تابعيه ألا يزجوا باسمه أبداً فيما يسبب للناس ضرراً.

محمد علي يذهب بنفسه إلى الشيوخ، يطلعهم على ما يقول إنه دسائس الباشا، ويقدم لهم ما يزعم أنها أدلة على تورطه في الفوضى التي تضرب مصر، يصدقه الشيوخ وخاصة عمر مكرم الذي بدأت تربطه به صداقة قوية برغم فارق السن الكبير بينهما، حوالي عشرين سنة.

بات الناس ليلة ليلاء، لم يغمض لكثير منهم جفن. المرابطون في باب الشعرية كانوا أحسن حظاً قليلاً. تجنبهم الجنود الذين يقتل بعضهم بعضاً، وجنود الدلاة الذين وجدوها فرصة لإحداث مزيد من الفوضى لأسباب تتعلق برواتبهم وعلوف حيواناتهم التي باتت على شفا الموت من قلة ما يأتيها من طعام. وكانت فرصة أن يتفق زياد وأحمد وصحبه بموافقة من سليم وحسن أن يحشدوا الناس يوم الجمعة في الأزهر. بين مغرب وعشاء هذا الخميس ساحت مجموعاتهم في أنحاء مصر أمام مساجدها، أبلغوا من رأوهم من الناس ومن يعرفونهم، "ألا يصلي أحد الجمعة في مسجده القريب، بل يصلون جميعا في الأزهر"، على الناس التي تسكن بعيداً عن الأزهر أن تبكر في الخروج إلى الصلاة حتى تلحق الجمعة فيه.

في الصباح كان حسن قلقاً، كان يتمنى لو نام ساعة أو ساعتين بعد صلاة الفجر، يعلم أن يومه اليوم طويل، بدايته عند صلاة الجمعة، أما نهايته فالله أعلم بها. تمنى أيضاً أن يستجيب الناس فيأتون إلى الأزهر، لو تكاثرت أعدادهم فربما يعود الباشا إلى رشده ويستجيب لطلباتهم. في لحظة نادرة جلس مع رباب يحكي لها هواجسه وقلقه مما يمكن أن يحدث، وفوجئ بها تتمنى لو خرجت معه تشاركه، يكفيها فقط أن تقف بجواره. لمعت في عيني حسن فكرة، تركها ونزل حيث بكر يقرأ القرآن في فناء الدار.

سأله: هل يمكن لتوحيدة أن تأتي مع رباب إلى الأزهر معنا؟ تردد بكر للحظات، ثم وافق. ما فاجأ حسن قبل أن يخرج هو وبكر والمرأتان أن شَحتة أصرت على ألا تترك رباب وحدها، "سأذهب معكم، هل يعقل أن أترك رباب وحدها؟"

ذهب حسن مبكراً إلى الأزهر، قبل الآذان بساعتين. أجلس النساء خارج المسجد في الركن الجنوبي الغربي القريب من الباب الرئيسي، والذي يؤدي في الوقت نفسه إلى الطريق حيث بيته. ودخل هو وبكر إلى فناء المسجد، وهناك التقيا ببعض الشيوخ في الرواق المغربي. التوتر باد على الوجوه، وبخاصة أن أمر الحشد وصل إليهم، وهم لا يدرون ماذا يفعلون في هذه المدلهمات التي تتوالى على البلاد. عجزوا عن إصلاح ذات البين بين الباشا ومحمد علي، وعجزوا عن إقناع الباشا بأن يأخذ زمام الأمور بيده، فلا يتركها لكل أفاق أو متطلع إلى جاه، بدا الباشا عاجزاً عن إدراك حجم ما يعاني منه الناس. وفي حواراتهم معه خلصوا إلى أن إقامته الدائمة بالقلعة عزلته عن الناس، فلم ير فيهم إلا ما أراد المحيطون به له أن يراه. ثم تأتي الدعوة لحشد الناس في الأزهر، ماذا يمكن للشيوخ أن يفعلوا؟ لا شيء.

تركهم حسن وبكر محبطين. كانت الأعداد بدأت تتزايد. فانتحى الصديقان في ركن قريب من المكان الذي تلقيا فيه الدروس الأولى

لأول مرة. لم يتأخر سليم كثيراً دخل، فرآهما، صلى ركعتين، ثم التفت لحسن قائلا: هه، ماذا عندك؟

رد حسن: لا شيء. التقيت وبكر ببعض الشيوخ. ثم حكى له ما دار. انفعل سليم وقال: هؤلاء الشيوخ لا فائدة منهم. لا يعنيهم من أمر الناس إلا مكاسبهم الشخصية وبيوتهم التي تتكاثر في مصر وأراضيهم خارجها. لن نعتمد إلا على أنفسنا.

لم يشاركه حسن ولا بكر الرأي، قال حسن: إذن هي الفوضى، صعب جداً أن تتجاهل الشيوخ الآن، ومهما يكن رأيك فيهم، فإن لهم تأثيراً كبيراً على الناس، اهدأ قليلاً، وفكر كيف تكسب الشيوخ بدلاً من أن تعاديهم. لا نحتاج الآن إلى أعداء جدد.

بعد الصلاة كان الحشد أكبر مما توقعه سليم، خليط من الرجال والنساء والأطفال، الكبار والصغار، المصريين والمغاربة وبعض الشوام، بل انضم إلى الحشد جماعات من الأقباط الذين كانوا أكثر فئات المجتمع تضرراً.

– ثم ماذا بعد يا عمي سليم؟ ماذا سنفعل؟

نظر سليم إلى زياد، وبدت في عينيه حيرة ممزوجة بفرح: هذا الحشد لن يغلبه أحد، وإذا لم يعلن الشيوخ موقفاً مناصراً الآن لطلبات الناس، فسنتصرف بأنفسنا. صوت سليم العالي وتجمع الشباب حوله لفت نظر جماعات موجودة أمام الأزهر، انضم إليهم

بعض أهالي الرميلة اقترب منه رجل بدا أكثر حظوة بينهم، وافقه على ما قال، لكنه أضاف: لن نبرح المكان حتى يأتي الشيوخ برأي من الباشا. اسم هذا الرجل هو حجاج الخضري الذي أصبح له دور محوري مع زميل له هو إسماعيل جودة، كان كبير القوم بين أهالي الرميلة، وهو الذي قادهم إلى الأزهر، واطمأن إلى وجودهم واستمرارهم في المكان.

دخلوا جميعاً، وقابلوا الشيوخ، كان من بينهم الشيخ الشرقاوي والشيخ المهدي، وأتى السيد عمر مكرم في أثناء الحوار. لم يجد الشيوخ مناصاً من الانصياع لطلبات الناس، بل آهاتهم. اتفقوا على أن يصعدوا إلى القلعة، ولينظروا ماذا سيأتيهم منها.

المتجمعون في خارج المسجد كانوا بالآلاف، ينتظرون ما سيؤدي إليه حوار الناس مع الشيوخ، يترقبون في قلق، ويخمنون ما ستؤول إليه حوادث اليوم. وبين الحشد الكبير كانت النساء ومعهن الأطفال تقف وتراقب. وفي قلب هذا الحشد تقف رباب ومعها توحيدة وشَحتة. فجأة وعلي غير توقع وقفت رباب على دكة لدكان قريب، وصاحت بصوتها الرخيم العذب "اللهم يا متجلي، أهلك العثمانلي" صوتها الجميل والقوي في الوقت نفسه جذب أسماع النساء حولها، فالتفتن إليها، فأعادت الهتاف من وراء خمارها "اللهم يا متجلي، أهلك العثمانلي". انتقل حماسها إلى الدائرة القريبة فرددن وراءها،

ثم أعادت رباب، فاتسعت الدائرة. ثم اشترك الأطفال. ما حدث بين النساء جذب أنظار الرجال. تلقف أحد الشباب الهتاف، فردده. الهتاف ينتشر وتنتقل عدواه في المكان. يتلقفه آخر، ويعيده، ثم يعيده آخر. زلزل هتاف البشر الأرض من تحت أقدامهم والحجر، ارتجت جدران الأزهر، واهتزت نوافذ البيوت المحيطة، وبدا الناس أكثر تصميماً على تحقيق مطالبهم.

ود الشيوخ لو أجلوا صعودهم إلى الباشا يوماً أو يومين ريثما يتفقون على رأي واحد بينهم، لكن هتاف الناس عجل بقرارهم، فلم يجدوا مفراً من الصعود الآن. ظن الشيوخ أن أصوات الناس وصلت إلى الباشا في قلعته، فإذا هو سادر في غيه. أحمد خورشيد لم ير الخطر قادماً إلا من جهة محمد علي، قال للشيوخ "إن محمد علي وحسن باشا راجعان من قبلي من غير إذن بعد أن عينته والياً على جرجا وهو طالب شر، فإما أن يرجع من حيث أتى، ويقاتل المماليك، وإما أن يذهب إلى بلاده، أو أعطيه ولاية ومنصب في غير أرض مصر، ومعي أمر من السلطان أعزل من أشاء وأولي من أشاء، وأعطي من أشاء، وأمنع من أشاء" رد عليه السيد عمر مكرم "الله وحده الذي يمنح ويمنع، ما جئناك إلا لتنصت لصوت الناس الذي فاض بهم الكيل، فإذا بك تحدثنا عن صراعك مع محمد علي، ما لنا نحن وهذا الصراع، خذ الناس إلى جانبك، يكونوا عوناً لك على كل عدو". لم يكترث الباشا لكلام عمر مكرم، بل زاد في

الطنبور نغمة، لما رأى في الشيوخ تهديدً إضافياً له، طلب منهم أن يختاروا اثنين منهم يبيتان في القلعة في كل يوم، حتى تهدأ الأمور ويثوب الناس إلى رشدهم.

عاد الشيوخ دون اثنين منهم، متجهمي الوجوه، متكدري البال. كان الوقت قد تجاوز العشاء بساعة أو ساعتين، والناس تمني نفسها بانتهاء الغمة وروقان البال، فإذا هم يواجهون تصعيداً من الباشا لأوهام في رأسه لا علاقة لها بما يعانون منه.

حسن الذي استعاد حيويته وعافيته صاح فيمن حوله "على نفسها جنت براقش" سأله حجاج الخضري وكان أول مرة يراه: من براقش هذه؟ قال حسن: في حالتنا هنا براقش هي الوالي الغبي". المجموعة الصغيرة التي تشكلت في هذا اليوم فتحت إحدى حجرات الجامع الأزهر، وعلى ضوء قناديل خافتة جلست تتدبر أمرها وأمر الناس، وبعد نقاش وأخذ ورد اتفقوا على الخطوة التالية: غداً لا يفتح الناس حوانيتها، الأسواق تغلق، لا يخرج الناس من بيوتهم إلا لحاجة، المتاريس توضع في كل طريق وحارة وعطفة وزقاق. أحلامهم في هذه اللحظة طاولت السماء، ولو استطاعوا أن ينتزعوا حقوقهم من الوالي، فقد حققوا انتصارهم الكبير.

لما عاد حسن مكدوداً إلى البيت، استقبلته شَحتة التي سبقته هي ورباب وتوحيدة، بادرته بمجرد أن رآته: هل رأيت ما فعلت

زوجتك اليوم؟ حسن المنهك من أحداث اليوم توقع أن يسمع شكوى نسائية لا وقت لها الآن. لكن شَحتة أخبرته بصعود رباب على الدكة، وهتافها الذي سرى بين الناس بعد ذلك كالنار في الهشيم. لمعت عينا حسن وقال: إذن رباب هي صاحبة هتاف "اللهم يا متجلي، أهلك العثمانلي" ردت شَحتة بفرح: نعم. لم يرد حسن، بل صعد مسرعاً إلى الطابق الثاني حيث توقعت منه رباب – بعد أن انتبهت إلى صوته بالأسفل – رد فعلٍ عنيف، فإذا هو يأخذها في حضنه، فوجئت رباب، فأمسكت به، وتعلقت، وبكت في صمت. لم يجد حسن كلمة يقولها، بحث في أعماقه عن كلمة واحدة، أعياه البحث. ولم تكن رباب تريد منه غير ما فعل. في هذه اللحظة شعر حسن أنه عاد إلى الحياة، وبدت له رباب هي المرأة التي انتظرها دهراً فجاءت له هدية من الله.

وصلت أخبار حشود الناس في الأزهر إلى محمد علي، فشعر بقلق لم يخفه وهو يجتمع برجاله في صباح السبت التالي.

– ما الذي يمكن فعله مع هؤلاء الفلاحين الذين أحاطوا بالأزهر أمس؟ كان ينظر في عيني لاظوغلي وهو يطرح سؤاله.

أجابه لاظوغلي: لا شيء، هؤلاء لا قيمة لهم، سينسون بسرعة بمجرد أن تعطيهم شيئاً يريحهم. لا تشغل بالك بهم، بل انشغل بهذا الباشا وما ينويه معك.

- حتى لو كان كلامك صحيحاً، فما حدث بالأمس لا يمكن تجاهله، ولا ندري كيف ستتطور الأمور في الأيام التالية، وعلينا أن نستبق الأحداث. يجب ان تكون لنا اليد العليا في مواجهة هذا الباشا.

سأله صادق أغا: هل ننزل الجنود في الطرقات كما فعلنا سابقاً؟

فكر محمد علي قليلاً، ثم قال: نعم أنزلهم، لكن نبه عليهم أن يظهروا تعاطفهم مع الناس، يساعدوهم، يحموهم إذا حاول أحد من عساكر الباشا أو من الدلاة أن يقتربوا منهم. لا أسمع أن أحداً من جنودي اعتدى على أولاد البلد، لو حدث هذا فساضرب عنقه.

انصرف قواده، ثم خرج إلى شرفة بيته بالأزبكية، لا يعرف كم مرة قطع الشرفة الطويلة ذهاباً وإياباً وهو يفكر في خطوته التالية. السؤال الذي لم يجد له إجابة حتى الآن هو "وماذا بعد؟" ماذا بعد أن ينجح محمد علي في إزاحة خورشيد باشا عن طريقه؟ من الذي سيأتي بعده؟ يدرك محمد علي أنه لن يتبوأ مقعده من القلعة إلا بموافقة صريحة من السلطان، غير هذا سيعد تمرداً وخروجاً على الدولة لا يستطيع أن يواجهه، والسبل بينه وبين الآستانة مقطوعة، وهناك رجال فيها ينظرون بريب إليه، ولا يستريحون لوجوده في مصر. ودوا لو عاد بسرعة من حيث أتى، فمهمته انتهت، خرج الفرنسيس واستقرت الأحوال أو كادت، فما الذي يبقيه في البلد؟

أما الفلاحون الذين حشدوا الناس بالأمس، فقد بدأوا يخططون لخطوتهم القادمة. اتفق سليم مع حسن أن يبقى الأخير في الدرب الأحمر، بينما يتولى سليم الموسكي وخان الخليلي، وبكر يكون في بركة الفيل وما حولها، بينما أحمد وزياد في باب الشعرية، وحجاج الخضري وإسماعيل جودة في الرميلة حول القلعة وبولاق في الجهة الشمالية من مصر. كانت مهمتهم جميعاً أن يتابعوا إغلاق الحوانيت، ويحثوا المترددين والخائفين على الانضمام لمجموع الناس. ومثلما حدث بالأمس، فقد فاقت الاستجابة حدود توقعاتهم.

وأما الشيوخ فقد راعهم ما شاهدوه يوم الجمعة. خمن الشيخ الشرقاوي في اجتماعه معهم صباح السبت أنهم لن يستطيعوا السيطرة على حشود الناس هذه المرة. الدور التقليدي الذي مارسه الشيوخ زمنا لن يفيد. واسطتهم بالأمس لم تؤد إلا إلى مزيد من الاحتقان بين الطرفين: الباشا الذي لا يقدر عواقب الأمور، والناس التي لن يستطيع أحد التنبؤ بخطوتها القادمة. شاهدوا وهم قادمون إلى الأزهر بعض الصبية وهم يحثون المترددين على إغلاق الدكاكين، ولملمة بضائعهم المعروضة في الطريق. شاهدوا شباباً يحملون الأحجار ليضعوها في مداخل الحارات والطرق، شاهدوا بشراً غير البشر الذين يعرفونهم. كأن روحاً جديدة دبت فيهم، وآمالاً كباراً تظهر في لفتاتهم وضحكاتهم وحيويتهم التي تظهر في المحن.

كل شيخ من الذين جلسوا هذا الصباح في معية الشرقاوي حكى ما رأى، وكلهم اتفقوا على أن الأمر هذه المرة غير كل مرة. لكنهم اختلفوا، إلى أي فريق ينحازون، هم يعرفون قوة الباشا، وما يمكن فعله إذا تفاقمت الأمور، ويعرفون ما يمكن لمحمد علي أن يفعله، ويعرفون المماليك الذين يترقبون الفوضى القادمة، وكيف يدخلون فيعيدوا إلى مصر ما حاول الناس أن ينسوه في أيام الفرنسيس. لكنهم اختلفوا في حساب رد فعل الناس. واختلافهم أدى بهم إلى فض مجلسهم مبكراً والعودة إلى بيوتهم، ينتظرون المجهول القادم من بين صفوف الناس.

وأما الباشا فقد أن أراد أن يلعب مع الشيوخ لعبته المعتادة، أرسل نائبه إلى الأزهر، فلم يجد أحداً، ذهب إلى بيت الشيخ الشرقاوي، وهناك اجتمع به، وطلب أن يأتي السيد عمر مكرم دون بقية الشيوخ. جلس الثلاثة يتداولون الأحوال.

قال لهما النائب: إن الباشا يود لو لبى كل حوائج الناس دون الإخلال بهيبته والتزاماته أمام السلطان وأمام الجنود المنتشرين في مصر.

قال له الشيخ الشرقاوي: إن طلبات الناس بسيطة، ويستطيع الباشا إن أحسن التصرف أن يلبيها كلها مع الحفاظ على كل ما قلت، ويمكن لي أن ألخصها لك في آية واحدة من القرآن الكريم، أن

يطعمهم من جوع، وأن يُؤَمِّنهم من خوف. أليس هذا من موجبات حكمه؟

رد النائب: بلى، لكن من ينازعونه كثيرون وأولهم محمد علي الذي بدأت أطماعه في منصب الباشا تظهر. عليكم أن تساعدوا خورشيد باشا على أن يخلو له وجه مصر دون مناوئيه، وبعدها ستتحسن الأحوال كما ترجون.

السيد عمر مكرم الذي لم يتحدث حتى الآن تدخل حين سمع اسم محمد علي: محمد علي ليس هو المشكلة في مصر، الرجل وقف بجوارنا في مصائب كثيرة، وقد أظهر حزماً وعزماً يجعله محل ثقة، أما الباشا الذي تنوب عنه فهو المشكلة الكبيرة، وإذا لم يرتدع عما يفعل، فستسوء الأحوال على يديه أكثر مما نتخيل.

شعر النائب أن حواره مع الشيخين لن يؤدي إلى النتيجة التي رجاها من لقائه معهما، فقال لهما قبل أن يخرج: في كل الأحوال، هناك أمر من السلطان بأن يتولى محمد علي ولاية جدة، وعليه أن يستعد للرحيل في الأيام القادمة، فمن سيناصركم إذن بعد رحيله؟

ما وجده النائب بعد خروجه من بيت الشرقاوي لم يتخيله هو ولا الشيخان اللذان خرجا مسرعين من البيت حين وصلت إليهما الضجة في الخارج. علم الناس بقدوم نائب الباشا إلى بيت الشيخ الشرقاوي فأوعزوا إلى الأولاد أن ينتظروه، ويفعلوا معه ما يحلو

لهم. وبمجرد أن خرج النائب استقبله الأولاد بوابل من الأحجار التي حاول أن يتفاداها بيده، فلم يستطع، أصابه حجر في جبهته بجرح خفيف، لم يسكت الأولاد، بل تمادوا، فشتموه وشتموا الباشا نفسه، ولم ينصرفوا إلا بعد أن خرج إليهم الشيخان يرجونهم الابتعاد عن المكان.

الشيوخ لزمت بيوتها فلم تذهب لدروسها في الأزهر ولا سائر مساجد مصر وكتاتيبها، والأسواق مقفرة والدكاكين مغلقة، مع ذلك فالناس في راحة، وجدوا في تضامنهم قوة، واستطاعوا أن يتكيفوا مع الأحوال، فأمنوا طرقاً لطعامهم وشرابهم، وتجارتهم السرية فيما بينهم. طوال الأسبوع وهم يترقبون تصرفاً من الباشا أو من رجاله، لكن الرجل خيب ظنهم ولزم القلعة لا ينزل منها إلا ليناوء محمد علي ويضغط حتى يرحل عن مصر. بلغ به غباؤه مبلغاً دفعه إلى أن يستدعي ابن المحروقي كبير التجار الذي حل محل أبيه بعد وفاته وجرجس الجوهري ويطلب منهما عمل فردة على أهل البلد ألفي كيس. لما سمع الناس بطلبه سخروا منه، وقالوا فليأت هو ليأخذها منا لو استطاع, وقال سليم: هذا الرجل عبيط، هل يعي ما يقول وما يطلب؟

أكبر ما حدث في هذا الأسبوع أن بكراً استرد بيته، وقصة استرداده لبيته تستحق أن تروى. فبكر كان مكلفاً مع آخرين بمنطقة

بركة الفيل وما حولها. في اليوم الأول شعر بقلق وهو يقترب من بيته، لم يكن خائفاً، بل تداعت إلى مخيلته وهو يرى بيته من بعيد كل لحظات القهر والخزي التي شعر بها وهم ينتزعون منه البيت، ثم وهم يحاولون التحرش بأسرته. لم تكن في ذهنه لحظة أن رأى البيت نية لاسترداده، وحتى إن كانت موجودة، فلم تكن هناك خطة. بدأ نشاطه من مسجد الأمير يوسف بحارة الهياتم الذي كان يحفظ فيه القرآن. استقبله المصلون بود وترحاب. دخل معهم في نقاش حول ما يفعلون، وحول ضرورة أن يتكاتف كل الناس لمنع هذا الباشا من التمادي في ظلمه. وبصرهم بما يجب عليهم فعله. وجد بكر استجابة كبيرة، الناس ضجت فوجدت في تكاتفها مخرجاً لما يعانون منه. يومان تاليان على لقائه بالناس في مسجد الأمير يوسف أتى له في اليوم الثالث رجل يعرف بموضوع بيته، قال له: رأيت الجنود الذي أخذوا بيتك يدخلون ويخرجون منه خائفين، يبدو أنهم شعرو بقوتنا، ولو أردت أن تسترد بيتك منهم، فلن يتخلف عنك أحد. لم يكن بكر يفكر لحظتها في مشكلته الخاصة، استغرقته الحوادث، واستغرقته عودته إلى الحياة، واسترداده لعافيته الذهنية، فلم تطرأ على ذهنه مسألة البيت، ربما يأتي هذا في وقت تال، أما الآن فأحوال الناس وما يلاقون أولى بالاهتمام. لكن عرض الرجل أغراه بالتفكير. تحدث مع حسن، ثم تحدث مع سليم وحجاج الخضري الرجل الشهم الرائع الذي ليس كمثله رجل في مصر

وكان اليوم الأربعاء، فأخبره حجاج بأن عليه أن يستعد اليوم كي ينام في بيته غداً، "لن يأتي يوم الجمعة إلا وأنت وأسرتك في البيت".

في صباح اليوم التالي كان حجاج الخضري ومعه عصبة من الرجال الأشداء واقفين أمام البيت يطلبون من ساكنيه الخروج الآن وإلا لن يخرج أحد منهم حياً. فوجئ الجنود بالحشد الكبير من أهل البلد. لم تكن أمامهم فرصة ولا طريقة لطلب العون من رفقائهم في الأماكن المجاورة، وحتى إن جاء لهم عون، فهناك شك أن يساعدوهم في مواجهة المتجمعين أمام البيت. أعاد عليهم حجاج الخضري بصوته الجهوري الطلب بأن يخرجوا من البيت وإلا سيقتحموه. خرج منهم من يحسن القليل من العربية، بدا مرعوباً وهو يطل برأسه، ويقول: أعطونا فرصة حتى الغد حتى نأخذ حاجياتنا. حجاج الخضري صاح فيه بتصميم وحسم: بل الآن، ولن أقولها لك ثانية. وتخرجون بملابسكم دون أسلحتكم، كل شيء تتركونه في البيت. لم يجد الجنود مندوحة من الخروج في وضع مذل بائس، ابتعدوا مشيعين باللعنات والسباب. ودخل بكر بيته مرة ثانية يوم الخميس كما وعده حجاج الخضري.

وفي مساء اليوم نفسه كان محمد علي يزور السيد عمر مكرم. يطمئن على أحوال الناس، ويبدي استعداده لمساعدتهم في مواجهة

هذا الباشا الظالم. أخبره أنه علم من مصادره بأن الناس ستجتمع في الغد عند الأزهر، وهو سيرسل عددا من جنوده سيقفون على البعد لحماية الناس إن فكر هذا الباشا أن يرتكب حماقة من حماقاته المعتادة. قال للسيد عمر: أخبر الناس ألا يقلقوا لو رأوا جنودي فما جاؤوا إلا لحمايتهم.

وفي اليوم التالي كان حشد الناس أكبر، فرغت مصر من ناسها، فتجمعت عند الأزهر. وسدت الطرقات المؤدية إليه حتى تمددت إلى خان الخليلي والموسكي واتصلت بالمصلين في المشهد الحسيني. أعيدت هتافات الجمعة الماضية وزاد الناس فيها وأبدعوا. بدا المشهد احتفالياً آمناً وجنود محمد علي يحيطون بالمكان، كما أن الناس أنفسهم اختاروا من بينهم أفراداً لا يسمحون بدخول أحد إلى الحشد الكبير إلا بعد أن يطمئنوا إليه.

وفي قلب هذا الحشد، داخل الجامع الأزهر نفسه، وفي إحدى حجراته، جلس شيخ الأزهر نفسه الشيخ الشرقاوي، ومعه السيد عمر مكرم وثلاثة من الشيوخ الآخرين، وكان حاضراً حسن وسليم وبكر وحجاج الخضري وإسماعيل جودة وأحمد وزياد الذين بدوا أنهم العناصر الأكثر تأثيراً بين الناس، هي التي تنظم وتضبط إيقاع حركتهم وأماكن تجمعاتهم في شوارع مصر.

لم يخف الشيخ الشرقاوي قلقه وهو يتساءل عن الخطوة القادمة

التي يتعين عليهم أن يقوموا بها في مواجهة الباشا، يعلم الشيخ حسابات القوة في مصر، ويوقن أن أهل البلد برغم ما أبدوه من تصميم نادر وشجاعة كبيرة، فإنهم في نهاية الأمر الطرف الأضعف، وما يصل إليه من أخبار عساكر الدلاة الذين يواصلون نهبهم وقتله للناس برغم كل ما يحدث يجب الا نغفله، أخبر المجتمعين أن هؤلاء العسكر قتلوا بالأمس عشرات من الفلاحين في قرية قريبة من الجيزة، ولم يجدوا أحداً يردعهم، وإذا ما فكروا في دخول مصر أو فكر غيرهم، فستحدث مذابح لم نسمع بها أو نقرأ في كتب التاريخ.

لم يشأ أحد أن يقاطع الشيخ الشرقاوي وهو يتكلم، لكنه وهو يشير إلى مذابح محتملة استفز الجالسين، وبخاصة حجاج الخضري بملامحه الكبيرة وجسمه الضخم الذي اهتز كله وهو يصيح بما لا يليق بالمكان ولا بمقام الجالسين: مولانا الشيخ، إن كنت تقصد أن تبصرنا بعواقب ما نفعل، فنحن نعرف جيداً هذه العواقب، وإن كنت تقصد أن تخيفنا، فنحن لا نخاف، وباطن الأرض أولى بنا إن نحن صبرنا على ظلم بعد اليوم.

فوجئ الشيخ بما سمع، وبنبرة التحدي في صوت حجاج، فأراد أن يهدئه: لا اقصد أن أخيفك، لكن واجبي يفرض علي أن أقول

ما قلته، ينبغي علينا ألا نندفع بعواطفنا وغرائزنا في طريق لا ندري نهايته.

رد سليم: يا مولانا، قليل من التهور يفيد الآن، حكمتكم في علاج أحوالنا أدت بنا إلى ما ترى.

تدخل حسن: الشيخ الشرقاوي معه حق يا إخواننا، يجب على الناس المنتظرة في الخارج أن تعرف ماذا سنفعل، هذا الحشد الكبير لن يستمر متماسكاً كثيراً، ولو شعر الناس بالإحباط، فلن يعودوا أبدا، أو ربما انفلت العيار ولا ندري ماذا سيحدث بعدها، علينا الآن أن نحدد خطوتنا التالية.

باندفاع وإلهام لم يخطر على بال أحد قال حجاج الخضري: نعزل هذا الباشا، هذا ما نريده الآن.

نظر إليه الحاضرون في دهشة، بدا كلامه خارج كل توقع حتى أن أحد الشيوخ صاح به: هل جننت؟ ماذا تقول؟ نعزل الباشا، هذا تصعيد لن نستطيع مواجهته. صاح حجاج في الشيخ: تحدث عن نفسك فقط، إذا كانت لديك هواجس وحسابات مع الباشا، فهذا شأنك، أما نحن فنستطيع.

حاول الشرقاوي ومعه هذا الشيخ، وكذلك بكر وإسماعيل جودة أن يتجاوزوا كلام حجاج، طرحوا على الحاضرين طلباتهم التي تبدو معقولة، ويمكن للباشا أن يستجيب لها. صمت حجاج يكتم

غيظه ويشعر بإحباط مما يسمع، هم بالخروج فإذا بسليم يقبض على ذراعه ليجلسه حيث هو، ثم يقول: كل ما قلتموه رائع، لكن من يضمن لنا ألا ينكث الوالي عن وعده، هذه أمور معتادة في مصر، الحل هو ما قال حجاج، هذا الوالي يجب أن يرحل عن مصر.

تهلل وجه زياد وهو يتحدث لأول مرة في حضرة الشيوخ: ما قاله عمي حجاج هو الصواب، نحن ما خرجنا من أجل أن نتشفع لدى الباشا، وأن يخفف عنا ظلمه، أليس المتنبي هو الذي يقول:

إذا كنت في أمر مروم فلا تقنع بما دون النجوم

فطعم الموت في أمر حقير كطعم الموت في أمر عظيم

والنجوم التي نريدها اليوم هي رأس الباشا نفسه، لا أقل من هذا.

هز كلام زياد وجدان السيد عمر مكرم الذي كان حديثه قليلا حتى هذه اللحظة، قال: لنفرض أننا استطعنا أن نعزل الباشا، فما الذي يضمن أن يأتي بعده وال أكثر عدلاً؟ هل نسيتم أن السلطان هو الذي يختار لنا والينا؟

رد سليم باندفاع: ولماذا يختار لنا السلطان؟ لماذا لا نختار نحن لأنفسنا من يحكمنا؟ لماذا لا نختار واحداً منا؟

رد الشيخ الشرقاوي: هل نسيت أننا جزء من الدولة؟ وما تتمناه لم يحدث في التاريخ الذي نعرفه.

وافقه السيد عمر مكرم، وأضاف: حتى إن وافقناكم على ما تحلمون به؛ فمن تظنه يصلح من أولاد البلد لحكم مصر؟ الأمور يجب ألا تؤخذ بهذه البساطة.

رد سليم: أنت تهيننا يا مولانا بهذا الكلام، هل تعتقد أنت أن المصريين لا يصلحون أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم؟ هل تعتقد أن هذا الرجل – وأشار إلى حجاج الجالس بجواره – لا يصلح أن يكون والياً؟ أنا أختاره والياً على مصر بدلاً من هذا الباشا الظالم.

قال السيد عمر: اهدأ يا سليم، اهدأ يا بني، أنا..... قاطعه سليم بغضب: أنا لست ابنك يا مولانا، أنا ابن أبي، ولا تجعل الموضوع........ تدخل حسن بحدة يمنع سليم من إكمال جملته: هذا ليس جواً نصل فيه إلى شيء، استعيذوا بالله من الشيطان. حوقل الشيخ الشرقاوي وبدأ يتمتم ببعض الأدعية ومعه بقية الشيوخ. تناول السيد عمر مكرم قربة ماء بجواره وشرب منها رشفة وحمد الله، بينما أحمد وزياد ينتظران ما سيصل إليه الجلوس من قرارات.

بعد فترة صمت قصيرة، ابتسم السيد عمر مكرم وهو ينظر إلى سليم موجهاً إليه الحديث: برغم ما قلته، فأنت مثل ابني، أنا أقدر انفعالاك وغضبك، لكن علينا حتى ونحن نأخذ القرارات الكبيرة أن

نتبصر موضع خطونا، أنا أوافقك أنت وحجاج على ضرورة أن نزيح الباشا، لكن يجب أن نختار والياً يرضى عنه الباب العالي. دون هذا فنحن نجهض كل ما نفعله، وليس مهماً الآن أن يكون مصرياً، المهم أن يكون كفوءاً وقادراً على ضبط الأمور.

قال حجاج: من تقترح يا مولانا؟

رد السيد عمر مكرم: أنا أقترح محمد علي، وإذا وافقتم عليه، فسنطلب منه أن يختار معاونيه من المصريين. يجب أن نكون جزءاً من المجموعة التي تحكم مصر.

رفض سليم اسم محمد علي، وتردد حسن، وناقش حجاج الخضري، وتحمس بكر ومعه الشيوخ، وسأل الشباب عنه، وطال بينهم النقاش حتى وصلوا في النهاية إلى الأمرين معاً: عزل الباشا، وتولية محمد علي مكانه. وبقي أن تنتقل قراراتهم إلى أرض الواقع.

الفصل الثامن

تشعر رباب بالنشوة، أحداث مصر الكثيفة لم تشغلها عن ملاحظة التغيرات الهائلة في حسن. لايقوم من فراشه إلا بعد أن يطبع قبلة على خدها. فعلها أول مرة وكانت نائمة، أيقظتها قبلته، فاستدارت، وابتسمت. وفي الأيام التالية تعمدت ألا تقوم قبله انتظاراً لقبلته، ولم يخذلها. لا يلتقيها إلا طرفي اليوم، مع ذلك، هذا يكفيها منه. وما بين خروجه وعودته ترقب وقلق وشوق وعذاب. في عينيه حب لم تره في أيامها الأولى معه ولا حتى في الشهور التالية، ولم تخذله هي، أفاضت عليه بمكنوناتها، وصدحت في حضوره بصوتها العذب، ولم تكن تفعل.

مايرقد الليل مفتون ولا يقرب النار دافى

ولايطعمك شهد مكنون إلا الحبيب الموافي

وحين أخبرها حسن في مساء الجمعة بكل ما دار في الجامع الأزهر، شعرت بغصة وهي تسمع باختيار السيد عمر مكرم لمحمد علي، لا تعرفه، ولا تعرف غيره من اللاعبين الكبار في مصر، لكنها شعرت بغريزتها أنه اختيار في غير مكانه، قالت له في عبارة بليغة موجزة: كيف تزرعون ويحصد غيركم؟ الجملة اخترقت حسن إلى أعماق أعماقه، نظر إليها، بدا حائراً وهو يجول في الغرفة، وبعد صمت دام أطول مما ينبغي قال: سليم أيضا يرى رأيك، لكنك عبرت أفضل منه، مع ذلك قُضي الأمر.

في الصباح خرج، ومعه بكر. سأله في الطريق ماذا ستفعل بالبيت؟ أخبره بكر أنه يحتاج إلى إصلاح كثير. سينتظر بعد أن تنقشع الغمامة ويبين من الوالي أمارة على الرحيل، ثم يتولى إصلاحه. كانا ذاهبين إلى الدكان ليفتحاه انتظاراً للجماعات التي تجول في مصر تراقب التزام الناس بإغلاق الأسواق والدكاكين. فرغ الدكان مما فيه، وأصبح مركزاً لتجمعات الشباب وكل الرافضين لحكم الباشا. واستمر ترك الشيوخ لدروسهم في الأزهر وسائر المساجد.

نزل أحد الأغوات من القلعة ومعه بعض عمال الباشا، اقتربوا

من مسجد السلطان حسن، وبدأوا ينادون على الناس بفتح الدكاكين، اندهش الناس مما يسمعون، فلهجة من ينادي بدت رقيقة، وفيها استعطاف لا يخفى على أحد، قال أحد الواقفين مع حسن: سبحان الله، كان لا بد أن يروا العين الحمرا حتى يتغيروا. لم يستجب لهم أحد، بل لم يلتفتوا، قالوا: أي شيء حصل من الأمان، والباشا يريد سلب الفقراء وأخذ أجرة مساكنهم، ويزيد عليهم الغرامات. وإذا سكت الآن، وكف أذاه عنا، فمن يطمئننا على الغد؟

في اليوم التالي حدث أمر أزعج حسن، عدد من الشيوخ يقودون جماعات من الفقراء والأطفال والنساء يدورون في طرق مصر، صراخهم عال وهم يهتفون "شرع الله بيننا وبين هذا الباشا الظالم"، ثم الهتاف الذي أبدعته رباب "يا رب يا متجلي، أهلك العثمانلي". كان يمكن له أن يسر بفورة الناس وحماسهم، لولا خوفه أن تتطور الأمور إلى فوضى يصعب السيطرة عليها، تابعهم وهم يسيرون كانوا في اتجاه سوق ألسلاح المؤدي إلى باب زويلة ثم الجامع الأزهر، فظن أنهم سيتجمعون هناك. علم من سليم بعد أن التقى به بعد العصر أنهم ذهبوا بجمعهم إلى بيت القاضي يطلبون منه أن يكتب عرضحال بكل طلبات الناس من كف طوائف العسكر عن أذاهم وإخراجهم من مساكنهم والمظالم الكثيرة والفرد التي يجب أن تقف ومصادرة أموال الناس بالدعاوى الكاذبة وغيرها. وكان حاضراً بعض من الأغوات العاملين مع الباشا الذين أخذوا هذا

العرضحال مع وعد بأن يأتيهم الجواب في الغد. ما أثار الناس أن رد الباشا لم يتأخر إلا بضع ساعات، أرسل للقاضي رسالة يرقق فيها الجواب، ويظهر الامتثال، ويطلب أن يحضر إليه في الغد عدد من كبار الشيوخ، ومنهم السيد عمر مكرم. غلب على ظن الشيوخ أنها منه خديعة، وفي عزمه شيء آخر. وكان ظنهم صحيحاً، لأنه حضر بعد ذلك من أخبرهم أنه كان أعد أشخاصاً لاغتيالهم في الطريق، وينسب ذلك الفعل لأوباش العسكر.

التقى حسن وسليم بالسيد عمر مكرم في المساء في بيته، وهناك قرروا أن يبادؤوا الباشا بما لا يتوقعه، وأن يضعوا قراراتهم يوم الجمعة موضع التنفيذ، كان الخلاف بأيهما يبدأون، وكان من رأي حسن أن يذهبوا إلى الباشا ليبلغوه بقرار عزله أولاً، ثم بعدها يختاروا محمد علي والياً عليهم، لكن رأي السيد عمر اختلف، عليهم أولا أن يضمنوا بجانبهم قوة مسلحة كبيرة بحجم قوة محمد علي، وحين يبلغون الوالي بقرارهم، تكون ظهورهم مُؤَمَّنَة. وفي صباح اليوم التالي الاثنين اجتمعوا أولاً في بيت القاضي، كان حشد العامة كبيراً، لكن لم يسمح إلا للشيوخ وعدد من غيرهم بالدخول حيث القاضي، كان من بينهم حجاج الخضري وحسن وسليم وزياد. انتحى حسن بحجاج وأخبره قبل أن يبدأ أحد بالكلام بما اتفقوا عليه مع السيد عمر مكرم. استصوب الرجل الفكرة، وانتظر. كان السيد عمر مكرم متحمساً وهو يعلن للناس ما توصلوا إليه، أفاض في

شرح ملابسات اختيار محمد علي والياً، عدد مزاياه، وطمأنهم على عدله، "أنا أعرفه عن قرب، وقد اختبرته في مواقف كثيرة، فأظهر حزماً وعزماً وعدلاً، لست قلقاً بشأنه، وهو اختيارنا الأمثل في هذا الوقت العصيب". رد القاضي: إذن هل نستدعيه هنا، ونبلغه بما اتفقنا عليه؟ قال السيد عمر مكرم: بل نذهب نحن إليه إظهاراً منا لثقتنا فيه".

خرجوا جميعاً بعد وقت يعلنون للناس قرارهم، وأنهم ذاهبون الآن لبيت محمد علي بالأزبكية ليبلغوه به. تباينت ردود فعل الناس، لكن الصوت الغالب بينهم أن الشيوخ أدرى بمصلحتنا، وخصوصا السيد عمر مكرم، ما عهدنا منه غفلة ولا غشاً، ونحسبه أميناً علينا.

لم يكن محمد علي بعيداً عما يدبره الشيوخ، جواسيسه المنتشرون في أنحاء مصر يبلغونه بكل شيء، حتى اجتماع الأزهر الذي تقرر فيه عزل الباشا وتوليته علم به في مساء اليوم نفسه. ولحظتها كف عن الاتصال بالسيد عمر، واعتكف في بيته يدير ما يستطيعه من أمور من وراء ستار. ولما رأى جنوده المرابطون أمام بيته جمع الناس قادماً من جهة الشرق حيث بيت القاضي القريب من خان الخليلي. استنفروا، واستعدوا لأسوأ الاحتمالات، بينما دخل اثنان منهم يبلغ محمد علي ما يحدث. لمعت عينا الرجل، وأيقن أن هذه

هي اللحظة التي انتظرها منذ أن قرر السعي للوصول إلى القلعة. لحظات وامتلأت حجرته بالناس، وفاضت حتى ملأوا طرقات البيت وغرفه المجاورة للحجرة التي يجلسون فيها. فوضى في المكان لم يستطع معها لاظوغلي أن يفعل شيئاً. بدأ السيد عمر الحديث فقال: إنا لا نريد هذا الباشا حاكماً علينا، ولا بد من عزله من الولاية، نقل المترجم الكلام إلى محمد علي، فقال بخبث ظاهر لم يعجب حسن: ومن تريدونه والياً؟ فقال السيد عمر: لا نرضى إلا بك. رد محمد علي: أنا لا أصلح لذلك، ولست من الوزراء ولا من الأمراء ولا من أكابر الدولة. نبرته خدعت بعض الحاضرين، فصاح من بينهم أحد الشيوخ: قد اخترناك لذلك برأي الجميع والكافة، والعبرة رضا أهل البلاد. تدخل حسن بصوت عال، وكان أول مرة يراه وجهاً لوجه: ستكون والياً علينا بشروطنا، السيد عمر مكرم يتوسم فيك العدل والخير، ونحن نثق في رأيه، ونرجو ألا تخذلنا. أضاف حجاج الخضري: ولو حدت عن الحق فسنعزلك. ارتبك محمد علي وهو يستمع إلى كلام حسن، ثم إلى كلام حجاج، وكاد أن يرد بحدة لولا أن سيطر على انفعالاته، وكظم غيظه. نظر إليهما نظرة ذات معنى، ثم رد بما يدل على أنهم لن يروا منه إلا كل الخير.

من فورهم قاموا، فأحضروا خلعة أحضروها معهم، وقام إليه السيد عمر والشيخ الشرقاوي، فألبساها له، وكان الوقت عصراً. خرجوا من عنده ينادي المنادون في طرقات المدينة أن الشيوخ

وجميع أهل مصر قد خلعت الباشا أحمد خورشيد وعينت بدلاً منه محمد علي والياً على مصر.

وقع الخبر على خورشيد باشا كالصاعقة، لم يلوح له في مخيلته. فتش فيما يعرفه عن علامات يوم القيامة الصغرى والكبرى، فلم يجد من بينها أن الناس يمكن أن تعزله بهذه الطريقة. في هذه اللحظة من الليل، قال في نفسه: إذن هذه علامة أخرى من علامات يوم القيامة، صاح في من أبلغه الخبر: إني مولي من طرف السلطان، فلا أعزل بأمر الفلاحين، ولا أنزل من القلعة إلا بأمر من السلطنة.

وفي بيت حسن كان يحكي لرباب وشَحتة وقائع اليوم الطويل. قالت شَحتة: إذن سننتهي من هذا الهم قريباً. اللهم اجعله خيراً، وقالت رباب: أرى في عينيك عدم رضا، أنتم قمتم بعمل كبير لم أشهده في حياتي ولم أسمع به، فمالي أراك مهموماً حزيناً؟

– لاشيء يارباب، بل أنا مهدود متعب من أحداث اليوم، تعال نذهب إلى حجرتنا.

استأذنا من شَحتة التي قامت أيضاً لتنام، بينما أغلق حسن حجرته وراءه وهو يقول لرباب: لست مهموماً حزيناً فقط، بل قلقاً مما سيأتي. هذا الرجل الذي اخترناه لم أسترح له، في عينيه مكر ودهاء، وظني أنه استطاع أن يخدع السيد عمر مكرم.

لم تعلق رباب، التفت إليه وهي تعدل من وضع المخدتين على

السرير، ثم عادت إلى ما تفعل. لا تدري ما تقول، تتمنى ألا يصدق حدس زوجها. سألته: لماذا لم تقل هذا أمام شَحتة؟ قال: وهل تظنين شَحتة تتحمل أن تراني حزيناً متعباً؟ أرادت أن تخرجه مما فيه، فداعبته: إذن تراني أنا التي أتحمل، وكأنك لا تهمني في شيء؟ راقه منها هذا التحول في الحديث فقال: من يدري؟ لعلك تقولين في نفسك مالي أنا وهذا الرجل الذي لا أراه إلا وقت النوم. بدأت رباب تلاعبه: أحياناً أقول لنفسي هذا، ثم أشفق عليك لما أراك نائما بجواري. ضحك حسن وقال: إذن أنت تنامين بجواري شفقة؟ قالت: شفقة ورحمة وصدقة لوجه الله. لم يحاول أن يمسها في هذه الليلة، لم يكن واثقاً من قدرته على شيء. لكنها نامت في حضنه كالقطة حتى الصباح.

أما محمد علي فقد بات متوتراً، نام وحده. ارادت نائلة أن تؤنسه فرفضها، عادت إلى حجرتها خائبة، بينما ظل هو ساهراً إلى قرب الفجر، يحسب لما سيفعل، ويقدر خطوته القادمة، ويزن مقادير الرجال الذين رآهم اليوم لأول مرة، انطبعت صورهم في مخيلته، لكنه لا يعرف لهم أسماء. المماليك الذين يدقون أبواب مصر بقوة استحوذوا على النصيب الأكبر من تفكيره، لكنه رآهم خطراً مؤجلاً، أما الخطر الحقيقي الآن فهو الباشا نفسه المستولي على القلعة، وهؤلاء الجنود الهائمون في طرقات مصر، إذا لم يستطع ردعهم، فإن الناس قد ينقلبون عليه مثلما فعلوا مع أحمد

خورشيد. نام مع آذان الفجر الذي وصل إليه من مساجد الأزبكية القريبة، وبعد ساعتين استيقظ نشيطاً كأنه نام دهراً.

***

ومثلما بات حسن مبتئساً محبطاً، كان سليم أكثر منه إحباطاً. أخبر صديقه لما التقاه في اليوم التالي بضرورة أن يلتقوا بالسيد عمر مكرم، "لو ترك هذا الرجل ومصر فإنه سيبتلعها، ولن يقدر عليه أحد". أما بكر فلم يشاركهما الرأي. نظر إلى الأمر من زاوية أخرى، "هذه أول مرة نفرض رأينا على السلطان، وهو شيء ليس قليلاً، وما حدث مع خورشيد باشا، يمكن أن يتكرر مع محمد علي إن فكر أن يلعب بذيله معنا". قال حسن: في كل الأحوال يجب أن نلتقي بالسيد عمر مكرم، ونبلغه بهواجسنا في الرجل، لعله يرى فيه رأياً.

قبيل الظهر جاء حجاج الخضري يبلغهم بعسكر المماليك التي تتكاثر في الجيزة تكاثراً مريباً، "هؤلاء إن دخلوا مصر، فالله يلطف بالناس". رد بكر: ادع الله أن يلطف بالناس في كل الأحوال، في داخل مصر من عساكر الدلاة والأرناؤود وأوباش الدنيا ما يكفي لإحداث الفوضى. رد حجاج: ما رأيكم أن نذهب إلى السيد عمر مكرم لنرتب لخطوتنا القادمة. ابتسم حسن وهو يقول: يبدو أن الكل يرغب في الذهاب إلى السيد عمر، لكن كل واحد له أسبابه. نظر

حجاج إليهم متعجباً: إذن أنتم أيضاً تريدون الذهاب إليه؟ رد سليم: نعم يا سيدي نريد، لكن لسبب آخر. لكن قل لي ما رأيك في محمد علي؟ رد حجاج: لم أكون فيه رأياً، وهذا لا يهمني كثيراً. أنا أثق في السيد عمر مكرم كثيراً وفي استقامته ورجاحة عقله، وأعتقد أنه لن يكون بعيداً عن محمد علي وهو يحكم، وهذا يكفينا. قال حسن: أتمنى مثلك أن تسير الأحوال كما ترى. على كل، يجب أن نذهب للسيد عمر.

وفي الطريق إلى بيت السيد عمر بانت بوادر الفوضى: جمع غفير من العامة وبأيديهم أسلحة وعصي سائرون في الطريق الذي يؤدي إلى الأزبكية حيث بيت محمد علي، وتجمعات من عساكر الدلاة تنتشر في أسواق خان الخليلي وما حولها، وصراخ النساء والأطفال يأتي إليهم من الحارات والعطوف الخلفية، واستغاثات من بعض العجائز الذين خطف منهم عسكر الأرناؤود القليل الذي يحملونه. ولما رآهم السيد عمر في بيته، سألهم: ماذا وراءكم؟ لم يشأ حسن ولا سليم أن يحدثاه في هواجسهم في محمد علي، وجدوا اللحظة غير مناسبة، وكان حجاج هو الذي بادر وأفاض في عرض ما رأى، واقترح ما يجب عمله، قال علينا أولاً أن نضع المتاريس عند المداخل الرئيسية لكل مصر، وأن يكون هناك رجال فوق منارات الجوامع وفوق أسطح البيوت استعداداً لما هو قادم. قال السيد عمر أنه رأى بعض المدافع القديمة خارج باب النصر، يبدو

أنها من بقايا الفرنسيس، فانظروا إذا كانت تعمل، وضعوها قريبة من القلعة، "نحن لن نبادئ الباشا بشر، لكن سندفع عن أنفسنا شره لو تطلب الأمر، من ناحيتي، سأذهب الآن إلى محمد علي لأرتب معه طريقة مواجهة الباشا. هل تأتون معي؟ رد سليم: أما أنا فلن أذهب له، عندي ما أعمله مع أحمد وزياد، والأمر لهم، ونظر إلى بكر وحسن وحجاج. وجد حسن أن دعوة السيد عمر أتت في وقتها، هو يريد أن يتأكد من هواجسه وشكوكه في الرجل، لن يستطيع أن يمضي وهو يحمل على كاهله شكوكاً ربما لا أصل لها، "لقاء آخر مع الرجل لن أخسر فيه شيئاً". قال للسيد عمر: أما أنا فسأذهب، وكذلك قال حجاج وبكر.

استطاع السيد عمر وصحبه أن يدخلوا بيت محمد علي بصعوبة، لما اقتربوا من البيت وجدوا تجمعات أهل البلد ببيارقهم وصخبهم، كانوا يفترشون الطرقات المؤدية للبيت، بعض الناس يعرف السيد عمر، التفوا حوله، وأسمعوه شكاياتهم ووجعهم مما يحدثه العسكر بهم، ووعدهم السيد عمر خيراً، وبمجرد أن رآهم محمد علي تذكر الرجلين: حسن وحجاج، سأل عنهما السيد عمر مكرم، فأخبره أن حسن أفضل خطاط في مصر، وهو يتاجر في الورق أيضاً، بينما حجاج الخضري صاحب وكالة لبيع الأقمشة والملابس بالرميلة، وأما بكر، فيحفظ القرآن ويعلمه للناس. هش محمد علي في وجوههم وبش، وبانت في وجهه ابتسامة وقعت في نفس حسن موقعاً سيئاً.

سأله عمر مكرم: ما الأخبار عندك؟ قال محمد علي: الرجل لا يريد أن ينزل من القلعة، يقول أرونا سنداً شرعياً في ذلك، هل تظن يا سيد عمر أنه لو رأى هذا السند سينزل؟ رد عمر مكرم: لا أظن، ومع ذلك لن يضرنا شيء لو سألنا القاضي الذي عينه السلطان؟ واجهه حسن بحسم: أنت الآن والينا الذي اخترناه، وواجبك يلزمك بأن تفعل شيئاً من أجل كف أذى العسكر عن الناس، فماذا أنت فاعل؟ جرس الحروف والشدة فيها وقعت من محمد علي موقعاً سيئاً، انتظر حتى انتهى المترجم من نقل كلام حسن، فتأكد في نفسه ما وصل إليه أولاً من نبرة حسن، لهجته لم تعجب محمد علي، صمت قليلاً، وبلع ريقه، ثم قال مصوباً نظراته تجاهه: لا تنس أني حتى الآن لم أصبح والياً رسمياً على مصر، أرسلنا إلى السلطان بما يدور، ورسولنا لم يصل بعد إلى الإسكندرية، مع ذلك فسأبذل كل طاقتي من أجل استتباب الأمن، لا تقلق من هذه الناحية.

وفي طريق عودتهم سأل حسن عمر مكرم: لماذا لا يتعلم هذا الرجل العربية؟ رد عمر مكرم: ومن تعلمها قبله من حكام مصر؟ لم يستوعب حسن هذا الأمر، ولم يقبله، قال للسيد عمر: كيف يتواصل مع الناس؟ كيف يشعر بآلامهم؟ كيف يكسب ودهم ولغته غير لغتنا؟ بكر الذي لم ينطق بكلمة حتى الآن تدخل وقال: الإسلام الذي يجمعنا أكبر من اللغة التي تفرقنا، ومادام سيقيم العدل فينا فليرطن باللغة التي يحبها. منطق بكر أعجب السيد عمر، فاستحسن

قوله وقال لحسن: لا تنس يا حسن أن راية الإسلام تظلل جموعاً من البشر مختلفي اللغات، وما داموا يجدون طريقة للتواصل بينهم فأمر اللغة لا يهم. نظر حسن إلى حجاج يتوسل به أن يدعم رأيه، فوجده مشغولاً بالطريق وما فيه من بشر، فصمت غير مقتنع بكلام عمر مكرم وبكر، قال لنفسه بصوت سمعه بكر الذي يسير بجانبه: هل يمكن فعلا أن نتجاهل موضوع اللغة؟

رد القاضي، استصوب رأي الناس، ولم يمانع من عزل الوالي إن حاد عن الحق أو ظلم الناس. ولم يعجب هذا الباشا الموجود في القلعة، رفض النزول وحقن الدماء، ووضع أهل مصر أمام خيارات صعبة، فالعساكر الأرناؤود انقسموا بينه وبين محمد علي، بعضهم ناصره وجاهر بذلك، وبعضهم ساند محمد علي، والمماليك انتقلوا من أطراف مصر إلى أماكن أكثر قرباً من قلبها، والدلاة وجدوا أنفسهم مشتتين، فأصبحوا بلا قائد، ومن ثم أصبحوا أكثر خطراً على الأمن، وكل هذا جعل حجاج وسليم وأحمد وزياد يقررون شيئاً بدا مدهشاً وغريباً وخلاقاً.

كانوا يجلسون أمام دكان حسن يتدبرون الأمور، لا بكر ولا حسن وصلا بعد من البيت برغم أن وقت صلاة الظهر اقترب، نظر حجاج إلى القلعة التي تبدو غير بعيدة عن مكانهم وقال: آه، لو أطول هذا الباشا، فسأمسكه من زمارة رقبته، ولن أتركه حتى

أخلعها. ضحك سليم وقال: ثم ماذا بعد؟ ماذا ستفعل بها؟

رد حجاج: بالطبع سازمر بها في حواري مصر.

فجأة صاح أحمد: إذا كان الوالي متحصناً بالقلعة، فلنجبره على الخروج منها.

رد زياد: كيف؟ إذا كنت تقصد أن نهاجمه، فانس هذا، أسلحتنا قليلة، ونحن لا نعرف نوايا محمد علي حتى الآن.

واصل أحمد كأنه لم يسمع كلام زياد: نحاصره ونمنع عنه الطعام والشراب، فينزل مدحوراً ذليلاً.

احتضنه حجاج الخضري وهو يقول له: من أين تأتي بهذه الأفكار النيرة يا ولد؟ هذا هو الكلام. بينما نظر سليم في دهشة إلى الاثنين، وبدأ يدير الفكرة في رأسه، "لمذا لا نفعل هذا فعلاً؟" سار الأربعة في اتجاه القلعة ينظرون إليها وإلى ارتفاعها، وإلى الطرق المؤدية إليها، قضوا ساعات ما بين الظهر والعصر يتداولون الفكرة، ويناقشون إمكانية تنفيذها وهم وقوف يتطلعون إلى أسوار القلعة الحصينة. وجدوا أنهم يحتاجون متاريس وبنادق وربما مدافع، والأهم أن يحتلوا الأماكن المرتفعة المحيطة بالقلعة وبخاصة منارات المساجد وعلى الأخص مسجد السلطان حسن.

قال حجاج: لن يسكت الباشا ولا جنوده، وسيلجأون إلى سلاحهم

بما فيها مدافعهم حتى يفكوا الحصار عنهم، وكل هذا يجب أن يوضع في الحسبان. لكن لا بد للناس أن يدركوا أن ثمن هذا الحصار سيكون غالياً، وربما يقع شهداء منا، بل حتماً سيقع شهداء، لكن هذا هو الثمن الذي سندفعه من أجل أن يرحل هذا الظالم.

قال سليم: ادع الله ألا يكون القادم أكثر ظلماً من الذاهب.

وفي بيت حسن كان بكر يعيش لحظات من القلق. في أوائل الصبح شعرت فاطمة بآلام الوضع، فاستغاثت بتوحيدة التي قامت من نومها بجوار بكر فزعة، وكذلك قامت شحتة ورباب والبنتان. جرى بكر ليستدعي القابلة، بينما خرج حسن ليترك البيت للنساء، وقف أمامه ينتظر بكراً، ولما عاد بكر ومعه القابلة التي كانت تحمل كرسي الولادة ذهبا سوياً يجلسان في الجامع القريب استعداداً لأي ظرف طارئ.

وأمام حجرة فاطمة كانت رباب واقفة مع البنتين تنتظر في لهفة. منعتها شَحتة من الدخول، ولم تفهم لذلك سبباً. طلبت منها أن توقد النار، وأن تغلي الماء، كثيراً من الماء، وأن تجلب من صندوق ملابسها أقمشة نظيفة لا تحتاج إليها.

وقبل الظهر أشرقت الحياة من رحم فاطمة، كان طفلاً ذكراً خفيف الوزن لا تكاد تبين له ملامح، غسلته شَحتة، وخبطته القابلة على ظهره، فأطلق صرخته الأولى. ووقتها تذكرت شَحتة لحظة

ميلاد حسن. نظرت توحيدة إلى الطفل الذكر بأسى، وبكت، فظنتها شَحتة تبكي من الفرح، أعطته لها وهي تقول: هو ابنك مثلما هو ابن فاطمة، وأما فاطمة نفسها فقد كانت تنظر في دهشة وفرح للمتحلقات حولها وهن يحملن طفلها الذكر.

اما بكر فقد صاح حين أخبرته ابنته أمام المسجد: هو حسن، سأسميه حسن. ابتسم حسن وهو يسمع اسمه، ثم قال: لا تكن مجنوناً، سمه اسماً آخر، لعل حظه في الدنيا يكون أفضل من حظي. نظر إليه بكر في عتاب وقال: هذا شرف له يا صاحبي أن يحمل اسمك.

لكن التي اعترضت حين سمعت باسم الطفل هي شَحتة، قالت لبكر: لا يوجد في هذه الدنيا إلا حسن واحد، فاختر لابنك اسماً آخر. حاولوا جميعاً أن يقنعوها، فلم يجدوا منها ليناً. وفي النهاية قال بكر: إذن سأسميه عبد العال. هو عبد العال، هل يمكن أن ننساه؟ ثم التفت إلى حسن وقال: أظن أن ضيافتنا هنا طالت زيادة عن اللزوم، أصبحنا ثقلاء عليكم. رد حسن بسخرية: آه، تصور أني نسيت أنكم ثقلاء علينا، لكني لست صاحب الأمر في هذا البيت، عليك بشحتة، اقنعها بأنكم ستتركوننا لو استطعت.

ولما أخبر شَحتة خطبت على صدرها وقالت: يا عيب الشوم،

سبوع عبد العال الصغير سيكون هنا، وفاطمة لن تخرج قبل شهر. وبعدها يكون لنا كلام في الموضوع. ابتسم حسن وقال: أرأيت؟ هنا في البيت حكم قراقوش، وقرارات لا يمكن الرجوع عنها.

وفي بيت السيد عمر مكرم استحسن الفكرة، لكنه رأى أن حصار القلعة لن ينفع إلا بوجود عساكر، والعساكر مع محمد علي. إذن فلنذهب إليه. استأذن سليم في عدم الذهاب معهم، تعجب عمر مكرم، فهذه ثاني مرة يرفض فيها الذهاب إلى محمد علي، سأله عن السبب، فلم يناور سليم أو يخاتل، بل قال للسيد عمر مباشرة: أنا لا أحب هذا الرجل، هو – عندي – مثل كل المغامرين والأفاقين الذين تناوبوا على حكم مصر، ولن نرى منه إلا ما رأيناه سابقاً من غيره، ولا أعلم يا مولانا لماذا تثق فيه كل هذه الثقة؟ قال السيد عمر: حسن أيضا يرى رأيك، لكنه لا يفعل مثلك، يأتي معي ويقابله، ويقول له ما ينبغي أن يسمعه من أهل البلد، فلماذا لا تفعل مثله؟ رد سليم: كل شيخ وله طريقة، أما أنا فسأبقى كما أنا.

أمدهم محمد علي بعساكره الذين انتشروا في جهات الرميلة والحطابة وباب القرافة والحصرية وطريق الصليبة والمحمودية وبالقرب من جامع السلطان حسن، وعملوا المتاريس في تلك الجهات، ومنعوا من يطلع أو ينزل من القلعة، فأغلق أهل القلعة أبوابها، ووقفوا يبكت بعضهم بعضا بالكلام، ويترامون بالبنادق. ثم

صعد بعض العسكر على منارة السلطان حسن يرمون منها على القلعة.

أحس أهل القلعة بخطورة ما هم فيه، فأرسل الباشا أحد أتباعه يطلب لقاء الشيوخ، التقوا في بيت حسن بك أخي طاهر باشا الوالي السابق الذي تآمر محمد علي على قتله، بينما أصبح أخوه أحد معاوني محمد علي الكبار، قال الرجل واسمه عمر بك: كيف تعزلون من ولاه السلطان عليكم، وقد قال تعالى "وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم؟" فقال عمر مكرم: أولو الأمر هم العلماء وحملة الشريعة والسلطان العادل. وهذا الرجل ظالم، وجرت العادة من قديم الزمان أن أهل البلد يعزلون الولاة، حتى الخليفة والسلطان، فإنهم يعزلونه ويخلعونه. فقال له الرجل: وكيف تحصروننا وتمنعون عنا الماء والأكل، هل نحن كفرة حتى تفعلوا معنا ذلك؟ فقال السيد عمر: نعم، قد أفتى العلماء والقاضي بجواز قتالكم ومحاربتكم، لأنكم عصاة. فقال الرجل: إن هذا القاضي كافر. رد عمر مكرم: إذا كان قاضيكم كافرا، فكيف بكم؟ وحاشاه الله من ذلك، إنه رجل شرعي لا يميل عن الحق.

انفض المجلس، وكان صداه عند الناس عظيماً، ارتفعت معنوياتهم إلى السماء، وباتوا أقرب إلى تحقيق النصر على هذا الوالي الظالم. كون الناس من تلقاء أنفسهم جماعات تتناوب السهر

عند مداخل المدينة وفي طرقها الكبيرة وعند العطوف والحارات. وساروا نهارا بأسلحتهم ونبابيتهم.

أغلق حسن وصحبه الدكان، فقد أصبح في مرمى بنادق أهل القلعة، وانتقلوا إلى بيت بكر المهجور، اتخذوه مركزا يجتمعون فيه ويوزعون المهام على الناس، وكذلك فعل غيرهم في أماكن أخرى من مصر.

شعر حسن أنه يسترد روحه التي طالتها تشوهات بفعل ما خبره وعاناه في الحياة، في نقاشاته الكثيرة مع صحبه ومع الناس الذين لا يعرفهم يشعر بألق في العيون وبوادر عافية في الأجساد المنهكة لا يدري من أين تأتيهم برغم فقرهم وبؤسهم الظاهر، ما أوجع قلبه وأشعره بالفرح في الوقت نفسه حتى كاد يبكي مشهد هذا الرجل العجوز البائس الذي دخل عليهم في بيت بكر ذات يوم، يعرض نفسه، قال لهم: أريد أن أفعل أي شيء، أي شيء، حتى لو طلبتم مني أن أنقل لكم الأحجار للمتاريس، فسأفعل. طيب حسن خاطره، وقال له: يا والدي، يكفينا منك هذه الروح الطيبة، أولادك في كل مصر يقومون بالواجب. انفعل العجوز وقال: لست أقل منهم، فلا تحرموني من الشهادة. رد حسن: أطال الله عمرك يا والدي. قال الرجل: ما أحببت أن يطيل الله عمري قبل اليوم، أما الآن فأتمنى أن يطيله حتى أراكم تزيحون هذا الباشا الظالم من وجوهنا. يا بني

أنا لا أملك من هذه الدنيا إلا هذه الهدمة التي ألبسها، فخذها وبعها واشتر بها السلاح الذي تقاتل به هذا الباشا. فوجئ حسن وفوجئ من معه بالرجل يخلع جلبابه، ويبقى بالإزار، ويتركه ويمضي. قام أحد الشباب يلحق به وهو يعطيه جلبابه ليرتديه والرجل يأبى ويقول: حاولت أن أستدين لأشتري سلاحا، فلم أجد أحداً يسلفني، فلا تحرموني من هذا الشرف. أستحلفك بالله يا بني أن تأخذ هذا الجلباب، وأنا سأتدبر أمري مع أهلي وجيراني. عاد الشاب بالجلباب لا يدري ما يفعل به، ولا يدري معه الآخرون. تركوه في الحجرة معلقاً على مشجب، شاهداً على نبل ما يقومون به.

ظن حسن ورفقته ومعهم السيد عمر أن انحياز عسكر محمد علي لهم في حصارهم للقلعة سيعجل من خروج الوالي، فإذا بهم أمام واقع تطلب منهم مزيداً من اليقظة والحزم. فالوقت يمر، والعسكر الأرناؤود تتراخى في الحصار. جزء منهم موجود في القلعة يناصر الباشا، وجزء هائم في نواحي مصر لا يقدر عليه أحد، يعيثون فساداً بين الناس لا فرق بينهم وبين عساكر الدلاة ولا المماليك. اضطر الشباب أن يواجهوهم، وأن تدور بينهم مناوشات بالأيدي أحياناً، وبالسلاح أحياناً أخرى. ما يثير العجب أن هؤلاء المتناوشين سرعان ما يتحدون معاً إذا ما أطلق أهل القلعة بنادقهم، ينسون ما هم فيه، ويوجهوا بنادقهم تجاه القلعة، وبعد أن تسكت

أصوات البنادق، وربما المدافع، يعودون إلى مناوشاتهم التي تؤدي كثيراً إلى الموت.

تصل هذه الأخبار إلى محمد علي، ويظن أن وجود عساكر الدلاة في مصر هو المشكلة، فيجتمع مع كبارهم، ويطلب منهم الرحيل، يسألونه: إلى أين؟ فيحير جوابه، ثم يقول لهم: خارج مصر، إلى أي مكان، المهم أن تخرجوا من مصر. يدرك محمد علي أن هؤلاء الجنود بأفعالهم مع الفلاحين يمكن أن يفسدوا كل شيء. يطلبون منه رواتبهم وما يعينهم في ترحالهم، يقول لهم: اخرجوا الآن، وتصرفوا مع الناس خارج مصر كيفما تشاؤون.

الأيام تمر ولا شيء في الأفق يلوح بقرب انتهاء الأزمة، الناس لا تمل، تسهر حتى الصباح، تحرس بيوتها وحوانيتها، وتقضي النهار في انتظار الخروج الكبير للباشا. تخرج النساء، تصنع الطعام، وتعد أنواعاً من الحلوى للمرابطين على المتاريس، ويبتهج الرجال، يتمنون لو طال الحصار حتى آخر العمر.

المحاصرون يبتكرون من الوسائل العجيبة لفك حصارهم ما جعل الناس تعجب بهم، مرة رأوهم مصادفة، وهم ينزلون من القلعة بواسطة سلالم من حبال صنعوها ليجلبوا الطعام والماء من بعض الأنحاء القريبة، فترصدوهم وهم عائدون، واصطادوا منهم عدداً، بينما استطاع الباقي الصعود بما أتوا به، ومرة أطلقوا بنادقهم

الكثيفة، وتحت ستار النار والدخان والتراب، تسلل منهم عدد إلى الجهة الأخرى طلباً للطعام، نجحوا في خروجهم، ونجحوا وهم عائدون. لكن المرة الأخيرة كانت عنيفة، فعلي باشا السلحدار أحد المناصرين الكبار للوالي استخدم المدافع والقنابل، وهدم البيوت القريبة، وأثار الذعر حتى ظن الناس أن الحصار سينتهي، لكنهم، بإرادتهم وقوة عزيمتهم استطاعوا أن يحسموا القتال في النهاية لصالحهم.

أكثر من شهر على الحصار ولا شيء يحدث حتى جاء نبأ من الإسكندرية أن صالح أغا الذي كان يعمل نائباً لإبراهيم بك قادم من الآستانة بخبر. تخمينات الناس كثيرة، وآمالهم تطول السماء، والرجل في رحلته من الإسكندرية إلى مصر تتبعه كل العيون، وترسل إلى المحاصرين أخباره حتى وصل قليوب، ثم باب النصر، وهناك ذهب الشيوخ لملاقاته، ولما أشيع ذلك، اجتمع الناس وطوائف العامة، وخرجوا من آخر الليل، وهم بالأسلحة والعدد والطبول، ووقفوا بالشوارع والسقائف للفرجة، وكذلك النساء والصبيان، وازدحموا ازدحاما زائدا، ووصل صالح أغا، وصحبته سلحدار الوزير إلى زاوية دمرداش، ونزلا هناك، وعمل لهما إسماعيل الطوبجي الفطور، فأكلا وشربا القهوة وركبا، وانجرت الطوائف والغوغاء من العامة وهم يضربون بالبنادق والقرابين والمدافع من أعلى سور باب النصر، واستمر مرورهم نحوثلاث ساعات.

وخرج لاظوغلي نائب محمد علي وأكابر الأرناؤود وطائفة كبيرة من العسكر وكثير من الفقهاء وأهالي بولاق ومصر القديمة والنواحي والجهات مثل: أهل باب الشعرية والحسينية والعطوف والرميلة وخط الخليفة والقرافتين والحطابة والحبالة، وكبيرهم حجاج الخضري وبيده سيف مسلول، ومعهم طبول وزمور والمدافع والقنابر والبنبات نازلة من القلعة، فلم يزالوا سائرين إلى أن وصلوا إلى الأزبكية، فنزلوا ببيت محمد علي باشا.

وحضر المشايخ والأعيان وقرأوا المرسوم الذي معه، ومضمونه الخطاب لمحمد علي باشا والي جدة سابقاً ووالي مصر حالا ابتداء من عشرين ربيع الأول (18 يونية 1805) حيث رضي بذلك العلماء والرعية. وأن أحمد باشا خورشيد معزول عن مصر، وأن يتوجه إلى الإسكندرية بالإعزاز والإكرام حتى يأتيه الأمر بالتوجه إلى بعض الولايات.

وبعد ثلاثة أيام في الجامع الأزهر، اجتمع الشيخ الشرقاوي والشيخ الأمير وغالب المتعممين، وقالوا: إيش هذا الحال؟ وما تداخلنا في هذا الأمر والفتن؟ واتفقوا أنهم يتباعدون عن الفتنة، وينادون بالأمان، وأن الناس يفتحون حوانيتهم ويجلسون بها، ويتقيدون بقراءة الدروس وحضور الطلبة، وركبوا إلى محمد علي وقالوا له: أنت صرت حاكم البلدة، والرعية ليس لهم مقارشة في عزل الباشا ونزوله من القلعة، وقد أتاك الأمر، فنفذه كيف شئت.

نظر إليهم محمد علي مسروراً بما يسمع، وأما السيد عمر مكرم، فقد جن جنونه بما فعل الشيوخ. كان ما فعلوه وبالا على أهل مصر، وسوأة من سوآتهم عانى منها المصريون كثيراً في الشهور التالية.

الفصل التاسع

استولى محمد علي على القلعة بعد أكثر من شهر ونصف من فرمان السلطان، ظل خورشيد باشا يماطل حتى الرمق الأخير. واضطر تحت الضغوط التي أتت إليه من كل صوب أن ينزل منها، ثم يرحل عن مصر.

الوقت كان ليلاً والقمر لا يكاد يبين، والظلمة حالكة برغم النجوم وصفاء السماء، كان يمتطي فرسه وهو صاعد إلى القلعة ووراءه أقرب رجاله الذين شاركوه حلمه في الوصول إلى هذه اللحظة. تجاوز الرجل وعصبته الباب الرئيسي، وعلى ضوء المشاعل تجول في دروب القلعة، وتفقد أجزاءها. دخلها قبل ذلك زائراً،

والآن يدخلها مالكاً. في هذه اللحظة تذكر عائلته في قولة، لم تغب عنه أبداً حتى في أشد لحظات صراعه قسوة، وحتى وهو ينسى همومه ومتاعبه في أحضان نائلة. نائلة برغم براعتها وشدة حبها له محظية لا تنتقل أبداً إلى أن تكون زوجة. أما الزوجة فهي أمينة، وأما الأولاد فهم إبراهيم وإسماعيل وطوسون. اشتاق إليهم. رسائله القليلة إليهم التي كان يمليها على لاظوغلي صديقه المقرب كانت هي الحبل السري الذي يربطه بهم، وأما حين تصل منهم رسائل، فإنها تطمئن قلبه وتهدئ من خواطره. كلف لاظوغلي أن يرسل من يثق به لإحضارهم بعد أن تيقن من وصوله إلى هدفه، والآن على عائلته التي تركها أكثر من أربع سنوات أن تلتئم معه لتبدأ في مصر حياة جديدة.

في ليلته الأولى ظن أنه سينام نوماً عميقاً، فإذا به لم تفارقه عادته. كان آخر من آوى إلى فراشه من عصبته وأول من استيقظ. تباشير الصباح الأولى تنسلخ من الليل الغافي، ونسمات منتصف الصيف الطرية في هذا الوقت من اليوم تداعبه، وهو واقف على سور القلعة يطل على مصر من الجهة الغربية. السكون يملأ المكان، ولا يرى من مكانه العالي إلا أفراداً قلائل خارجين من مساجدهم بعد صلاة الفجر، وتصل إليه أصوات الكلاب الهائمة ضعيفة، وتبدو مصر راقدة هادئة تستريح من عناء يوم سابق لتستقبل يوماً جديداً لا تدري من حوادثه شيئاً.

لمحه أحد الحراس في وقفته، فاقترب منه يعرض المساعدة. أشار له بيده ليبتعد، ثم أشاح بوجهه عنه. رأسه يغلي بالحوادث والأشخاص والأفكار، من أين يبدأ؟ وبمن يستعين؟ يدرك في هذه اللحظة أنه أمام واقع لا يستطيع تجاهله. فبرغم أنه يحكم باسم السلطان، فإنه في الحقيقة لا يسيطر إلا على أجزاء محدودة من مصر. هي التي في حوزته، وأما خارج مصر في البلاد القريبة وفي الصعيد وفي الإسكندرية، فليس له عليها أي سلطان. لكن مصر الآن هي الأهم، عليه أن يضبطها أولاً، ثم يفكر فيما هو خارجها. داخل مصر هناك فوضى يشارك فيها الجميع حتى جنوده أنفسهم، ولا حل إلا بأن يخرج الجنود من مصر، وهم لن يخرجوا إلا إذا أخذوا رواتبهم، اللعبة التي مارسها كثيراً مع الولاة السابقين عليه. عليه أن يجد طريقاً كى لا يقع في الفخ نفسه الذي أوقع فيه من قبله من الولاة. المال سيحل مشاكل مصر، والمال مع الناس، ومفتاح هؤلاء الناس مع السيد عمر مكرم الرجل الذي يجله كثيراً.

***

طلب محمد علي أموالا من تجار مصر، وكان هذا أول ما طلبه من الناس بعد ولايته.

***

حاولت رباب أن تبلغه بالخبر، فارادت أن يتم في مشهد مؤثر

وفي لحظة رائقة. كان راقدة في الفراش جالسة حتى انتهى من صلاة الفجر، وقبل أن ينزل إلى فناء البيت الذي خلا عليهم بعد أن انتقل بكر إلى بيته اعتدلت وأشارت له بأن يأتي ليجلس بجوارها. لم يفهم حسن، لكنه أطاعها وفي عينيه تساؤل. اقتربت منه، وهمست في أذنه تقول: الظاهر أنك ستصبح أباً. فاجأه الكلام، فاعتدل وهو يقول: هه، ماذا تقولين؟ أعيدي مرة أخرى.، أعادت وفي عينيها فرح: ستصبح أباً، ستصبح أباً، هل تحب أن أغنيها لك؟ احتضنها حسن وهو يقول: نعم، أحب أن تغنيها لي، وأن تعيديها مرة أخرى. اغرورقت عيناه بدموع تماسك حتى لا تنزل ولا تلاحظها، لكنها لاحظت، فمدت يدها لتمسحها، ثم تقبله.

اختلفا: من سيبلغ شَحتة بالخبر؟ فازت هي واستحلفته ألا يخبرها، امتثل حسن، لكنه وهو نازل مر على أخته في الحجرة المجاورة، فأيقظها وقال لها: رباب تريد أن تبلغك بشيء. كانت رباب وراءه، فقرصته وهي تقول: ألم تحلف لي؟ فقال: وهل قلت شيئاً؟

بكت شَحتة فرحاً، وبدأت تستفسر منها عن كل شيء، وتتيقن من أنها حامل فعلاً. ثم أخبرتها أنها منذ هذه اللحظة لا تفعل شيئاً في البيت، ولا تنزل السلالم وتصعد كثيراً، ولا تخرج إلا لحاجة، وأن تأكل جيداً، هي الآن تأكل لفردين، وما تهفو إليه نفسها سيأتيها قبل أن تقوم من مجلسها. ثم نظرت إلى حسن وقالت: أليس كذلك

يا حسن؟ رد حسن وهو يمازحها: والله هذا حسب مقدرتي وحسب ما في بطنها، فإن كان ولداً فسأفعل، قالت شَحتة وهي تصطنع الغضب: طب وإن كانت بنتاً؟ فكر حسن ثم قال: سأفعل أيضاً شرط أن تأتي شبه أمها.

***

أراد محمد علي الاستيلاء على الأموال الذاهبة مع قافلة المحمل إلى الأراضي الحجازية، فصالحه التجار على جزء منها، وذلك بعد ثلاثة أشهر من ولايته.

***

يشعر سليم بالإحباط وهو جالس أمام الدكان مع بكر، ينظر إلى الناس في الطرقات وإلى ما يفعله العسكر معهم فلا يرى أن شيئاً تغير. يقول في انفعال وهو يشير إلى جندي يطارد بائعاً يحمل قفصاً من الدجاج: انظر، ما الذي تغير؟ شهران على جلوس هذا الرجل في القلعة وهو لا يفعل شيئاً، أمن أجل هذا قمنا وخلعنا خورشيد باشا. يحاول بكر أن يهدئه، ويقول له: اصبر يا صاحبي، الرجل ورث تركة ثقيلة، ويحتاج إلى وقت، لا تحكم عليه بالنوايا، بل انتظر أفعاله.

ويأتي حسن ويخبرهم بما رآه أيضا في الطريق: لا أكاد أصدق

أن هذا هو الحال الذي تخيلناه ونحن نخلع الوالي، العسكر جن جنونها، لا أحد يردعهم، المصيبة أن بعض هؤلاء العسكر من أتباع محمد علي، فلمن نشكو؟

ويأتي أحمد وزياد، يقول زياد إنه سمع بأذنيه الناس وهي تسب وتلعن في الشيوخ الذين أحبطوهم وجعلوهم يتركون أسلحتهم، "لقد وصل بهم الأمر أنهم يدعون الناس لفتح الحوانيت، وحجتهم أن الحياة يجب أن تستمر، ولم تظهر أمارة من هذا الوالي على أنه قادر على ضبط الأحوال".

كان من راي حسن أن السيد عمر مكرم هو الآن المسؤول أمامنا وليس الوالي، وعليه أن يجد حلاً لما يحدث.

وفي بيت السيد عمر قال لهم: إنكم تتعجلون الأمور. الرجل وعدني خيراً، وهو يعرف جيداً مشكلات الناس، ولديه حلول واضحة حتى يقضي على هذه الفوضى، لكن التركة ثقيلة عليه وحده، لن يستطيع وحده أن يحملها، وعلينا أن نساعده.

رد حسن: كيف نساعده وهو لا يلقي بالاً لنا؟ هل فكر أن يستعين بأحد من أهل البلد؟ نحن نعرف مكانتك عنده، لكن من غيرك سيكون معه؟ وقال لهم السيد عمر: إنه سيلتقيه، وسيخبره بكل ما سمعه منهم، وسيحاول أن يختار من أهل البلد من يعاونه في ضبط الأمور.

***

بعد أسبوعين قرر محمد علي فردة على الناس من أجل العسكر، وحلف أنه لن يعود لمثلها.

***

تشعر جماعة محمد علي بأنها ملكت مصر الآن، عليها الآن أن تجني ثمار ما زرعت في السنوات السابقة، لاظوغلي وصادق أغا وحسن بك وتحسين يسكن كل واحد منهم في مكان في القلعة، لكنهم جميعاً لهم بيوتهم العامرة بالأسفل، في مصر، ولهم محظياتهم اللاتي جلبوهن من أصقاع العالم المعروفة لهم، برغم ذلك هناك إحساس بالدونية يظهر في حواراتهم. وبخاصة حين يأتي الحديث عن الأمراء المماليك. في مسامراتهم الليلية يحكي الواحد منهم ما رآه حين دخل بيت الأمير إبراهيم بك، أو حين التقى بالسيدة نفيسة زوجة مراد بك وما رآه من مظاهر العز والأبهة في بيتها. فخامة وثراء لم تخطر على بال الواحد منهم ولا في عالم الرؤيا. كلهم جاءوا من أصول متواضعة من قولة، كانوا من الأفاقين المتبطلين الذين أيقنوا أن قوتهم وشجاعتهم هي وسيلتهم إلى حياة أرغد، وحين طلب السلطان جنوداً تنضم إلى الحملة العثمانية التي ستطرد الفرنسيس من مصر، سارعوا، وظنوا أن غنائمهم في الحرب لو عاشوا ستضمن لهم حياة هنيئة معقولة، يعودون بعدها إلى قولة. والآن كل مصر أصبحت طوع بنانهم.

يتفاخر صادق أغا بزواجه من زوجة حسن بك الجداوي، الرجل الذي أبلى بلاء حسناً في مواجهة الفرنسيس، ثم مات في ظروف غامضة. يحكي عن تمنعها أولا، ثم هروبها منه والتجائها لبعض البيوت، وبرغم أن أباها من أعيان القوم، فإنه لم يستطع له دفعاً حين أرادها صادق، استسلم الأب لقدره وقدر ابنته التي ألقتها المقادير في طريق رجل يبدو حوشياً صعلوكاً فظاً قاسي القلب لا دين له ولا حياء ولا خشية ولا مروءة. دخل عليهم صادق أغا في الليلة التي عقد فيها الزواج وهو محاط بالخدم والأتباع والقواسة والسواس والمقدمون. شيء ما في كل الصورة بدا منفراً ومتنافراً. الرجل الذي يفترض أنه الأعلى مقاماً بين المحيطين به يبدو بينهم الأقل قيمة بحركته العشوائية وضحكه الماجن ونظراته النهمة والرذاذ الذي يتطاير من فمه بكثافة والبصاق الذي يلقيه في أي مكان، فلا يلقي بالاً للحاضرين، ولا يهتم بنظراتهم. لكنها القوة التي أوصلته إلى ما هو فيه. لم يكتف الرجل بالزوجة، بل سأل عن أملاكها وأملاك أبيها، وألح في سؤاله. ولم يستطيعوا له دفعاً، قدر الله الذي ابتلاهم به.

***

بعد ثلاثة أشهر أخرى طلب ضرائب السنة الجديدة برغم أن الناس لم تدفع ضرائب هذا العام بعد.

***

نظر الحاضرون بعضهم إلى بعض باستغراب وتساؤل، قال لاظوغلي لنفسه بعد أن استمع له: ما الذي يقوله هذا الرجل؟ ماذا يطلب؟ ولم يعلق أحد انتظاراً لكلمة محمد علي الذي اعتدل في جلسته وهو يقول للسيد عمر مكرم: يا والدي، أنا أقدر ما تطلب، لكن هناك تعقيدات كثيرة تمنع الآن من تلبية ما تقول. رد عمر مكرم بصوت هادئ: ما الذي يمنع أن يكون بجانبك واحد أو أكثر من أهل البلد؟ أليسوا هم من ساعدوك ونصروك حتى وصلت إلى هنا؟ رد محمد علي: ليسوا وحدهم، بل سيفي هذا وقوتي ورجالي أيضاً، مع ذلك، فأنت معي، وإن شئت عينتك نائباً لي، تتولى أمور البلاد في غيبتي. قال السيد عمر: أنا لا أصلح لهذا، سني الآن يقترب من الستين، أنت تحتاج إلى شباب في مثل عمرك وهم كثر، وإن شئت أدلك عليهم. قال محمد علي: أنا لا أستغني عنك ولا عن نصائحك. وسأرى ما يمكن عمله في الأيام القادمة.

وبعد أن خرج عمر مكرم، قال لاظوغلي: ما الذي يقوله هذا الرجل؟ هل فعلا ستستعين بأهل البلد معك.

رد محمد علي: ومن قال لك إني سأفعل، ألم تعاينهم وترى أفعالهم، هؤلاء قوم أقرب إلى البرابرة الوحوش، يحتاجون وقتاً حتى يصبحوا من البشر الذين نراهم في فرنسا وانجلترا وإيطاليا وحتى في قولة. مهمتنا الآن أن ننقلهم إلى مستوى البشر، ثم نرى

بعدها بمن نستعين بهم في إدارة شؤون الحكم.

رد صادق أغا: لكني لم أفهم سر اللين الذي كنت تحدث به هذا الشيخ.

قال محمد علي يداعبه: هذا هو الفرق بيني وبينك، أنت أحمق، تظن أن قوتك وحدها توصلك إلى كل شيء، أما أنا فلا ألجأ إلى القوة إلا إذا أعيتني الحيلة، لماذا أقتل بيدي إذا أمكنني أن أقتل بيد غيري. تعلم يا جاهل. ضحك صادق أغا وضحك معه الحضور، وبان لهم في حضورهم مع محمد علي أن أيامهم السعيدة مع هذا الرجل ستطول بأكثر مما ظنوا.

***

وبعد شهر آخر أراد محمد علي الاستيلاء على قوافل التجار القادمة إلى السويس، فصالحوه على مقدار من المال.

***

لا تنقطع زيارات توحيدة ولا فاطمة عن بيت شَحتة، عادوا مرة أخرى إلى الزيارات الأسبوعية التي كان حسن يصر عليها في الأيام الخوالي، لكنها الآن ذات مذاق مختلف، صاحبة البيت أقرب إليهم، تشع بهجة وهي تستقبلهم وهي تقدم لهم الطعام، وهي تؤانسهم بما يحبون، وتزداد البهجة بحضور بعض من أهلها: أمها

وأخواتها. يترك لهم حسن البيت يتملكونه بما يشاؤون، وتغني رباب وتغني أحياناً أمها ذات الصوت العذب أيضاً. تحاول توحيدة أن تتجنب النظر إلى بطن رباب الذي بانت ملامح الحمل فيه، يؤلمها ما ترى، وتتمنى أن تكون هي، لكنها مقادير الله التي تأتي لمن يشاء. استطاعت في أيامها الأولى بعد أن وضعت فاطمة مولودها أن تتجاوز ألمها برغم أن بكراً لاحظ هذا. أراد أن يواسيها على طريقته، فلم يتكلم، بل ازداد قرباً منها وإيثاراً لها، وفهمت هي رسالته، فصمتت، لا تلوم نفسها، ولا تلوم فاطمة، هي التي اختارتها زوجاً لزوجها، لكنها لم تكن لتظن أبداً أن هذا الزواج سيثمر عن غلام، عليها أن ترضى.

استطاع حسن مع سليم أن يرتبا الأمور المالية بحيث يحفظا للغائب الحاضر بينهم: عبد العال أمواله، أوكلوا لحسن هذه الأمور، ثم اتفق حسن مع سليم على أن يأخذ بكر نصف أرباحهم، ويقتسمان هما النصف الباقي، ويستمر هذا الاتفاق حتى تسديد كل أموال عبد العال، ثم يعودون إلى القسمة الثلاثية.

يتعجب حسن كيف صمدت هذه الصداقة بينهم كل هذا العمر. كيف استطاع تجاوز خلافات الأفكار بينه وبين بكر، وكيف استطاع استيعاب الجموح الظاهر من سليم في كثير من الأحيان. رد ذلك إلى الزمن وحوادثه، لقد شهدوا جميعاً حوادث يشيب لهولها

الولدان، وتجاوزوها بمعجزة من السماء، بل المعجزة الأكبر أنهم بقوا على قيد الحياة برغم الأوبئة التي مروا بها، والقحط الذي عانوه أغلب سني حياتهم، والرعب الذي أحاط بهم في كل لحظة وفي كل ركن وما زال يحيط. حمد الله وشكره، وهو يدخل مع بكر إلى بيته في هذا اليوم الشتائي المشمس، كانوا قد صلوا الجمعة، ثم عادوا ليتناولوا طعام الغداء في بيت حسن. وحين يدخلون، فإن حركة النساء تهدأ والأصوات فيه تخفت، فهناك رجال في البيت.

***

نزل محمد علي وصحبه من القلعة يترصدون راكبي الحمير، فيأخذونها منهم عنوة قائلين إنها للعسكر.

***

وصل إبراهيم وطوسون ابنا محمد علي إلى بولاق آتيين من قولة، وكان الوقت ظهراً. منذ أن علم محمد علي بوجودهما قريبين منه وهو يشعر بتوتر وفرح. حاول أن يداري، فلم يستطع، اختلى بنفسه في حجرته ريثما تهدأ خواطره، ويخرج إلى رجاله مهيباً مطاعاً. تسابق أغوات الباشا لاستقبال الابنين، أعدوا لهما ما استطاعوا من مظاهر الفخامة، وسيماء العز من مكان نزولهما في نيل بولاق حتى وصولهما إلى بيت الباشا في الأزبكية.

الولدان في عجب مما يشاهدان، فمنذ خروجهما من قولة حتى وصولهما إلى بولاق وهما يسمعان من المرافقين الذين تبدلوا طوال الطريق قصصاً كثيرة عن أبيهما وعن شجاعته وحصافته وقوة بأسه وحكمته وبعد نظره. ما رأياه هنا تجاوز الخيال. ظلا صامتين طوال المسافة من بولاق حتى الأزبكية، يشاهدان أهل البلد الذين لم يكترثوا بالمشهد، فأداروا له ظهورهم، لا يعرفون من هؤلاء، ولأي شيء هذه الجلبة. مظاهر معتادة من جماعة الحكم الجديدة في مصر التي جاءت تحلب منها لبنها الذي لا ينقطع. لهفة الولدين زادت والمرافقون يشيرون لهما بقرب وصولهما إلى قصر أبيهما. أبوهما الذي تركهم تاجراً للتبغ، والآن هو حاكم لأكثر ولايات الدولة العثمانية خصباً.

على سلالم القصر كان واقفاً ينتظر دخولهما من الباب، بمجرد أن خطا طوسون إلى الداخل ورأى أباه جرى ناحيته، ثم تعلق به وهو يقبله بينما أغوات الباشا واقفين على مسافة منه يرقبون، وحين انتهى طوسون جاء دور إبراهيم الذي احتضن أباه وقبله، أمسكه محمد علي من كتفه في فرح وهو يقول: كبرت يا إبراهيم، تركتك في سن هذا الولد وأشار إلى طوسون، والآن أنت.... بسم الله ما شاء الله. طوسون ظل لصيقاً بأبيه لم يفارقه حتى دخلا حجرة محمد علي، وبعدها أغلق الرجل الباب دون رجاله الواقفين طوع

بناته. سألهما عن أمهما، وعن ماه دوران، وعن إسماعيل والبنتين، واطمأن على الجميع فقرت عينه.

ساعات قضاها محمد علي مع ابنيه حتى جن الليل، ووقتها سمع أصوات مدافع وصواريخ بالخارج أطلقها رجاله ابتهاجاً وفرحا بقدوم الابنين. وقبل أن يذهبا إلى فراشهما الذي أعدته نائلة لهما قال محمد علي لابنه إبراهيم بحزم ظاهر وجد أظهر فيه لحظتها وجه الحاكم: أنت الآن يا إبراهيم في السادسة عشر من عمرك، أي أنك أصبحت رجلا يمكن الاعتماد عليك، ستنام هنا اليوم، لكن بدءا من الغد ستصعد إلى القلعة لتكون معي في مقر الحكم، أريدك أن تراقب وتهتم بكل شيء لأني سأعتمد عليك كثيراً في الأيام القادمة.

***

في أول الشهر فرض على البلاد أن يمدوا العسكر بالقمح والفول والشعير، وفي آخره فرض فردة على جميع الناس، وسلفة على الملتزمين والتجار، وفي الشهر الذي يليه فرض فردة أخرى.

***

وضعت رباب مولودها الذكر، فأشرقت الأرض بربيعها، وازدهرت أشجارها فتمايلت وطربت على صوت رباب الشجي،

وهي تهدهد طفلها، وتلاعبه كي ينام. اختار له حسن اسم أبيه خليل فبكت شَحتة، وتذكرت أمها رتيبة. قبل السبوع بيومين جاءت توحيدة وفاطمة، وعاد البيت مملكة للنساء مع وجود أم رباب وأختيها. وقضى حسن أغلب اليوم مع سليم وبكر. صنعت النسوة المفتقة والكشك واللبابة والحلبة، وأرسلن منها أطباقاً للأهل والجيران.

وفي يوم السبوع، جاء مقرئ في الصباح يتلو القرآن، وفي المساء جاءت العوالم بتحريض من أم رباب فغنين مع جماعة من الآلاتية، ثم جاءت القابلة، فأجلست رباب على كرسي الولادة أملاً أن تعود إليه مرة أخرى، ثم حملت الطفل ملفوفاً في شال من الحرير، وبدأت امرأة تدق الهون بجوار أذن الطفل الذي وضعوه في منخل، أم رباب التي كانت تحمل المنخل بدأت تهزه وتدور في الحجرة، ثم أخذوا الطفل إلى حجرة المنضرة التي ازدحمت بالنساء، وهناك داروا به ووراءه الصبية والبنات يحملون شموعاً مختلفة الألوان. أما شَحتة فكانت ترش الملح في كل مكان ومعه حبة البركة وهي تقول "الملح في عين اللي ما يصلي على النبي"، وترد الحاضرات "اللهم صل على سيدنا النبي". عاد الطفل إلى أمه، التي بدأت تستقبل النساء اللاتي وضعن "النقوط" في منديل قريب من رأس "خليل".

***

ازداد غي العسكر، وجاهروا بالفحشاء، وتمادوا فعادوا إلى خطف النساء والأطفال وبيعهن. كما زادت الأسعار، وشح الغذاء، فلقي الناس من أمرهم عنتاً.

***

عداوة محمد الألفي لعثمان بك البرديسي لم تنسه خطر محمد علي وطريقة استحوازه على بر مصر. أرسل مكاتبات كثيرة للسلطان يستعطف ويرجو ويحذر ويشير إلى الفوضى الضاربة. رجال السلطان في الآستانة الذين حقدوا على محمد علي طريقة توليه أمور مصر ضخموا الأمور لدى السلطان، فأرسل قبودان باشا بمكتوب يعزل فيه محمد علي عن الولاية ليتولى ولاية سالونيك، وأن يتولى موسى باشا بدلا منه.

علم محمد علي بالأمر وهو ببيته بالأزبكية، كان قبودان باشا مازال بالإسكندرية في الطريق إلى مصر. أخذ فرسه، وصعد إلى القلعة ليجتمع برجاله اجتماعاً طارئاً. أخبرهم بما لديه وطلب رأيهم، فبدوا جميعاً في حيرة. كلهم بدأوا يجنون ثمار ما زرعوه، الأراضي الشاسعة والنساء الجميلات والبيوت الفخمة والأتباع والخدم والهيلمان الذي لم يخطر لأي منهم في خياله، سيتركون كل هذا ويذهبون إلى المجهول في سالونيك. كلهم رفض الذهاب، لكن لم تتبلور في ذهن أي منهم خطة لمواجهة هذا التهديد بالعزل.

محمد علي وحده كان يعرف ما ينبغي عليه أن يفعله، أخبر رجاله أن عليهم أن يستعدوا لمواجهة المماليك وبخاصة أتباع محمد الألفي الذي يثير القلاقل في البلاد البحرية في المنوفية والقليوبية ودمنهور ووصل شره إلى المناطق القريبة من مصر. اما هو فسيحاول أن يكسب الوقت مع قبودان باشا، "سأرى معه أمري. هناك شيء آخر علي أن أقوم به بنفسي".

نزل محمد علي من القلعة ووصل إلى بيت السيد عمر الذي فوجئ بالزيارة غير المتوقعة. أخبره الرجل بخبر العزل، فانزعج عمر مكرم، وفي لهجة ودودة سأله إن كانت الشيوخ وعامة الناس ستسانده هذه المرة مثلما ساندته سابقاً، فطمأنه السيد عمر وقال له: أنت اختيارنا الذي قاتلنا من أجله، ولن نوافق أبداً على ما أتى به قبودان باشا. لكن ما الذي علينا أن نفعله معك الآن؟ أخبره محمد علي أنه يحتاج إلى من يستطيع حمل السلاح من أهل البلد لصد المماليك ودفع أذاهم عن مصر، "فإذا استطعنا دحرهم ومنعهم من الفوضى، فلن يكون في مقدور قبودان باشا أن ينفذ ما جاء من أجله".

وبإخلاص حقيقي حث السيد عمر الناس على الوقوف مع محمد علي والخروج معه لمحاربة المماليك المنتشرين في كل مكان.

حققت جنود محمد علي انتصارات في أماكن، واستطاع أتباع

محمد الألفي هزيمته في أماكن أخرى، استغل أتباع عثمان البرديسي الأمر، فهاجموا عسكر الألفي في دمنهور وحول الإسكندرية، وقبودان باشا يرقب الموقف ويتعجب من الأوهام التي باعها الألفي لرجال السلطان.

محمد علي يراسل قبودان، ويظهر له الامتثال والاستعداد للذهاب إلى سالونيك، بينما كان يدبر أمراً آخر. طلب من لاظوغلي أن يحضر له من يتقن العربية، ولما جاءه الشخص جلس ليملي عليه عرضحال على لسان الشيوخ مؤداه أن محمد علي باشا كافل الإقليم وحافظ ثغوره ومؤمن سبله وقامع المعتدين وأن الكافة من الخاصة والعامة والرعية راضية بولايته وأحكامه وعدله. والشريعة مقامة في أيامه ولا يرتضون خلافه لما رأوا فيه من عدم الظلم والرفق بالضعفاء وأهل القرى والأرياف....وأما الآن فجميع القطر المصري مطمئنون بولاية هذا الوزير ويرجون من مراحم الدولة العلية أن يبقيه والياً عليهم ولا يعزله عنهم. ثم طلب منه أن يكتب كل أسماء الشيوخ أسفل العرضحال.

أخذ لاظوغلي العرضحال فقرأه الشرقاوي والأمير فقط، وطلب منهما أن يكتبا بخط اليد اسميهما على العرضحال بجوار كل اسم وأن يضعا أختامهما، ثم طلب من بقية الشيوخ أن تفعل ذلك دون أن تقرأ العرضحال. امتثل بعض الشيوخ، بينما امتنع بعضهم الآخر.

عاد لاظوغلي بالعرضحال إلى محمد علي، فطلب أن يوقع أحد بدلا من الشيوخ الممتنعين في أماكنهم، وأن يضعوا أختاماً شبية في أماكن التوقيع. وصل العرضحال إلى قبودان باشا فتراجع عن عزل محمد غلي وأبقاه والياً على مصر، لكنه طلب منه أن يذهب بنفسه ليستعطف السلطان كي يبقيه والياً، فارسل ابنه إبراهيم ومعه صديقه لاظوغلي.

الفصل العاشر

لا يدري حسن سر الانقباض الذي يشعر به كلما هم بالخروج من البيت. ستة أشهر مرت على مولد خليل فأصبح يستحوذ عليه، يقضي معه الساعات فينسي نفسه، وينسى صلاته، بل ينسى رباب نفسها. اكتشف في نفسه حباً للأطفال كان غائراً في أعماقه، كأنه لم ينجب من قبل، وكأنه يكتشف أبوته للمرة الأولى. هوى استأثرت بمحمود، ومنعته، بل منعت شَحتة من الاقتراب منه في سنيه الأولى، فكان الولد ابن أمه، لم تتركه إلا بعد أن تفتحت مداركه، واستوعب العالم، ووقتها وجد أحضان عمته في انتظاره التي أفاضت عليه من ينبوع عواطفها وشغفها بفيوض لا تنضب. وأما هو فقد أحبه لأنه ابنه ولأنه ابن هوى معشوقته وكفى.

العالم خارج البيت هو هو، الوجوه الحزينة في الطرقات، والشكوى المتزايدة من عسف العسكر وظلم الباشا الجديد، والأحاديث الكثيرة عن غلاء الأسعار وقلة الموارد. "وكأننا لم ننتفض، وكأننا لم نخلع الوالي القديم، تغيرت الوجوه، لكن الأحوال كما هي". كل ما في خارج البيت يشعره بالكآبة. كان يمني نفسه بالحصاد، فإذا وجوه غريبة وحشية كابية ترتع وتمرح وتستولي على أحلامهم وتحصد أحلى ما زرعوا وتترك لهم بقايا من الخيبة والإحباط واليأس والقهر. ترن في أذنيه دائماً كلمة رباب "كيف تزرعون ويحصد غيركم" كانت نبوءة آتية من عالم الواقع، وقراءة فطرية لمشهد لم يحسنوا قراءته، استغرقتهم اللحظة والآمال الكبيرة، فنسوا توابعها واللصوص المتربصين بها والمنتظرين للثمرة أن تسقط في حجورهم دون عناء.

اليأس خيانة والركون إلى الدعة تضحية بدماء الذين ماتوا كي يصعد هذا الباشا إلى القلعة. الذين سهروا والذين باعوا القليل الذي يملكونه ليشتروا السلاح والطعام لمن يستطيع أن يواجه. لا تفارقه صورة هذا الرجل البائس الذي ترك ثوبه لديهم. "ما الذي نقوله لهؤلاء إن سألونا".

وحين يعود إلى بيته يشعر بالراحة، لا يريد الخروج، يستغرقه خليل ومداركه تتفتح، ونظراته وضحكاته التي يخصه به حين يطل

عليه، ويده الصغيرة التي تتعلق به حين يهم بترك الحجرة، وبكائه بلا سبب ظاهر، وساعتها يلاعبه، ويحمله، ويناغيه، ولا يهدأ له بال حتى يسكت. وحين يسكت تعود إليه روحه، ويسكن قلقه.

***

شرع الباشا في تقرير فردة عظيمة على البلاد والقرى والتجار ونصارى الأروام والأقباط ومساتير الناس ونساء الأعيان والملتزمين، وقال إنه سيردها إلى أصحابها بعد ستة أيام. ولا صحة لذلك.

***

آخر ما تصوره محمد علي من السيد عمر مكرم أن يأتي إليه ليشكو من الشيخ الشرقاوي.

- لا أشكوه لمسألة شخصية، فأنا قادر على تدبر أمري معه، إنما هناك ما يريب في طريقة تعامله مع أوقاف الأزهر، وما يأتي إلى طالبي العلم من أراضي الرزق. أنت وحدك القادر على كبح جماحه وردعه وإيقافه عما يفعل. الشيخ الشرقاوي في نهاية الأمر يمثل الأزهر، وأفعاله تحسب على الجميع.

أنصت إليه جيداً، وسايره أحياناً فيما يقول، وأظهر له احتراماً وتوقيراً حقيقياً، لكن لم يعده بشيء. قال له في نهاية اللقاء إنه سيتدبر الأمر، وسيرى ما يمكن عمله في هذه المسألة.

انشغل محمد علي في الأيام التالية بمسألة الشيخ الشرقاوي، استدعى بعض الشيوخ مثل محمد الدواخلي وسعيد الشامي، وسألهم، فأفاضوا في ذكر القصص عن فساد الشرقاوي وسوء طويته وحقده على بقية الشيوخ. استخدموا كلمات في وصفه لا تليق. ونعتوه بأقبح الصفات. ودللوا على ما يقولون بأوراق وأشخاص شهدوا جزءا من وقائع فساده.

لم يطمئن محمد علي إلى ما سمعه، فأراد أن يتحقق. كلف صادق أغا وبعض معاونيه أن يتتبعوا الشرقاوي، ويرصدوا ثروته وأملاكه من البيوت والأراضي في داخل مصر وخارجها، وأن يتبينوا طريقة تعامله مع طلاب الأزهر ومجاوريه والمستفيدين منه، فلم يأت هؤلاء بخبر يقين عن وقائع فساد محددة تدين الشرقاوي إدانة صريحة. وكاد ينتهي إلى طي الموضوع برمته، لولا أنه أعاد التفكير فيه. "عمر مكرم لا يشكو أحداً إلا إذا كانت لديه أسباب حقيقية للشكوى، وبرغم أني لست متأكداً من صدق ما قال، فإنه رجل لا يمكن خسارته". شغلته قضية الشرقاوي أياماً، ونبهته إلى أمور بين الشيوخ لم يرها على حقيقتها إلا مع هذه الشكوى، لقد كان يحسبهم جميعاً، فإذا قلوبهم شتى.

– في كل الأحوال خسارتنا للشرقاوي أهون من خسارتنا لعمر مكرم، عليك يا لاظوغلي أن ترسل الترجمان بأمر مني للشيخ الشرقاوي بلزوم داره، فلا يخرج منها ولا حتى

لصلاة الجمعة، حتى أقضي في أمره بما يستحقه.

لم يجد الشيخ بداً من أن يمتثل للأمر بعد أن حاول أن يطلب لقاء الباشا، وأن يتوسط له أحد عنده، فلم يرض الباشا، ولم يجد له ناصراً.

***

وجاء شهر شعبان، وفيه شرعوا في تقرير فردة على البلاد أيضاً.

***

ذهب بكر وسليم إلى صنصفط، القرية التي تركوا فيها الجزء الأكبر من الورق، فعادوا بغير الوجه الذي ذهبوا به. حذرهم في الذهاب لم يمنع قدرهم في المجئ. يعرف سليم جيدا مخاطر الطريق، وترصد العسكر، وفوضى المماليك وبخاصة أتباع محمد الألفي، وبرغم هذا لم يكن أمامه ولا أمام الثلاثة إلا الذهاب لإحضار الورق، ما لديهم نفد، وكذلك ما تركوه في بولاق. أراد سليم أن يعود عن طريق النيل، فلم يجد مركباً تقله. فاتفق وبكر على أن يعودا براً. استأجر عدداً من الرجال الذين يعرفون الدروب وكيفية تفادي الكمائن التي ينصبها العسكر والمماليك للقوافل في الطرقات بين المدن. سارت القافلة كما أحبوا حتى وصلوا قريباً من شبرا، وهناك خرج عليهم جماعة من العربان الذين لا يعرفون من أين أتوا، فهذه

ليست مناطق نفوذهم ولا ترصدهم للناس. دارت مناوشات بين الطرفين قتل فيها شخص من جماعة سليم وبكر، وشخص آخر من العربان، وجرح سليم نفسه برصاصة طائشة أخطأت جسده، فأصابت ذراعه الأيسر. وفرت العربان بنصف الغنيمة.

أوصل بكر سليم إلى بيته أولاً، ثم ذهب بالورق إلى حسن، فحكى له ما حدث. أدخلا الورق في المخزن القريب من الدكان، ثم جلسا يستعيدان الوقائع، ويتدبران الأمور.

– المشكلة الآن، لمن نشكو؟ قال بكر بأسى

رد حسن: عام ونصف تقريباً على تولي محمد علي والأحوال كما هي، بل ربما ازدادت سوءاً، حتى الشيوخ الذين كنا نلجأ إليهم أصابهم ما أصاب غيرهم من الفرقة والتنازع.

– هل نذهب إلى عمر مكرم؟ الرجل الآن هو ملاذنا الأخير وبخاصة أن علاقته وثيقة بالباشا.

قال حسن: وماذا سيفعل عمر مكرم؟ بل ماذا سيفعل الباشا نفسه؟ رأيي أن نلتقي بحجاج الخضري وإسماعيل جودة وأحمد وزياد، نذهب جميعاً إلى سليم، نطمئن عليه، وهناك في بيته يمكن أن نجد حلاً.

وفي بيت سليم بعد يومين، وجدوا إصابته سطحية، فحمدوا الله

على سلامته، بادرهم حجاج: لا بد أن نكون من أنفسنا جماعات تحمي الناس، وتمنع أذى كل هؤلاء.

رد سليم: وهل تظن الباشا سيوافق على هذا؟ ألا تعتقد أنه سينظر بريب إلينا إن فعلنا. لا بل لن يجعلنا نقوم بهذا أبداً.

قال حسن: سمعته وهو يتحدث إلى السيد عمر حين طلب منه أن يستعين بالناس، قال له: ليس على أهل البلد حمل السلاح ولا القتال، عليهم فقط أن يدفعوا رواتب الناس ويعطوهم أثمان علائف حيواناتهم.

قال زياد بحماس: أرأيتم؟ هذا رجل لا يُؤْمَن جانبه، ولن نذعن له.

قال بكر: وماذا في أيدنا أن نفعل؟ لو واجهونا بأسلحتهم

قال حجاج: نموت، ولا نحيا هذه الحياة. وبعد أخذ ورد انتهوا إلى أن يعرضوا الفكرة على السيد عمر، فالرجل لم يظهر منه ما يشين حتى الآن.

انصرفوا، وذهب حسن في اليوم التالي يخبر عمر مكرم بما اتفقوا عليه، فانزعج انزعاجاً شديداً، وطلب أن يلتقي بكل الجماعة في بيت سليم لعله يستطيع أن يثنيهم عن أفكارهم.

***

طلب الباشا من السيد عمر مكرم أربعمئة كيس يجلبها من التجار ومساتير الناس، فلم يمكنه التخلف ولا التباعد عن ذلك.

***

أصبح الألفي صداعاً في رأس محمد علي، لا يدري ماذا يفعل معه، وهو يحاصره في المناطق خارج مصر، ويحصر نفوذه داخلها. الألفي باتفاقه مع الإنجليز أصبح أقوى، وبدلا من تمركزه في المناطق القريبة من الإسكندرية، فإنه انتقل بقواته حول مصر، ومع قرب وصول الإنجليز، فإن ثقته في نفسه ازدادت.

شعر محمد علي بالخطر، وبخاصة أن الألفي التف بقواته حتى وصل إلى قناطر شبرامنت القريبة من الجيزة. جمع قواده وأزمعوا على ملاقاة الألفي هناك، فاقترابه أكثر من مصر يعقد من مهمتهم، ويكلفهم مزيداً من الأرواح.

ظن الرجل وقد عاين المماليك من قبل أن انتصاره على الألفي محتم، فإذا به يفاجئ بقوات هائلة وجيش كثيف، لفت نظره طريقة تنظيم الألفي لجيوشه التي رتبها على هيئة عساكر الفرنسيس بطوابيرهم المميزة وطبولهم التي خلعت قلوب عسكر محمد علي.

الباشا واقف بجيوشه ينظر إلى قوات الألفي بعينيه تارة، وتارة بالنظارة ويتعجب. ماذا يفعل مع هذا الجيش الكبير، وقواته قليلة

وأسلحته لا تقارن بأسلحة جيش الألفي. أعيته الحيلة، وهو يفكر في طريقة ينتصر بها على الألفي دون قتال. دار وسط جنوده يستحثهم، ويشجعهم على القتال، فوجدهم في حالة من الرعب. صاح فيهم كي يتقدموا لمحاربة الألفي، فلم يتقدم أحد، ولم يبالوا بغضب الباشا. لجأ محمد علي إلى الإغراء، فقال لهم: سأعطيكم ضعف ما تأخذونه من راتب لو تقدمتم. فلم يستجب أحد. زاد في إغرائه وعرضه، فبدأ الجنود ينسحبون من حوله عائدين من حيث أتوا، ولسان حالهم يقول: اذهب أنت وقوادك فقاتلوا الألفي، إنا إلى مصر راجعون.

عاد محمد علي إلى القلعة بشعور من الخزي لم يعاينه في حياته. ظل صامتاً طوال الطريق، وقبل أن يصعد إلى القلعة نبه على صادق أغا أن يشيع في الناس أن الألفي وجنوده هربوا من أمام جنودنا، ولو كنا طلناهم لفتكنا بهم.

في اليوم التالي خرج هو وعسكره إلى بولاق، ثم تجاوزها إلى المناطق القريبة منها في الريف، أخذوا المواشي من الناس، بل أخذوا النساء والبنات والصبيان، ودخلوا بهم إلى بولاق ومصر، وباعوهم فيما بينهم من غير خشية كأنهم سبايا من الكفار.

حبس محمد علي نفسه في القلعة يومين يفكر فيما سيأتي، ويدبر أمره لو استطاع الألفي دخول مصر والاستيلاء على القلعة، ماذا

سيفعل؟ وأين سيذهب؟ لكن الأقدار كانت تخبئ له ما لم يخطر له في أحلامه.

جاءه بعض الأعراب، وأخبروه أن الألفي مات بعد وصوله إلى دهشور بيوم واحد، تقيأ دماً في الليل، وفي الصباح وجدوه ميتاً. لم يدر محمد علي وقتها ماذا يفعل. انتظر حتى تيقن من الأمر. قال لخلصائه: "الآن ملكت مصر". جملة أفلتت منه على غير ما أراد، لكنها كشفت مدى قلقه من وجود الألفي على قيد الحياة. كافأ من أخبره بكل ما تمنى، ثم نزل بنفسه إلى وسط المدينة يبلغ القوم بموت الألفي، والناس لا تصدق الباشا، وتظن ذلك من مكايده الكثيرة.

***

يعيث المماليك فسادا في القرى المحيطة ببولاق فيخطفون متاع الناس، ومبيعات الفلاحين.

***

شيء ما في الروح تعكر. يمر النهار حتى الظهر فلا يتكلمون إلا قليلاً. عاد بكر إلى قوقعته، فصمت، وعاد سليم إلى نظراته الزائغة وعبثه مع الباعة الجائلين ليتجنب الخوض مع صديقيه فيما وصلوا إليه. وحسن منهمك فيما ينسخ، لا يشغله عما يفعل إلا

دخول أحدهم ليشتري أوراقاً للقاضي أو للملتزمين أو للمحتسبين الذين يملأون الدنيا ويشغلون الناس. يعود حسن إلى استرجاع كل الوقائع التي أوصلتهم إلى ما هم فيه. "أين الخطأ فيما فعلنا؟ ألم نجازف بخروجنا على سلطة الدولة ونخرج لنطالب بخلع الوالي؟ أليس من حقنا أن نفعل والرجل وحاشيته يسوموننا كل أنواع الظلم؟ فمن أتى ليحكم؟ الرجل الذي اختار له الناس سريعاً لقب "ظالم باشا". لم يحمله وال ممن سبقوه برغم ما ارتكبوه من موبقات. لكن هذا تفوق عليهم. هل يمكن أن يخطئ حدس الناس في الرجل؟ ألم يشاهدوا وقائعه ومكره وخداعه وتنصله من كل وعد؟ يكسب هذا الرجل كل يوم أرضاً جديدة في الطريق إلى تمكينه من كل مفاصل مصر. لا يبدو مهتماً بالبشر. لا يعنيه الناس، أهل البلد الذين يزدريهم، ويعاملهم باحتقار لا يستحقونه. يتذكر حسن ما أخبره به أحدهم عن وصول واحد من أسافل القوم في الآستان. أنزلوه في منزل أحد التجار بأتباعه وخدمه ومتاعه، واختاروا له أفضل جزء في البيت ليسكن فيه، وكان هو الجزء الذي يسكنه صاحب البيت نفسه، اضطروه أن يتنازل عنه لهذا الرجل المجهول، كما ألزموه بمصروف الرجل وكل ما يشتهيه هو وأتباعه. قالوا له: نحن نمن عليك بنزول هذا الرجل في بيتك، فاحمد الله أنك أنت الذي نلت هذا الشرف دون الباقين. مكث الرجل شهوراً في بيت التاجر يأمره وينهاه وكأنه هو صاحب البيت. وفي النهاية جاءت رسل من طرف

محمد علي تطلب من التاجر أن يقدم لهذا السافل هدايا قبل أن يسافر حتى يثني على الباشا، ويذكره بالخير عند مولاه. أقضية يحار العقل والنقل في تصورها.

فجأة عند العصر صاح سليم وكان جالساً على كرسي أمام الدكان عاقداً يديه خلف رأسه: هل انتهينا؟ هل ضاع كل ما فعلنا هباء؟ أكاد أجن وأنا أرى أحوال الناس أسوأ مما كانت. الناس في الطرقات تترحم على زمن الفرنسيس وأحكامهم، لم يفعلوا بنا ما فعله هذا الرجل في أقل من سنتين. يقولون: "ولا يوم من أيام الفرنسيس". رد بكر في جملة مقتضبة وكان جالساً على الأرض بجواره: هي مشيئة الله. جملته استفزت سليم فعلا صوته أكثر: وهل الظلم من مشيئة الله؟ اتق الله يا رجل. حسن الذي كان يتابع من الداخل وهو منهمك في النسخ بدأ يفكر في كلام سليم ورد بكر. "مشيئة الله، ماذا تعني هذه العبارة؟ هل هي حل للأوضاع السوداء الآن؟ وماذا إذا قلنا "إنها مشيئة الله" في كل مصيبة نقابلها؟ ألا يعني هذا أننا نتنصل من مسؤوليتنا ومن قدرتنا على الفعل؟ أليست هي حالة من الهروب والعجز عن المواجهة؟ وأليس من مشيئة الله أيضاً أن نواجه ونرفض ونقول كلمة الحق في وجه هذا الوالي الظالم؟"

خرج حسن إليهم ليقول كأنه يستأنف بصوت عال ما كان يفكر

فيه: لا بد أن نجد حلاً، ولا حيلة لنا الآن إلا أن نقابل السيد عمر مكرم، فمن منكم يذهب معي؟ لم يرد بكر، أما سليم فقال: اذهب وحدك يا صاحبي، هؤلاء الشيوخ لا فائدة منهم.

***

وصل الإنجليز إلى الإسكندرية، وكان محمد علي في الصعيد يحارب المماليك، فأصابه الهلع. كان ظنه أن معركته مع المماليك هذه هي المعركة الأخيرة، ثم يخلو له وجه مصر بعدها، فإذا به أمام طارئ خطير قد يودي بكل أحلامه في الاستئثار بالسلطة. وصلته أنباء عن تحالفات الألفي مع الإنجليز، والآن فإن الألفي مات، فلماذا هم قادمون، وماذا هم فاعلون؟ قدومهم يعني أن هناك حلفاء جدد لهم على أرض مصر. وإذا صح هذا فإن مكانه في القلعة يتضعضع.

وأما عسكره الموجودون في مصر، وغيرهم من العسكر فقد داخلهم وهم كبير. فقد استطاع الإنجليز أن يقهروا الفرنسيس ويخرجوهم من مصر، فهل سيعجزون عن قهر العسكر الموجودة بمصر. بدأوا يبيعون حاجاتهم، ويستخلصون أموالهم الموجودة بأيدي الناس. وسعوا في شراء أدوات الارتحال والأمور اللازمة لسفر البر، وفارق الكثير منهم النساء، وباعوا ما عندهم من الفرش والأمتعة.

محمد علي نفسه انحلت عزائمه لما سمع بخبر وصول الإنجليز، فقد ثبت في يقينه أنهم سيستولون على الديار المصرية، فعزم على التلكؤ في العودة إلى مصر. ظن أن الإنجليز سيصلون بسرعة إلى المدينة. وحينها يتجه هو شرقاً على طريق الشام، ويكون له عذر بغيبته في الحملة.

فكر أن معركته مع المماليك الآن ليست هي المعركة الأهم، أرسل إليهم يهادنهم، فقبلوا منه وكل يحمل في نفسه ما يحمله. وأرسل إلى الشيوخ من مكانه في أسيوط يطمئنهم ويستحثهم على الوقوف بجانبه، وهو سيرضى بكل أحكامهم، ولن يحيد عن مشورتهم بعد اليوم.

المماليك في الإسكندرية وما حولها حتى دمنهور فزعوا، وهربوا لما وطأ الإنجليز أرض مصر. تركوها لأهل البلد، وقفوا بعيداً يترقبون. جزء كبير من حملة الإنجليز ترك الإسكندرية إلى رشيد عازماً الانتقال منها عبر النيل إلى مصر. دخلوا المدينة آمنين، فاستقبلتهم رصاصات أهل البلد وأسلحتهم البدائية، فقتلوا منهم من قتلوا، وأسروا عدداً، وأجبروا من بقي منهم حياً على الارتداد من حيث جاؤوا.

ليس في مصر إلا لاظوغلي يحكم نيابة عن الباشا الغائب في الصعيد، فأصبح السيد عمر مكرم هو المرجع والمآل. في بيته

يتجمعون ويفكرون في طريقة مواجهة الإنجليز ساعة وصولهم إلى مصر. تصلهم انتصارات أهل رشيد فتنتعش روحهم، ثم يأتي الأسرى، فيطمئنون. ومع ذلك يحذرون. الإنجليز قادمون قادمون، فماذا نحن فاعلون؟ يخرجون إلى بولاق على النيل وإلى المناطق القريبة منها في شمال مصر، ويعاينون، ثم يقترح حجاج الخضري أن يحفروا خندقاً يمنع تقدم الإنجليز إن أتوا عبر النيل، فيستحسنون ما اقترح.

السيد عمر يواصل ليله بنهاره، يستحث الناس على التبرع بكل ما يستطيعون من أجل إتمام حفر الخندق، فلا يبخل أحد، ويستعيدون في أثناء ذلك ما بدأوا يفقدونه بعد خلع خورشيد باشا: روحهم وإحساسهم بأهميتهم. يشترك حسن بهمة، ويراقب سليم بحذر، ويواصل بكر حياته كأن الأمر لا يعينه.

ينتصر المصريون ثانية على الإنجليز في موقعة الحماد، المصريون وحدهم بمساعدات قليلة من غيرهم، ويأسرون عدداً أكبر من ضباط الإنجليز وجنودهم. ثم يأتي محمد علي فيوهم الناس أنه يجمع جيشاً ليحارب الإنجليز، ثم يفاوضهم على الخروج نظير عودة الأسرى منهم. فيعود الأسرى، ويخرج الإنجليز.

انتصر المصريون، لكن محمد علي نسب هذا الفضل إلى نفسه، كياسته وحكمته وبعد نظره هي التي أدت في النهاية إلى جلاء

الإنجليز. من لحظتها وعمر مكرم بدأ يعيد النظر في كل رأيه في هذا الرجل.

***

أرسل الباشا وطلب السيد عمر في وقت العشاء الأخيرة، وألزمه بتحصيل ألف كيس لنفقة العسكر.

***

نزل عساكر الدلاة في بولاق، وكذلك عساكر الباشا. وحصل منهم الإزعاج في أخذ الحمير والجمال قهراً من أصحابها. ونزلوا بخيولهم على البرسيم والغلال الموجودة بناحية بولاق وجزيرة بدران وخلافها، فرعتها بهائمهم وأكلتها في يوم واحد. ثم انتقلوا إلى ناحية منية السيرج وشبرا والزاوية الحمراء والمطرية والأميرية، فأكلوا زروعات الجميع، وخطفوا مواشيهم. وفجروا بالنساء، وافتضوا الأبكار، ولاطوا بالغلمان على مرأى من الناس. وأخذوهم، وباعوهم فيما بينهم حتى باعوا البعض بسوق مسكة وغيره... وهكذا يفعل المجاهدون.

ولشدة قهر الخلائق منهم، وقبح أفعالهم تمنوا مجيء الإفرنج من أي جنس كان، وزوال هؤلاء الطوائف الخاسرة الذين ليس لهم ملة ولا شريعة ولا طريقة يمشون عليها. فكان الناس تصرخ بذلك على

مسمع منهم، فيزداد حقدهم وعداوتهم، ويقولون: أهل هذه البلاد ليسوا مسلمين لأنهم يكرهوننا ويحبون النصارى. ويتوعدونهم إذا خلصت لهم البلاد، ولا ينظرون لقبح أفعالهم.

***

عامان مرا، ويشعر محمد علي أن قبضته على مصر ما زالت رخوة. مناطق كثيرة في داخلها وفي خارجها بعيدة عنه. ما كسبه من دخول الإنجليز، ثم خروجهم أن الإسكندرية أصبحت في حوزته بعد أن كانت تتبع الباب العالي مباشرة، ويأتيها حاكمها من الآستانة دون مشورة من والي مصر. لكن كثيراً من الأقاليم البعيدة ما زالت بأيدي أمراء المماليك، والبلاد القريبة لا يثق هو بمن يتولاها. بدأ الرجل بالضربخانة، الدار التي تسك النقود لكل الديار المصرية، عزل فيها السيد المحروقي متوليها، وعين بدلاً منه شخصاً من أقاربه. استطاع محمد علي بهذا الأمر البسيط أن يتلاعب في أوزان النقود التي يتداولها الناس دون رقيب، فأنقص منها ما شاء، وغير فيها، فخلط النحاس بغيره، والذهب بالنحاس، والفضة بمعادن خسيسة. الناس ترى وتشكو وتعاني، لكن لا مجيب. ارتفعت أسعار الطعام والغلال وأعلاف الحيوانات والأقمشة واللحوم، فالتجار لم ترض إلا بأوزان النقود كما كانت، والحاصل أن من كان يدفع قرشاً أصبح الآن يدفع قرشين للشيء نفسه.

لكن المشكلة التي ظلت تؤرق محمد علي كثيراً بعد خروج الإنجليز هي الشيوخ. انتبه الرجل إلى دورهم المتعاظم في الأمور الكبيرة. لم يجد حلاً معهم أول الأمر، فاضطر أن يجمع رجاله المقربين ليسألهم المشورة.

بدأ لاظوغلي الكلام. لاظوغلي هو الأقرب للباشا، والأكثر فهماً له ولما يريده، وعندما يدلي برأي، لا يسع الآخرون إلا الموافقة على ما يقول. فالباشا سيميل في نهاية النقاش إلى ما رأى. تعلموا من مرات سابقة ألا يعترضوا كثيراً على ما يقوله لاظوغلي. قال الرجل: الشيوخ يا أفندينا ليسوا سواء، لقد تتبعت ورجالي كثيراً منهم، فوجدت أموراً عجباً تجري بينهم.

أنصت الباشا باهتمام لما يقول، طالبه أن يستزيد ويوضح بعض ما رأى. فقال لاظوغلي: سأحكي لك بالطبع، لكني أريد أن أشدد على أن توقير الناس لهم لا علاقة له بما سأحكيه. الناس تضعهم في مكانة عالية، وتستجيب لما يقولون برغم أن ما أعرفه عنهم وما يعرفه حتى الناس الفقراء يجعل احتقارهم واجباً.

بدأ لاظوغلي يحكي عن مشاهدات رجاله لما يفعله الشيوخ من اتخاذهم الخدم والمقدمين والأعوان والكتبة الأقباط الذين يشرفون على أملاكهم الممتدة في مصر وخارجها، واستغلالهم للناس من خلال الدين حتى أن أحاديثهم فيما بينهم إذا كانوا في مأمن من

العامة لا تدور إلا حول الحصص والالتزام والفائض من المكاسب والتناجي مع الأقباط والتفاخر بما يملك كل واحد منهم من أراض ونساء وجوار. بعضهم فارغ العين لا يتأخر عن وليمة ولو كانت لفقير، وبعضهم يحضر الأفراح والولائم ويفاخر ببذخه على الملأ، ولا يتورع عن أخذ أي شيء تحت أي ستار يدعيه. لا يستمعون إلى شكاوى الناس إلا إذا زادت، ومحصولهم من العلم قليل، يتاجرون به تحت شعارات تخلب لب الجهلاء. والأنكى أن ما بينهم من تحاسد وتباغض وتنافر وتكالب على سفاسف الأمور أمور يحار معها العقل، مع ذلك فإنهم أكثر الناس شحاً وفراغة عين.

صورة مفاجئة رسمها لاظوغلي لشيوخ مصر بانت معها الدهشة على وجه محمد علي. الرجل لم يتعامل إلا مع كبار الشيوخ مثل السيد عمر مكرم والشرقاوي والمهدي، وقد رأى منهم ما يريب قليلاً، لكن ليس على هذه الهيئة التي يصفها لاظوغلي.

سأل بقية الحاضرين عما يجب عليه أن يفعل معهم، فأشار عليه شاهين بك أن يسحب منهم الأراضي التي تقع في دائرة التزامهم، هذا هو النبع الذي يستمدون منه قوتهم، لكن عليه ألا يبدأ بكبارهم. ابدأ بالصغار، وانتظر رد الفعل. ثم خذ بعد ذلك خطوتك التالية.

الفصل الحادي عشر

قرر حسن فجأة ألا يخرج من البيت في اليوم التالي. حتى صلاته سيقضيها في حجرته. صادف وهو عائد من الدكان ثلاثة صبية يفتشون في كوم من القمامة عن بقايا طعام. آلمه المشهد، وذكره بأبيه، وما كانت تحكيه شَحتة عنه. اقترب منهم، وأعطاهم قرشاً معه. فرح به الصبية، أخذوه ثم عادوا إلى كوم القمامة يبحثون. تذكر وهو يغلق باب البيت خلفه لقاءه بالسيد عمر قبل أيام. لا يشك حسن في نقاء الرجل ولا حبه لأبناء بلده، ولا حتى في شجاعته. لكنه لا يفهم سر تردده مع ظالم باشا. "ما الذي يمنعه من قول الحق في مواجهة هذا الرجل؟ ما الذي يمنعه من تذكيره بوعوده التي

قطعها على نفسه قبل أن يصل إلى القلعة؟ لماذا يعاونه بالصمت أحياناً وبجمع الأموال باسمه أحياناً أخرى؟"

لاحظت رباب شروده، فلم تقتحمه، تركته يبدأ فبدأ، وأخبرها بما أسرها. لن يخرج من البيت غداً، وسيبدأ في تعليمها القراءة والكتابة.

- هل ستصبر عليَّ لو أخطأت؟ أرادت أن تداعبه وتخرجه من شروده.

قال لها: أنت وخطؤك، لو كان كبيراً فسأعلقك في "الفلقة"، وستساعدني شَحتة في عقابك.

شَحتة التي كانت تسمع وهي تبدل ملابس خليل المبتلة، قالت في استنكار وهي تضحك: من الذي يساعدك يا أبو خليل؟ وهل ترضى أنت أن تضربها وهي في شهرها الأخير؟

منّى حسن نفسه أن ينام طويلاً، أن يستيقظ بعد طلوع الشمس، وأن يتثاقل في قيامه من فراشه، فيعاود النوم ثانية. لن يزعجه خليل في الصباح، فالولد ينام مع عُمته التي يظنها أمه. يلاحظ حسن أن خليل حائر بين المرأتين، فالتي ترضعه امرأة، بينما التي تتولاه فيما عدا ذلك أخرى، أحياناً يشعر بغيرة رباب حين يتعلق خليل بعمته، لكنها حين تلقمه ثديها، يهدأ ويستكين ويتطلع إليها بعينيه الحائرتين، ثم يغمضهما وينام. تقول رباب لشَحتة: يا خالتي،

أنت أخذت خليل وأنا راضية، أما هذا وتشير إلى بطنها المتكور فسيكون لي. وترد شَحَتة: أنت تحلمين، أنا تركت لك حسن، وهذا يكفيك، أما الولد القادم فسيكون معي أيضاً. تعابثها رباب وتقول: ومن أدراك أنه ولد، أشعر أنه بنت. إن شاء الله سيكون بنتاً. هذه المرة أنا التي أختار اسمها، سأسميها نفيسة على اسم السيدة الفاضلة زوجة إبراهيم بك، ترد شَحتة بسرعة: بل على اسم حفيدة الرسول عليه الصلاة والسلام.

لم يستيقظ حسن بعد طلوع الشمس كما تمنى، بل كان في المنضرة في هدأة الليل وقت الغلس وقبل أن يؤذن للفجر. تقلب في فراشه مرات ومرات، وأقلق رباب التي وضعت يدها عليه لتسكنه، لكنه لم يسكن. نام سويعات قليلة، ثم قام. توضأ وصلى ركعتين، واستلقى في "المنضرة" يستعيد حوادث مصر منذ بدء الخليقة.

صياح الديكة التي تربيهم شَحتة فوق السطح يقلقه، لكنه ينبهه إلى قرب الآذان. غير من خطته، وقرر أن يخرج ليصلي الفجر في المسجد. تلكأ في العودة حتى بانت تباشير الصباح. عادت الديوك تصيح فعزم على أن يستعيد طفولته معها. صعد إلى السطح، وجلس القرفصاء يترقب الدجاج، من منها التي ستضع بيضتها اليوم؟ اقتربت دجاجة، وأخذت زاوية القفص القريبة منه، لحظات ووجد البيضة تظهر من أحشائها ببطء، ثم تهبط على قش القفص

بين رجليها. انتظر لحظات، ثم مد يده ليلتقط البيضة التي كانت دافئة وعليها آثار من دماء الدجاجة. فتش في أنحاء القفص، فوجد بيضتين أخريين. أخذهما، ثم نزل بالثلاثة إلى المطبخ.

رباب هي التي نامت حتى وقت متأخر، استيقظت بعد أن تناول فطوره، وجلس يقرأ. عاتبته لأنه لم يوقظها. وسألته: متى نبدأ؟ قال لها: الآن إن شئت، جلست من فورها أمامه في حالة انتباه. تناول أوراقاً وقلماً، وبدأ يرسم لها بخطه الجميل أشكال الحروف، يُحَفِّظَها، وهي تردد وراءه. ساعتان حتى اطمأن إلى استيعابها، فاكتفى. طبعت قبلة على خده، وقالت له: هذه هي مكافأتك اليوم، وإن زدت أزيد. سمعها وهو في المنضرة وهي تغني:

اللي حبنا حبناه وصار متاعنا متاعه

واللي كرهنا كرهناه يحرم علينا اجتماعه

فطلب منها أن تعيد، فأعادت وعلا صوتها حتى استيقظت شَحتة، ثم خليل، فملأ الدنيا بهجة.

***

ولد غلام لمحمد علي من جاريته نائلة، وحضر المبشرون بخروج الإنجليز من الإسكندرية، فضربوا صواريخ. ولم يدر الناس بأيهما يحتفلون.

***

أصبح العسكر مصدر قلق كبير لمحمد علي الذي اشتهر الآن بين الناس باسم "ظالم باشا". لقب اكتسبه قبل أن يمر العامان على وصوله إلى سدة الحكم، تحجب حاشيته عنه كل ما يعكر صفوه، ومنها هذا اللقب، لكنهم لم يستطيعوا أن يمنعوا عنه أخبار العسكر، ولا ما يفعلوه مع الناس. أخبروه بهجومهم على بيوت الناس، وإخراجهم منها، فلم يبال. وأخبروه بسطوهم على أرزاق الناس فلم يبال. وأخبروه بترصدهم للنساء والأطفال وفعلهم بهم الفواحش، فعدها من غرائزهم التي ستستقيم بمرور الوقت. حادثة واحدة هي التي أجبرته على الالتفات إلى العسكر والاهتمام بإخراجهم من مصر.

كان نازلاً من القلعة في اتجاه بيته بالأزبكية، اتخذ طريقاً قريباً من مسجد السلطان حسن، ثم اقترب أكثر من دكان حسن الأقرب إلى سويقة العزى التي تقع جنوب سوق السلاح. عدد من الفرسان يحيط بالباشا، ويضفي على موكبه هالة يتعجب منها الناس. وبالقرب من سبيل بناه أحد أمراء المماليك خرج عليه اثنان من العسكر فوق سطح السبيل وأطلقا عليه رصاصتين أخطأتاه، لكن واحدة منهما أصابت فرس أحد الجنود الملازمين له، فسقط. بسرعة نزل محمد علي عن جواده، واحتمى بسور أحد البيوت بعيداً عن مرمى العسكر. وأشار إلى بعض تابعيه أن يصعدوا ليقبضوا على من

أطلق الرصاص. استطاع جنود محمد علي القبض عليهما، ونزلوا بهما إلى الطريق في الوقت الذي تجمع فيه الناس يستطلعون أمر الباشا وما حدث له.

توقع الناس أن يقتلهما الباشا فور رؤيته لهما، فإذا به ينتظر حتى أتى من مكان قريب ما بدا للناس أنه قائد من قواد العسكر. دار حوار عنيف بين الباشا وهذا القائد فهمه المتجمعون من الصوت العالي وإشارات اليد وتعبيرات الوجه. أحدهم ترجم ما قاله القائد للباشا أنه كان يعتذر له بأن هذين العسكريين مجنونان وسكرانان، ويجب ألا يؤاخذهما بما فعلا. لان الباشا أخيراً وأمر أن يخرجا من مصر الآن، فلا يبيتا فيها بعد اليوم. تعجب الناس مما آلت إليه الحادثة، وقال خبيث منهم: ترى لو كان الذي فعل واحد من أهل البلد، فهل كان الباشا سيلين هذا اللين؟ حقاً إنه ظالم باشا.

عاد الباشا إلى القلعة دون أن يكمل سيره إلى بيته بالأزبكية. كان ينوي أن يرى نائلة وابنه الذي ولد. فأرجأ الأمر إلى وقت لاحق. عليه أن يفكر مع خلصائه في طريقة يمنع بها أذى العسكر.

***

طلب الباشا ألفي كيس كي يعطيها رواتب للعسكر، فقسموها بين التجار والشيوخ الملتزمين وأصحاب الحرف، وكان السيد عمر مكرم هو المتولي جمعها. اشتكى كثير من أصحاب الحرف

كالصرماتية وأمثالهم، والتجأوا إلى الجامع الأزهر، وأقاموا به ليالي وأياماً، فلم ينفعهم ذلك.

***

سافر سليم مرة أخرى ليجلب شحنة جديدة من الورق. لم يفهم بكر لماذا لم يطلب منه أن ينتظره في الإسكندرية مثلما فعل في المرة السابقة، وحين غاب بأكثر مما توقع بكر عرف السبب، وأدرك أنه نوى الغياب، فلم يطلب منه الانتظار. انشغل حسن بابنه الثاني الذي سماه محمد. لا يأتي إلى الدكان إلا سويعات قليلة، وقد يغيب اليوم واليومين. أول الأمر كان يسأله بكر قلقاً عليه، ولما تكرر منه ذلك كف عن سؤاله. تولى بكر كل ما يتعلق بالدكان بما فيها دفع الفرد التي تتوالى عليهم مرة كل شهر، وربما مرتين. يدون ذلك في دفتر خاص. ويشعر بالانزعاج حين يتطلع فيه، ويحصي ما دفعوه، فيجد أن ظالم باشا يقاسمهم أكثر من نصف أرباحهم نظير أمن لا يأتي، وعدل ما زالوا يحلمون به، ويسر في العيش بعيد عن أغلب الناس. مع ذلك فإن الحياة تمضي.

لكن هذا اليوم الخريفي الذي أمطرت فيه السماء مطراً كثيفاً في أوله حمل في منتصفه له ولحسن الذي تصادف وجوده في الدكان خبراً أصابهم بصدمة أفقدتهم اتزانهم. زياد يأتي إليهم هلعاً من وراء جامع السلطان حسن، لم يكد يقف أمامهما حتى قال والدموع في عينيه: قتلوه، قتلوه.

– اهدأ يا زياد، اهدأ يا بني. من الذي قتلوه؟ قال بكر وهو يمسك بيده ليجلسه.

– المعلم حجاج الخضري. قتله المجرمون العسكر قبل الظهر أمام بيته.

لم يدر الاثنان ماذا يقولان، ولا ماذا يفعلان. حط عليهما صمت للحظات يحاولان استيعاب ما قال زياد. في عجلة أغلق بكر الدكان، بينما سبقه حسن وزياد إلى بيت حجاج الخضري الواقع في الرميلة خلف القلعة من الجهة التي يقع فيها الدكان.

قبل أن يصلوا إلى البيت سمعوا عويلاً وأصواتاً نسائية تندب وتصرخ وتولول، ولما دخلوا الشارع الذي يقع فيه البيت شاهدوا جمعاً من أهل البلد تحيط بالبيت، ويبدو في ملامحها الغضب. بعض من الرجال بدا أنهم من قبل الباشا، يدخلون ويخرجون من البيت يحاولون السيطرة على الجموع الغاضبة دون جدوى.

كان زياد قد حكى طرفاً من قصة قتله في أثناء الطريق، لكنِ القصة الكاملة حكاها ابن حجاج البالغ من العمر اثنتى عشرة سنة التي رآها على مدى اليومين الفائتين.

في اليوم الأول جاءتنا جماعة من العسكر أرادوا أن يدخلوا البيت من غير احتشام ولا إذن، قالوا لأبي إنهم يريدون أن يتفرجوا على أعلى الدار. أبي رفض ذلك، وسألهم عن السبب، فقالوا كلاماً

لم أفهمه. أصروا على الدخول، فأصر على منعهم، صرخت أمي وأخوتي، فتجمع الناس، وكلموهم، فلم يلتفتوا إليهم، فلاطفوهم حتى انصرفوا دون أن يدخلوا.

بالأمس جاءوا بعدد أكبر، وأصروا على الدخول، فلم يقبل أبي، لكن شيخ المسجد القريب شاهدهم، فجاء، وأقنع أبي ألا مشكلة أن يصعدوا إلى أعلى الدار ليروا ما يريدون رؤيته، ثم يذهبون، لكن العسكر بعد أن دخلوا وقبل أن ينصرفوا طلبوا من أبي هدية، كان الشيخ حاضراً، فقال أبي اعطهم شيئاً، واشتر راحتك. أحضر لهم أبي كمية من التوابل، فأخذوها وقالوا له: نحن نريد شالاً من الكشمير، الشتاء قادم والبرد شديد. يضغط الشيخ على أبي، فيحضر لهم شالاً أصفر، فقال كبيرهم: بل نريد شالاً أحمر وحجز الأصفر معه حتى يأتي بالأحمر، وحين أتى بالأحمر أخذ العسكري الشالين وانصرف مع جنوده، وأبي في غيظ شديد من العسكر ومن الشيخ. وفي أثناء انصرفهم سمع أبي أحد الجنود يبدي إعجاباً بالبيت وباتساعه، فأخبرنا أنه يخشى أنهم سيعودون مرة ثانية، وعليه أن يفعل شيئاً ليمنعهم. ذهب إلى قائد لهم يسكن غير بعيد عن هذا المكان، وأخبره بما فعله جنوده. ولدهشته، فإنه وجد القائد غير مبال بما فعل جنوده، بل إن هذا القائد قال له: هؤلاء جنود مجاهدون حاربوا نيابة عنكم الكفار، أفلا تسعونهم في بيوتكم.

واليوم جاءوا مرة ثالثة، قبل الظهر، وحدث ما توقعه أبي، أرادوا أن يقاسمونا البيت، فرفض أبي، ودخل فأحضر بندقيته ووقف قبالتهم مستعداً للدفاع عن بيته، ثم اشتبك الاثنان: أبي ومعه قلة من الناس، والعسكر الكثر الذين كان عددهم أكبر. قتل منهم أبي اثنين، وقتلوا هم أبي وثلاثة من الجيران.

انشغل حسن وبكر بقية اليوم بإجراءات دفن حجاج الخضري وجيرانه، وبعزائه الذي توافد عليه كبار الشيوخ مثل السيد عمر مكرم والشيخ الشرقاوي. انتحى حسن بالسيد عمر، وقال له: ماذا ستفعلون مع هذه المصيبة؟ هل ستذهبون إلى ظالم باشا تتوسلون منه القصاص والعدل؟ ولم يرد عمر مكرم.

***

وصل مرسوم من الآستانة بتثبيت محمد علي باشا على ولاية مصر، وآخر باسم ولده إبراهيم مسؤولاً عن الدفتردارية، وثالث بالعفو عن جميع العسكر نظير إخراجهم الإنجليز من مصر.

***

انشغل الباشا في الشهور التالية بتعيين أهل ثقته في أماكن كثيرة في مصر. عين حسن أغا في إمارة دمياط وعبد الله كاشف الدرندلي في إمارة المنصورة. ولما طلب شاهين بك الإذن من الباشا كي

يتزوج زوجة أحد المماليك الذين تركوا مصر إلى الصعيد، استمهله الباشا وقال له: إني أريد أن أزوجك ابنتي، وتكون صهري، وهي واصلة عن قريب، أرسلت بحضورها من بلدي "قولة"، فإن تأخر حضورها، جهزت لك سرية وزوجتك من ترغب.

يشعر محمد علي بتمكنه من الحكم. تتسع سطوته وتزداد هيبته، ويمتد نفوذه خارج مصر، فيطمئن. أرضى كثيراً من العسكر، فخرج منهم من يثير القلاقل، ورضي منهم بالعيش في كنف الباشا الذي لا يبخل عليهم بما يطلبون. تغيرات كثيرة طرأت على المحيطين به، أصبحوا أشد خشية منه، وأكثر امتثالاً لأوامره. وقوفهم بين يديه وقوف الطائع المستكين المستعد لتلبية كل شيء يطلبه، بل يلمح له أو يتمناه. لم يكونوا كذلك حين وصلوا معه من قولة إلى الإسكندرية. ويلحظ محمد علي هذا ولا يرفضه، بل يغذي في رجاله إحساس الخضوع له والامتنان لأفضاله عليهم. لولاه لما أصبحوا على ما هم فيه، ولولاه لعادوا إلى قولة يعانون من شظف العيش بعد أن يتبدد ما أخذوه من مصر. يلاحظهم الباشا حين ينزل معهم إلى ميدان قريب من القلعه ليترامحوا أو يتسابقوا أو يتضاربوا بالسيف. كلهم يسترضيه، وكلهم ينهزم أمامه، ويعرف منهم هذا ولا يرفضه، هو الباشا، القائد، الكبير، الأول والمنتهى، كلهم عبيد إحساناته، فلا ضير فيما يفعلون.

يساعده لاظوغلي – دون طلب من الباشا نفسه – على بناء هيبته وسطوته على من حوله. أصبح يعرف بوادره وشوارده، رغباته وغرائزه، بارع لاظوغلي في أوقات حضوره وغيابه، بارع في صمته وكلامه. بنظرة من عيني الباشا الحادة، لا غيرها. يدرك لاظوغلي ما ينبغي عليه أن يفعله. فلا يحتاج الباشا إلى أن يتكلم، وإلى أن يواجه من هم أقل شأناً. لاظوغلي يتكفل بكل هذا، ويمنع عنه ما لا يريد.

لكنه اضطر في الصيف إلى أن يواجه الشيوخ، وإلى أن تكون مواجهته معهم عنيفة حادة جعلته متعكر المزاج أياماً بعدها. والحادث أن الصيف كان شديد الحرارة، وصاحبه كذلك شح في مياه النيل اشتكى منه الناس، واضطروا إلى أن يشربوا مياهه التي لوثتها فضلاتهم وبولهم. زاد في ذلك أن الزروع ماتت، فهرب الفلاحون من ريفهم آتين إلى مصر، لعلهم يجدون فيها رزقاً، فامتلأت الطرقات بهم، وأصبحوا عبئاً على أهلها، زاحموهم في أعمالهم الوضيعة، ورضوا بأقل الأجور، وناموا في الطرقات وفي ساحات المساجد، وتركوا بقاياهم في كل ركن، فصعبت المعيشة، وضج الناس.

لم يجد الشيوخ حلاً إلا أن يصعدوا إلى القلعة ليقابلوا الباشا. هو الحاكم الآن، وعليه أن يخفف من معاناة أهل البلد. أنصت إليهم

باهتمام، أو هكذا بدا لهم، وهز رأسه وبدت على ملامحه علامات تأثر وهو يستمع إلى بعض قصص الشقاء التي رواها الشيوخ، ظلوا يتكلمون قرابة الساعة، وردوده عليهم مبهمة غائمة، لا تعد بشيء، ولا تعطي أملاً. صمتوا انتظاراً لكلمته بعد أن طال بهم الكلام، واشتد عليهم الحر. فوجئ به يقول لهم: اعملوا استسقاء، وأمروا الفقراء والضعفاء والأطفال بالخروج إلى الصحراء، وادعوا الله.

كان ظن الشيوخ أن السيد عمر مكرم هو الذي سيتكلم لدالته على الباشا، فإذا بالشيخ الشرقاوي يعلو صوته ويقول: ينبغي أن ترفقوا بالناس، وترفعوا الظلم. انفعل الباشا واحمر وجهه بعد أن نقل له المترجم ما قاله، صاح فيه: أنا لست بظالم وحدي، وأنتم أظلم مني، فإني رفعت عن حصتكم الفرض والمغارم إكراماً لكم، وعندي دفتر محرر فيه ما تحت أيديكم من الحصص يبلغ ألفي كيس، ولا بد أن أفحص عن ذلك، وكل من وجدته يأخذ الفرضة المدفوعة من فلاحينه أرفع الحصص عنه. فقالوا له جميعاً: لك ذلك.

نزل الشيوخ ومعهم السيد عمر، ثم أمروا الناس أن تجتمع في اليوم التالي بمسجد عمرو بن العاص، وهناك صلوا صلاة الاستسقاء. أياماً قليلة بعدها، وزادت مياه النيل.

***

نزل أعوان الباشا يتتبعون أولاد البلد، وأربا الصنائع الذين

لهم نسبة قديمة بالقرى، وذلك بإغراء أتباعهم وأعوانهم. فيكون الشخص منهم جالساً في حانوته أو صناعته، فما يشعر إلا والأعوان محيطون به، يطلبونه إلى مخدومهم، فإن امتنع أو تلكأ سحبوه بالقهر، وأدخلوه إلى الحبس، وهو لا يعرف له ذنباً، فيقول: وما ذنبي؟ فيقال له: عليك مال الطين، فيقول: وأي شيء يكون الطين؟، فيقولون له: طين فلاحتك، من كذا سنة لم تدفع شيئاً، ومقدار ما يجب عليك دفعه هو كذا، فيقول: لا أعرف ذلك، ولا أعرف البلد، ولا رأيتها في عمري، لا أنا ولا أبي ولا جدي. فيقال له: ألست فلانا الشبراوي أو المنياوي مثلا؟ فيقول لهم: هذه نسبة قديمة سرت إلى من عمي أو خالي أو جدي. فلا يقبل منه، ويحبس ويضرب حتى يدفع ما ألزموه به، أو يجد شافعاً يصالح عليه، وقد وقع ذلك لكثير من المتسببين والتجار وصناع الحرير وغيرهم.

***

استعاد سليم حيويته بعد أن عاد من رحلته إلى إيطاليا. غاب قرابة الشهور السبعة، زاد شهرين فوق ما توقع بكر. لكنه عاد. بدا ساخطاً كما كان، غاضباً وهو يرى أحوال الناس. في جلسته مع بكر يحكي عن مشاهداته الكثيرة هناك، "آه يا بكر لو رأيت ما رأيت أنا، وقتها ستعرف سر ما أنا فيه من عدم رضى". ولا يتصور بكر ما يقوله سليم، ولا ما يحكيه عن النظافة والنظام

والانضباط وحسن التعامل بين الناس. ما يشغله من سليم هو كيف كان يقيم شعائره هناك، يسأله:

– هل هناك مساجد تصلي فيها لو أدركك وقت الصلاة؟

يحاول سليم أن يقنعه أن الأرض كلها مسجد، وأنها كلها طهور، وأن عمارة الأرض إنما تتم بالعدل والأمن، وإذا حقق لي الحاكم هذا، فلا شأن لي بدينه طالما أنه لا يمنعني من إقامة شعائر ديني. محنة بكر مع الفرنسيس جعلته لا يندفع في رفض ما يقول سليم، لكنه في الوقت نفسه لا يتصور دولة يعيش فيها لا ترفع راية الإسلام، يقول لسليم:

– لو اعتدل ظالم باشا، ورفق بالناس، فسنكون خير أمة أخرجت للناس، ونحن كذلك لكن ينقصنا العدل.

ويرد سليم بحسم: إذا نقص العدل، فقد نقص كل شيء، هل تتصور حكماً إسلامياً بلا عدل؟ ثم هل ترى هؤلاء مسلمين حقاً؟ هؤلاء مجموعة من الأوباش الذين اجتمعوا علينا، ونحن ساعدناهم، فقدمنا لهم مصر على طبق من ذهب. منه لله عمر مكرم.

بكر موزع بين منطق سليم ونوازعه الإيمانية. يخترقه سليم بأفكاره، ويشوش عليه قليلاً، لكنه يعود ليتماسك ويستعيذ بالله من نزغات الشيطان. لا يرد، بل ينسحب داخل نفسه. "لعل الله أراد لنا

ابتلاء في الدنيا بما نلاقي من ظلم، لعله أراد أن يختبر صبرنا وقوة اليقين به، فأرسل لنا هذا الباشا الظالم، ألم يصبر أيوب على بلاء أشد، فاحتمل وكان جزاؤه الجنة".

يخرجه سليم من شروده ويقول له: تعرف يا بكر، لقد فكرت كثيراً وأنا هناك ألا أعود إلى مصر، وابقى في إيطاليا، أو أذهب إلى فرنسا. لو كنت أعرف أرضا لعبد العال لذهبت إليه، لكني أجزم أنه أحسنا حظا بتركه هذا البلد.

شعر بكر بغصة حين سمع اسم عبد العال، يفتقد صديقه كثيراً، لكن الله غالب، ماذا يفعل حتى يراه؟ رد على سليم بصوت واهن: وما الذي منعك من البقاء؟

كأن سليم توقع سؤاله فبادره: أسرتي وأنتم، هل تظن يا بني آدم أني سأجد مثلكم في هذه الدنيا، لو كان على أمر الورق فهو هين، سارسله مع أي أحد أثق فيه، لكن أين أجد هذه الجلسة ولا هذا الحب؟

***

انشغل حسن بالسيد عمر مكرم وما طلبه. ارسل إليه أحد أتباعه قبل يومين ليأتي، فذهب مسرعاً متوجساً من مفاجآت الباشا ومظالمه التي لا تعد ولا تحصى، فإذا بالسيد عمر يخبره أنه ينوي أن يختن

حفيده من ابنته، وأن يقيم لذلك زفة كبيرة تجوب أنحاء مصر، وأن يدعو فيها الباشا والأعيان. بدت ملامح دهشة على وجه حسن، ولم ينطق تأدباً مع السيد عمر. لكن الرجل عاجله فقال له:

– أراك مندهشاً مما تسمع، فختان حفيدي ليس بالأمر الذي يستحق زفة ودعوة للباشا، فهل تظنني أفعل ذلك دون سبب.

رد حسن: يا مولانا، أنا لا أشك في تقديرك للأمور، لكن زدني فهماً، فعقلي لا يستوعب ما تقول.

قال السيد عمر: اسمع يا حسن، لست وحدك الذي تشعر بالإحباط من محمد علي. أنا أيضاً، لكن صدمتي فيه أشد. اربع سنوات مرت، ولم ينفذ وعداً واحداً مما ألزم به نفسه أمامي وأمام غيري. أنت نفسك كنت شاهداً على كلامه. كيف يمكن له أن يفهم أننا موجودون، أنني موجود ومعي الناس. هل فهمت الآن مقصدي من هذه الزفة؟

– ولماذا لا تجمع الناس في الأزهر؟ لماذا لا تتفق مع الشيوخ على مواجهة هذا الظالم ومعك الناس؟

ابتسم السيد عمر في أسى وقال: الشيوخ، وما أدراك ما الشيوخ.

لو علمت ما بينهم من تحاسد وتباغض....... هؤلاء لا أمل يرجى منهم.

- إذن ماذا تريدينى أن أفعل؟

- أريدك أن تجمع كل أرباب الحرف والملاعيب وكل أصحاب العربات، وتدعو كل من تستطيع دعوته. أريد موكباً كبيراً يجوب كل مصر، ويشترك فيه كل الناس. سأدعو الباشا ليعرف أننا هنا أيضاً.

لما أخبر حسن صديقيه بما نوى عمر مكرم، قال سليم: هذا رجل يائس، لا يعرف ماذا يريد.

وفي اليوم الموعود، خرج الحفيد وعمره سبع سنوات تقريباً مع زملائه إلى الجامع الأزهر في أحسن ثيابهم، ومعهم أيضا رجال من عائلة السيد عمر مكرم ونسائهم وعدد كبير من الصديقات، أتى أيضاً ستة من جاوشية نقيب الأشراف السيد عمر والحلاق وخادمه بأدوات الطهور موضوعة على وسادة يحملها الخادم. صلوا الظهر في الأزهر، ثم صنعوا موكباً تقدمه الخادم، تبعه خمسة من الفقهاء ينشدون موشحات في مدح الرسول عليه الصلاة والسلام، ثم زملاء الحفيد يسيرون ثلاثة ثلاثة في صفوف متتابعة، وهم يغنون بينما يرد عليهم آخرون الغناء، ثم سار من ورائهم أقارب الحفيد "المطاهر"، ثم ستة أولاد يحملون قماقم فضية ملآنة بماء الورد يرشون بها

على المشاهدين في الطريق الذي تكاثروا وزحموا الطرقات التي سار فيها الموكب حتى أن أصحاب البيوت والحوانيت التي تقع في طريق الموكب أجروا أماكن فيها ليتمكن الناس من المشاهدة. سار مع هؤلاء الأولاد سقاء يحمل قربة فوق ظهره، يعطي المارة والمشاهدين الماء ليشربوا، ثم سار خلفه ثلاثة من الخدم يحمل أحدهم وعاء قهوة فضي والآخر مجموعة من الفناجين يوزع ما فيها من قهوة على الناس، والثالث يجمع الفناجين الفارغة. ومن بعده سار فريق آخر من الأولاد يحمل القماقم والبخور، ومن بعدهم سار ولد يحمل أدوات الحفيد، وبعدهم كان الحفيد نفسه يسير بين أقرب صديقين له وهو يرتدي ملابس أنثى مزينة بحلي النساء، لكنه يضع فوق رأسه عمامة، وفي النهاية تسير النساء ترش الملح على الناس وقاية من الحسد.

الموكب كان عظيماً ومشهوداً. لم يحضر الباشا نفسه، بل أرسل أحد نوابه بهدايا كثيرة، لكن حضر كل وجهاء مصر. سر عمر مكرم بما رأى، لكنه لم يكن يعلم أن هذا اليوم هو آخر ظهور كبير له في بر مصر.

الفصل الثاني عشر

حرارة الصيف هذا العام شديدة، الجو خانق، والهواء ساكن، علامات الحياة في الكائنات لا تظهر إلا في حركتهم الواهنة: البشر على الأرض والطيور على الأشجار. مازال الوقت مبكراً على ذروة الصيف، لكن أوائله تشي بأيام تذكر الناس بجهنم، يتمنون غيرها في الآخرة بعد أن عاشوها في الدنيا.

وحده من بين معاونيه كان موفور النشاط، متوقد الذهن. ضرب الحر عقول كثيرين ممن حوله، فأعطب التفكير فيها. قالوا رأياً في الصباح، وقالوا عكسه في الظهيرة، ثم نسوا كل ذلك في المساء. أما محمد علي فقد انتبه إلى ما أصاب رجاله، فلم يبال، ولم يلوم.

لا أحد مثله، ولا أحد يفري فريه. يشتغل عقله في حلول لمشكلات لا تحتمل تأجيلاً أكثر مما أراد. السلطان يلح عليه أن يرسل حملة للحجاز كي يؤدب الوهابيين، ويسترد الأماكن المقدسة منهم، زاد شرهم حتى أنهم منعوا المحمل الذي كان يخرج من مصر في زفة هائلة، قالوا: هذه بدع ليست من الدين في شيء، وزادوا فأعلنوا أنه لن يحج بعد العام غير الملتحي، سنترصدهم في مداخل المدينة ومكة، ولن نسمح لهم بالدخول، لكن سوأتهم الكبرى كانت في فتحهم الكعبة واستيلائهم على الذهب الموجود فيها بحجة أن المسلمين أولى بهذا الذهب من بقائه بلا منفعة في جوف الكعبة. تصل هذه الأخبار إلى الباشا، لكنه لا يعطيها اهتماماً كبيراً لولا إلحاح الآستانة عليه بالخروج لملاقاة الوهابيين.

ينحي الباشا تفكيره في الوهابيين مؤقتاً، لا يريد أن يتعكر مزاجه، فقد أرسل ابنه إبراهيم بك الذي أصبح دفتردار مصر لملاقاة زوجه أمينة وبناته وإسماعيل ابنه في الإسكندرية. ثمان سنوات على فراقهم، يحاول أن يستحضر آخر صور لهم وهم يودعونه قبل ذهابه إلى مصر. يتذكر أن أمينة حاولت أن تثنيه عن الذهاب، وكان يود ذلك، وعدها ألا تطول غيبته. "عام واحد على الأكثر، ثم أرجع لأستأنف تجارتي". والآن ماذا ستقول؟

دخلت أمينة مصر وابنها وبناتها، لم تكن وحدها، فقد جاء معها

أيضاً حشد من عائلات حاشية الباشا. جاءوا معه من قولة، وصعدوا معه إلى القلعة. نزلوا في بولاق أولاً، وأقاموا في أحد قصورها يومين قبل أن ينتقلوا إلى الأزبكية.

في هذين اليومين نبهوا على جميع نساء مصر وبخاصة من كانت لها اسم في الالتزام أن يركبن ويذهبن لملاقاة امرأة الباشا في بولاق. اعتذرت السيدة نفيسة بأنها مريضة، ولا تقدر على الحركة، فلم يقبلوا لها عذراً، وحين التئم شمل النساء ركبت زوجة الباشا وسار في معيتها النساء حتى وصلت إلى الأزبكية، ووقتها ضربوا مدافع من القلعة ابتهاجاً بوصولها، وقدمت النساء الهدايا لها وأولادها.

لم يهنأ محمد علي كثيراً باسرته. اضطر أن يتركهم ليعالج أمراً طارئاً بين أهل البلد. "لعنة الله عليهم، وعلى هؤلاء الرجال الذين لا يحسنون شيئاً دون مشورتي". كان يتمتم في نفسه وهو خارج من جناح أمينة ببيت الأزبكية، بعد أن طلب من رجاله أن يعيدوا ترتيبه لتحتل نائلة وابنها مكاناً قصياً، بينما تأتي أمينة لتكون سيدة البيت.

- ما الذي وراءك يا صادق؟

- لا شيء يا أفندينا، لا شيء خطير. سوى أن الفلاحين اجتمعوا في الأزهر مع مشايخهم، ومعهم النساء. فأبطلوا الدروس، وطلبوا السيد عمر مكرم، فكتبوا عرضحالاً وجهوه إليكم.

تأفف الباشا، وقال لصادق: أما يمكنك أن تحل هذه المشكلات بعيداً عني، لديك ولاظوغلي تفويض بهذا، أنسيت؟

- يا أفندينا، لم أنس، لكن هذا الأمر لا يحله إلا أنت.

- إذن، اقرأ لي ما كتبوا.

تغير وجه محمد علي وهو يسمع ما كتبوا، كانوا يتحدثون عن مظالم وبدع وختم للأمتعة وطلب مال الوسية وأراضي الرزق والمقاسمة في الفائظ وحبس أحد الأفراد بلا ذنب، لكنه تماسك ورد بقرف ظاهر:

- عدنا إل الكلام الذي لا يملون منه. أرسل لهم ديوان أفندي ليسألهم عما يطلبون تحديداً.

حين خطا ديوان أفندي إلى الجامع الأزهر وجد جمع الناس ما زال محتشداً، والشيوخ جالسين. بادرهم بالتحية وقال: الباشا يسلم عليكم، ويسألكم عن مطلوباتكم. فعرفوه بما سطروه إجمالاً وتفصيلاً، فقال ديوان عندئذ: ينبغي ذهابكم إليه، وتخاطبوه مشافهة، وهو لا يخالف أوامركم، ولا يرد شفاعتكم، وإنما القصد أن تلاطفوه في الخطاب لأنه شاب مغرور جاهل وظالم غشوم، ولا تقبل نفسه التحكم، وربما حمله غروره على حصول ضرر بكم، وعدم إنفاذ ما طلبتم.

كان الشيوخ قد اتفقوا على الاتحاد وترك المنافرة، فقال الشيخ الشرقاوي على لسانهم جميعاً: لا نذهب إليه أبداً مادام يفعل هذه الفعال، فإن رجع عنها، وامتنع عن إحداث البدع والمظالم عن خلق الله، رجعنا إليه، وترددنا عليه كما كنا في السابق، فإننا بايعناه على العدل، لا على الظلم والجور.

فقال لهم ديوان: وأنا قصدي أن تخاطبوه مشافهة، ويحصل إنفاذ الغرض.

فقال السيد عمر مكرم: لا نجتمع عليه أبداً، ولا نثير فتنة، بل نلزم بيوتنا، ونقتصر على حالنا، ونصبر على تقدير الله بنا وبغيرنا.

وقع ديوان أفندي في حيص بيص، كيف سينقل للباشا ما سمعه، وهل سيقبل منه عدم قدرته على معالجة الأمر. التقى بصادق أغا، وأخبره بما حدث، فبان في وجه صادق الحيرة. كيف سيبلغون الباشا برفض الشيوخ مقابلته. لم يكن إلا لاظوغلي. الوحيد الذي يعرف مداخل الباشا، ويعرف كيف يبلغه بالأخبار غير السارة. ولما سمع محمد علي بما قاله الشيوخ، ثار وصاح في الرجل: كيف يجرؤون؟ ألا يعرفون ماذا يمكن أن أفعل معهم؟ رد لاظوغلي في تلطف: سنجد حلاً يا أفندينا، سنجد حلاً. ثم انسحب في هدوء.

اشتغل رجال الباشا في اليومين التاليين بأمر الشيوخ، واقترحوا

حلولاً كثيرة لم ترض الباشا. هو وحده الذي وجد حلاً، وأثبت فعلاً أنه لم يصل إلى ما وصل إليه مصادفة. قال لرجاله في جلسته الصباحية معهم: هؤلاء الشيوخ ليسوا كما تظنون، اتحادهم هذا زائف، وما بينهم من خلافات أكبر مما تظنون. على لاظوغلي أن يجمع لي ما يستطيع من معلومات عنهم، لعلنا نجد بينهم منفذاً. أريد هذه المعلومات على وجه السرعة.

بدأ محمد علي يعطي اهتماماً للمشكلة الطارئة، وخصوصاً دخول السيد عمر فيها. يعلم الرجل أن أمر الشيوخ هين عنده وعند الناس إن لزم الأمر، فتكالبهم على الدنيا وملذاتها غير خاف على أحد. أما من ينبغي عليه أن يحترس منه فهو عمر مكرم، فالرعية والعامة تحت أمره، إن شاء جمعهم، وإن شاء فرقهم، وهو الذي قام بنصره، وساعده وأعانه، وجمع الخاصة والعامة حتى ملكه الإقليم. ويرى أنه – إن شاء – فعل نقيض ذلك. "الحل إذن أن يلين عمر مكرم أو أن ينفض الشيوخ عنه، غير هذا لا حل". لما وصل إلى هذه النتيجة استراح، وبدأ يفكر في الخطوة التالية.

علم رجال الباشا أن أكثر الشيوخ الذين يحملون حسداً، وربما بغضاً للسيد عمر مكرم على ما هو فيه من تأثير على الناس هما الشيخ المهدي والشيخ الدواخلي. أوعزوا إلى محمد أفندي طبل ناظر المهمات وكان يكره السيد عمر أيضاً، أن يلتقي بالشيخين،

ويقنعهما بكذب ما قيل عن الباشا دون أن يطلب منهما شيئاً محدداً. فعل الرجل، فأحدث ما فعل تأثيره.

التقى الشيخان بعمر مكرم وأخبراه بأن الباشا لم يطلب مال الأوسية ولا أراضي الرزق، وقد كذب من نقل ذلك على ما قال محمد أفندي طبل، وقد نقل عن الباشا أنه يقول: إني لا أخالف أوامر الشيوخ، وعند اجتماعهم معه ومواجهته فسيحصلون على ما يريدون. رد السيد عمر بحسم: أما إنكاره طلب مال الرزق والأوسية، فها هي أوراق من أوراق المباشرين عندي لبعض الملتزمين، مشتملة على الفرضة ونصف الفائظ ومال الأوسية والرزق، وأما الذهاب إليه، فلا أذهب إليه أبداً، وإن كنتم تنقضون الأيمان والعهد الذي وقع بيننا، فالرأي لكم.

جمع رجال الباشا عدداً من المقربين من الشيوخ ومن السيد عمر، والتقى بهم الباشا، وطلب نصحهم، ووعدهم بمناصب كبرى، ومغانم كثيرة إن هم أخلصوا له الرأي في هذه المشكلة، فطمع من طمع، واجتهدوا في التقرب من الباشا طمعاً وشرهاً.

أحس الشيخان المهدي والدواخلي أن صعودهما للقلعة لمقابلة الباشا دون إبلاغ السيد عمر خطوة كبيرة لا بد من التأني فيها، واستنفاد الأعذار قبل أخذها. فذهبوا إلى بيت السيد عمر، وكان معه حسن. حضر معهما أيضاً ديوان أفندي وترجمان الباشا. عالجوا

الأمر من جميع جوانبه، وطال بينهم الكلام. بدا الشيخان لينين، ومستعدين لمقابلة الباشا في مقابل السيد عمر الذي صمم على الامتناع، قال لهم: لقد عرضت كل جوانب المشكلة على الناس، ورأوا جميعاً أني على حق، لا أذهب إلى مقابلة هذا الرجل إلا بعد أن يعود إلى رشده. هذا هو حسن الذي تعرفونه جميعاً، يرى رأيي، وينقل لي موقف الناس. شعر الشيخان بحرج موقفيهما، فقالوا: لا بد أن يكون الشيخ الأمير معنا، ونحنِ لن نذهب بدونه. فقال السيد عمر: أنتم وشأنكم. ولما قابلوا الشيخ الأمير، اعتذر بأنه متوعك، ولا يقدر على الخروج من بيته.

مع ذلك طلع الشيخان إلى القلعة، وقابلا الباشا. أخبره الشيخ الدواخلي في البداية أنه لا يحضر فقط عن نفسه، بل يحضر أيضاً نيابة عن الشيخ الشرقاوي، فهو يرى رأينا أيضاً. سر الباشا وقال لهم في لهجة ودودة: أنا لا أرد شفاعتكم، ولا أقطع رجاءكم، والواجب عليكم إذا رأيتم مني انحرافاً أن تنصحوني وترشدوني. ثم أخذ يلوم على السيد عمر في تخلفه وتعنته، ويثني على بقية الشيوخ. وفي لهجة بدا فيها عتاب قال: في كل وقت يعاندني السيد عمر، ويبطل أحكامي، ويخوفني بقيام الجمهور.

حاول الشيخ المهدي أن يطيب من خواطر الباشا فقال: هو ليس إلا بنا، وإذا خلا عنا، فلا يساوي شيئاً. إن هو إلا صاحب حرفة أو

جابي وقف، يجمع الإيراد، ويصرفه على المستحقين.

شعر الشيخان وهما نازلان من القلعة بعظم ما قالاه في حق السيد عمر، فأرادا أن يؤجلا الصدام معه إلى آخر لحظة، أو أن يوهماه بغير الحقيقة. ذهبا إليه في اليوم التالي، وأخبراه بأن الباشا لم يحصل منه خلاف، وقال لهم: أنا لا أرد شفاعتكم، ولكن نفسي لا تقبل التحكم، والواجب عليكم إذا رأيتموني فعلت شيئاً مخالفاً أن تنصحوني وتشفعوا، فأنا لا أردكم، ولا أمتنع من قبول نصحكم. وأما ما تفعلونه من التشنيع والاجتماع بالأزهر، فهذا لا يناسب مقامكم، وكأنكم تخوفوني بهذا الاجتماع، وتهييج الشرور وقيام الرعية، كما كنتم تفعلون في زمان المماليك، فأنا لا أفزع من ذلك، وإن حصل من الرعية أمر ما، فليس لهم عندي إلا السيف والانتقام. فقلنا له: هذا لا يكون، ونحن لا نحب ثوران الفتن، وإنما اجتماعنا لأجل قراءة البخاري، وندعو الله برفع الكرب.

أراد الشيخ المهدي أن يُخيف السيد عمر، فقال له: لقد سألنا الباشا عمن انتبذ لهذا الأمر، ومن ابتدأ بالخلف، فغالطناه، ولم نخبره أن السيد عمر مكرم هو من يفعل ذلك، فقد وعدنا بإبطال الدمغة وتقليل الفائض إلى الربع بعد أن كان النصف، وأنكر الطلب بالأوسية والرزق من إقليم البحيرة.

شعر السيد عمر مكرم باحتقار كبير للشيخين وهو يسمع كلام

المهدي، لم يرد عليهم، بل أشاح بوجهه، وأخفض رأسه إلى الأرض، وقال: ما أراده الله يكون، حسبي الله ونعم الوكيل.

وقع الشيوخ الثلاثة: المهدي والدواخلي والشرقاوي بين شقي رحى، فلا هم بقادرين على إظهار عدائهم للسيد عمر، ولا بقادرين على إعلان تأييدهم للباشا. نصحهم ديوان أفندي أن يتريثوا قليلاً مع السيد عمر، عليهم أن يظهروا أمام الناس أنهم حريصون على إرضاء عمر مكرم، وعلى عدم إنفاذ أي أمر دون مشورته ورأيه. "اذهبوا إليه مرة وأخرى، وأعلنوا ذلك للناس، فإذا لان ورضي بمقابلة الباشا... وإلا فإن الناس ستلومه على تشدده.

وفي يوم الجمعة بعد الصلاة في قائظة الصيف، ذهبوا إليه وتكلموا في شأن الطلوع إلى الباشا ومقابلته، فحلف السيد عمر أنه لا يطلع إليه، ولا يجتمع به، ولا يرى له وجهاً إلا إذا أبطل هذه الأحدوثات. قال السيد عمر في أسى ظاهر: إن جميع الناس يتهمونني معه، ويزعمون أنه لا يتجرأ على شيء يفعله إلا باتفاقي معه، ويكفي ما مضى، وكلما استمر في حكمه، ازداد ظلماً وجوراً. ورفض الذهاب معهم. فقالوا إذن يطلع المشايخ، وأرسلوا إلى الشيخ الأمير، فاعتذر بأنه متوعك الجسم، ولا يقدر على الحركة ولا الركوب.

استقبلهم محمد علي بترحاب ظاهر وبشاشة لفتت أنظار حاشيته،

كانوا أربعة شيوخ هم الشرقاوي والمهدي والدواخلي والفيومي. التقوا بالباشا على خلاف ما اتفقوا مع السيد عمر. ظن الرجل ببراءة وصفاء نية أنهم سيمتنعون لامتناعه للعهد السابق والأيمان، فإذا بهم يخذلونه ويقابلون الباشا في قلعته. فهم كل من الباشا والشيوخ لغة الآخر الباطنية. أدرك أنه لابد أن يعطيهم شيئاً يدعم من موقفهم أمام الناس، وفي الوقت نفسه لا يتنازل تنازلات كبيرة عما انتواه في أمر الفرد والمال. رضوا منه بالفتات على وعد غير معلن بمغانم كثيرة آتية لهم في مقتبل الأيام.

ولما عادوا إلى السيد عمر بما ظنوا أنهم حققوه مع الباشا، استغرب ما قالوا، وانفعل وهو يواجههم بقوله: وأعجبكم ذلك؟ هل رضيتم منه بما قال؟ ليكن في معلومكم أنه أرسل لي قبل أيام بأنه سيخفض مال الفائض إلى الربع كما أعطاكم، فلم أرض منه إلا بأن يرفعه كلية، فقد طلب مني العام الفائت هذا، فرفضت، وقلت له هذه تصير سنة متبعة، فحلف أنها لا تكون بعد هذا العام، وذلك لضرورة النفقة، وإن طلبها في المستقبل يكون ملعوناً ومطروداً من رحمة الله، وعاهدني على ذلك، وهذا في علمكم كما لا يخفاكم، وأما قوله أنه رفع الطلب إلى الأوسية وأراضي الرزق، فلا أصل لذلك، وها هي أوراق إقليم البحيرة معي تثبت كذبه. حاول الشيوخ أن يبرروا موافقتهم على ما قال الباشا، فقال الشرقاوي: إنا ذكرنا

له ذلك، فأنكر، وكابرناه بأوراق الطلب، فقال إن السبب في ذلك أن الكشافين لما نزلوا إقليم البحيرة ليقرروا عليه فرضة الأطيان، غالطهم الناس ودلسوا عليهم، فإذا كان في أرض البلدة خمسمئة فدان ري، قالوا إنها مئة فقط وسموا الباقي أرض الرزق والأوسية. لذلك فعل ما فعل. قال لهم السيد عمر: لقد قال لي هذا الكلام أيضاً في العام الماضي، لكنه عاد وزاد، وأنتم توافقونه وتسايرونه، ولا تصدونه ولا تصدعونه بكلمة، وأنا الذي صرت وحدي مخالفاً وشاذاً. ووجه لهم اللوم على نقضهم العهد والأيمان.

كان اجتماعاً فارقاً بين الشيوخ والسيد عمر، جاهروا بعده بخلافهم معه، وحملوه المسؤولية الكبيرة على ما يجري.

انقسم الناس بين الفريقين إلى جماعة كبيرة تؤيد السيد عمر مكرم وتزدري الشيوخ والباشا معهم، وجماعة صغيرة تناصر الشيوخ وترى أن الناس تعبت من الخلاف، وتريد أن تستقر لتستريح. ظهر هذا الانقسام جلياً في دكان حسن. فبكر برر للشيوخ موقفهم من الباشا. "نعم هو رجل ظالم، لكنه لم يخرج بعد من حدود الشريعة، ولم يظهر له موقفاً عدائياً من الدين، وما يجمع من مال ربما لعلة لا ندريها نحن، ما نأخذه عليه هو ظلم عسكره البين، ولو كف أذى عسكره لكان أفضل الحكام. أما حسن وسليم فأيدا السيد عمر. سليم الذي استعاد ثقته في الرجل. قال لبكر وهو يعلن أسباب تأييده

للشيوخ: إن ما تقوله عن ظالم باشا وشيوخه رأي لا أصل له عندي. لقد خرجنا وخلعنا الوالي السابق، وأتينا بهذا الرجل ليقيم العدل، فإن فعل، أهلا به، وإن لم يفعل، فلا طاعة له علينا. نحن يا بكر لن نرضى أن نستبدل ظلماً بظلم، وعمر مكرم على حق في موقفه حتى وإن أظهر الرجل أنه يقيم شعائر الإسلام. إسلام بلا عدل ليس إسلاماً أبداً. أرجو أن تصلك هذه الفكرة.

اكتفى بكر بتأييده للشيوخ وجلس في الدكان، أما حسن وسليم فقد شعرا أن السيد عمر في حاجة إلى نصير من الناس. لا يمكن لهما أن يتركوه وحده في مواجهة سلطة الباشا والشيوخ معاً.

محمد علي قلق من السيد عمر. وبرغم ما أبداه الشيوخ من تعاون وتساهل معه، فإن عمر مكرم هو مفتاح كل شيء. راض هو عما فعله الشيوخ حتى الآن، لكنه يقول لجماعته القريبة: إن هؤلاء لا وزن لهم عندي، وقريباً لن يكون لهم وزن عند الناس، أما عمر مكرم فهو من طينة مختلفة. أمر لاظوغلي أن يذهب إليه، ويترفق في الكلام معه، ويعده بإنجاز ما يريد. "قل له يا لاظوغلي، لو أتيت إلى الباشا، فسيعطيك كل يوم كيساً، وسيبرهن على هذا بأن يعطيك ثلاثمئة كيس حالاً. فقط عليك أن توافق، وتأتي". ولم يقبل السيد عمر بكل عروض الباشا، وسانده في ذلك سليم. أما حسن، فقد تبلبل. أحس بضعف الباشا أمام السيد عمر من كثرة ما يرسل له من

رسل، وفي الوقت نفسه لم يقبل أن يهينه بهذه الرشوة الظاهرة.

لم يكتف محمد علي بالرسل الظاهرة، بل كلف لاظوغلي بإرسال من يتجسس عليه، ويرصد حركاته، ويعرف من يدخل عليه ويخرج، ومن يتردد عليه من كبار العسكر. بل إنه أوحى لبعض الكبار أن يراسلوا عمر مكرم سراً، ويوهموه بأنهم يكرهون الباشا، وأنه إذا انتبذ لمواجهته، فسيكونون طوعاً له وتحت إشارته، وسينصرونه بجنود لهم في اللحظة الحاسمة. ينتبه السيد عمر لكل هذه الحيل والألاعيب، فلا يوافق، ومع ذلك لا يمتنع عن التعريض بالباشا، وإظهار ظلمه وصدمته فيه. والناس تنقل لمحمد علي كل هذا، وتحرف في الكلام كيفما شاءت بحسب أغراضهم وأهوائهم.

ثم اتفق في أثناء ذلك أن الباشا أمر بكتابة عرضحال لوزير الدولة في الآستانة عن أربعة آلاف كيس يسأل عنها الوزير فيما صرفت، فكر محمد علي في العرضحال أنها صرفت في سد ترعة الفرعونية ومقدار ما صرف فيها ثمانمئة كيس، وعلى تجاريد العسكر لمحاربة المماليك حتى دخلوا في الطاعة، وما صرف في عمارة القلعة والمجرى الذي ينقل إليها الماء، وفي حفر الخلجان والترع. ثم أرسل العرضحال للسيد عمر ليضع عليه توقيعه وختمه، فامتنع، وقال: أما ما صرفه على سد الترعة، فإن الذي جمعه وجباه من البلاد يزيد على ما صرفه أضعافاً كثيرة، وأما غير ذلك، فكله

كذب لا أصل له، وإن وجد من يحاسبه على ما أخذه من القطر المصري من الفرض والمظالم، لما وسعته الدفاتر.

وصل رد السيد عمر إلى محمد علي، فازداد حنقاً عليه، وطلبه للاجتماع، فامتنع. أرسل له أكثر من رسول. شعر السيد عمر أنه لن يستطيع الامتناع حتى النهاية فقال لآخر من أرسله: إن كان ولا بد، فأجتمع معه في بيت السادات، وأما طلوعي إليه، فلا يكون. فلما قيل للباشا ذلك، اغتاظ وقال: إنه بلغ به الأمر أن يزدريني ويرزلني، ويامرني بالنزول من محل حكمي إلى بيوت الناس. ثم أضمر في نفسه شيئاً.

ذهب في اليوم التالي إلى بيت ابنه إبراهيم بالأزبكية، وطلب القاضي والشيوخ الأربعة، فأتوا مهرولين، وطلب أيضاً شيخ السادات. ثم أرسل إلى السيد عمر رسولاً من طرفه ورسولاً من طرف القاضي يطلبه للحضور ليأخذ كل واحد منهما حقه من الآخر. فرجع الرسول وأخبر الباشا بأن السيد عمر شرب دواء، ولا يمكنه الحضور في هذا اليوم. تماسك الباشا أمام الناس، وكظم غيظه، لكنه بهدوء طلب أن تحضر خلعة فألبسها لشيخ السادات إيذاناً منه بتوليه نقابة الأشراف بدلاً من السيد عمر مكرم، ثم أمر بكتابة فرمان على رؤوس الأشهاد بخروج السيد عمر ونفيه من مصر حالاً. استهول الشيوخ ظاهراً ما فعله الباشا، فاستعطفوه

إمهال عمر مكرم ثلاثة أيام حتى يقضي اشغاله، فأجابهم إلى ذلك. طلبوا منه كذلك أن يتركه يذهب إلى بلده أسيوط، فرفض وقال: إما أن يذهب إلى الإسكندرية أو دمياط.

فلما ورد الخبر على السيد عمر، قال: أما منصب النقابة، فإني راغب عنه وزاهد فيه، وليس فيه إلا التعب، وأما النفي فهو غاية مطلوبي، وأرتاح من هذه الورطة. لكني أريد أن أذهب إلى بلد لا تكون تحت حكم هذا الرجل. وإذا لم يأذن لي في الذهاب إلى أسيوط، فليأذن لي في الذهاب إلى الطور في سيناء أو إلى درنة في طرابلس الغرب. ولما عرف الباشا، لم يرض إلا بذهابه إلى دمياط. وكل عمر مكرم السيد محمد المحروقي ليكون وكيلاً عنه على أولاده وبيته ومتعلقاته، وذهب المحروقي إلى الباشا ليعلمه بذلك، فأجازه وقال له: هو آمن من كل شيء، وأنا لم أزل أراعي خاطره ولا أفوته.

ارتاح الباشا بعد خروج عمر مكرم، شعر أن مصر خلت له دون غيره، لم يبق إلا المماليك الذين يترصدونه في الأقاليم المجاورة لمصر. لكن هاجس عمر مكرم ظل يلح عليه أياماً.

جمع رجاله المقربين، وسألهم: من كان يتردد على عمر مكرم في الأيام الماضية؟

رد لاظوغلي: كثيرون، لكن أكثرهم حضوراً لبيته اثنان من أهل البلد.

سأله الباشا: من هما؟ هل تعرفهما؟

قال لاظوغلي: تتبعهم رجالي، فعرفوا أنهما من تجار الورق الكائنين بالقرب من مسجد السلطان حسن، أنا رأيتهما، وعرفت واحداً منهما كان يأتي مع عمر مكرم في الأيام الأولى لحكمك. ثم أردف يذكره: أنت أيضاً رأيته في بيت السيد عمر، وهو قدمه لك. اسمه حسن وهو الأكثر مناصرة لعمر مكرم.

تذكره محمد علي، صمت لحظة يفكر، ثم قال باستهانة قبل أن يقوم من مجلسه: اقتلوه. وقبل أن يغادر رجاله أردف: ولكن حاذروا، لا أريد أن تتلوث يدي بدمه أمام الناس. ثم نظر إلى لاظوغلي وهو يقول لرجاله: لاظوغلي يعرف كيف يتصرف.

الفصل الثالث عشر

عاد حسن إلى قوقعته، بينما سافر سليم فجأة تحت دعوى غير مقنعة. أما بكر فاستمرت حياته كما هي، لم يتغير فيها إلا عودته مرة أخرى إلى دروس تحفيظ القرآن للأطفال التي أهملها في الفترة الماضية. لا يفتأ يذكر حسن بنبرة ملؤها الأسى "لو لان السيد عمر قليلاً، وقبل أن يذهب إليه،...." ثم يصمت، ويتلفت حوله، ويقول "لكن الله غالب".

يشعر حسن بعبث ما يفعل، وعبث ما يسعى له في الحياة. لم تغنه عن سوء أحوال مصر أولاده ولا زوجته ولا أخته شيئاً. لا يعاني شظف العيش كما يعاني الناس، لكن كيف يهنأ وحوله

جوعى وباحثون عن طعامهم في أكوام القمامة؟ ولا يمسه أحد من العسكر كما يفعلون مع غيره، لكن ما قيمة هذا وهو يرى ذل الناس، أهله، ولا يستطيع لهم دفعاً؟ تجنبه الشيوخ الكبار لسابق نصرته لعمر مكرم. هؤلاء رجال العهد الجديد الذين يشار لهم بالبنان. وحدب عليه صغارهم سراً. فجاؤوا إليه خلسة، وعادوا من عنده يحمدون الله لأنه لم يفضحهم بزيارته. يرى الشيخ المهدي وقد تمدد نفوذه، وورث كل وظائف السيد عمر، بل إن الباشا أنعم عليه بنظارة أوقاف الإمام الشافعي ووقف سنان باشا ببولاق نظير اجتهاده في خيانة عمر مكرم. ويسمع عن عرضحال كتبه الشيوخ بأمر من الباشا يذكرون فيه أكاذيب وافتراءات عن استغلال السيد عمر لمنصبه، وتآمره مع المماليك على الدولة العثمانية، وأشياء تحار في أمرها العقول قام بها السيد المبجل عمر مكرم خفية. يمتنع بعض الشيوخ عن التوقيع، فيتآمر من وقعوا عليهم عند الباشا، فيمنع عنهم امتيازاتهم، ويعزلهم ما هم فيه ليلزمهم بيوتهم جراء اجترائهم على مخالفة الباشا. تهاوت مكانة الشيوخ في عين الناس، فقد كان السيد عمر ظلا ظليلاً عليهم، وعلى أهل البلد، يدافع ويرافع عنهم وعن غيرهم، فلم تقم للشيوخ بعد خروجه من مصر قائمة، ولم يزالوا بعده في انحطاط وانخفاض. بعض الناس رأى أن الذي وقع للسيد عمر بعض ما يستحقه، فمن أعان ظالماً سلطه الله عليه، وما يظلم ربك أحداً.

لم يبرأ حسن مما هو فيه على الرغم من مرور الوقت. يشعر أن عالمه يتهاوى، وأحلامه الكبرى في مصر غير مصر التي عاش فيها تبعد أكثر وأكثر. يسأل نفسه في كل يوم: أين يكمن الخطأ؟ ما الذي أدى بنا إلى ما نحن فيه؟ يرى الباشا وهو يوطد لأركان حكمه، ويستحدث مناصب ووظائف لم تكن، كلها يحصي على الناس أنفاسهم، ويتتبع من خلالها عوراتهم وأسرارهم. الباشا يتمدد ويتمكن، وأقاربه يهبطون مصر كالجراد. في كل يوم يسمع عن قريب له أتى من قولة فتولى مكاناً هنا أو منصباً هناك.

الخريف يعلن عن نفسه في أوراق الشجر التي تصفر حوافها، ونسمات الليل الطرية التي تجعل نومهم أسرع، والنهار الذي ينكمش في مواجهة الليل. لا تتغير عادات حسن التي ابتدعها لنفسه. الدجاج الذي يقرفص انتظاراً لبيضه، والبط الذي يحاذر قرصاته، وأضافت شَحتة في الأيام الأخيرة عشة للأرانب. استهوته الأرانب بملمسها الناعم واستكانتها وسهولة إطعامها، فربض لها، ونافسه ابنه خليل، يصعد إليه، ثم يمد يده ليمسك أرنباً معيناً، ثم ينزل به، ويذهب ليلعب مع أخيه محمد. لا يعرف حسن كيف يميز ابنه الأرانب، كيف يفرزهم حتى تطول يده هذا الأرنب بالذات. لا ينسى حسن اليوم الذي ذبحت فيه شَحتة أحد الأرانب. لم تنتبه لخليل الذي كان يراقبها. ظن أنها ستلعب به مثلما يفعل، فإذا هي تمسك بالسكين وتحز رقبته في مشهد جعل خليل يصرخ ويهرول ناحية

أمه ويرتمي في حضنها. لما رأته شَحتة، قالت لرباب: عليه أن يتعود حتى يجمد قلبه. تحاشى خليل عمته أياماً بعدها.

صلاة الفجر لحسن ليست شعائر يقيمها تقرباً إلى الله، هي لحظة في اليوم ليس لها مثيل، يحرص على أن ينام مبكراً حتى يستيقظ للفجر نشيطاً، ولم يخذله جسمه، ولا حتى أحلامه وكوابيسه التي تكاثرت عليه أخيراً. يقل حضور الناس في صلاة الفجر، وتهدأ حركة المصلين في صحن المسجد، فيجد وقتاً للقرآن ليقرأ، وللدعاء فيدعو وللتأمل فيسبح في ملكوت الله وأحوال مصر. لكن هذا الفجر بالذات لم يكن فجراً عادياً. حين انتهى من الصلاة مع الناس، وقبل أن يتأهب للخروج اقترب منه أحد جيرانه بخطوات وئيدة، ثم انتحى به بعيداً عن العدد القليل الموجود، وأخبره أن هناك من سأل عنه بالأمس. جاء إليه اثنان في حانوته القريب من البيت وسألاه عن بيته أين يقع، ومتى يعود غالباً من دكانه. لم يجد حسن في سؤال الرجلين ما يريب. هو خطاط يحتاج الناس إليه أحياناً.

يومان وعاد الرجل يخبر حسن أنه رأى الرجلين نفسهما في الضحى يقفان في مكان غير بعيد عن البيت. "أظن أنك كنت موجوداً في البيت وقتها، فأنا أراك وأنت في طريقك لدكانك، فلماذا لم يسألا عنك في بيتك؟" شعر حسن بانقباض وقلق، لكنه حاول أمام جاره أن يتماسك، قال: يا خبر اليوم بفلوس بكره سيكون

مجاناً. لا أظن أن هناك ما يدعو للقلق، انتظر وأخبرني إن رأيتهما مرة أخرى..... هل هما من أهل البلد أم من أتباع العسكر؟ فكر الرجل قليلاً وقال: أظن أنهما من أهل البلد.

من الذي يتجسس عليه ويتتبعه لو صدق كلام هذا الجار؟ أخبر بكر بما قاله الرجل، فقلل من شأن ما سمع. "ليس لك أعداء حتى يترصدوك، فما الداعي للقلق؟" واصل حسن: هل تظن أن الباشا هو الذي أرسلهما؟ نظر إليه بكر في دهشة ورفع يده نافياً وهو يقول: لا تشطح في خيالك، ما الذي يدعوه لهذا وقد خرج عمر مكرم واستتب له الأمر؟ وحتى لو كان كلامك صحيحاً، فعلى الأقل هما سيبلغان الباشا بما عرفاه عنك، وأنت في حالك.

هدأت خواطر حسن بضعة أيام حتى كاد ينسى أمر الرجلين، ثم جاء له صاحب دكان قريب يبيع العطارة ليخبره عن رجل من أهل البلد سأل عنه، يريد أن ينسخ كتاباً ضخماً كان يحمله، "فهل أتى لك؟" تعجب حسن وقال للرجل: ولماذا لم يأت مباشرة إلى الدكان؟ إذا لم أكن موجوداً، فبكر موجود. رد الرجل: أنا تطلعت إلى دكانك فكان مغلقاً، وطلبت منه أن يترك الكتاب عندي، فقال إنه سيأتي في وقت لاحق اليوم. قال له حسن: هل سألك عن شيء آخر؟ رد الرجل في براءة: لا شيء مهم، أسئلة عادية، متى تأتي؟ ومتى تترك الدكان؟ وهل تجيء كل يوم؟ أم تغيب أحياناً؟ صمت لحظة،

ثم سأل حسن: هل أتى إليك الرجل؟ رد حسن في قلق ظاهر: لا، لم يأت. وأظنه لن يأتي.

وفي الأزبكية كان لاظوغلي مشغولاً مع بعض العسكر يلقي إليهم ببعض الأوامر عن ضرورة إحضار عدد من الملتزمين في ناحية بولاق لمحاسبتهم على النقص الظاهر في الأموال التي يوردونها حين دخل عليه صادق أغا. رحب به وأجلسه حتى ينتهي من عساكره، ولما انتهى، بادره صادق أغا: ما الذي وصلت إليه في موضوع تاجر الورق؟ ترك لاظوغلي أوراقاً بيده، وقام من مجلسه وراء مكتب كبير ليجلس بجوار صادق أغا على الأريكة الكبيرة الموجودة على يمين الداخل إلى الحجرة: لا شيء، حتى الآن أجمع معلومات عنه، الموضوع ليس بسيطاً. قال صادق: أعلم، لكن ماذا لو سألني أفندينا فجأة، ماذا أقول له. الآن هو مشغول بأمراء المماليك، وبالحملة التي ينوي أن يرسلها إلى الحجاز، لكنك تعلم أنه لا ينسى شيئاً، سيتذكر ما أمر به ولو بعد حين، وإذا لم ننجز ما قال، فمصيبتنا سوداء. الأمر جد كل الجد. رد لاظوغلي: اترك لي وقتاً حتى الجمعة القادمة، لن يأتي هذا اليوم إلا وقد أبلغتك بما يسرك ويسر الباشا. ابتسم صادق أغا وقال: عجل يا لاظ لو استطعت، وراءنا أشياء أكثر أهمية من تاجر الورق هذا...... هل قلت لي ما اسمه؟ رد لاظوغلي باقتضاب: حسن، اسمه حسن. وكان اليوم هو يوم السبت.

استدعى لاظوغلي ضابطاً يعمل معه، وطلب منه ان يأتي بأحد الرجلين اللذين يراقبان حسن. ساعة أو أكثر ودخل عليه الرجل، كان مصرياً ممن يبحثون عن دور لهم في العهد الجديد. ظل واقفاً في الحجرة، ولم يسمح له لاظوغلي بالجلوس. سأله عما أنجز حتى الآن، فقال الرجل: تتبعناه، فوجدنا الأمر أصعب مما قدرنا. الرجل يحبه جيرانه في البيت وجيرانه في الدكان. وله عادات لا يغيرها، مواعيد خروجه من بيته، والطرق التي يسلكها إلى دكانه. أحياناً يمكث وقتاً أطول في بيته، لاحظنا ذلك عليه في الأيام الأخيرة. أما حاجيات بيته، فلا يشتريها بنفسه، بل يبدو أن هناك من يكلفه بهذا. لم يزره أحد طوال هذا الأسبوع، ولم يزر هو أحداً. آه نسيت، له زوجة واحدة اسمها رباب، وله طفلان: الكبير اسمه خليل والصغير اسمه محمد، وأخته تعيش معه في البيت ولا زوج ولا أولاد لها. بعد أن انتهى الرجل، ساد الصمت في المكان، لاظوغلي يضع كفه على خده وهو جالس وراء مكتبه، والرجل واقف أمامه يشبك يديه أمامه في خنوع.

- لا حل إلا أن تفتعل مشاجرة كبيرة أمام بيته أو أمام الدكان، وساعتها ستجد طريقة للخلاص منه، طعنة خنجر، طلقة رصاص، ضربة هائلة بشومة على رأسه تقضي عليه. ستجد طريقة. المهم الا يأتي يوم الجمعة إلا وأتيت لي بخبره.

أما حسن فقد اشتد قلقه مما سمعه من جاريه. جلس مع بكر يتداول الأمر، وحاول بكر أن يهدئه ويعيد عليه ما قاله، لكن حسن كان يسرح في عالم آخر: من هؤلاء؟ وماذا يريدون مني؟ لا أشك الآن أن هذا له علاقة بالسيد عمر مكرم. لكن من هم الذين يسعون ورائي؟ قال له بكر يحول مسار تفكيره: ولماذا لا يكونون من تجار الورق المنافسين. نحن الآن كبرنا في التجارة، وهناك أشخاص آخرون من أتباع الباشا يحاولون الاستيلاء على كل الأصناف التي نستوردها، فيحتكرونها هم. لمعت عينا حسن، وكاد يستصوب الكلام، لكنه قال: ولماذا أنا وحدي؟ أنت أيضاً معي، وكذلك سليم. قال بكر: أنت الأقدم في المكان، والأهم بيننا. هذا طبيعي يا صاحبي، اهدأ قليلاً يا صديقي، ولا تبالغ في هواجسك.

ولم يهدأ حسن. في أثناء عودته إلى بيته كان يتلفت يميناً ويساراً، ويتفحص في الوجوه. كاد يجن وهو يقترب من البيت، ولما وقف أمام البيت حاول أن يستعيد رباطة جأشه. "من في الداخل ليس لهم ذنب أن أقلقهم وأقلب حياتهم، لعل بكراً على حق." شَحتة وحدها التي تنفذ من عينيه إلى أعماقه، تلاحظ قلة ما يأكل، وشروداً يحاول أن يكبحه. تنظر إلى أخيها بأسى ولا تتكلم، "لعلي أتوهم، فما ذنبه أن أقلقه؟" وتمضي فيما تفعل، وتسكت لكنها لا تستريح. تنشغل رباب بالولدين، تغني لهما، وتلعب، وتضفي على البيت فرحاً طارئاً، يستغرق حسن فينسى أو يحاول.

"ماذا دهاك يا حسن؟ أخائف أنت؟ مم؟ ولماذا؟" ويختبر حسن أعماقه فيكتشف أنه خائف فعلاً. يحاول أن ينحي غريزة البقاء داخله حتى لا تهيمن فتفسد عليه الرؤيا. ويستدعي عقله ليفهم. "ما الذي يخيفك الآن؟ افترض أن الباشا هو الذي أرسل رجاله وراءك، فما الذي يريده منك؟ لا شيء، استولى الرجل على كل مصر، وما أملنا منه صار إلى هباء، يبني هنا جسراً، ويمهد هناك طريقاً، ويحفر فيما لا أدري ترعة، ثم ماذا بعد؟ نسي الرجل الناس، أو قل إنه لم يرهم بدءا، ولن يراهم انتهاء. هل يمكن أن نأمل في رجل لا يحسن أن يتكلم لغة البلد الذي يحكمه. لا يحسن، ولا يحاول، فهل سيقوم بنا، أم سيقوم علينا؟ وأنت يا حسن مم تخاف؟ من الموت؟ حق عليك الموت، فلست مخلداً. يتذكر في هذه اللحظة الآية "ثم إنكم بعد ذلك لميتون". وقف كثيراً أمامها، وتعجب من كثرة أدوات التوكيد فيها على أمر لا يشك فيه أحد. هل البشر في حاجة إلى أن تؤكد لهم أنهم سيموتون. حيرته الآية كثيراً، ثم وصل فيها إلى يقين. الناس لا تشك في الموت مطلقاً، هذا خارج نطاق المعقول، لكنها حين تتحدث عن يقين الموت، فهو يقين بموت الآخرين. الآخرون هم الذين سيموتون، أما أنا فلا، إذن الآية لا تتحدث عن الموت مطلقاً، ولا تخاطب البشر كتلة واحدة، بل تخاطب كل فرد وحده. انتبه أيها الغافل الساهي عن الموت، أنت أيضاً ستموت. ويغرق حسن في الآية وما أوحته له، ثم يستغفر الله، ويستعيذ من الشيطان،

ويقنع نفسه أو يحاول أن كل ما في رأسه هواجس لا أصل لها، وأن أقصى ما سيفعله الباشا لو صدقت ظنونه التنبيه عليه بشدة ألا يتدخل فيما لا يعنيه، وما لا يعنيه هنا هو مصر وأحوالها، لها الآن وال أدرى بمصلحتها من أهلها. وحين يصل إلى هذه النتيجة تهدأ نفسه وينام سويعات قليلة ليستيقظ قبيل الفجر، ويعاود عاداته التي أدمنها في الفترة الأخيرة.

اليوم الثلاثاء، والوقت العصر. قطع السحاب في السماء تحجب الشمس الآيلة للغروب، ولسعة الهواء في الجو تؤذن بأيام قادمة باردة. وجوه الناس في الطرقات عابسة كدأبها منذ أن وعى الدنيا وخبرها. وحركتهم هي هي، كما كانت، وكما ستكون. حسن جالس على الدكة أمام باب الدكان، انتهى من كتابة بعض الأوراق، وخرج ليريح يده قليلاً. وبكر مشغول ببعض زبائنه في الداخل. أصوات جلبة وصياح تأتي إليهم من الساحة الكبيرة الواقعة أمام جامع السلطان حسن، مفردات شتائم بذيئة بدأ حسن يميزها والأصوات تقترب منه. شخصان في العشرينيات من عمرهما تقريباً يجريان صوب دكان حسن، ووراءهما جمع يسب بعضه ويلعن. وقف الشخصان غير بعيدين عن مرأى حسن يلتقطان أنفاسهما، فلحق بهما الآخرون، أمسكوا بواحد منهما، بينما جرى الآخر ناحية الدكان

يريد أن يحتمي به. خرج بكر من الدكان ووقف بجوار حسن يمنع أربعة أشخاص من دخول الدكان يريدون الفتك بالشخص المذعور داخله. "هذا لص هو وزميله، ولن نتركهما حتى نسلمهما للشرطة أو نقتلهما"، والشخص المذعور يصرخ فيهم، ويقول إنه لم يسرق شيئاً لا هو ولا زميله، وإنهم لكاذبون. أقسم بالله إنهم كاذبون. لا حسن ولا بكر يفهمان شيئاً مما يحدث، كل همهما أن يبعدا الناس عن الدكان حتى لا تتطور الأمور فيحدث عراك داخل الحانوت نفسه. بكر يحاول تهدئة الناس وهو يقول لهم: صلوا على النبي يا جماعة، صلوا على النبي، اهدأوا، كل شيء يمكن حله. الأربعة في الخارج يتوعدون الرجل في الداخل بمصير صاحبه الذي أوسعه آخرون ضرباً، ولا يأبهون بكلام بكر. فجأة خرجت جماعة أقل عدداً تتجه صوب الواقفين أمام الدكان، منهم من يشهر سكيناً، ومنهم من يمسك شومة. وكلهم رافع يده في الهواء. دخلوا دون كلام في عراك عنيف مع الواقفين يريدون استخلاص الشخصين من أيديهم.

لم يستطع حسن ولا بكر إغلاق الدكان أمام الناس، فالشجار يجري على أعتابه. ما بين الخوف على البضاعة، والخوف على حياتهما وقفا حائرين، ثم اتخذا قراراً في الوقت نفسه أن يبتعدا

ليتجنبا الدخول في معمعة لا يفهمان أولها ولا آخرها. الناس تتكاثر، والجيران يتدخلون ليفضوا الاشتباك الغامض بين جماعات ليست من أهل المكان.

وسط الحشد، يحاول حسن أن ينتحي بواحد من الجماعتين كي يهدأوا ويجدوا حلاً غير المضاربة بالسكاكين والشوم، لا يستجيب الرجل، بل يزيد الأمر اشتعالاً، ويزداد الموقف تعقداً. كان حسن قد ابتعد قليلاً عن بكر، وأصبح دون قصد منه بين الجماعتين، فجأة وعلى غير توقع، صاح بكر في حسن: حاسب يا حسن. يلتفت حسن بيساره ناحية بكر في اللحظة التي كان يسدد فيها رجل خنجره في بطنه. أخطأه الخنجر ليستقر في الجانب الأيمن للرجل الواقف خلفه، فسقط مضرجاً في دمائه. حاول صاحب الخنجر أن يهرب، لكن الناس أمسكوا به، وأوسعوه ضرباً حتى فاضت روحه إلى بارئها. جرى من جرى، واختفى الجمعان فجأة كما أتوا فجأة، وتركوا خلفهم جثتين لرجلين لا يُعرف لهما صاحب.

"كنت أنا المقصود من كل ما جرى". قالها لنفسه بعد أن جاء أفراد من الشرطة، وبعض رجال المحتسب وأشخاص أخرون لا تُعرف لهم صفة. سألوا، وتبينوا، وتظاهروا بالاسترابة، وتوعدوا من يتستر، ثم انصرفوا بالجثتين. جاءه جاره بعدهم ليبلغه بأنه رأى أحد الرجلين اللذين سألا عنه وسط المتشاجرين.

لم يصدق بكر أذنيه وهو يستمع للجار. لم يدر ما يقول، ولا كانت لديه رغبة في الكلام. ظل صامتاً وقتاً، آذان المغرب اقترب، خرج من الدكان يتطلع إلى منارة جامع السلطان حسن، ثم عاد ليجلس بجانب صديقه الذي وضع رأسه بين كفيه مغمضاً عينيه. اطمأن عليه، ثم خرج مرة أخرى، وعاد. ظل يكرر خروجه ودخوله حتى ارتفع الآذان، أخذ صديقه من ذراعه، وأغلق الدكان، ثم ذهبا معاً ليصليا المغرب وسط الناس. انتهت الصلاة، فواصل معه الطريق حتى البيت، وبعد أن اطمأن إلى دخوله. عاد هو ليأخذ طريقاً آخر إلى بيته.

أما حسن فلم ينم ليلتها. "هو محمد علي إذن الذي يريد رأسي، لا أحد غيره." يسترجع كل ما فات منذ أن اعتلا الرجل عرش مصر. "أردناه أن يكون عادلاً، وأردناه أن يفي بوعده، فلا يرهق الناس بطلب الأموال، وكل هذا إلى هباء. بالأمس أخرج السيد عمر من مصر، واليوم يريد قتلي". شيء ما في أعماق حسن بدأ يسري، خلاياه تنتفض، ودمه يتسارع، وعقله يغلي. كاد يبكي قهراً، فلام نفسه على مجرد التفكير. القنديل المعلق في فناء الطابق العلوي يتراقص، الهواء يحركه، ويتخلل ضوؤه عتبة الباب ويأتي متقطعاً. يتحول الهواء إلى ريح خفيفة فيصفر. تتقلب رباب، ثم تقوم، فيستدير عنها ويغمض عينيه. تذهب لتطمئن على الولدين النائمين مع شَحتة

في حجرتها، ثم تعود لتنام. يطمئن لنومها، فيفتح عينيه مبحلقاً في سقف الحجرة، واضعاً يديه خلف رأسه، ثم يتقلب، ويتقلب. ويصل إلى نهاية أراحته. "كنت خائفاً، وأنا لا أدري ماذا يراد لي، والآن الخوف رذيلة. لا خوف بعد اليوم، وإذا أراد الباشا قتلي، فلا بد أن يدفع الثمن باهظاً". يغفو قليلاً فيحلم بآدم عليه السلام، يقترب منه، ويربت عليه، ويحنو، ويمسح دمعة عالقة تحت جفنه، لا يطول حلمه فيستيقظ. يشعر بلذة، فيغمض عينيه مرة أخرى ليستعيد آدم ويده الحانية، يهجم عليه وحش، ينشب أظافره في رقبته، يجثو عليه، يحاول أن يصرخ، فلا تخرج الصرخة، يشعر أنه يموت، يستغيث، يرفع يديه يتشبث بالهواء، يخذله الهواء فيسقط، يحاول مرة أخرى أن يصرخ، هذه المرة تخرج الصرخة مكتومة، يحاول مرة ثالثة، تخرج الصرخة عالية، يصرخ مرة أخرى، ويقوم ليجلس في فراشه، بينما رباب مستيقظة بجواره تبكي وهي ممسكة به.

هل يقول لها؟ لا بد، لا يستطيع أن يتحمل عبء كل ما فيه وحده. كيف يبدأ معها؟ وكيف ينتهي؟ ما الذي سيقوله؟ وما الذي يخفيه؟ وقرر أن يترك نفسه على سجيتها مع رباب. جلس وحكى وأفاض وحلل. حاول أن يبدو مستهيناً بالتهديد، لكن رباب التقطت نبرة صوته، وفهمت ما لم يقله. غزته بمشاعرها، وفيض حنانها برغم ما ظهر في صوتها من ثبات وقوة. قالت له: "لن يضيعك الله،

ولن ينالك هذا الظالم، وسأحميك بكل ما فيَّ". كادت الدموع تطفر، وكاد أن يفعلها، لكنه سيطر على نفسه.

اقتنع الاثنان أن محمد علي سيعاود المحاولة. ربما بالطريقة نفسها، أو بطريقة أخرى. ماذا يفعل في هذه الحالة؟ لا أحد في مصر يمكن اللجوء إليه، انفرط عقد الشيوخ، فهانوا على أنفسهم، وهانوا على الناس، وشيخ التجار المحروقي له حساباته المعقدة مع الباشا، وحتى الأقباط الذين ارتفع شأن بعضهم أخيراً لن يصدقوا في الباشا هذه الحكاية. والحل؟ قالت رباب: الناس هم الحل. التقط حسن فكرتها، لكنه طالبها بأن تزيد، قالت: يجب أن يعرف كل الناس أن ظالم باشا هو الذي دبر كل هذا، وهو الذي يقف وراء محاولة قتلك، وحين يعرفون، فإنهم سيكونون سندك، الناس تحبك، وتثق فيك، وتراك صادقاً. وإذا عرف الباشا بأمر الناس، فإنه سيفكر ألف مرة قبل أن يعود إلى ما فعل.

وفي الصباح وجدها ترتدي ملابس الخروج. سألها إلى أين تذهب، قالت: هل تظن أن هذا الرجل سيطول شعرة في رأسك، لن يحدث وأنا على ظهر هذه الأرض. أراد أن يمنعها، فاستعطفته أن تخرج، "لن أذهب بعيداً عن المكان".

وفي الأزبكية كاد لاظوغلي يجن، ماذا سيقول للباشا، وكيف يبرر فشله. طلب صادق أغا، وأخبره أن الأمر بات أصعب من

ذي قبل. "حسن وزوجته وأصحابه يشيعون في كل مصر أن الباشا يريد قتله، لم تترك المرأة بيتاً من بيوت الكبار إلا ودخلته وأخبرت أهله، ولا يمشي الرجل وحده في طريق، ولا يتركه الناس حتى ينام".

أما صادق فتجاهل كل ما سمع، وقال للاظوغلي: أفندينا يأمر، وعلينا أن نطيع. عليك أن تجد أسلوباً آخر يا لاظ.

وبدأ لاظوغلي يفكر ويقدر ويدبر ويخطط لإخراج حسن وحده من مصر، "هناك سنقضي عليه، وساعتها سنستريح جميعاً".

تنويه وشكر

من بين عشرات الكتب عن مصر قبل محمد علي وفي أثناء حكمه، ومئات المقالات، فإن الأعمال التالية ظهرت آثارها مباشرة في الرواية:

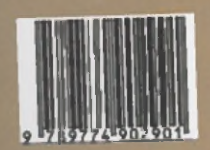
1. عجائب الآثار في التراجم والأخبار لسيد المؤرخين المصريين عبد الرحمن الجبرتي. لولاه لما ظهرت الرواية بهذا الشكل.
2. المصريون المحدثون: شمائلهم وعاداتهم لإدوارد لين.
3. رواية بالألمانية اسمها "محمد علي وبيته" كتبتها روائية ألمانية اسمها لويز مولباخ Louise Muhlbach (1814 - 1873). وكانت صديقة للخديو إسماعيل، ولها عدد كبير من الروايات التاريخية، ولم تترجم روايتها حتى الآن إلى العربية.
4. مذكرات إدريس أفندي في مصر: وهي مذكرات الفنان والمستشرق الفرنسي بريس دافين في مصر (1807 - 1879).
5. إغاثة الأمة بكشف الغمة للمقريزي.

6. رواية بقطر للكاتب السكندري نعيم تكلا، كتبها عن الجنرال يعقوب.
7. كل رجال الباشا: محمد علي وجيشه وبناء مصر الحديثة: لخالد فهمي. أهم كتاب تناول الجيش المصري في عهد محمد علي.

ولا يفوتني أن أشكر الأصدقاء: أبو المعاطي الرمادي والسيد نجم ورجب سعد السيد ومعجب العدواني ومنير عتيبة وهيثم الحاج علي الذين أفاضوا علي بآرائهم القيمة، وكانوا عونا على الاستمرار في كتابة هذه الرواية حتى النهاية.

حسن الذي استعاد حيويته وعافيته، صاح فيمن حوله: "على نفسها جنت براقش". سأله حجاج الخضري وكان أول مرة يراه: من براقش هذه؟ قال حسن: في حالتنا هنا، براقش هي الوالي الغبي. المجموعة الصغيرة التي تشكلت في هذا اليوم فتحت إحدى حجرات الجامع الأزهر، وعلى ضوء قناديل خافتة جلست تتدبر أمرها، وأمر الناس. وبعد نقاش وأخذ ورد اتفقوا على الخطوة التالية: غداً لا يفتح الناس حوانيتهم، الأسواق تغلق، لا يخرج الناس من بيوتهم إلا لحاجة. المتاريس توضع في كل طريق وحارة وعطفة وزقاق. أحلامهم في هذه اللحظة طاولت السماء، ولو استطاعوا أن ينتزعوا حقوقهم من الوالي فقد حققوا انتصارهم الكبير.




9 789774 902901